هذه فهرسة ما فى النصف الاول من كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف من الابواب والفصول المعرّف جميعها فى ديباجة الكتاب وهى أربعة وثمانون بابا منها فى هذا النصف اثنان وأربعون كما هو موضوع بهذه الفهرسة المجعولة للاستدلال على أى باب من الابواب أو فصل من الفصول فى اى صحيفة من صحائف هذا النصف

هـذه فهرسة ما فى النصف الاول من كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف من الابواب والفصول المعرّف جميعها فى ديباجة الكتاب وهى أربعة وثمانون بابا منها فى هـذا النصف اثنان وأربعون كما هو موضوع بهذه الفهرسة المجعولة للاستدلال على أى باب من الابواب أو فصل من الفصول فى اى صحيفة من صحائف هذا النصف

(فهرسة النصف الاول من المستطرف)

صحيفة	
٦	الباب الاول فى مبانى الاسلام وفيه خمسة فصول
٦	الفصل الاول فى الاخلاص لله تعالى والثناء عليه
٧	الفصل الثانى فى الصلاة وفضلها
١٠	الفصل الثالث فى الزكاة وفضلها
١٣	الفصل الرابع فى الصوم وفضله الخ
١٤	الفصل الخامس فى الحج وفضله
١٥	الباب الثانى فى العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك
٢٠	الباب الثالث فى القرآن وفضله الخ
٢٣	الباب الرابع فى العلم والادب وفضل العالم والمتعلم
٢٩	الباب الخامس فى الآداب والحكم وما اشبه ذلك
٣٣	الباب السادس فى الامثال السائرة وفيه فصول
٣٣	الفصل الاول فيما جاء من ذلك فى القرآن العظيم واحاديث النبى الكريم
٣٤	الفصل الثانى فى امثال العرب
٣٥	الفصل الثالث فى أمثال العامة والمولدين
٣٦	الفصل الرابع فى الامثال من الشعر المنظوم الخ
٤٢	الفصل الخامس فى الامثال السائرة بين الرجال والنساء الخ
٥٠	الباب السابع فى البيان والبلاغة والفصاحة الخ وفيه فصول
٥٠	الفصل الاول فى البيان والبلاغة
٥١	الفصل الثانى فى الفصاحة
٥٨	الفصل الثالث فى ذكر الفصحاء من الرجال
٦٧	ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن
٧١	الباب الثامن فى الاجوبة المسكتة والمستحسنة الخ
٧٤	الباب التاسع فى ذكر الخطب والخطباء الخ
٧٥	فصل فى ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم
٨٠	الباب العاشر فى التوكل على الله تعالى الخ وفيه فصول
٨٠	الفصل الاول فى التوكل على الله تعالى
٨٤	الفصل الثانى فى القناعة والرضا بما قسم الله تعالى
٨٨	الفصل الثالث فى ذم الحرص والطمع وطول الامل
٩٠	الباب الحادى عشر فى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر فى العواقب
٩٥	الباب الثانى عشر فى الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما اشبه ذلك
١٠٠	الباب الثالث عشر فى الصمت وصون اللسان الخ وفيه فصول

صحيفة	
١٠٠	الفصل الاول فى الصمت وصون اللسان
١٠٢	الفصل الثانى فى تحريم الغيبة
١٠٣	الفصل الثالث فى تحريم السعاية بالنميمة
١٠٧	الباب الرابع عشر فى الملك والسلطان الخ
١٠٩	الباب الخامس عشر فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته
١١١	الباب السادس عشر فى ذكر الوزراء وصفاتهم واحوالهم وما أشبه ذلك
١١٣	الباب السابع عشر فى ذكر الحجاب والولاية ومافيهما من الغرر والخطر
١١٨	الباب الثامن عشر فيما جاء فى القضاء الخ وفيه فصول
١١٨	الفصل الاول فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة واحوالهم ومايجب عليهم
١٢٠	الفصل الثانى فى الرشوة والهدية على الحكم وماجاء فى الديون
١٢٢	الفصل الثالث فى ذكر القصاص والمتصوفة وماجاء فى الرياء ونحو ذلك
١٢٣	الباب التاسع عشر فى العدل والاحسان والانصاف وغير ذلك
١٢٦	الباب العشرون فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه الخ
١٣١	الباب الحادى والعشرون فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال الخ وفيه فصلان
١٣١	الفصل الاول فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج الخ
١٣٤	الفصل الثانى فى احكام أهل الذمة
١٣٦	الباب الثانى والعشرون فى اصطناع المعروف واغاثة الملهوف الخ
١٣٩	الباب الثالث والعشرون فى محاسن الاخلاق ومساويها
١٤٣	الباب الرابع والعشرون فى حسن المعاشرة والمودة والاخوة والزيارة وما أشبه ذلك
١٥١	الباب الخامس والعشرون فى الشفقة على خلق الله تعالى الخ وفيه فصلان
١٥١	الفصل الاول فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم
١٥٢	الفصل الثانى فى الشفاعة واصلاح ذات البين
١٥٣	الباب السادس والعشرون فى الحياء والتواضع الخ وفيه فصلان
١٥٤	الفصل الاول فى الحياء
١٥٤	الفصل الثانى فى التواضع ولين الجانب وخفض الجناح
١٥٥	الباب السابع والعشرون فى العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك
١٥٦	الباب الثامن والعشرون فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت
١٦٢	الباب التاسع والعشرون فى الشرف والسودد وعلو الهمة
١٦٤	الباب الثلاثون فى الخير والصلاح الخ
١٧٥	الباب الحادى والثلاثون فى مناقب الصالحين وكرامات الاولياء رضى الله عنهم
١٨٥	الباب الثانى والثلاثون فى ذكر الاشرار والفجار الخ

صحيفة	
١٨٧	الباب الثالث والثلاثون فى الجود والسخاء والكرم الخ
٢٠٤	الباب الرابع والثلاثون فى البخل والشح وذكر البخلاء الخ
٢١٠	الباب الخامس والثلاثون فى الطعام وآدابه والضيافة الخ
٢٢٢	الباب السادس والثلاثون فى العفو والحلم والصفح الخ
٢٣٤	الباب السابع والثلاثون فى الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم
٢٤٤	الباب الثامن والثلاثون فى كتمان السر وتحصينه وذم افشائه
٢٤٦	الباب التاسع والثلاثون فى الغدر والخيانة الخ وفيه فصول
٢٤٦	الفصل الاول فى الغدر والخيانة
٢٤٩	الفصل الثانى فى السرقة والسراق
٢٥٠	الفصل الثالث فيما جاء فى العداوة والبغضاء
٢٥٢	الفصل الرابع فى الحسد
٢٥٤	الباب الاربعون فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها الخ وفيه فصلان
٢٥٤	الفصل الاول فى فضل الجهاد فى سبيل الله وشدة البأس
٢٥٥	الفصل الثانى فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها
٢٦٠	الباب الحادى والاربعون فى ذكر أسماء الشجعان وذكر الابطال وطبقاتهم الخ
٢٧٠	الباب الثانى والاربعون فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول
٢٧٠	الفصل الاول فى المدح والثناء
٢٧٨	الفصل الثانى فى شكر النعمة
٢٨١	الفصل الثالث فى المكافأة

تمت

الجزء الاول من كتاب المستطرف فى كل
فن مستظرف تاليف الامام
الاوحد العالم العلامة الاوزعى
الفهامة الشيخ شهاب الدين
أحمد الابشيهى تغمده
الله بالرحمة
والرضوان
آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك العظيم العلي الكبير الغني الحميد اللطيف الخبير المنفرد بالعز والبقاء والارادة والتدبير الحي العليم الذي ليس كمثله شئ وهو السميع البصير تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قدير أحمده حمد عبد معترف بالعجز والتقصير وأشكره على ما أعان عليه من قصد ويسر من عسير وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا مشير ولا ظهير له ولا وزير وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله البشير النذير السراج المنير المبعوث الى كافة الخلق من غني وفقير ومأمور وأمير صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير وينجو بها في الآخرة من عذاب السعير وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير (أما بعد) فقد رأيت جماعة من ذوي الهمم جمعوا أشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم وبسطوا مجلدات في التواريخ والنوادر والاخبار والحكايات واللطائف ورقائق الاشعار وألفوا في ذلك كتبا كثيرة وتفرد كل منها بفرائد فوائد لم تكن في غيره من الكتب محصورة فاستخرت الله تعالى وجمعت من مجموعها هذا المجموع اللطيف وجعلته مشتملا على كل فن ظريف وسميته المستطرف في كل فن مستظرف واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم وأحاديث صحيحة من أحاديث النبي الكريم وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الاخيار ونقلت فيه كثيرا مما أودعه الزمخشري في كتابه ربيع الابرار وكثيرا مما نقله ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد ورجوت أن يجد

مطالعه فيه كل مايقصد ويريد وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة وأودعته من الاحاديث النبوية والامثال الشعرية والالفاظ اللغوية والحكايات الجدية والنوادر والهزلية ومن الغرائب والدقائق والاشعار والرقائق ماتشنف بذكره الاسماع وتقرّ برؤيته العيون وينشرح بمطالعته كل قلب محزون (شعر)

من كل معنى يكاد الميت يفهمه * حسنا ويعشقه القرطاس والقلم

وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين بابا من أحسن الفنون متوّجة بالفاظ كأنها الدرّ المكنون كما قال بعضهم شعرا في المعنى

ففي كل باب منه درّ مؤلف * كنظم عقود زينتها الجواهر

فان نظم العقد الذي فيه جوهر * على غير تأليف فما الدرّ فاخر

وضمنته كل لطيفة ونظمته بكل ظريفة وقرنت الاصول فيه بالفصول ورجوت أن يتيسر لي مارمته من الوصول وجعلت أبوابه مقدمة وفصلتها في مواضعها مرتبة منظمة ليقصد الطالب الى كل باب منها عند الاحتياج اليه ويعرف مكانه بالاستدلال عليه فيجد كل معنى في بابه ان شاء الله تعالى والله المسؤل في تيسير المطلوب وأن يلهم الناظر فيه ستر مايراه من خلل وعيوب انه على مايشاء قدير وبالاجابة جدير وهذه فهرسة الكتاب والله الموفق للصواب (الباب الاول) في مباني الاسلام وفيه خمسة فصول (الباب الثاني) في العقل والذكاء والحمق والذم وغير ذلك (الباب الثالث) في القرآن العظيم وفضله وحرمته وما أعدّ الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والاجر الجسيم (الباب الرابع) في العلم والادب وفضل العالم والمتعلم (الباب الخامس) في الآداب والحكم وما أشبه ذلك (الباب السادس) في الامثال السائرة وفيه فصول (الباب السابع) في البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول (الباب الثامن) في الاجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وماجرى مجرى ذلك (الباب التاسع) في ذكر الخطب والخطباء والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الامجاد (الباب العاشر) في التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول (الباب الحادي عشر) في المشورة والنصيحة والتجارب والنظر في العواقب (الباب الثاني عشر) في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك (الباب الثالث عشر) في الصمت وصون اللسان والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول (الباب الرابع عشر) في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الاسلام ومايجب للسلطان على الرعية ومايجب لهم عليه (الباب الخامس عشر) فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته (الباب السادس عشر) في الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك (الباب السابع عشر) في ذكر الحجاب والولاية وما فيهما من الغرر والخطر (الباب الثامن عشر) فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول (الباب التاسع عشر) في العدل والاحسان والانصاف وغير ذلك

(الباب العشرون) فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك (الباب الحادى والعشرون) فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان (الباب الثانى والعشرون) فى اصطناع المعروف واغاثة الملهوف وقضاء الحوائج للمسلمين وادخال السرور عليهم (الباب الثالث والعشرون) فى محاسن الاخلاق ومساويها (الباب الرابع والعشرون) فى حسن المعاشرة والمودة والاخوة والزيارة وما اشبه ذلك (الباب الخامس والعشرون) فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل الشفاعة واصلاح ذات البين وفيه فصلان (الباب السادس والعشرون) فى الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان (الباب السابع والعشرون) فى العجب والكبر والخيلاء وما اشبه ذلك (الباب الثامن والعشرون) فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت (الباب التاسع والعشرون) فى الشرف والسودد وعلو الهمة (الباب الثلاثون) فى الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الاولياء والصالحين رضى الله عنهم أجمعين (الباب الحادى والثلاثون) فى مناقب الصالحين وكرامات الاولياء رضى الله عنهم (الباب الثانى والثلاثون) فى ذكر الاشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة (الباب الثالث والثلاثون) فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الاخلاق واصطناع المعروف وذكر الاجواد وأحاديث الاجواد (الباب الرابع والثلاثون) فى البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم (الباب الخامس والثلاثون) فى الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والضيف وأخبار الاكلة وما جاء عنهم وغير ذلك (الباب السادس والثلاثون) فى العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما اشبه ذلك (الباب السابع والثلاثون) فى الوفاء بالوعد وحسن العهد ورعاية الذمم (الباب الثامن والثلاثون) فى كتمان السر وتحصينه وذم افشائه (الباب التاسع والثلاثون) فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول (الباب الاربعون) فى الشجاعة وغرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال وفيه فصول (الباب الحادى والاربعون) فى ذكر أسماء الشجعان وذكر الابطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن (الباب الثانى والاربعون) فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول (الباب الثالث والاربعون) فى الهجاء ومقدماته (الباب الرابع والاربعون) فى الصدق والكذب وفيه فصلان (الباب الخامس والاربعون) فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الاولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقرابات وذكر الانساب وفيه فصول (الباب السادس والاربعون) فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبح والطول والقصر والالوان واللباس وما اشبه ذلك (الباب السابع والاربعون) فى ذكر الحلى والمصوغ والطيب والتطيب وما جاء فى التنعم (الباب الثامن والاربعون) فى الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وما اشبه ذلك وفيه فصول (الباب التاسع والاربعون) فى الاسماء والكنى والالقاب وما استحسن

منها

منها (الباب الخمسون) فى الاسفار والاغتراب وماقيل فى الوداع والفراق والحث على ترك الاقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين الى الاوطان (الباب الحادى والخمسون) فى ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه (الباب الثانى والخمسون) فى ذكر الفقر ومدحه (الباب الثالث والخمسون) فى ذكر التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاد (الباب الرابع والخمسون) فى ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك (الباب الخامس والخمسون) فى العمل والكسب والصناعات والحرف والعجز والتوانى وما أشبه ذلك (الباب السادس والخمسون) فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلى عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول (الباب السابع والخمسون) فيما جاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والسرور بعد الحزن ونحو ذلك (الباب الثامن والخمسون) فى ذكر العبيد والاماء والخدم وفيه فصلان (الباب التاسع والخمسون) فى أخبار العرب وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب أمرهم (الباب الستون) فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤيا (الباب الحادى والستون) فى الحيل والخدائع المتوصل بها الى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر ونحو ذلك (الباب الثانى والستون) فى ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات مرتبا على حروف المعجم (الباب الثالث والستون) فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم (الباب الرابع والستون) فى خلق الجان وصفاتهم (الباب الخامس والستون) فى ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الانهار والآبار وفيه فصول (الباب السادس والستون) فى ذكر عجائب الارض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول (الباب السابع والستون) فى ذكر المعادن والاحجار وخواصها (الباب الثامن والستون) فى الاصوات والالحان وذكر الغناء واختلاف الناس ومن كرهه واستحسنه (الباب التاسع والستون) فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء فى مجالس الخلفاء (الباب السبعون) فى ذكر القينات والاغانى (الباب الحادى والسبعون) فى ذكر العشق ومن بلى به والافتخار به والعفاف وأخبار من مات بالعشق وما فى معنى ذلك وفيه فصول (الباب الثانى والسبعون) فى ذكر رقائق الشعر والموالياء والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل والقومة والالغاز ومدح الاسماء والصفات وفيه فصول (الباب الثالث والسبعون) فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يمدح وما يذم من عشرتهن وفيه فصول (الباب الرابع والسبعون) فى ذم الخمر وتحريمها والنهى عنها (الباب الخامس والسبعون) فى المزاح والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول (الباب السادس والسبعون) فى النوادر والحكايات وفيه فصول (الباب السابع والسبعون) فى الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول (الباب الثامن والسبعون) فى القضاء والقدر وأحكامهما والتوكل على الله (الباب التاسع والسبعون) فى التوبة وشروطها والندم والاستغفار (الباب الثمانون) فى ذكر الامراض والعلل والطب والدواء من السنة والعيادة وثوابها وما أشبه ذلك وفيه فصول (الباب الحادى والثمانون) فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله

(الباب الثانى والثمانون) فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك وفيه فصول (الباب الثالث والثمانون) فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها ونحو ذلك (الباب الرابع والثمانون) فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وهو آخر الابواب ختمتها بالصلاة على سيد العباد أرجو بذلك شفاعته يوم المعاد

(الباب الاول فى مبانى الاسلام وفيه خمسة فصول)

(الفصل الاول) فى الاخلاص لله تعالى والثناء عليه وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لاشريك له فرد لامثل له صمد لانده ازلى قائم ابدى دائم لاأول لوجوده ولا آخر لابديته قيوم لايفنيه الابد ولايغيره الامد بل هو الاول والآخر والظاهر والباطن منزه عن الجسمية ليس كمثله شئ وهو فوق كل شئ فوقية لاتزيده بعدا عن عباده وهو أقرب الى العبيد من حبل الوريد وهو على كل شئ شهيد وهو معكم اينما كنتم لايشابه قربه قرب الاجسام كما لايشابه ذاته ذوات الاجرام منزه عن أن يحده زمان مقدس عن أن يحيط به مكان تراه أبصار الابرار فى دار القرار على مادلت عليه الآيات والاخبار حى قادر جبار قاهر لايعتريه عجز ولاقصور ولاتأخذه سنة ولانوم له الملك والملكوت والعزة والجبروت خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لاتحصى مقدوراته ولاتتناهى معلوماته عالم بجميع المعلومات لايعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السموات يعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر مريد للكائنات مدبر للحادثات لايجرى فى ملكه قليل ولا كثير جليل ولاحقير خير أوشر نفع أوضر الابقضائه وقدره وحكمه ومشيئته فماشاء كان ومالم يشأ لم يكن فهو المبدئ المعيد الفاعل لما يريد لامعقب لحكمه ولاراد لقضائه ولامهرب لعبد عن معصيته الابتوفيقه ورحمته ولاقوة له على طاعته الابمعونته وارادته لو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون ارادته لعجزوا سميع بصير متكلم بكلام لايشبه كلام خلقه وكل ماسواه سبحانه وتعالى فهو حادث أوجده بقدرته ومامن حركة وسكون الا وله فى ذلك حكمة دالة على وحدانيته قال الله تعالى ان فى خلق السموات والارض الآية وقال ابو العتاهية

فيا عجبا كيف يعصى الاله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شئ له آية ... تدل على انه الواحد
ولله فى كل تحريكة ... وتسكينة فى الورى شاهد

وقال غيره

كل ماترتقى اليه بوهم ... من جلال وقدرة وسناء
فالذى أبدع البرية أعلى ... منه سبحان مبدع الاشياء

وقال على رضى الله عنه فى بعض وصاياه لولده اعلم يابنى انه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنه اله واحد لايضاده فى ملكه أحد وعنه عليه الصلاة والسلام كل مايتصور فى الاذهان فالله سبحانه بخلافه وقال لبيد

ابن ربيعة

ألا كل شئ ماخلا الله باطل * وكل نعيم لامحالة زائل
وكل ابن انثى لوتطاول عمره * الى الغاية القصوى فللقبر آيل
وكل أناس سوف تدخل بينهم * دويهية تصفر منها الانامل
وكل امرئ يوما سيعرف سعيه * اذا حصلت عند الاله الحصائل

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر ان اشعر كلمة قالتها العرب * ألا كل شئ ماخلا الله باطل ثم بعد هذا الاعتقاد الاقرار بالشهادة بأن محمدا رسول الله بعثه برسالته الى الخلائق كافة وجعله خاتم الانبياء ونسخ بشريعته الشرائع وجعله سيد البشر والشفيع المشفع في المحشر وجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة فلا يصح ايمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت من سؤال منكر ونكير وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد في قبره عن التوحيد والرسالة ويقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك ويؤمن بعذاب القبر وأنه حق وأن الميزان حق والصراط حق والحساب حق وأن الجنة حق والنار حق وأن الله تعالى يدخل الجنة من يشاء بغير حساب وهم المقربون وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهنم من في قلبه مثقال ذرة من الايمان ويؤمن بشفاعة الانبياء ثم بشفاعة العلماء ثم بشفاعة الشهداء وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم ويحسن الظن بجميعهم على ما وردت به الاخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك مؤمنا به موقنا فهو من أهل الحق والسنة مفارق لعصابة الضلال والبدعة رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة وجعلنا من أهلها ووفقنا للدوام الى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها انه سميع مجيب فهذه العقيدة قد اشتملت على احد أركان الاسلام الخمسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بني الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا

(الفصل الثاني) في الصلاة وفضلها قال الله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين وقال تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقال تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا واختلفوا في اشتقاق اسم الصلاة ثم هو فقيل هو من الدعاء وتسمية الصلاة دعاء معروفة في كلام العرب فسميت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء وقيل سميت بذلك من الرحمة قال الله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبي فهي من الله رحمة ومن الملائكة استغفار ومن الناس دعاء قال صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبي أوفى أي ارحمهم وقيل سميت بذلك من الاستقامة من قولهم صليت العود على النار اذا قومته والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته وتنهاه عن خلافه قال الله تعالى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وقيل لانها صلة بين العبد وربه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال علم الايمان الصلاة فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر ان الرجل ليشيب

عارضاه فى الاسلام وما أكمل لله تعالى صلاة قيل وكيف ذلك قال لا يتم ركوعها وسجودها وخشوعها وتواضعه واقباله على الله فيها وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فاذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه وقيل للحسن ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها فقال لانهم خلوا بالرحمن فالبسهم نورا من نوره وقال بعضهم لا تفوت احدا صلاة فى جماعة الا بذنب وكانت رابعة العدوية تصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة وتقول والله ما أريد بها ثوابا ولكن ليسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول للانبياء عليهم الصلاة والسلام انظروا الى امرأة من امتى هذا عملها فى اليوم والليلة وقال بعضهم صليت خلف ذى النون المصرى فلما اراد أن يكبر رفع يديه وقال الله ثم بهت وبقى كأنه جسد لا روح فيه اعظاما لربه جل وعلا ثم قال الله أكبر فظننت أن قلبى انخلع من هيبة تكبيره وقيل أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود كذب من ادعى محبتى واذا جن عليه الليل نام عنى أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه ولعبد الله بن المبارك رضى الله تعالى عنه

اذا ما الليل أظلم كابدوه * فيسفر عنهم وهم ركوع
اطار الخوف نومهم فقاموا * وأهل الامن فى الدنيا هجوع

وكان سيدى الشيخ الامام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم النجريرى رحمه الله كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات

يا أيها الراقدكم ترقد * قم يا حبيبى قد دنا الموعد
وخذ من الليل ولو ساعة * تحظى اذا ما هجع الرقد
من نام حتى ينقضى ليله * لم يبلغ المنزل لو يجهد

وكان سيدى أويس القرنى لا ينام ليله ويقول ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتر وقال حذيفة رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة وقال هشام بن عروة كان أبى يطيل المكتوبة ويقول هى رأس المال وقال أبو الطفيل سمعت أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يقول يا أيها الناس قوموا الى نيرانكم فاطفؤها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكائر وبزا محمد بن المنكدر عليه وعلى أمه وعلى أخته الليل أثلاثا فقامت أخته فجزأه عليه وعلى أمه فقامت أمه فقام الليل كله وكان مسلم بن بشار اذا أراد أن يصلى فى بيته يقول لاهله تحدثوا فلست اسمع حديثكم وكان اذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام فاذا قام الى الصلاة تحدثوا وضحكوا ووقع حريق الى جنبه وهو فى الصلاة فما شعر به حتى أطفئ وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير فى المسجد الحرام يحسبه جذعا منصوبا لطول انتصابه فى الصلاة وكانت العصافير تقع على ظهر ابراهيم بن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط وختم القرآن فى ركعة واحدة أربعة من الائمة عثمان بن عفان وتميم الدارى وسعيد بن جبير وأبو حنيفة رضى الله تعالى عنهم ورأى الاوزاعى شابا بين القبر والمنبر فلما طلع الفجر استلقى ثم قال عند الصباح يحمد القوم السرى فقال يا ابن أخى لئ

ولاصحابك لا للجمالين وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه فى الصلاة فقيل له كيف تصبر فقال بلغنى أن الفساق يصبرون تحت السياط ليقال فلان صبور وأنا بين يدى ربى أفلا أصبر على ذباب يقع على وقال أبو صفوان بن عوانة ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلى فى القمر كأنه يشبه الملائكة وقال الحسن ما كان فى هذه الامة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تقوم بالاسحار حتى تورمت قدماها وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكانت دموعه تقع فى مصلاه كوكف المطر وكان ابراهيم الخليل عليه السلام يسمع لقلبه خفقان وغليان هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الاجلال والاكرام وشرف المقام فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل قال له ادع الله أن يجعلنى رفيقك فى الجنة فقال أعنى على نفسك بكثرة السجود وقال حاتم الاصم رحمه الله تعالى فاتتنى صلاة الجماعة مرة فعزانى أبو اسحق البخارى وحده ولو مات لى ولد لعزانى أكثر من عشرة آلاف لان مصيبة الدين عندهم اهون من مصيبة الدنيا وكان السلف رضى الله عنهم يعزون انفسهم ثلاثة ايام اذا فاتتهم التكبيرة الاولى وسبعا اذا فاتتهم الجماعة وقال ابن عباس رضى الله عنهما ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه وأنشد بعضهم

خسر الذى ترك الصلاة وخابا * وأبى معادا صالحا وما آبا
ان كان يجحدها فحسبك أنه * اضحى بربك كافرا مرتابا
او كان يتركها لنوع تكاسل * غطى على وجه الصواب حجابا
فالشافعى ومالك رأيا له * ان لم يتب حدا الحسام عقابا
والرأى عندى للامام عذابه * بجميع تأديب يراه صوابا

اللهم أعنا على الصلاة وتقبلها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك يا ارحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين

ومما يستحسن الحاقه بهذا الفصل ذكر شئ من فضل السواك والاذان أما السواك فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لولا أن أشق على امتى لامرتهم بالسواك عند كل صلاة وقال ايضا صلاة على اثر سواك افضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام ليتهجد شاص فاه بالسواك وقال صلى الله عليه وسلم السواك مطهرة للفم مرضاة للرب وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال لو يعلم الناس ما فى السواك لباتوا مع الرجل فى لحافه وقال ايضا أفواهكم طرق لكلام ربكم فنظفوها والاختيار فى السواك أن يكون بعود الاراك ويجزى بغيره من العيدان وبالسعد والاشنان والخرقة الخشنة وغير ذلك مما ينظف ويستاك عرضا مبتدئا بالجانب الايمن من فيه وينوى به الاتيان بالسنة والسواك بعود الزيتون يزيل الحفر من الاسنان وقال الاصحاب يقول عند السواك اللهم بارك لى فيه يا ارحم الراحمين ويستاك فى ظاهر الاسنان وباطنها ويتر

السواك على أطراف اسنانه واضراسه وسقف حلقه امرارا لطيفا ويستاك بعود متوسط لاشديد اليبوسة ولاشديد اللين فان اشتد يبسه لينه بالماء وقد قيل ان من فضائل السواك انه يذكر الشهادة عند الموت ويسهل خروج الروح * وأما الاذان فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه قيل في قوله تعالى ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا نزلت في المؤذنين وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يغفر الله للمؤذن مدى صوته ويشهد له ما سمعه من رطب ويابس وعن معاوية رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة رواه مسلم وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين رواه البخاري ومسلم وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا انس ولا شئ الا شهد له يوم القيامة رواه البخاري والاحاديث في فضله كثيرة مشهورة والله سبحانه وتعالى أعلم

(الفصل الثالث في الزكاة وفضلها) قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة في مواضع شتى من كتابه قال الله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقال تعالى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وقال تعالى ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة وعن بريدة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما حبس قوم الزكاة الا حبس الله عنهم القطر وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما خالطت الزكاة مالا قط الا اهلكته وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من كان عنده ما يزكي ولم يزك ومن كان عنده ما يحج ولم يحج سأل الرجعة يعني قوله تعالى رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت * ولنلحق بهذا الفصل ذكر شئ من الصدقة وفضلها وما جاء فيها وما أعد الله تعالى للمتصدقين من الاجر والثواب ودفع البلاء قال الله تعالى ان الله يجزي المتصدقين وقال تعالى والمتصدقين والمتصدقات والآيات الكريمة في ذلك كثيرة والاحاديث الصحيحة فيه مشهورة وروى الترمذي في جامعه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الاصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره وفي صحيح مسلم وموطأ مالك وجامع الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نقص مال من صدقة او قال ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع عبد الا رفعه الله تعالى ودخلت امرأة شملاء على عائشة رضي الله عنها فقالت كان ابي يحب الصدقة وأمي تبغضها لم تتصدق في عمرها الا بقطعة شحم وخلقة فرأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأن امي قد غطت عورتها بالخلقة وفي يدها الشحمة تلحسها من العطش فذهبت الى أبي وهو على حافة حوض يسقي الناس فطلبت منه قدحا من ماء فسقيت امي فنوديت من فوقي ألا من سقاها فشل الله يدها فانتبهت كالمترين

ووقف سائل على امرأة وهى تتعشى فقامت فوضعت لقمة فى فيه ثم بكرت الى زوجها فى مزرعته فوضعت ولدها عنده وقامت لحاجة تريد قضاءها فاختلسه الذئب فوقفت وقالت يارب ولدى فأتاها آت فأخذ بعنق الذئب فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر فقال لها هذه اللقمة بتلك اللقمة التى وضعتها فى فم السائل * وعشش ورشان فى شجرة فى دار رجل فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفراخ ذلك الورشان ففعل ذلك مرارا وكلما فرخ الورشان أخذوا أفراخه فشكا الورشان ذلك الى سليمان عليه السلام وقال يارسول الله أردت أن يكون لى أولاد يذكرون الله تعالى من بعدى فأخذها الرجل بأمر امرأته ثم أعاد الورشان الشكوى فقال سليمان لشيطانين اذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير ثم صعد وأخذ الافراخ على عادته فشكا الورشان ذلك الى سليمان عليه السلام فقال للشيطانين ألم تفعلا ما أمرتكما به فقال اعترضنا ملكان فطرحانا فى الحافقين وقال النخعى كانوا يرون أن الرجل الظلوم اذا تصدق بشئ دفع عنه البلاء وكان الرجل يضع الصدقة فى يد الفقير ويتمثل قائما بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة تستسبعين بابا من الشر وعنه صلى الله عليه وسلم قال ردوا صدمة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من طعام وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ردوا مذمة السائل ولو بظلف محرق وعنه أيضا صلى الله عليه وسلم اتقوا النار ولو بشق تمرة وقال عيسى صلوات وسلامه عليه من رد سائلا خائبا لم تغشه الملائكة ذلك البيت سبعة أيام وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يناول المسكين بيده وعنه صلى الله عليه وسلم ما من مسلم يكسو مسلما ثوبا الا كان فى حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة وقال عبد العزيز بن عمير الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه وعن الربيع بن خيثم انه خرج فى ليلة شاتية وعليه برنس خز فرأى سائلا فأعطاه اياه وتلا قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يرد القضاء الا الدعاء ولا يزيد فى العمر الا البر وان سوء الخلق شؤم وحسن الملكة نماء والصدقة تدفع ميتة السوء وقال يحيى بن معاذ ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا الا من الصدقة وعن عمر رضى الله عنه ان الاعمال تباهت فقالت الصدقة أنا أفضلكن وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تداركوا الهموم والغموم بالصدقات يدفع الله ضركم وينصركم على عدوكم وعن عبيد بن عمير قال يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط فمن اطعم لله أشبعه الله ومن سقى لله سقاه الله ومن كساه الله كساه الله وقال الشعبى من لم يرض نفسه الى ثواب الصدقة أحوج من الفقير الى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه وكان الحسن بن صالح اذا جاءه سائل فان كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فان لم يكن عنده من ذلك شئ أعطاه دهنا أو غيره مما ينتفع به فان لم يكن عنده شئ أعطاه كلا أو خرج ابرة وخيطا فرقع به ما ثوب السائل ووجه رجل

ابنه فى تجارة فمضت أشهر ولم يقع له على خبر فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالما ربحا فسأله أبوه هل أصابك فى سفرك بلاء قال نعم غرقت السفينة بنا فى وسط البحر وغرقت فى جملة الناس وأذا بشاب أخذ انى فطرحانى على الشط وقال لى قل لوالدك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك وقال على رضى الله عنه وكرم وجهه اذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به حيث تحتاج اليه فاغتنم حمله اياه ولله در القائل حيث قال

يبكى على الذاهب من ماله * وانما يبقى الذى يذهب

(وحكى) أن رجلا عبد الله سبعين سنة فبينما هو فى معبده ذات ليلة اذ وقفت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت اليها وأقبل على عبادته فولت المرأة فنظر اليها فأعجبته فملكت قلبه وسلبت لبه فترك العبادة وتبعها وقال الى اين فقالت الى حيث ارید فقال هيهات صار المراد مريدا والاحرار عبيدا ثم جذبها فأدخلها مكانه فأقامت عنده سبعة أيام فعند ذلك تفكر ما كان فيه من العبادة وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام فبكى حتى غشى عليه فلما أفاق قالت له يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيرى وأنا ما عصيت الله مع غيرك وانى أرى فى وجهك أثر الصلاح فبالله عليك اذا صالحك مولاك فاذكرنى قال فخرج هائما على وجهه فآواه الليل الى خربة فيها عشرة عميان وكان بالقرب منهم راهب يبعث اليهم فى كل ليلة بعشرة أرغفة فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز فقد ذلك الرجل العاصى يده فأخذ رغيفا فبقى منهم رجل لم يأخذ شيأ فقال اين رغيفى فقال الغلام قد فرقت عليكم العشرة فقال أبيت طاويا وأنا بكى الرجل العاصى وناول الرغيف لصاحبه وقال لنفسه أنا أحق أن أبيت طاويا لانى عاص وهذا مطيع فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة هذا رجل فر من ذنبه وجاء طائعا وقالت ملائكة العذاب بل هو رجل عاص فأوحى الله تعالى اليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليال فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة فاوحى الله اليهم أن زنوا معصية السبع ليال بالرغيف الذى آثر به على نفسه فوزنوا ذلك فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة وقبل الله توبته (وحكى) أن رجلا جلس يوما يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية فوقف سائل ببابه فخرج اليه وانتهره فذهب فانفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته وطلق زوجته وتزوجت بعده برجل آخر فجلس يأكل معها فى بعض الايام وبين أيديهما دجاجة مشوية واذا بسائل يطرق الباب فقال الرجل لزوجته ادفعى اليه هذه الدجاجة فخرجت بها اليه فاذا هو زوجها الاول فدفعت اليه الدجاجة ورجعت وهى باكية فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن السائل كان زوجها وذكرت له قسمتها مع ذلك السائل الذى انتهره زوجها الاول فقال لها زوجها أنا والله ذلك السائل وذكر عن مكحول أن رجلا أتى الى أبى هريرة رضى الله عنه فقال ادع الله لانى فقد وقع فى نفسى الخوف من هلاكه فقال له ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائى وأنجع وأسرع اجابة قال بلى قال تصدق عنه بصدقة تنوى بها نجاة ولدك

وسلامة مامعه فخرج الرجل من عنده وتصدق على سائل بدرهم وقال هذا خلاص ولدى وسلامته ومامعه فنادى فى تلك الساعة منادٍ فى البحر ألا ان الفداء مقبول وزيد مغاث فلما قدم سأله أبوه عن حاله فقال يا أبت لقد رأيت فى البحر عجبا يوم كذا وكذا فى وقت كذا وكذا وهو اليوم الذى تصدق فيه والده عنه بالدرهم وذلك انا أشرفنا على الهلاك والتلف فسمعنا صوتا من الهواء ألا ان الفداء مقبول وزيد مغاث وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة الى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين * والآثار والحكايات فى ذلك كثيرة وفيما أشرت اليه كفاية لمن وعى وأن ليس للانسان الا ماسعى والله أعلم

(الفصل الرابع فى الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الاجر والثواب) قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون قيل الصوم عموم وخصوص وخصوص الخصوص * فصوم العموم هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوة * وصوم الخصوص هو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام * وصوم خصوص الخصوص هو صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية * قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الجسد الصيام وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال للصائم فرحتان فرحة عند افطاره وفرحة عند لقاء ربه وقال وكيع فى قوله تعالى كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الايام الخالية انها ايام الصوم تركوا فيها الاكل والشرب وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أفطر يوما فى رمضان من غير رخصة رخصها الله له لم يقض عنه صيام الدهر وروى فى صحيح النسائى عنه ايضا صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين وروى الزهرى أن تسبيحة واحدة فى شهر رمضان أفضل من ألف تسبيحة فى غيره وروى عن قتادة انه كان يقول من لم يغفر له فى شهر رمضان فلن يغفر له فى غيره وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم الناس ما فى شهر رمضان من الخير لتمنت أمتى أن يكون رمضان السنة كلها ولو أذن الله للسموات والارض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة وقال صلى الله عليه وسلم ليس من عبد يصلى فى ليلة من شهر رمضان الا كتب الله له بكل ركعة ألفا وخمسمائة حسنة وبنى له بيتا فى الجنة من ياقوتة حمراء لها سبعون ألف باب لكل باب منها مصراعان من ذهب وله بكل سجدة يسجدها شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام وقال صلى الله عليه وسلم ان لكل صائم دعوة فاذا أراد أن تقبل فليقل فى كل ليلة عند فطره يا واسع المغفرة اغفر لى وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه من صام يوما من رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه فاذا انسلخ عنه الشهر وهو حى لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول ومن عطش نفسه لله فى يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقا على الله أن يرويه يوم القيامة وقال بعضهم الصيام زكاة البدن ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى وروى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن

ما اجتنبت الكبائر وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر وهى الايام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر وفى صحيح البخارى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه * وفضل الصوم غزير لانه خصه الله تعالى بالاضافة اليه كما ثبت فى الصحيح من الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مخبرا عن ربه عز وجل كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به وقد يكتفى فى فضله بهذا الحديث الجليل وحسبنا الله ونعم الوكيل

(الفصل الخامس فى الحج وفضله) قال الله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات اجرى الله له أجر الحاج والمعتمر الى يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم من استطاع الحج ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانيا وفى الحديث ان من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الا الوقوف بعرفة وفيه اعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له وهو أفضل يوم فى الدنيا وفى الخبر ان الحجر الاسود ياقوتة من ياقوت الجنة وانه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق وجاء فى الحديث الصحيح ان آدم عليه السلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام وقال مجاهد ان الحجاج اذا أقدموا مكة لحقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الابل وصافحوا ركبان الحمر واعتنقوا المشاة اعتناقا وكان من سنة السلف رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة ويستقبلوا الحجاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام وعن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف فان نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة وان الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها حتى تدخل الجنة فيدخل معها (وحكى) أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبى محمد ابن حمدان حجت سنة ست وثمانين وثلثمائة فصارت تاريخا مذكورا قيل انها سقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد والثلج واستصحبت البقول المزروعة فى المراكن على الجمال وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار ولم تستصبح فيها وعندها الا بشموع العنبر وأعتقت ثلثمائة عبد ومائتى جارية وأغنت الفقراء والمجاورين *

ولما بنى آدم عليه السلام البيت قال يارب ان لكل عامل أجرا فما أجرى فى عملى قال اذا طفت به غفرت لك ذنوبك قال زدنى قال جعلته قبلة لك ولولدك قال يارب زدنى قال أغفر لكل من استغفرنى من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك قال يارب حسبى * وفى الحديث الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة وقيل للحسن ما الحج المبرور قال أن ترجع زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة * وأول من كسا الكعبة الديباج عبد الله بن الزبير وكانت كسوتها المسوح والانطاع وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم وكان حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر وكان يطوف بالبيت فيقول لا اله الا الله

وحده لا شريك له نعم الرب ونعم الاله أحبه وأخشاه ورؤى الحسن بن علي رضي الله عنهما يطوف بالبيت ثم صار الى المقام فصلى ركعتين ثم وضع خده على المقام فجعل يبكي ويقول عبيدك ببابك خويدمك ببابك سائلك ببابك مسكينك ببابك يردد ذلك مرارا ثم انصرف رضي الله عنه فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون فسلم عليهم فدعوه الى الطعام فجلس معهم وقال لولا انه صدقة لاكلت معكم ثم قال قوموا بنا الى منزلي فتوجهوا معه فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم * وحج عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجليه حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكا وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفا وقال اعتقتهم لله تعالى لعله يعتقني من النار وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما اني لاستحيي من ربي أن ألقاه ولم امش الى بيته فمشى من المدينة الى مكة عشرين مرة ومن لطيف ما انشد عمرو بن حبان الضريرحين لم يهد اليه الحجاج شيأ

كان الحجيج الآن لم يقربوا منى * ولم يحملوا منها سواكا ولا نعلا
اتوا نافجا دوا بعودا راكة * ولا وضعوا في كف طفل لنا نقلا

وقال غيره

يحجون بالمال الذي يجمعونه * حراما الى البيت العتيق المحرم
ويزعم كل منهم أن وزره * يحط ولكن فوقه في جهنم

وقال آخر

حج في الدهر حجة * حج فيها وأحرما
وأتانا من الحجا * زكما راح محرما
فهو ذو لمة الذي * ماتوفى محرما

وتخاصم بدوي مع حاج عند منصرف الناس فقيل له اتخاصم رجلا من الحجاج فقال

يحج الكريما يغفر الله ذنبه * ويرجع قد حطت عليه ذنوب

وقال ابو الشمقمق

اذا حجيت بمال اصله دنس * فما حججت ولكن حجت العير
ما يقبل الله الا كل طيبة * ما كل من حج بيت الله مبرور

والله سبحانه وتعالى أعلم

* (الباب الثاني في العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك) *

نص الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيز على شرف العقل وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الامثال وأوضحها وبين بدائع مصنوعاته وشرحها فقال تعالى وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال عزمن قائل وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أعز علي منك بك آخذ وبك أعطي وبك احاسب وبك اعاقب وقال أهل المعرفة والعلم العقل جوهر مضيء

خلقه الله عز وجل في الدماغ وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسايط والمحسوسات بالمشاهدة * واعلم أن العقل ينقسم الى قسمين قسم لا يقبل الزيادة والنقصان وقسم يقبلهما * فأما الاول فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء * وأما الثاني فهو العقل التجريبي وهو مكتسب وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع وباعتبار هذه الحالة يقال ان الشيخ اكمل عقلا وأتم درايه وان صاحب التجارب أكثر فهما وأرجح معرفة ولهذا قيل من بيضت الحوادث سوالفه وأخلقت التجارب لباس جدته وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته كان جدير ابرزانة العقل ورجاحة الدراية وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصيرها راجحا على ذوي التجارب والآداب ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما اخبر الله تعالى به في محكم كتابه العزيز حيث يقول وآتيناه الحكم صبيا فمن سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة وأدركته عناية أزلية اشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه وأسفر عن وجه الاصابة ظنه وان كان حديث السن قليل التجربة كما نقل في قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث ورد حكم أبيه داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث فقال احدهما ان هذا دخلت غنمه بالليل الى حرثي فأهلكته واكلته ولم تبق لي فيه شيأ فقال داود عليه السلام الغنم لصاحب الحرث عوضا عن حرثه فلما خرجا من عنده مرا على سليمان عليه السلام وكان عمره اذذاك على ما نقله ائمة التفسير احدى عشرة سنة فقال لهما ما حكم بينكما الملك فذكرا له ذلك فقال غير هذا ارفق بالفريقين فعادا الى داود عليه السلام وقالا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له ما هو الارفق بالفريقين فقال سليمان تسلم الغنم الى صاحب الحرث وكان الحرث كرما قد تدلت عناقيده في قول أكثر المفسرين فيأخذ صاحب الكرم الاغنام يأكل لبنها وينتفع بدرها ونسلها ويسلم الكرم الى صاحب الاغنام ليقوم به فاذا عاد الكرم الى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخلت الغنم اليه سلم صاحب الكرم الغنم الى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته فقال له داود القضاء كما قلت وحكم به كما قال سليمان عليه السلام وفي هذه القصة نزل قوله تعالى وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة بل حصلت بعناية ربانية وألطاف الهية واذا قذف الله تعالى شيأ من انوار مواهبه في قلب من يشاء من خلقه اهتدى الى مواقع الصواب ورجح على ذوي التجارب والاكتساب في كثير من الاسباب * ويستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه فان العقل معنى لا يمكن مشاهدته فان المشاهدة من خصائص الاجسام * فأقول يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها ميله الى محاسن الاخلاق واعراضه عن رذائل الاعمال ورغبته

فى اسداء صنائع المعروف وتجنبه مايكسبه عارا ويورثه سوء السمعة وقد قيل لبعض الحكماء بم يعرف عقل الرجل فقال بقلة سقطه فى الكلام وكثرة اصابته فيه فقيل له فان كان غائبا فقال باحدى ثلاث اما برسوله واما بكتابه واما بهديته فان رسوله قائم مقام نفسه وكتابه بصف نطق لسانه وهديته عنوان همته فبقدر مايكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها وقيل من أكبر الاشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس ويكفى أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى اياه فانه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق وقالوا العاقل الذى يحسن المداراة مع أهل زمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة مائة درجة تسعة وتسعون منها لاهل العقل وواحدة لسائر الناس وقال على بن عبيدة العقل ملك والخصال رعية فاذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل اليها فسمعه أعرابى فقال هذا كلام يقطر عسلا وقيل بأيدى العقول تمسك أعنة النفوس وكل شئ اذا كثر رخص الا العقل فانه كلما كثر غلا وقيل لكل شئ غاية وحد والعقل لا غاية له ولا حد ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الازهار فى المروج واختلف الحكماء فى ماهيته فقال قوم هو نور وضعه الله طبعا وغريزة فى القلب كالنور فى العين وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود وكما يدرك بالبصر شواهد الامور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور وعمى القلب كعمى البصر قال الله تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وقيل محل العقل الدماغ وهو قول أبى حنيفة رحمه الله وذهب جماعة الى انه فى القلب كما روى عن الشافعى رحمه الله واستدلوا بقوله تعالى فتكون لهم قلوب يعقلون بها وبقوله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أى عقل وقالوا التجربة مرآة العقل ولذلك حدث آراء المشايخ حتى قالوا المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء الشيوخ فانهم ان عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الايام حيلة وتجربة قال الشاعر

ألم تر أن العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر

اذا طال عمر المرء فى غير آفة * أفادت له الايام فى كرها عقلا

وقال عامر بن عبد قيس اذا عقلك عقلك عما لا يعنيك فأنت عاقل ويقال لا شرف الا شرف العقل ولا غنى الا غنى النفس وقيل يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الاسد بقوته حيث كان قال الشاعر

اذا لم يكن للمرء عقل فانه * وان كان ذا بيت على الناس هين
ومن كان ذا عقل أجل لعقله * وأفضل عقل عقل من يتدين

وقالوا العاقل لا تطيره المنزلة السنية كالجبل لا يتزعزع وان اشتدت عليه الريح والجاهل تطيره أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح وقيل لعلى رضى الله عنه صف لنا العاقل قال هو الذى يضع الشئ مواضعه قيل فصف لنا الجاهل قال قد فعلت يعنى الذى لا يضع

الشئ مواضعه وقال المنصور لولده خذ عني ثنتين لا تقل من غير تفكر ولا تعمل بغير تدبير وقال أردشير أربعة تحتاج الى أربعة الحسب الى الادب والسرور الى الامن والقرابة الى المودة والعقل الى التجربة وقال كسرى انوشروان أربعة تؤدي الى أربعة العقل الى الرياسة والرأي الى السياسة والعلم الى التصدير والحلم الى التوقير وقال القاسم بن محمد من لم يكن عقله اغلب الخصال عليه كان حتفه من اغلب الخصال عليه وقيل افضل العقل معرفة العاقل بنفسه وقيل ثلاثة هن رأس العقل مداراة الناس والاقتصاد في المعيشة والتحبب الى الناس وقيل من أعجب برأي نفسه بطل رأيه ومن ترك الاستماع من ذوي العقول مات عقله وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه انه قال اهل مصر أعقل الناس صغارا وأرحمهم كبارا وقيل العاقل المحروم خير من الاحمق المرزوق وقيل لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت ولا طعاما حتى يستمرئه ولا يثق بخليل حتى يستقرضه وقيل طول اللحية أمان من العقل وسئل بعضهم ايما احمد في الصبا الحياء أم الخوف قال الحياء لان الحياء يدل على العقل والخوف يدل على الجبن وقيل غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله وقال ابو الدرداء رضي الله عنه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عويمر ازدد عقلا تزدد من الله تعالى قربا قلت بابي وأمي ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلا ثم تنقل الى صالح الاعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد من الله قربا وعزا (وحكى) بعض أهل المعرفة قال حياة النفس بالروح وحياة الروح بالذكر وحياة القلب بالعقل وحياة العقل بالعلم ويروى عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه انه كان ينشد هذه الابيات ويترنم بها

ان المكارم أخلاق مطهرة * فالعقل اولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها * والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم من عيني محدثها * ان كان من حزبها أو من اعاديها
والنفس تعلم اني لا اصدقها * واست ارشد الا حين اعصيها

وقال بعض الحكماء العاقل من عقله في ارشاد ورأيه في امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في اغراء فقوله سقيم وفعله ذميم ولا يكفي في الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة صلفته وتطافة بزته اذ كم من كنيف مبيض وجلد مفضض وقد قال الاصمعي رأيت بالبصرة شيخا له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة وحوله حاشية وهرج وعنده دخل وخرج فأردت أن أختبر عقله فسلمت عليه وقلت له ما كنية سيدنا فقال ابو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين قال الاصمعي فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ورخله وقد يكون الرجل موسوما بالعقل مرموقا بعين الفضل فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله وقيل ان اياس بن معاوية القاضي كان من اكابر العقلاء وكان عقله يهديه الى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد اليها فكان من جملة

الوقائع التي صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر الفادح انه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالامانة فاتفق أن رجلا أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الامين كيسا فيه جملة من الذهب ثم حج فلما عاد من حجه جاء الى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحده فجاء الى القاضي اياس وقص عليه القصة فقال له القاضي هل اخبرت بذلك أحدا غيري قال لا قال فهل علم الرجل انك أتيت الي قال لا قال انصرف واكتم أمرك ثم عد الي بعد غد فانصرف ثم ان القاضي دعا ذلك الرجل المستودع فقال له قد حصل عندي أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهيئ لها موضعا حصينا فمضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل فقال له القاضي اياس امض الى خصمك واطلب منك وديعتك فان جحدك فقل له امض معي الى القاضي اياس اتحاكم انا وأنت عنده فلما جاء اليه دفع اليه وديعته فجاء الى القاضي وأعلمه بذلك ثم ان ذلك الرجل المستودع جاء الى القاضي طامعا في تسليم المال فسبه القاضي وطرده وكانت هذه الواقعة مما يدل على عقله وصحة فكره * ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها فقالوا الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض فتمكننا الغرة منهم والوثبة عليهم وعقدوا لذلك المشورات وتراجعوا فيه بالمناظرات وأجمعوا على أنه فرصة الدهر وكان رجل منهم من ذوي العقل والمعرفة والرأي غائبا عنهم فقالوا من الحزم عرض الرأي عليه فلما اخبروه بما اجمعوا عليه قال لا أرى ذلك صوابا فسألوه عن علة ذلك فقال في غد أخبركم ان شاء الله تعالى فلما اصبحوا أتوا اليه وقالوا قد وعدتنا ان تخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه فقال سمعا وطاعة وأمر باحضار كلبين عظيمين كان قد أعدهما ثم حرش بينهما وحرض كل واحد منهما على الآخر فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئبا كان قد أعده لذلك فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعا على الذئب فقتلاه فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لا يزال الهرج بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم فاذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء * (وأما ذم الحمق) فقد قال ابن الاعرابي الحماقة مأخوذة من حمقت السوق اذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأي فلا يشاور ولا يلتفت اليه في امر من الامور والحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت قال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به * الا الحماقة اعيت من يداويها

والحمق مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاحمق ابغض الخلق الى الله تعالى اذ حرمه اعز الاشياء عليه وهو العقل ويستدل على صفة الاحمق من حيث الصورة بطول اللحية لان مخرجها من الدماغ فمن افرط طول لحيته قل دماغه ومن قل دماغه قل عقله ومن قل عقله فهو أحمق وأما صفته من حيث الافعال فترك النظر في العواقب وقلته بمن لا يعرفه والعجب وكثرة الكلام وسرعة الجواب وكثرة الالتفات والخلو من العلم والعجلة والخفة والسفه

والظلم والغفلة والسهو والخيلاء ان استغنى بطر وان افتقر قنط وان قال أفحش وان سئل بخل وان سأل ألح وان قال لم يحسن وان قيل له لم يفقه وان ضحك قهقه وان بكى صرخ وان اعتبرنا هذه الخلال وجدناها فى كثير من الناس فلا يكاد يعرف العاقل من الاحمق * قال عيسى عليه السلام عالجت الابرص والاكمه فأبرأتهما وعالجت الاحمق فأعياني والسكوت عن الاحمق جواب ونظر بعض الحكماء الى أحمق على حجر فقال حجر على حجر (وحكى) أن احمقين اصطحبا فى طريق فقال أحدهما للآخر تعالى نتمنى على الله فان الطريق تقطع بالحديث فقال أحدهما أنا أتمنى قطائع غنم انتفع بلبنها ولحمها وصوفها وقال الآخر انا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيأ قال ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة فتصايحا وتخاصما واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالاطواق ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكما بينهما فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب ثم قال صب الله دمى مثل هذا العسل ان لم تكونا أحمقين وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال كان رجل يتعبد فى صومعة فأمطرت السماء وأعشبت الارض فرأى حماره يرعى فى ذلك العشب فقال يارب لو كان لك حمار لرعيته مع حمارى هذا فبلغ ذلك بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام فهم أن يدعو عليه فأوحى الله اليه لا تدع علينا فانى اجازى العباد على قدر عقولهم ويقال فلان ذو حمق وافر وعقل نافر ليس معه من العقل الا ما يوجب حجة الله عليه وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمقته فقال

وما هو جى يا هند الا سجية * اجر لها ذيلى بحسن الخلائق
ولو شئت خادعت النفى عن قلوصه * ولا طمعت فى البطحاء من كل طارق

ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح والاحمق المؤذى هو من بقر سقر والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الثالث فى القرآن وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والاجر الجسيم

قال الله تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وسمى الله تعالى القرآن كريما فقال تعالى انه لقرآن كريم وسماه حكيما فقال تعالى يس والقرآن الحكيم وسماه مجيدا فقال تعالى ق والقرآن المجيد أنزله الله تعالى على سيد الانام وخاتم الانبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته وعن الاتيان بآية من مثله قال تعالى قل فأتوا بسورة من مثله وقال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فهو النور المبين والحق المستبين لا شئ أسطع من اعلامه ولا أصدع من أحكامه ولا أفصح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته ولا أكثر من افادته ولا ألذ من تلاوته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم وقال أيضا صلى الله عليه وسلم أصغر البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى وقال الشعبى الذى يقرأ القرآن انما يحدث عن ربه عز

وجل ووفد غالب بن صعصعة على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومعه ابنه الفرزدق فقال له من أنت قال غالب بن صعصعة قال ذو الابل الكثيرة قال نعم قال فما فعلت بابلك قال أذهبتها النوائب وزعزعتها الحقوق قال ذلك خير سبلها ثم قال له يا أبا الاخطل من هذا الذي معك قال ابني وهو شاعر قال علمه القرآن فهو خير له من الشعر فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه في سنة وفي ذلك قال

وما صب رجلي في حديد مجاشع * مع القيد الا حاجة لي أريدها

وقال أنس رضي الله عنه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني لا تغفل عن قراءة القرآن اذا أصبحت واذا أمسيت فان القرآن يحيي القلب الميت وينهى عن الفحشاء والمنكر (وحكى) الزمخشري في كتابه ربيع الابرار قال ومن حكايات الحشوية ما قيل ان ابراهيم الخواص مر بعصفور فأذن في اذنه فناداه الشيطان من جوفه دعني أقتله فانه يقول القرآن مخلوق * وكان سفيان الثوري رحمه الله اذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن * وكان الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى اذا دخل شهر رمضان يفر من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم ويقبل على القراءة في المصحف * وكان أبو حنيفة والشعبي رحمهما الله تعالى يختمان في رمضان ستين ختمة وقال علي رضي الله عنه من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزوا وقال الشعبي اللسان عدل على الاذن والقلب فافرأ قراءة تسمعها اذنك ويفهمها قلبك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل يا رسول الله وما جلاؤها قال قراءة القرآن وذكر الموت وقال عمر بن ميمون من نشر مصحفا حين يصلي الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل جميع اهل الدنيا وقال علي كرم الله وجهه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات وقال ابن عباس رضي الله عنهما لان أقرأ البقرة وآل عمران ارتلهما وأتدبرهما أحب الي من أن أقرأ القرآن كله هذرمة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرؤا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المزني قال قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة فأين البكاء وكان عثمان رضي الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة الى المائدة وليلة السبت بالانعام الى هود وليلة الاحد بيوسف الى مريم وليلة الاثنين بمريم الى طسم موسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت الى ص وليلة الاربعاء بتنزيل الى الرحمن ويختم ليلة الخميس * وعن علي رضي الله عنه لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا خير في قراءة لا تدبر فيها وكان عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه ولعن أباه اذا نشر المصحف أعمى

عليه ويقول هو كلام ربي وأبطأت عائشة رضي الله عنها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال ما حبسك قالت قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منه فقام فاستمع اليه طويلا ثم قال هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في امتي مثله وقال ابن عيينة رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله قد اختلفت علي القراآت فعلى قراءة من تأمرني فقال على قراءة أبي عمرو * ومن أبي عمرو انى لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما انزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فقرأت عليهم فاشدد بها يدك فينبغي للانسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلا ونهارا سفرا وحضرا * وقال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله في كتابه الاذكار قد كان للسلف رضي الله عنهم عادات مختلفة في القدر الذي يختمون فيه فكانت جماعة منهم يختمون في كل شهر ختمة وآخرون في كل عشر ليال ختمة وآخرون في كل ثلاث ليال ختمة وكان كثيرون في كل يوم وليلة ختمة وختم جماعة في كل يوم وليلة ختمتين وختم بعضهم في اليوم والليلة ثمان ختمات اربعا في الليل وأربعا في النهار وروى أن مجاهدا رحمه الله كان يختم القرآن في شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء وأما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمنهم عثمان بن عفان وتميم الداري وسعيد بن جبير رضي الله تعالى عنهم وروينا في مسند الامام المجمع على حفظه وجلالته واتقانه وبراعته أبي محمد الدارمي رحمه الله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال اذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح واذا وافق أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي قال الدارمي هذا حديث حسن عن سعد وأفضل القراءة ما كان في الصلاة وأما في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل والنصف الاخير منه أفضل من الاول والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة وأما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ولا كراهة في وقت من الاوقات ولا في أوقات النهي عن الصلاة ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة وقيل ان الدعاء يستجاب عند ختم القرآن وان الرحمة تنزل عند ختمه ويستحب الدعاء عقب الختم استحبابا مؤكدا تأكيدا شديدا ويجب على القارئ الاخلاص في قراءته وأن يريد بها وجه الله تعالى وأن لا يقصد بها توصلا الى شيء سوى ذلك وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر في ذهنه انه يناجي ربه سبحانه وتعالى ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله تعالى فانه ان لم يكن يراه فان الله يراه وينبغي للقارئ اذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب وبه تنشرح الصدور وتيسر المرغوب ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر وقد كان الواحد من السلف رضي الله عنهم يتلو آية واحدة ليلة كاملة يتدبرها ويستحب البكاء والتباكي لمن لا يقدر على البكاء فان البكاء عند القراءة صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين قال الله تعالى ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا * وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف ابراهيم الخواص رضي الله عنه دواء القلب خمسة اشياء قراءة القرآن بالتدبر وخلو البطن وقيام الليل

والتضرع

والتضرع عند السحر ومجالسة الصالحين وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة وآثار بفضيلة الاسرار قال العلماء ان أراد القارئ بالاسرار بعد الرياء فهو أفضل في حق من يخاف ذلك فان لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذي غيره من مصل أو نائم أو غيرهما والاحاديث في فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة ومن أراد الزيادة فلينظر في كتاب التبيان في آداب حملة القرآن لشيخ مشايخ الاسلام محيي الدين النووي قدس الله روحه ونور ضريحه وقد جاء في فضل القرآن أحاديث كثيرة * وروى في فضل قراءة سور من القرآن في اليوم والليلة فضل كبير منها يس وتبارك الملك والواقعة والدخان فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من قرأ يس في يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له وفي رواية له من قرأ سورة الدخان في ليلة اصبح مغفورا له وفي رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة وعن جابر رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام كل ليلة حتى يقرأ الم تنزيل الكتاب وتبارك الملك وعن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال من قرأ في ليلة اذا زلزلت الارض كانت له كعدل نصف القرآن ومن قرأ قل يا أيها الكافرون كانت له كعدل ربع القرآن ومن قرأ قل هو الله أحد كانت له كعدل الثلث والاحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة وقد أشرنا الى المقاصد منها والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الرابع في العلم والادب وفضل العالم والمتعلم)

قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلموا العلم فان تعلمه لله حسنة ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لاهله قربة لانه معالم الحلال والحرام وبيان سبيل الجنة والمؤنس في الوحشة والمحدث في الخلوة والجليس في الوحدة والصاحب في الغربة والدليل على السراء والمعين على الضراء والزين عند الاخلاء والسلاح على الاعداء وبالعلم يبلغ العبد منازل الاخيار في الدرجات العلى ومجالسة العلماء في الدنيا ومرافقة الابرار في الآخرة والفكر في العلم يعدل الصيام ومذاكرته تعدل القيام وبالعلم توصل الارحام وتفصل الاحكام وبه يعرف الحلال والحرام وبالعلم يعرف الله ويوحد وبالعلم يطاع الله ويعبد (قيل) العلم درك حقائق الاشياء مسموعا ومعقولا وقال النبي صلى الله عليه وسلم خير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل وعنه عليه الصلاة والسلام يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ولغدوة في طلب العلم أحب الى الله من مائة غزوة ولا يخرج أحد في طلب العلم الا وملك موكل به يبشره بالجنة ومن مات وميراثه المحابر والاقلام دخل الجنة وقال علي كرم الله وجهه أقل الناس قيمة أقلهم علما وقال أيضا رضي الله عنه العلم نهر والحكمة بحر والعلماء حول النهر يطوفون والحكماء وسط البحر يغوصون والعارفون في سفن النجاة يسيرون وقال موسى عليه السلام

فى مناجاته الهى من أحب الناس اليك قال عالم يطلب علما وقال بعض السلف رضى الله عنهم العلوم اربعة الفقه للاديان والطب للابدان والنجوم للازمان والنحو للسان وقيل العالم طبيب هذه الامة والدنيا داؤها فاذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرئ غيره (وسئل) الشعبى عن مسئلة فقال لا علم لى بها فقيل له ألا تستحيى فقال ولم استحى مما لم تستحى الملائكة منه حين قالت لا علم لنا وعن النبى صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على ادناكم وروى كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وقال على كرم الله وجهه من نصب نفسه للناس اماما فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه وقيل مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالاجلال من مؤدب الناس ومعلمهم وأنشدوا

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا * كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا * أبدا وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويهتدى * بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

وقال بعضهم

انى رأيت الناس فى عصرنا * لا يطلبون العلم للعلم
الا مباهاة لاصحابه * وعدة للغش والظلم

نظر رجل الى امرأته وهى صاعدة فى السلم فقال لها أنت طالق ان صعدت وطالق ان نزلت وطالق ان وقفت فرمت نفسها الى الارض فقال لها فداك أبى وامى ان مات الامام مالك احتاج اليك أهل المدينة فى أحكامهم * وقال النبى صلى الله عليه وسلم هلاك امتى فى شيئين ترك العلم وجمع المال وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الاعمال فقال العلم بالله والفقه فى دينه وكررها عليه فقال يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرنى عن العلم فقال ان العلم ينفعك معه قليل العمل وان الجهل لا ينفعك معه كثير العمل * وقال عيسى عليه السلام من علم وعمل عد فى الملكوت الاعظم عظيما * وقال الخليل عليه السلام العلوم أقفال والاسئلة مفاتيحها وعنه عليه السلام زلة العالم مضروب بها الطبل وزلة الجاهل يخفيها الجهل وقال الحسن رأيت أقواما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق فاطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم * وقال يزيد بن ميسرة من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله بوجهه ووجوه العباد اليه ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله وجهه ووجوه العباد عنه وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ألا أخبركم بأجود الاجواد قالوا بلى يا رسول الله قال الله أجود الاجواد وأنا أجود ولد آدم وأجود من بعدى رجل علم علما فنشره يبعث يوم القيامة امة

وحده ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل وقال الثورى كان يقال العالم الفاجر فتنة لكل مفتون وعن الفضيل رحمه الله تعالى انه قال لو أن أهل العلم اكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله اذا لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقادت لهم الناس وكانوا لهم تبعا ولكنهم أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لابناء الدنيا فهانوا وذلوا فانا لله وانا اليه راجعون فاعظم بها مصيبة والله أعلم وللقاضى العلامة أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى وقد أحسن كل الاحسان كأنما طرزت فى خلع حسان شعر

ولم اقض حق العلم ان كنت كلما * بدا طمع صيرته لى سلما
ولم ابتذل فى خدمة العلم مهجتى * لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة * اذا فاتباع الجهل قد كان اسلما
فان قلت زند العلم كاب فانما * بكا حين لم تحرس حماه وأظلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم * ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا * محياه بالاطماع حتى تجهما

وقيل من لم يتعلم فى صغره لم يتقدم فى كبره وقال الفضيل شر العلماء من يجالس الامراء وخير الامراء من يجالس العلماء وقال لقمان جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الارض بماء السماء وقيل من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار وكان ابن مسعود رضى الله عنه اذا رأى طالبى العلم قال مرحبا بكم ينابيع الحكمة ومصابيح الظلمة خلقان الثياب جدد القلوب رياحين كل قبيلة وقال على رضى الله عنه كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به اذا نسب اليه وكفى بالجهل ضعة أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب اذا نسب اليه وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما آتى الله أحدا علما الا أخذ عليه المشاق أن لا يكتمه أحدا ودعا بعضهم لآخر فقال جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية وممن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمله وعن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال على باب الجنة شجرة تحمل ثمارا كثدى النساء يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب والناس عطاش وعن ابن مسعود رضى الله عنه من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبيا وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويل لامتى من علماء السوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها الا أربح الله تجارتهم شعر

العلم أنفس شئ أنت داخره * من يدرس العلم لم تدرس مفاخره
أقبل على العلم واستقبل مقاصده * فأول العلم اقبال وآخره

قال الشعبى دخلت على الحجاج حين قدم العراق فسألنى عن اسمى فأخبرته ثم قال يا شعبى كيف علمك بكتاب الله قلت عنى يؤخذ قال كيف علمك بالفرائض قلت الى فيها المنتهى قال كيف علمك بأنساب الناس قلت أنا الفيصل فيها قال كيف علمك بالشعر قلت أنا ديوانه قال لله أبوك وفرض لى أموالا وسوّدنى على قومى فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك

همدان وخرجت وأنا سيدهم قال البستي

اذا لم يزد علم الفتى قلبه هدى * وسيرته عدلا وأخلاقه حسنا
فبشره ان الله أولاه فتنة * تغشيه حرمانا وتوسعه حزنا

وقال الهيثم بن جميل شهدت مالك بن أنس رضي الله عنه سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال في ثنتين وثلاثين منها لا أدري وقال الاوزاعي شكت الدواويس الى الله تعالى ما تجد من نتن ريح الكفار فأوحى الله اليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه وقال علي رضي الله عنه من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والارض ولصالح اللخمي شعر

تعلم اذا ما كنت لست بعالم * فما العلم الا عند أهل التعلم
تعلم فان العلم أزين للفتى * من الحلة الحسناء عند التكلم

ودخل عبد الله بن مسلم الهذلي على المهدي في القراءة فأخذ عشرة آلاف درهم ثم دخل في الرماة فأخذ عشرة آلاف درهم ثم دخل في المغنين فأخذ كذلك ثم دخل في القصاص فأخذ كذلك فقال المهدي لم أر كاليوم أجمع لما يجمع الله في أحد منك ولم جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه في بيت فوق السطح وجعل يستمع من كوة حتى وقع عليه الثلج فصبر فشكر الله له ذلك فجعله امام الحكماء لا يختلفون في شيء الا صدروا عن رأيه وشكا رجل الى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له استعن على الحفظ بترك المعاصي فأنشأ يقول

شكوت الى وكيع سوء حفظي * فأرشدني الى ترك المعاصي
وذلك أن حفظ العلم فضل * وفضل الله لا يؤتى لعاصي

ووجد في بعض الآثار عن بعضهم انه قال اذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب أو المصحف او ابتداء القراءة في كل شيء أردت بسم الله وسبحان الله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم عدد كل حرف كتب ويكتب ابد الآبدين ودهر الداهرين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم قيل واذا أردت أن لا تنسى حرفا فقل قبل القراءة اللهم افتح علينا حكمتك وانشر علينا رحمتك يا ذا الجلال والاكرام واذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كل صلاة مكتوبة آمنت بالله الواحد الاحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه ومن فوائد سيدي الشيخ الصالح شهاب الدين احمد بن موسى بن جميل رحمه الله تعالى في الحفظ يقرأ في كل يوم عشر مرات ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما الى قوله تعالى وكنا فاعلين يا حي يا قيوم يا رب موسى وهرون ويا رب ابراهيم ويا رب محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام ألزمني الفهم وارزقني العلم والحكمة والعقل برحمتك يا أرحم الراحمين وعن أبي يوسف قال مات لي ولد فأمرت من يتولى دفنه ولم أدع مجلس ابي حنيفة خوفا ان يفوتني منه يوم وقال محمد بن اسحق بن خزيمة ما رأيت تحت اديم السماء اعلم بالحديث ولا أحفظ له من محمد بن اسمعيل البخاري حتى كان يقال ان حديثا لا يعرفه محمد بن اسمعيل ليس بحديث وقال

البخارى رحمه الله تعالى أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتى ألف حديث غير صحيح وقال ماوضعت فى كتابى الصحيح حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين وقال أخرجته من ستمائة ألف حديث وصنفته فى ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بينى وبين الله تعالى وقال مجاهد أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه وكان يقال الليث بن سعد رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته ولهذا قال الشافعى لما قدم مصر بعد موته والله لانت أعلم من مالك وانما أصحابك ضيعوك وقال الليث بن سعد ما هلك عالم قط الا ذهب ثلث علمه ولو حرص الناس ويقال اذا سئل العالم فلا تجب أنت فان ذلك استخفاف بالسائل والمسؤل وقالوا من خدم المحابر خدمته المنابر شعر

لاتدخرن غير العلو * م فانها نعم الذخائر
فالمرء لو ربح البقا * مع الجهالة كان خاسر

وللشافعى رضى الله تعالى عنه شعر

أخى لن تنال العلم الا بستة * سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة * وصحبة استاذ وطول زمان

وقال الزهرى العلماء أربعة سعيد بن المسيب بالمدينة وعامر الشعبى بالكوفة والحسن البصرى بالبصرة ومكحول بالشأم وقال بعضهم العلماء سرج الازمنة كل عالم سراج زمانه يستضىء به أهل عصره وقيل لابراهيم بن عيينة اى الناس أطول ندامة قال أما فى الدنيا فصانع المعروف الى من لايشكره وأما فى الآخرة فعالم مفرط شعر

كن عالما وارض بصف النعال * ولاتكن صدرا بغير الكمال
* فان تصدرت بلا آلة * صيرت ذاك الصدر صف النعال

وقيل لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على ورك الخضر ثم طار فنظر الخضر الى موسى عليه السلام وقال يانبى الله ان هذا العصفور يقول ياموسى أنت على علم من علم الله علمكه الله لايعلمه الخضر والخضر على علم من علم الله علمه الله اياه لاتعلمه أنت وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لاتعلمه أنت ولا الخضر وما على وعلمك وعلم الخضر فى علم الله الا كهذه القطرة من هذا البحر قال الله تعالى ولايحيطون بشىء من علمه الا بما شاء وقال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما خلق الله تعالى أربعين ألف عالم الانس والجن عالمان والبواقى لايعلمها الا هو وقال موسى عليه السلام يارب قد قلت للسموات والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين فلو لم تطعك السموات والارض ماذا كنت فاعلا بهما قال ياموسى كنت آمر دابة من دوابى أن تبتلعهما قال موسى يارب وأين تلك الدابة قال فى مرج من مروجى قال موسى يارب وأين ذلك المرج قال فى علم من علمى لايعلمه الا أنا وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى فكرة فقال فيم تفكرون تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فان الله خلق من جانب الغرب أرضا يقال لها البيضاء تقطعها الشمس فى أربعين يوما فيها خلق ما عصوا الله طرفة عين فقال ابن عمر يارسول الله

أين ابليس منهم قال ماعلموا بابليس خلق أم لا قال أمن بنى آدم قال ماعلموا يا آدم خلق أم لا فهذه كلها مما أعدها الله فى علم غيبه انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون وقال قتادة لو كان أحد منا مكتفيا من العلم لاكتفى نبى الله موسى عليه السلام اذ قال هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا وقال الحكماء أفضل العلم وقوف العالم عند علمه وقال بعضهم ليس العلم ماخزنته الدفاتر وانما العلم ماخزنته الصدور وقيل العلم يؤدى الى التصدير وقيل من تواضع للعلم ناله ومن لم يتواضع له لم ينله وقيل من برق علمه برق وجهه ومن لم يستفد بالعلم مالا اكتسب به جمالا العلم نور وهدى والجهل عمى وردى وقال بعضهم العالم يعرف الجاهل والجاهل لايعرف العالم لان العالم كان جاهلا والجاهل لم يكن عالما وقيل أربعة يسودون العبد العلم والادب والصدق والامانة وقيل اهل العراق اطلب الناس للعلم وقال حماد ابن سلمة مثل الذى يطلب الحديث ولايعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لاشعير فيها ولا براهيم بن خلف المهرانى

النحو يصلح من لسان الالكن * والمرء تكرمه اذا لم يلحن
واذا طلبت من العلوم أجلها * فأجلها منها مقيم الالسن

وقال على بن بشار

رأيت لسان المرء آية عقله * وعنوانه فانظر بماذا تعنون
ولاتعد اصلاح اللسان فانه * يخبر عما عنده ويبين
ويعجبنى زى الفتى وجماله * فيسقط من عينى ساعة يلحن

ودخل اعرابى السوق فوجدهم يلحنون فقال سبحان الله يلحنون ويربحون وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن فقال لم لاتنظر فى العربية فقال بلغنى أن من نظر فيها قل كلامه فقال ويحك لان يقل كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر كلامك بالخطا وكان يقال مجالسة الجاهل مرض للعاقل وقال أبو الاسود الدؤلى اذا أردت أن تعذب عالما فاقرن به جاهلا وقال الشاعر

جهلت ولاتدرى بأنك جاهل * ومن لى بان تدرى بأنك لاتدرى

وقال رجل للحسن أنا أفصح الناس قال لاتقل هذا قال فخذ على كلمة واحدة قال هذه واحدة أبوجهل كناه المسلمون بذلك وكانت قريش تكنيه أبا الحكم فقال حسان رضى الله عنه

الناس كنوه أباحكم * والله كناه أباجهل

(وأما ماجاء فى الادب) فقد قال بعض الحكماء العقل يحتاج الى مادة من الادب كما تحتاج الابدان الى قوتها من الطعام وقال على كرم الله وجهه الادب كنز عند الحاجة عون على المروأة صاحب فى المجلس انيس فى الوحدة تعمر به القلوب الواهية وتحيا به الالباب الميتة وينال به الطالبون ماحاولوا وقيل عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح (وحكى) أن رجلا تكلم بين يدى المأمون فأحسن فقال ابن من أنت قال ابن الادب ياأمير المؤمنين قال نعم النسب

انتسبت اليه ولهذا قيل المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت ومن حيث يوجد لا من حيث يولد قال الشاعر

كن ابن من شئت واكتسب أدبا * يغنيك محموده عن النسب
ان الفتى من يقول ها أنا ذا * ليس الفتى من يقول كان أبى

وقال بعض الحكماء من كثر أدبه كثر شرفه وان كان وضيعا وبعد صيته وان كان خاملا وساد وان كان غريبا وكثرت حوائج الناس اليه وان كان فقيرا قال بعض الشعراء

لكل شئ زينة فى الورى * وزينة المرء تمام الادب
قد يشرف المرء بآدابه * فينا وان كان وضيع النسب

وقال بعض الاعاجم مفتخرا

مالى عقلى وهمتى حسبى * ما أنا مولى وما أنا عربى
اذا انتمى منتم الى أحد * فانتى منتم الى أدبى

وقيل الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والحسب وقيل المرء بفضيلته لا بفصيلته وبكماله لا بجماله وبآدابه لا بثيابه وقيل لرجل من أدبك قال رأيت جهل الجهال قبيحا فاجتنبته فتأدبت ومن ادب ولده صغيرا سر به كبيرا من عرف الادب اكتسب به المال والجاه خير الخلال الادب وشر المقال الكذب وقيل لبقراط ما الفرق بين من له ادب ومن لا ادب له قال كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذى ليس بناطق ودخل ابو العالية على ابن عباس رضى الله عنهما فأقعده معه على السرير واقعد رجالا من قريش تحته فرأى سوء نظرهم اليه وحوضة وجوههم فقال مالكم تنظرون الى نظر الشحيح الى الغريم المفلس هكذا الادب يشرف الصغير على الكبير ويرفع المملوك على المولى ويقعد العبيد على الاسرة وقال جالينوس ان ابن الوضيع اذا كان اديبا كان نقص أبيه زائدا فى منزلته وابن الشريف اذا كان غير اديب كان شرف ابيه زائدا فى سقوطه وقيل أحسن الادب أن لا يفتخر المرء بأدبه وسمع معاوية رجلا يقول أنا غريب فقال كلا الغريب من لا أدب له ويقال اذا فاتك الادب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب ولعبد الملك بن صالح

فى الناس قوم أضاعوا المجد أولهم * ما فى المكارم والتقوى لهم أرب
سوء التأدب أرداهم وأرذلهم * وقد يزين صحيح المنصب الادب

وقيل أربعة تسود العبد الادب والعلم والصدق والامانة وقال بعض الحكماء خمسة لا تتم الا بخمسة لا يتم الحسب الا بالادب ولا يتم الجمال الا بالحلاوة ولا يتم الغنى الا بالجود ولا يتم البطش الا بالجراءة ولا يتم الجهاد الا بالتوفيق والله تعالى أعلم

(الباب الخامس فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك)

قال الحكماء اذا اراد الله بعبد خيرا الهمه الطاعة وألزمه القناعة وفقهه فى الدين وعضده باليقين فاكتفى بالكفاف واكتسى بالعفاف واذا أراد به شرا حبب اليه المال وبسط منه الآمال وشغله بدنياه ووكله الى هواه فركب الفساد وظلم العباد الثقة بالله أزكى أمل والتوكل عليه أوفى عمل من لم يكن له من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ من سره الفساد ساءه

لمعاد كل يحصد ما زرع ويجزى بما صنع لايغرنك صحة نفسك وسلامة امسك قلة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة من أطاع هواه باع دينه بدنياه ثمرة العلوم العمل بالمعلوم من رضى بقضاء الله لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه خير الناس من أخرج الحرص من قلبه وعصى هواه فى طاعة ربه نصرة الحق شرف ونصرة الباطل سرف البخيل حارس نعمته وخازن لورثته من لزم الطمع عدم الورع اذا ذهب الحياء حل البلاء علم لا ينفع كدواء لا ينجع من جهل المرء أن يعدى ربه فى طاعة هواه ويهين نفسه فى اكرام دنياه أيام الدهر ثلاثة يوم مضى لا يعود اليك ويوم أنت فيه لا يدوم عليك ويوم مستقبل لا تدرى ما حاله ولا تعرف من أهله من كثر ابتهاجه بالمواهب اشتد انزعاجه للمصائب لا تبت على غير وصية وان كنت من جسمك فى صحة ومن عمرك فى فسحة عظ المسىء بحسن أفعالك ودل على الجميل بجميل خلالك اياك وفضول الكلام فانه يظهر من عيوبك ما بطن ويحرك من عدوك ما سكن لا يجد الخجول فرحا ولا الغضوب سرورا ولا الملول صديقا حسن النية من العبادة حسن الجلوس من السياسة من زاد فى خلقه نقص فى حظه من أثمن الزمان خانه أظهر الناس محبة أحسنهم لقاء لا يكمل للانسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال يقطع رجاءه مما فى أيدى الناس ويسمع شتم نفسه ويصبر ويحب للناس ما يحب لنفسه ويثق بمواعيد الله اياك والحسد فانه يفسد الدين ويضعف اليقين ويذهب المروأة قيل لافلاطون ما الشئ الذى لا يحسن أن يقال وان كان حقا قال مدح الانسان نفسه اربعة تؤدى الى اربعة الصمت الى السلامة والبر الى الكرامة والجود الى السيادة والشكر الى الزيادة من ساء تدبيره أهلكه جده العزة ثمرة الجهل آفة القوة استضعاف الخصم آفة النعم قبح المن آفة الذنب حسن الظن الحزم أسد الآراء والغفلة اضر الاعداء من قعد عن حيلته اقامته الشدائد ومن نام عن عدوه ايقظته المكايد من قرب السفلة واطرح ذوى الاحساب والمروآت استحق الخذلان من عفا تفضل من كظم غيظه فقد حلم من حلم فقد صبر من صبر فقد ظفر من ملك نفسه عند أربع حرمه الله على النار حين يغضب وحين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما كلام المرء يبان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل كل امرئ يعرف بقوله ويوصف بفعله قل سديدا وافعل حميدا من عرف شانه وحفظ لسانه وأعرض عما لا يعنيه وكف عن عرض أخيه دامت سلامته وقلت ندامته كن صموتا وصدوقا فالصمت حرز والصدق عز من أكثر مقاله سئم ومن أكثر سؤاله حرم من استخف بأخوانه خذل ومن اجترأ على سلطانه قتل ما عز من أذل جيرانه ولا سعد من حرم اخوانه خير النوال ما وصل قبل السؤال أولى الناس بالنوال ازهدهم فى السؤال من حسن صغاؤه وجب اصطفاؤه من غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه من يضل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا اصطنع اليك فانشره من جاور الكرام امن من الاعدام من طاب أصله زكا فرعه

من انكر الصنيعة استوجب القطيعة من من بعروفه سقط شكره ومن أعجب بعمله حبط اجره من رضى من نفسه بالاساءة شهد على أصله بالرداءة من رجع فى هبته بالغ فى خسته من رقى فى درجات الهمم عظم فى عيون الامم من كبرت همته كثرت قيمته من ساء خلقه ضاق رزقه من صدق فى مقاله زاد فى جماله من هان عليه المال توجهت اليه الآمال من جاد بماله جل ومن جاد بعرضه ذل خير المال ما اخذ من الحلال وصرف فى النوال وشر المال ما أخذ من الحرام وصرف فى الآثام أفضل المعروف اغاثة الملهوف من تمام المروأة أن تنسى الحق لك وتذكر الحق عليك وتستكبر الاساءة منك وتستصغرها من غيرك من احسن المكارم عفو المقتدر جود الرجل يحببه الى اصدقائه وبخله يغضه الى اوداده لا تسئ الى من احسن اليك ولا تمن على من انعم عليك من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه من طال تعديه كثرت اعاديه شر الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم من حفر حفيرا لاخيه كان حتفه فيه من سل سيف العدوان أغمد فى رأسه من لم يرحم العبرة سلب النعمة ومن لم يقل العثرة سلب القدرة لا تحاج من يذهلك خوفه ويملكك سيفه صمت تسلم به خير من نطق تندم عليه من قال مالا ينبغى سمع مالا يشتهى جرح الكلام أصعب من جرح الحسام من سكت عن جاهل فقد اوسعه جوابا وأوجعه عتابا من أمات شهوته أحياه مروأته من كثرت عوارفه كثرت معارفه من لم تقبل توبته عظمت خطيئته اياك والبغى فانه يصرع الرجال ويقطع الآجال الناس فى الخير أربعة أقسام منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه حرمانا ومنهم من يتركه استحسانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه حرمانا فهو شقى ومن تركه استحسانا فهو دنى من سالم سلم ومن قدم الخير غنم من لزم الرفاد عدم المراد ومن دام كسله خاب أمله المجبول مخطئ وان ملك والمتأنى مصيب وان هلك من امارات الخذلان معاداة الاخوان استفساد الصديق من عدم التوفيق الرفق مفتاح الرزق من نظر فى العواقب سلم من النوائب ومن أسرع فى الجواب اخطأ فى الصواب من ركب العجل أدركه الزلل من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه من قلت فضائله ضعفت وسائله من فعل ماشاء لقى ماساءه من كثر اعتباره قل عثاره من ركب جده غلب ضده القليل مع التدبير أبقى من الكثير مع التبذير ظن العاقل أصح من يقين الجاهل قليل تحمد آخره خير من كثير تذم عاقبته من خاف سطوتك تمنى موتتك اذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة لا تشمت ضعفك الى عدوك فانك تشمته بك وتطمعه فيك من لم يعمل لنفسه عمل للناس ومن لم يصبر على كده صبر على الافلاس من أفشى سره أفسد أمره الحازم من حفظ ما فى يده ولم يؤخر شغل يومه لغده من طلب مالا يكون طال تعبه لا تفتح بابا يعييك سده ولا ترم سهما يعجز لك رده سوء التدبير سبب التدمير اغمد سيفك ما غاب عنك لسانك ليس العجب من جاهل يصحب جاهلا ولكن العجب من عاقل يصحبه لان كل شئ يفر

من ضدّه ويميل الى جنسه اذا نزل القدر بطل الحذر رب عطب تحت طلب ومسبة تحت أمنية لا يخلو المرء من ودود يمدح وعدو يقدح الجوع خير من الخضوع للكذوب منهم وان صدقت لهجته ووضحت حجته من طاوعه طرفه اشتد حتفه من لم تسر حياته لم تنم وفاته من أعظم الذنوب تحسين العيوب الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية اذا ملك الارذل هلك الافاضل من ساءت أخلاقه طاب فراقه من حسنت خصاله طاب وصاله بعد بوار الصفا خير من قرب يوجب الجفا اللسان سيف قاطع لا يؤمن حده والكلام سهم نافذ لا يمكن رده من اطلع على جاره انتهك حجب أستاره أجهل الناس من قل صوابه وكثر اعجابه أظهر الناس نفاقا من أمر بالطاعة ولم يأتمر بها ونهى عن المعصية ولم ينته عنها من سلا عن المسلوب كن لم يسلب ومن صبر على النكبة كن لا ينكب الفضيلة بكثرة الآداب لا بغراهة الدواب من زادت شهوته نقصت مروأته من عرف بشيء نسب اليه ومن اعتاد شيأ حرص عليه عند الجدال يظهر فضل الرجال من أخر الاكل لتطعامه ومن أخر النوم طاب منامه موت في دولة وعز خير من حياة في ذلة وعجز مقاساة الفقر هي الموت الاحمر ومسئلة الناس هي العار الاكبر حق يضر خير من باطل يسر كم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر ومرهوب منه ينفع ولا يضر عثرة الرجل تزيل القدم وعثرة اللسان تزيل النعم المزاح يورث الضغائن من حلم ساد ومن تفهم ازداد معاشرة ذوي الالباب عمارة القلوب شر ما صحب المرء الحسد ربما اصاب الاعمى رشده وأخطأ البصير قصده اليأس خير من التضرع الى الناس لا تكن ضاحكا في غير عجب ولا ماشيا في غير أرب من سعى بالنميمة حذره القريب ومقته الغريب الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استبد برأيه أشرف الغنى ترك المنى من ضاق خلقه مله أهله الحسد للصديق من سقم المودة كل الناس راض عن عقله دنياك كلها وقتك الذي أنت فيه استر سوأة أخيك لما يعلم فيك خول الذكر أسنى من الذكر الذميم العجلة أخت الندامة من كرم أصله لان قلبه ومن قل لبه زاد عجبه ربما أدرك بالظن الصواب ليس للعجب رأي ولا للتكبر صديق سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار لا تعادين أحدا فانك لا تخلو من عداوة جاهل أو عاقل فالحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه من قل سروره كان الموت راحته لا تردن على ذي خطا خطأه فيستفيد منك علما ويتخذ لك عدوا استحى من ذم من لو كان حاضرا لبالغت في مدحه ومدح من لو كان غائبا لسارعت الى ذمه وقيل المنفعة توجب المحبة والمضرة توجب البغضة والمخالفة توجب العداوة والمتابعة توجب الالفة والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعدة والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة والكبر يوجب المقت والتواضع يوجب الرفعة والجود يوجب المدح والبخل يوجب الذم والتوانى يوجب التضييع والحزم يوجب السرور والحذر يوجب السلامة واصابة التدبير

توجب بقاء النعمة وبالثانى تسهل المطالب وبحسن المعاشرة تدوم المحبة وبخفض الجانب تأنس النفوس وبسعة خلق المرء يطيب عيشه والاستهانة توجب التباعد وبكثرة الصمت تكون الهيبة وبعدل المنطق تجلب الجلالة وبالنصفة تكثر المواصلة وبالافضال يعظم القدر وبصالح الاخلاق تزكو الاعمال وباحتمال المؤن يجب السودد وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة وبترك مالا يعنيك يتم لك الفضل واعلم أن السياسة تكسو اهلها المحبة ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة والنظر فى العواقب نجاة ومن لم يحلم ندم ومن صبر غنم ومن سكت سلم ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ومن اطاع هواه ضل ومع العجلة الندامة ومع التأنى السلامة وزارع البر يحصد السرور وصاحب العقل مغبوط وصداقة الجاهل تعب اذا جهلت فاسأل واذا ذللت فارجع واذا اسأت فاندم واذا ندمت فاقلع المروآت كلها تبع للعقل والرأى تبع للتجربة والعقل اصله التثبت وثمرته السلامة والاعمال كلها تتبع القدر واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب فمن التوراة من قنع شبع ومن الانجيل من اعتزل نجا ومن الزبور من سكت سلم ومن القرآن ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات لا تحمل بطنك ما لا يطيق ولا تعمل عملا لا ينفعك ولا تغتر بامرأة ولا تثق بمال ولو كثر والله تعالى أعلم

(الباب السادس فى الامثال السائرة وفيه فصول)

(الفصل الاول فيما جاء من ذلك فى القرآن العظيم وأحاديث النبى الكريم) اعلم أن الامثال من اشرف ما وصل به اللبيب خطابه وحلى بجواهره كتابه وقد نطق كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها ولم يخل كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وهو أفصح العرب لسانا وأكملهم بيانا فكم فى ايراده واصداره من مثل يعجز عن مباراته فى البلاغة كل بطل وسنذكر ان شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولدين والعامة * فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون الآن حصحص الحق قضى الامر الذى فيه تستفتيان الس الصبح بقريب ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ليس لها من دون الله كاشفة أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكل نبأ مستقر قل كل يعمل على شاكلته وعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وان تصبكم سيئة يفرحوا بها كل نفس بما كسبت رهينة حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ما على الرسول الا البلاغ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ما على المحسنين من سبيل تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى هل جزاء الاحسان الا الاحسان ولا ينبئك مثل خبير ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم كل حزب بما لديهم فرحون لا يكلف الله نفسا الا وسعها لا يستوى الخبيث والطيب فسررت منكم

لما خفتكم وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون اعلموا ان الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين لا يجليها لوقتها الا هو فلا تزكوا انفسكم هو أعلم بمن اتقى كل يوم هو في شان فبأي حديث بعده يؤمنون وما ربك بغافل عما تعملون واهجرهم هجرا جميلا من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ان هي الا فتنتك فاعتبروا يا أولي الابصار وانه لقسم لو تعلمون عظيم ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ولتعلمن نبأه بعد حين وكان بين ذلك قواما لمثل هذا فليعمل العاملون كل من عليها فان كل نفس ذائقة الموت أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * ومن الامثال من الحديث النبوي انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى نية المرء خير من عمله آفة العلم النسيان من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه أنزلوا الناس منازلهم اليد العليا خير من اليد السفلى من مات غريبا مات شهيدا مطل الغني ظلم يد الله مع الجماعة الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق من غشنا فليس منا سيد القوم خادمهم الحياء شعبة من الايمان تخيروا لنطفكم ابدأ بنفسك ثم بمن تعول حدث عن البحر ولا حرج المجالس بالامانات كل ميسر لما خلق له اطلبوا الخير من حسان الوجوه اياك ومايعتذر منه الوحدة خير من الجليس السوء استعينوا على الحوائج بالكتمان الندم توبة لا يكون المؤمن طعانا ولا لعانا ادع ما يريبك الى ما لا يريبك من كثر سواد قوم فهو منهم انصر أخاك ظالما أو مظلوما انتظار الفرج عبادة كاد الفقر ان يكون كفرا نعم صومعة الرجل بيته الاعمال بخواتيمها

(الفصل الثاني في أمثال العرب) ان من البيان لسحرا ان الجواد قد يعثر ان البلاء موكل بالمنطق ان أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك انف في السماء واست في الماء ان الذليل الذي ليست له عضد اي الرجال المهذب انما هو كبرق خلب اذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم امرهم اياك اعني فاسمعي يا جارة ان لم يكن وفاق فرفاق انك لا تجني من الشوك العنب اذا ساء القضاء ضاق الفضاء ان المناكح خيرها الابكار اذا كنت مناطحا فناطح بذوات القرون أوى الى ركن بلا قواعد اياك أن تضرب بلسانك عنقك اكل وجد خير من اكل وذم آفة المروءة خلف الوعد اذا قلت له زن طأطأ رأسه وحزن اذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تقض له حتى يأتيك خصمه فلعله فقئت عيناه ترك الذنب أيسر من طلب التوبة اتق شر من تحسن اليه الناس اخوان وشتى في الشيم بلغ السيل الزبا أجع كلبك يتبعك حافظ على الصديق

ولو فى الحريق اشتدى أزمة تنفرجى أتبع السيئة الحسنة تمحها الخيل أعرف بفرسانها رمتنى بطرفها وانسلت رب رميـة من غير رام الرياح مع السماح رب اكلة تمنع اكلات استراح من لا عقل له رب أخ لم تلده أمك رب طمع ادى الى عطب ربما كان السكوت جوابا رب ملوم لا ذنب له رب عين انم من لسان رحم الله من هدانى الى عيوبى ركوب الخنافس ولا المشى على الطنافس سبق السيف العذل زوج من عود خير من قعود سبك من بلغك السب سحابة صيف عن قليل تقشع شر أيام الديك يوم تغل رجلاه طاعة النساء ندامة اطاب تظفر طرف الفتى يخبر عن لسانه ظاهر العتاب خير من باطن الحقد عند الصباح يحمد القوم السرى الظلم مرتعه وخيم عند النطاح يغلب الكبش الاجم العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة اعقل وتوكل العتاب قبل العقاب عند الرهان تعرف السوابق عند الامتحان يكرم المرء أو يهان عند النازلة تعرف أخاك فى القمر ضياء والشمس أضوأ منه القول ما قالت حذام لقد اسمعت لو ناديت حيا أقلل طعامك يحمد منامك كل فتاة بأبيها معجبة كل كلب ببابه نباح كاد العروس أن يكون ملكا كثرة العتاب توجب البغضاء أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع الكلام انثى والجواب ذكر كل اناء يرشح بما فيه كما تزرع تحصد كل امرئ فى بيته صبى كلب جوال خير من أسد رابض لقد ذل من بالت عليه الثعالب ليس الخبر كالعيان لكل صارم نبوة ولكل جواد كبوة لكل قادم دهشة اعل لها عذرا وأنت تلوم لكل ساقطة لاقطة لكل مقام مقال لك لسان من رطب ويدان من خشب للباطل جولة ثم يضمحل ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة لكل غد طعام لكل دهر دولة ورجال لا عطر بعد عروس لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين لا يضر السحاب نباح الكلاب لا تقتن من كلب سوء جروا مقتل الرجل بين فكيه ما حك جلدك مثل ظفرك من عتب على الدهر طال عتبه معاتبة الاخوان خير من فقدهم النفس مولعة بحب العاجل هذه بتلك والبادى أظلم يا حبذا الامارة ولو على الحجارة يكسو الناس واستعارية يدك منك وان كانت شلاء

(الفصل الثالث فى أمثال العامة والمولدين) التسلط على المماليك دناءة اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر أجرأ الناس على الاسد أكثرهم له رؤية الحاجة تفتق الحيلة الحاوى لا يخومن الحيات الحية تدور والى الرحى ترجع المؤذى ردى كلما جاوته صدى الاسواق موائد الله فى أرضه السلامة احدى الغنيمتين الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ الطير بالطير يصاد اطلع القرد فى الكنيف فقال هذه المرآة لهذا الوجه الظريف العادة طبيعة خامسة الغائب حجته معه الخضوع عند الحاجة رجولية الناس أتباع لمن غلب النكاح يفسد الحب النصح بين الملا تقريع الحر تر وان مسه الضر والعبد عبد وان ملك الدر الثقل اذا تخفف صار طاعونا اضيع من حلى على زنجية العمل للزرنيخ والاسم للنورة انشط من ابر دخل نصفه البغل الهرم

لايفزعه صوت الجحيل بدن وافر وقلب كافر تزاوروا ولاتجاوروا تعاشروا كالاخوان وتعاملوا كالاجانب ثمرة المجلة الندامة جواهر الاخلاق تفضحها المعاشرة حيثما سقط لقط خذ اللص قبل أن يأخذك خذ القليل من الشيم وذمه ذل من لاسفيه له ريق العدو سم قاتل رب ساع كقاعد زكاة البدن العلل زلق الحمار وكان من سهوة المكارى زلة الرجل عظم يجبر وزلة اللسان لاتبقى ولاتذر سلطان غشوم خير من فتنة تدوم سواء قوله وبوله سفير السوء يفسد ذات البين شهر ليس لك فيه رزق لاتعد أيامه صديق الوالد عم الولد ضرب الطبل تحت الكساء طاعة الولاة بقاء العز طفيلى ويقترح عناية القاضى خير من شاهدى عدل دلت على أهلها براقش (وهو اسم كلبة نبحت فدلت على الجيش فقتلوهم) غش القلوب يظهر فى فلتات الالسن وصفحات الوجوه غنى المرء فى الغربة وطن فزمن الموت وفى الموت وقع فم يسبح وقلب يذبح فلان كالكعبة يزار ولايزور قيل للزمار تهيأ للزمر قال المزمار فى كمى والريح فى فمى كل قليل نعش كثير كلامه ريح فى قفص كالابرة تكسو الناس وهى عريانة كلمة حكمة من جوف خرب كاد المريب يقول خذونى كنت سندانا فصرت مطرقة كل مافاتك من الدنيا فهو غنيمة كلما طار قصوا جناحه لو كان المزاح خلالم ينتج الاشرا لسان الجاهل مفتاح حتفه لكل جديد لذة لوضاعت صنعة ماوجدت الافى قفاه لو كان فى اليوم خير مافات الصياد من اعتمد على شرف آبائه فقد عقهم من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا وبالله التوفيق

(الفصل الرابع فى الامثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم)

(حرف الالف)

ألا كل شئ ماخلا الله باطل * وكل نعيم لامحالة زائل
اذا جاء موسى وألقى العصا * فقد بطل السحر والساحر
اذا لم يكن فيكن ظل ولاخبا * فأبعدك الله من شجرات
اذا كنت فى فكرى وقلبى ومقلتى * فأى مكان من مكانك ألطف
اذا أراد كريم منع صاحبه * فليس يخفى عليه كيف يقنعه
اذا ماأتيت الامر من غير بابه * ضللت وان تقصد الى الباب تهتدى
اذا أنت لم تنصف أخاك وجدته * على طرف الهجران ان كان يعقل
اذا لم يكن عندى نوال هجرتنى * وان كان لى مال فأنت صديقى
الناس فى طلب المعاش وانما * بالجد يرزق منهم من يرزق
أيها السائل عما قد مضى * هل جديد مثل ملبوس خلق
* انما أنفسنا عارية * والعوارى حكمها أن تسترد
ان العدو وان أبدى مسالمة * اذا رأى منك يوما غرة وثبا
* أتمنى على الزمان محالا * أن ترى مقلتاى طلعة حر
* اذا ملك لم يكن ذاهبه * فدعه فدولته ذاهبه

* اذا ثارت خطوب الدهر يوما * عليك فكن لها ثبت الجنان *
* اذا كنت لا ترضى بما قد ترى * فدونك الحبل به فاختنق *
* ان الامور اذا بدت لزوالها * فعلامة الادبار فيها تظهر *
* اذا ضاع شيء بين أمّ وبنتها * فاحداهما لا شك ذلك آخذه *
اذا كان رب البيت بالطبل ضاربا * فلا تلم الصبيان فيه على الرقص *
* اذا ما أراد الله اهلاك نملة * سمت بجناحيها الى الجو تصعد *
اذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا * أصبت حليما أو أصابك جاهل *
* اذا لم تستطع أمرا فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع *
اذا صوّت العصفور طار فؤاده * ولكن حديد الناب عند الثرائد
* اهن عامر اكرم عليه فانما * أخو عامر من مسه بهوان *
* اذا محاسني التي اتيت بها * عدت ذنوبا فقل لي كيف اعتذر *
اخوان صدق ما رأوك بغبطة * فاذا افتقرت فقد هوى بك من هوى
اذا اعتاد الفتى خوض المنايا * فأيسر ما يمر به الوحول *
* ألم تر أن المرء تدوى يمينه * فيقطعها عمدا ليسلم سائره *
* اذا أنت لم تعلم طبيبك كلما * يسوءك أبعدت الدواء عن السقم
* اذا أنت حملت الخؤون أمانة * فانك قد أسندتها شر مسند ٥
* أكل خليل هكذا غير منصف * وكل زمان بالكرام بخيل *
* اذا أنت عبت المرء ثم أتيته * فأنت ومن تزري عليه سواء *
* أسأت اذا حسنت ظني بكم * والحزم سوء الظن بالناس *
* الحادثات اذا ألم خطوبها * فلها مساو مرة ومحاسن *
* الخير لا يأتيك متصلا * والشر يسبق سيله مطره *
* العلم ينهض بالخسيس الى العلا * والجهل يقعد بالفتى المنسوب *
* الكفر بالنعمة يدعو الى * زوالها والشكر أبقى لها *
ايادارهم ما كنت أنت بدارهم * ولا أنا مذ سار الركاب بهم أنا *
* اقلب طرفي لا أرى غير صاحب * يميل مع النعماء حيث تميل *
اذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن * قضاء ولكن ذاك غرم على غرم *

(حرف الباء الموحدة)

بنا فوق ما تشكو فصبرا لعلنا * نرى فرجا يشفي السقام قريبا
يا ملح تصلح ما تخشى تغيره * فكيت بالملح ان حلت به الغير
بني عمنا ان العداوة شأنها * ضغائن تبقى في نفوس الاقارب

(حرف التاء المثناة الفوقية)

تحن اليه أفئدة البرايا * وتهواه الخلائق للسماع
تلوم على القطيعة من أتاها * وأنت سننتها للناس قبلي

تلجى الضرورات فى الامور الى * سلوك ما لا يليق بالادب
تفرقت الظباء على حراش * وما يدرى حراش ما يصيد
تجتلى الاذن منه أحسن مما * تجتلى العين من وجوه البدور

(حرف الجيم)

جن له الدهر فنال الغنى * أملن أغفله الدهر *
جربت أهلى وأهليه فما تركت * لى التجارب فى ودا مرئ غرضا

(حرف الحاء المهملة)

حيالك من لم تكن ترجو تحيته * لولا الدراهم ما حيالك انسان

(حرف الخاء المعجمة)

خفض الجأش واصبرن رويدا * فلرزايا اذا توالت تولت
خليلى ان الحب صعب مراسه * وان عزيز القوم فيه يهان
خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة * ان الجلوس مع العيال قبيح
خيالك فى عينى وذكرك فى فمى * ومثوالك فى قلبى فأين تغيب
خن من أمنت ولا تركن الى أحد * فما نصحتك الا بعد تجربتى

(حرف الدال المهملة)

داود محمود وأنت مذمم * عجبا لذالك وانتما من عود
دعينى أنهب الاموال حتى * أعف الاكرمين عن اللئام

(حرف الذال المعجمة)

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله * وأخو الجهالة فى الشقاء منعم

(حرف الراء)

* رب مهزول سمين عرضه * وسمين الجسم مهزول الحسب
ردوا على صحائفا سودتها * فيكم بلا حق ولا استحقاق
رضيت ولا أرضى اذا كان مسخطى * من الامر ما فيه رضا صاحب الامر
* رب يوم بكيت منه فلما * صرت فى غيره بكيت عليه

(حرف الزاى)*

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغى الام ذو حسب لئيم

(حرف السين المهملة)

سرورى أن تبقى بخير ونعمة * وانى من الدنيا بذالك قانع
سوء حظى أنالنى منك هجرا * فعلى الحظ لا عليك العتاب
سبكناه ونحسبه لجينا * فأبدى الكير عن خبث الحديد
ستذكرنى اذا جربت غيرى * وتعلم انى نعم الصديق

(حرف الشين المعجمة)

شفيعى اليك الله لا رب غيره * وليس الى رد الشفيع سبيل

يشكرتك قبل الخبر ان كنت واثقا * بأنى بعد الخبر لاشك شاكر

(حرف الصاد المهملة)

صحح لنا والده اولا * وأنت فى حل من الوالده

(حرف الضاد المعجمة)

ضاقت ولولم تضق لما انفرجت * والعسر مفتاح كل ميسور

(حرف الطاء المهملة)

طويل عمر المعالى والندى أبدا * قصير عمر الاعادى والمواعيد

طوبى لاعين قوم أنت بينهم * القوم فى نزهة من وجهك الحسن

(حرف الظاء المشالة)

ظهرت خيانات الثقات وغيرهم * حتى اتهمنا رؤية الابصار

ظلمت امرأ كافته غير خلقه * وهل كانت الاخلاق الا غرائزا

(حرف العين المهملة)

علم الله كيف أنت فأعطا * ك المحل الجليل من سلطانه

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه * وليس عليه أن يساعده الدهر

عسى فرج يأتى به الله انه * لكل يوم فى خليقته امر

عتبت على عمرو فلما تركته * وجربت أقواما بكيت على عمرو

(حرف الغين المعجمة)

غنى بلادين عن الخلق كلهم * وان الغنى الا عن الشئ لابه

غلام أتاه اللوم من شطر نفسه * ولم يأته من شطر أم ولا أب

(حرف الفاء)

فلم أر كالايام للمرء واعظا * ولا كصروف الدهر للمرء هاديا

فنفسك أكرمها فانك ان تهن * عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

فصبر جميل ان فى اليأس راحة * اذا الغيث لم يمطر بلادك ماطره

فما أكثر الاصحاب حين تعدهم * ولكنهم فى النائبات قليل

فان كانت الاجسام منا تباعدت * فان المدى بين القلوب قريب

فلو كان حمدا يخلد المرء لم يمت * ولكن حمد المرء غير مخلد

فان تفق الانام وأنت منهم * فان المسك بعض دم الغزال

(حرف القاف)

قد يجمع المال غيرآكله * ويأكل المال غير من جمعه

قد زال ملك سليمان فعاوده * والشمس تنحط فى البحرى وترتفع

قد يدرك المتأنى بعض حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزلل

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه * خلق وجيب قميصه مرقوع

(حرف الكاف)

كلوا اليوم من رزق الاله وأبشروا * فان على الخلاق رزقكم غدا
* كفى زاجرا للمرء أيام دهره * تروح له بالواعظات وتغتدى
* كنت من كربتي افر اليهم * فهم كربتي فأين الفرار *
* كانوا بني ام ففرق شملهم * عدم العقول وخفة الاحلام
* كل المصائب قد تمر على الفتى * فتهون غير شماتة الاعداء
* كأنك من كل النفوس مركب * فأنت الى كل الانام حبيب
* كالكلب ان جاع لم يمنعك بصبصة * وان يبل شبعا ينهج من الاشر

(حرف اللام)

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي * اذا هو لم يجعل له الله واقيا
لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها * ولكن أخلاق الرجال تضيق
للموت فينا سهام وهي صائبة * من فاته اليوم سهم لم يفته غدا
* لو أن خفة عقله في رجله * سبق الغزال ولم يفته الارنب
لو كان ما بي في صخر لاثر فيه * فكيف يحمله خلق من الطين
لعمرك ما الايام الا معارة * فما اسطعت من معروفها فتزود
لكل امرئ حالان بؤس ونعمة * وأعطفهم في النائبات أقاربه

(حرف الميم)

من يحمد الناس يحمدوه * والناس من عابهم يعاب *
* من لم يعدنا اذا مرضنا * ان مات لم نشهد الجنازه *
متى يبلغ البنيان يوما تمامه * اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
من كان فوق محل الشمس رتبته * فليس يرفعه شئ ولا يضع *
من الناس من يغشى الاباعد نفعه * ويشقى به حتى الممات اقاربه
ما كان في الخدع من أمركم * فانه في المسجد الجامع
* ما قام عمرو في الولا * ية قائما حتى قعد *

(حرف النون)

تسود أعلاها وتأبى اصولها * وليس الى رد الشباب سبيل
* نحن بنو الموتى فما بالنا * نعاف ما لابد من شربه
ندمت ندامة الكسعي لما * رأت عيناه ما صنعت يداه

(حرف الهاء)

هناكم الله بالدنيا ومتعكم * بما تحب لكم منها وترضاه *
هل بالحوادث والايام من عجب * أم هل الى رد ما قد فات من طلب
هب الدنا تقاد اليك عفوا * أليس مصيرها الى الزوال
* هنيأ لمن لاذاق للدهر لوعة * ولم تأخذ الايام منه نصيبا
هم يحسدوني على موتة * حرمتها حتى على الموت لا أخلو من الحسد

(حرف الواو)

ولم اركالمعروف أمامذاقه * فحلوأماوجهه فجميل *
واذا خشيت من الامور مقدرا * وهربت منه فنحوه تتوجه *
والرزق يخطئ باب عاقل قومه * ويبيت بوابا بباب الاحمق *
* ولايغرك طول الحلم منى * فمابدا تصادفنى حليما *
* ولاخير فيمن لايوطن نفسه * على نائبات الدهر حين تنوب
واذا اتتك مذمتى من ناقص * فهى الشهادة لى بانى كامل *
* ومالامرء خير فى حياة * اذاماعد من سقط المتاع *
ومالمرء الاكالهلال وضوئه * يوافى تمام الشهر ثم يغيب *
وقد تسلب الايام حالات اهلها * وتعدو على اسد الرجال الثعالب
ومن يأمن الدهر الخؤون فانى * برأى الذى لايأمن الدهر اقتدى
واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد * ذخرا يكون كصالح الاعمال
ومن يكن الغراب له دليلا * يمر به على جيف الكلاب *
ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا * من الزاد يطرح نفسه أى مطرح
ولربما منع الكريم ومابه * بخل ولكن سوء حظ الطالب
ولابات يسقينا سوى الماء وحده * وهذا جزا من بات ضيف الضفادع
ومن عاش فى الدنيا فلابد أن يرى * من العيش مايصفو ومايتكدر
ولو دامت الدولات دامت لغيرنا * رعايا ولكن مالهن دوام
وأحسن فان المرء لابد ميت * وانك مجزى بما كنت ساعيا
* ولاترين الناس الاتجملا * وان كنت صفر الكف والبطن طاويا
ومالامرئ طول الخلود وانما * يخلده طول الثناء فيخلد
* ولرب نازلة يضيق بها الفتى * ذرعا وعند الله منها المخرج
* وكان رجائى أن اعود ممتعا * فصار رجائى ان أعود مسلما
* وتجلدى للشامتين اريهم * أنى لريب الدهر لااتضعضع *
ولابد من شكوى الى ذى مروأة * يواسيك أو يسليك أو يتوجع
* وهون حزنى عن خليلى أننى * اذا شئت لاقيت الذى مات صاحبه
* ويوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر *

(حرف اللام ألف)

لاتظنن الى الجهالة والحجى * وانظر الى الاقبال والادبار
لاتسأل المرء عن خلائقه * فى وجهه شاهد من الخبر *
* لايصبر الحر تحت ضيم * وانما يصبر الحمار *
* لاتنه عن خلق وتاتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم *
* لايبالى الشتم عرض * كله شتم وذم *

لاتنظرن الى امرئ ما اصله * وانظر الى أفعاله ثم احكم
لايسكن المرء فى ارض يهان بها * الا من العجز أو من قلة الحيل
لايقبلون الشكر مالم يتمموا * نعما يكون لها الثناء تبيعا
لاأسأل الناس عما فى ضمائرهم * ما فى ضميرى لهم من ذا يكفينى

(حرف الياء المثناة التحتية)

* يفر من المنية كل حى * ولا ينجى من القدر الحذار *
يريك الرضا والغل حشو جفونه * وقد تنطق العينان والفم ساكت
* يهم بهم للشعير اذا رآه * ويعبس ان رأى وجه اللجام *
* يفارقنى من لا أطيق فراقه * ويصحبنى فى الناس من لا أريده *
* يزيد تفضلا وأزيد شكرا * وذلك دأبه أبدا ودأبى *
يراسى الغراب الذئب فى كل صيده * وماصادت الغربان فى سعف النخل
* يهون علينا أن تصاب جسومنا * وتسلم أعراض لنا وعقول *
* يغر الفتى مر الليالى سلمة * وهن به عما قليل غوائر *
* يغيظنى وهو على رسله * والمرء فى غيظ سواه حليم *
* يريك البشاشة عند اللقا * ويبريك فى السر برى القلم *

(الفصل الخامس فى الامثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم)

(حرف الالف)

ان كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك * اذا ابغضك جارك حول باب دارك * اذا كان صاحبك عسل لاتلحسه كله * المستعجل والبطى عند المعدية يلتقى * ألف ذقن ولا سلام عليكم * ألف ذقن ولا ذقنى * اذا غاب عنك اصله كانت دلائل نسبته فعله * اذا وصلت وسلم الله بع بما قسم الله * اذا كنت أعمى واطروش شم رائحة النقوش * اذا كان النبيذ دردى والعشيق كردى والنقل قول حار والعشا بيسار ايش يكون الحال * اذا كان القطن احمر * والمغسل اعور * والدكة مخلعه * والنعش مكسر * اعلم أن الميت من اهل سقر والوادى الاحمر * ايش يقع الضراط عند طلوع الروح * قال تقريف للحاضرين وتفريق للملائكة * الغشر والنشر والعشا خبيزه * اكل الدقه والنوم فى الازقه ولا دجاجه محمره يعقبها مشقه * ايش انت فى الحاره يامخلل بلاطاره * الرجم بالطوب ولا الهروب * اذا وقعت يافصيح لاتصيح * أقرع يقول لاقرع امشى بنا نزرع فى بركة القرعان ايش ماطلع يطلع النصف لى والربع لى والثمن لى والثمن الآخر لك ولى * العدو مايبقى حبيب حتى يصير الحمار طبيب اقعد يا حمار حتى ينبت لك الشعير * أى موضع راح الحزين يلقى جنازة * قال الشاعر

* ان دام هذا السير يامسعود * لاجمل يبقى ولا قعود

غيره

اذا لم تكن لى والزمان شرم برم * فلا خير فيك والزمان تراللى

غيره

اذا أقبلت كادت تقاد بشعرة * وان ادبرت كادت تقد السلاسلا

(حرف الباء الموحدة)

بينما يترقى البخيل قضى الكريم حاجته * بينما يسعد المعتر فرغ عمره * بينما أصل قبره نسيت همه * بينما يعدل المعتر حاله جا الموت شاله * بينما يخاص ربنا حتى انفرقعت جوزة حلقي * بينما يقطع الجريد * يفعل الله ما يريد * بينما يجي الدرياق من العراق يكون الملسوع مات * بين حانه وبانه حلقت لحانه * بدوى مقروح لقى التمر مطروح اين يخلى ويروح * بدال لحمك وقلقاسك هات لك شد على راسك * بدال اللحمه والباذنجان هات لك قيص ياعريان * بدال لحمك التلاته هات لك شد ياشماته * بقى للكلب سرج وغاشيه وغلمان وحاشيه * بقى للخرا مرا ويحلف بالطلاق * بعد الجوع والقله بقى لك حمار وبغله

(حرف التاء المثناة فوق)

تموت الحدادي وعينها في الصيد * تعالوا بنا نفتيح ونرجع غدا نصطلح * تدحرج الحرا لعند البعر قال له ايش انت قال له بزم قردش * ترك الفضول من حزم العقول * تراب العمل ولا زعفران البطالة * تسكر وتخانق ماهو شئ موافق * تجارة الاحمق على أهل بيته * تضارب الريح مع الموج جا الهم على النواتيه * تزاوروا ولا تجاوروا * تبات نار تصبح رمادلها رب يدبرها

(حرف الثاء المثلثة)

ثوب العبرة مايدفى * ثقيل واسمه صخر بن جبل * ثور علقوه اغمى عليه قال حتى يطلع شئ يرشوه عليه * ثور عاجز مايدور ساقيه * ثقيل من اولاد الزنا مر العنا * ثوب عليه وثوب على الوتد قال انا اليوم أحسن من كل من في البلد

(حرف الجيم)

جور القط ولا عدل الفار * جمل موضع جمل يبرك * جهد المقل دموعه * جمل بحبه قال واين المحبه * جيت اصطاد صادوني * جارله حق وجار ماله حق وجار لا صحبته عافيه * جارك مرآتك ان لم ينظر وجهك نظر قذاتك * جا كتاب من عند خاله قال كل من هو في حاله * جا كتاب من عند عمه قال كل من هو ملهي بهمه * جاز اينعلوا خيل الباشا مدت ام قويق رجلها * جوزوه اله مالها الاله * جوزوا مشكاح لريمه ما على الاثنين قيمه

(حرف الحاء المهملة)

حاجة لا تهمك وصى عليها زوج أمك * حول حبيبي ما عونه * وقدرته مع كانونه * حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت * حلينا القلوع واريسنا واصبحنا على ما أمسينا * حب وواري واكره وداري * حدتني ونصحتني عايرتني وفرحتني * حط فليسك في كمك واشتري ابولك واتمك * حبة قرض تخرب أرض

(حرف الخاء المعجمة)

خديني وارغبي فيه انا حصاد ملوخيه وعند الخبز آكل ميه وعند الشغل مالي نيه

* خبثت لى وصلحت لك * خذ ذا الصبى فوق صبيانك * تمام لاحزانك * خزينة فى جره وملحه فى صره * خبزه بلا ادام ويعزم على الجيران

(حرف الدال المهملة)

دار الظالم خراب ولو بعد حين * درهم لك ودرهم عليك لا لك ولا عليك * دواء ما لا تشتهى النفوس تجميل الفراق

(حرف الذال المعجمة)

ذا درب ما يستريح * ذى ماهى زمانه الا قلوب ملانه * ذا لى وذا ايدى عليه * ذى مايده ما يقعد عليها طفيلى * ذا الخبز ما هو من ذا العجين * الولد خرا من ظرفه كل من شال رجليه حك انفه * ذكروا مصر القاهره قامت باب اللوق بحشايشها * ذكروا المدن جاءت القرى تجعل

(حرف الراء المهملة)

راح ذا الزمان بناسه وجا هذا الزمان بفاسه وكل من تكلم بالحق كسروا راسه * رأوا حجار راكب حيط قالوا الى أين يا حجار قال مسافر قالوا من كانت هذه المطيه معطيته لا يشرق ولا يغرب * رأوا سكران يقرأ قالوا غن تشاكل روحك * رأوا شيخا يتهجى قالوا يختم على الصراط * رأوا وردانه على سنداس قالوا ما الذى الفستيه الاذى البلطيه * رأوا على قبر مكتوب باسعادة ساكنه قالوا ابصر من يزاحمه * راكب بلاش ويناغش مراة الريس * ركبتك وراى حطيت يدك فى الخرج * راح الجندى * وخلى خلقه عندى * رزق الكلاب على المجانين راسين فى عمامه ما يكون * راحت على جمل وجات على قطه قال ما الذى الشيله الاذى الحطه قال الشاعر

راح الذى كانت * من بفضله بين الورى
وبقى الذين حياتهم * ووجودهم مثل الخرا

(حرف الزاى المعجمة)

زقزوق على بركه يضحك وهو ضحكه * زاويه بلا عيش بنيت ليش * زوج القصيره يحسبها صغيره * زوجت بنتى اقعد فى دراها جاتنى وأربعه وراها قال الشاعر

زوجت بنتى تنستر * ويمتلى بيتى قماش
جا غزلها فى اكلها * وينكها اطلع بلاش

زنبور زن على جر مسن قال له ايش تريد قال الحسك قال انا الحس البولاد * زنبور زن على فلس جحش قال له ايش تطلب قال له عسل قال له قصدت معدن باد ندن

(حرف السين المهملة)

سل المجرب ولا تسل الطبيب * سمك مسحر قال فرغ رمضان * سمك حبل قال وطولت * سمك راجع قال ان شاء الله تجى الحق سبع وزرولا استر قال الشاعر

سيغنى الله عن بقراط دن * ويأتى الله باللبن الحليب

وقال آخر

سيغنى الله عن زيد وعمرو * ويأتى الله بالفرج القريب

*(حرف الشين المعجمة)

شره ووضيع ويغضب سريع * شئ ما نابه وتقطعت ثيابه * شعر يحلق وشعر ما يحلق * شرب السموم القاتلة ولا الحاجة الى السفل * شمنى ولا تدمكنى * شئ ما يجى على القلب عنايته صعبه * شرا العبد ولا تربيته * شخت بغله عامت زبله * ركبت خنفسه زمر زنبور قال ماذا الجوق الجليل الا لمقطعات النيل

(حرف الصاد المهملة)

صام سنه وفطر على بصله * صبرى على الحبيب ولا فقده * صاحب يضر عدو مبين * صباح الفوال ولا صباح العطار * صباحك يا أعور قال ذى خناقه بايته * صباح الخير يا جارى انت فى دارك وانا فى دارى

(حرف الضاد المعجمة)

ضرب الحبيب كأكل الزبيب * ضربتين فى الراس تعمى * ضرب وبكى وسبق يشتكى * ضربة على كيس غيرى كانها فى عدل حنا * ضمنوا حداية لغراب قال الكل يطيروا * ضربوا بياع الكسبره خرى بياع التوم قال ذى داهيه جات على الخضريه

(حرف الطاء المهملة)

طارت الطيور بأرزاقها * طفيلى ويجلس فى الصدر * طفيلى ويقترح * طويل الكم خطار قليل الفرح فى الدار * طبق وجاريه على صحن بساريه * طبلوا جاكم عثمان يد من ورا ويد من قدام * طعامك ما جانى ودخانك اعمانى * طار طيرك وأخذ غيرك * طول ما أعيش يكفينى رعى الحشيش * طول الغيبه وجانا بالخيبه

(حرف الظاء المعجمة)

ظهرك عندى نصف الليل

(حرف العين المهملة)

عنقود سدلى فى الهوا من لا يصل اليه يقول حامض ولا استوى عشق بداله لا اباله * عاشق ما يسمع بكا صغير * عاشق ما يسمع كلام مفارق * عاشق مقل شى ما زرع ابش جايستغل * عزومه حسبت عليك كل وبحلق عينيك * عند الخاضه بيان القليط * عند الطعان بيان الفارس من الجبان * عريان التينه وفى حزامه سكينه * عريان وفى كمه ميزان

(حرف الغين المعجمة)

غابت السباع ولعبت الضباع * غربه وكربه ما يحمل الحال * غطاس وقلقاس نحسين فى قدره * غالى السوق ولا رخيص البيت

(حرف الفاء)

فرجه بلا كسر تعمى البصر * فقير ونفير وكلامه كثير ويقول هانوا عشانه يخفى * فوق الشراطه ملح اودانه * فارس خراويسوق فى الوحل * فارس خراواسمه عنتر * فارس خراويسابق الخيل * فرد ضربه فى الراس تكفى * فصدوا قرد ضرط قالوا به دم زايد *

فرغت الرعانه ياجانم

(حرف القاف)

قالوا للاعمى زوّق عصاتك قال هو انا محب فيها * قالوا للحمار اجتر قال مضغ المحال ما ينطلى قالوا للقرد شب قال ايادى ملاح وتمسك الماصول * قالوا للقرد اطلب من ربك قال هو انا عنده بوجه بسط * قالوا للجمل زمر قال لا شفف ملومه ولا ايادى مفروده قالوا للدبه طرّزى قالت ذى خفة ايادى * قالوا للكلاب احرثوا قالوا ما جرت بهذا عاده * قالوا للغراب مالك تسرق الصابون قال الاذى طبعى * قالوا للبقر الديوان اذا متم يكفنوكم فى حرير قالوا اشتهينا نروح بجلودنا * قالوا للغزاله ارحلى حرّكت ذنبها * قالوا للعرب ارحلوا حملوا المناسف

(حرف الكاف)

كل من عوّدته بأكلك كلما نظرك جاع * كشكار دائم ولا علامة مقطوعه * كل كره واشرب كره ولا تعاشر كره * كل هم كاوى عند همى ياوى * كل شئ لا يشبه قانيه حرام * كل مائة عصفور ما يجوا حدّايه * كل ألف مصه ما يجوا بغصه * كل ألف بوسه ما يجوا بعبوسه * كملت يالحمان بالشعره والصنان * كمل حبيبى كل المعانى * اعرج وقيليط ومعجبانى * كمل حبيبى واكمل اعرج وقيليط واحول * وفيه عاده اخرى لمن يواصل يخرا * كانه خان للفجر لا يوحشه من غاب ولا يؤانسه من حضر * كانه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار * كانه عصفور ينيك بلاش ويأوى فى الاعشاش

(حرف اللام)

*لولاك يا كمى ما اكلت يافمى * لولاك يالسانى ما انسكيت ياقفاى * لولا الغيره والحسد كانت عجوزه كفت بلد * لولا اختك ما صرت ابن عمتك * لو قلبناها بليه ما جات هكذا * لو كان فيها خير ما رماها طير * لك وعليك ما يصعب عليك * لك اسوة بغيرك * لقمه بدقه ولا خروف بزقه * لقمه تحت حيطه ولا خروف بعيطه * لو سلم الكرم من حارسه طابت مغارسه * لو تقطع يده وتدليها من فيه صنعه ما يخليها * لو عمل لى من الذهب وليمه هو عندى بتلك العين القديمه * لو شال راسه الى السما كانه عصيده بما * لو نظر الجمل لصنمه كان كدمه * لولا الكشط والبرايه ما كانت اولاد الخرا كتاب *

(حرف الميم)

محبه بلا حبه ما تساوى حبه * ما شلتك يادمعتى الا لشدّتى * من عاشر غير جنسه دق الهم صدره * من قدّم النحس تعب فى تأخيره * من عاشر الحدّاد احترق بناره * من عاشر الزبدانى فاحت عليه روايحه * من ركب فى غير سرجه وغرزه دخل الهوا استه وهزه من لا يحط يده لزنده ما يعرف حرّه من برده * ما رأيتك يانور حتى ابيضت العيون * مالى على فراقكم جلد الاهجاجى من البلد * ما كفاناهم ابونا قام أبونا جاب أبوه قال خذوا جدّكم ربوه * من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به * من يكلم القبح يروح عرضه وينفضح * ما تنقدوهم كلهم زغليه ما فيهم من يعجب النقاد

(حرف النون)

نوابه تسند الجره قال وتسند الزير الكبير * نفسك اتلفت أى شئ اخلفت * نصف البلا ولا البلا كله * ناقص ونحاس * ناموسه بت على شجرة أصبحت تقول خاطرك قالت لها وأنت كنت على أى ورقه * نيتك مطيتك * نسيت بافلاح ما كنت فيه كعبك المشقق والوحل فيه نيك حتى تبقى ديك

(حرف الهاء)

هانت الزلابيه حتى أكلها بنو وائل * هان المسك وانتثر * هدية تعرفوها تخلبنها ولا لومها * هدية الاحباب على ورق الداب قال هو أعمى عن ورق الموز * هو عرس تاكل وتنسل اهدوا هدية وأعينهم فيها يقولوا الله يردها * هانوا اذا الغزل المخبل لذا الثقاب المدبل

(حرف الواو)

واحد نتفه وآخر لقفه وقال آخر يا قريب الفرج * واحد يخطبوا له وهو قائم عليه قال أنا فى حاجتك * واحد جائز رأى قرد يجرش ترمس قال ما الذى الفاكهة البدرية الاذى الصورة القمرية * واحد سموه عنبر وصنعته سرباتى قال الذى كسبه فى الاسم خسره فى الصنعه * وحش ويكش ويقعد فى الوش ويغنى باينا بكم * وقت أكل الدجاج ما يفتكرونى وفى وقت شيل التراب هات يدك * وايش قام على تومه بفصل الحكومه * وقت الشوا والبخنى ما قلت يا أخى الحقنى * ورقت ضرب الدره قلت اصنعوا واصفعنى

(حرف اللام الف)

لا تعيرنى ولا أعيرك الدهر حيرنى وحيرك * لا أصل شريف ولا وجه ظريف * لا أخول ولا ابن عمك تشق ثوبك على ايش * لا عاش يليق لا حراس ولا دراس * لا عاش العار ولا بنى له دار * لا ربح ثوابه ولا خزه لاصحابه * لا فى الفراق نجد راحه ولا فى الوصل * لا تشكرن فتى حتى تجربه * لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجى * لا يضر السحاب نبح الكلاب * لا يغرك تطريق الاصل فى ترينى

(حرف الياء)

يا شب مليح ما أحسن وصفك لا فى يدك ولا فى طرفك * يا ويل من ذاق الغنى بعد جوعه * يموت وفى قلبه من الهم واجس * يا طارق الباب بعد العشى لا تطرق الباب ما تم شى * يا من ملنا ما كان حلنا لسا ما لنا فى العشره سنه * يهنيكم قدومه قد جاكم بشومه بالينا انكسرنا ولا بك انتصرنا * يا ويل من كان عشيه من بيت خيه يا طالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر

(أمثال النساء حرف الالف)

أحبك يا سوارى مثل معصمى * الذى فى قلب ام حنين يحلم به فى الليل * ان كنتى حره لا تضيعى نقابك بره * ان لم تعملى وتفتخرى والا اقعدى وانغرى * ان كانت الدايه أحن من الوالده قال ذى داهيه عياره * الكلام لك يا جاره الا انتى جاره * ايش تعمل الماشطه فى الوجه المشؤم * ايش قام على الحزينه بالنقش والزينه * ايش ينفع النفخ فى الوجه الاصم * ارمله

عدس ومتزوجه عدس اقعدي بعدسكي * اسم الزوج ولاطعم الترمل * العاقله فينا تزني بيقطينا * اذا كان زوجي راضي ايش فضول القاضي * استعارت الرعنه شئ حسبته لها أخذت المقص ودارته لها * اقعدي في عشك حتى يجي حدينشك

(حرف الباء الموحدة)

بعدان كنتي لي وحدي بقيت أسمع أخبارك * بعد سنه وشهرين جابت بنت بشفرين * بعد ان كان زوجها بقي طباخ في عرسها * بعد مشيك في الحلقه بقي لك سلالم وغرفه واسمك ستيته * بعد أمي وأختي الكل جيراني * بينما تنقب الحوله انصرف القاضي * بنت الخراتزف لابن الخرابدف باتت ناموسه على جيزه قالت صبحك الله بالخير قال مين دري بك قبله * بدال ماتمشي وتهزي كتفك وقعي فردة خفك * بخراوتزاحم بالبوس * بقي لاتم سيسي برقع والضفدعة زماره * بعد مشيك في الحلا في لبستي الصافي * بعيد على الحزينه تستعمل الزينه

(حرف التاء)

تابت القحبه يوم وليله قالت مابقي في البلد حكام * تضاربت المجنونه والحقا حسبتها الرعنه من حقا * تضارب وتعرّى وتصيح ياقله رجالي * تأخذوا أبونا وتكابرونا ترتانه وبيانه ومفاتيح الخزانه * تباهت الرعنه بشعر بنت اختها تخلوني والا استحل بجارنا قالت اذا كان ذا في قلبك خذيه بلا استحلال * تتغمى بالخرج ولاتخلي الغنج * تقعد عيوشه في ديارتها مالاحد حاجة في زيارتها

(حرف الثاء)

ثوب سيدي ثوب حبيبي * ثوب ستي ثوب لقبه

(حرف الجيم)

جاره بجاره والعدا وخساره * جاني عذولي ورتاني ماهي محبسه الاشمانه لي * جاريه وزبديه على باذنجانه مقليه * جاتنا العدوه مكحله قطران لاغيره وقلبها فرحان * جاب ثيابه يغسلهم بلاصابونه معهم

(حرف الحاء المهملة)

حوله وتنقب بخ * حزانا ماعندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق * حزانا ماعندهم خبز اشتروا لهم بعشره ملوخيه * حزينه وواعيه * حبله ومرضعه وعلى كتفها أربعه وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل * حوله ونصرانيه لاملوخيه ولا أصل طيب * حزينه مالها مملوك سمت زنبورها خوشكندم * حزينه مالها ملك اكترت لها بواب * حزينه مالها كامليه طلبت لها خف وشعريه

(حرف الخاء المعجمة)

خطبوها تعززت وكان زمان البوار * خلت زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب * خذي قطيفه واكتمي سرّي قالت مايطاوعني قلبي * خلت مايعنيها واتبعت حك رجليها

(حرف الدال المهملة)

دري زوجك يكتبتك تمي نهار لشمع ليتك * دق من أسفل ولاتطلع ما انت على القلب

(حرف الذال المعجمة)

ذكرت العجوز اطلالها

(حرف الراء)

رقصتي ما احسنتي كان قعادك اجل * رعنا يضحكوا بها وهي تضحك تساعدهم * رأوا جاموسه منقبه بحصير قالوا مالذا الشكل الوضيع الاذا القماش الرفيع * راحت تبيع ربعه غابت جعه * راحت رجال الهيبة وبقيت رجال الخيبة * راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالفسفاس * رأوا خنفسه على مكدسه قالوا مالذى الصيفه الاذا الحمار الازعر

(حرف الزاى)

زمر بالزمبرة تبان لك العاقلة من المجنينة * زوجي ما حكم على قام لى عشيقي بنسمه * زوجوا بنت نشادري لسرباتي قالوا قليلات الخراتند حرج لبعضها

(حرف السين المهملة)

سودا وتنقش بسباخ * سودا منقبة قفل على خزانة * سألوها عن أبيها قالت جدى شعيب

(حرف الشين المعجمة)

شدى قرطاسك من عند موسه قالوا دا شي ما فرحتي به وانتي عروسه * شامته ومعزبه

(حرف الصاد المهملة)

صارت القحبه واعظه * صارت القويقه شاعره

(حرف الضاد المعجمة)

ضحك ابن سنه نمى على امه قالت ما اخف دمه

(حرف الطاء المهملة)

طلعت ترحم نزلت تتوحم

(حرف الظاء المعجمة)

ظريفة وعنيفة ولها نفس شريفه

(حرف العين المهملة)

عميا تخفف مجنونه وتقول حواجبك سود مقرونه * عاقله وجابت طفله وجاتها خطار واشتروا لها قلقاس ذكر وحطب اخضر فى نهار مطر وقالوا لها اطبخي على قدر لحمه تقع الصلحه * عجوزه وجابت غلام اذا جنت لاتلام * عجوزه وخرفانه دى داهيه كمانه

(حرف الغين المعجمة)

غيرك يقوم مقامك عليش قلبي أعذبه

(حرف الفاء)

فرحت حزينه خربت مدينه

(حرف القاف)

قالوا للمغانى اتزوّقوا قلبوا عصايبهم * قحبه ما كنست بيتها كنست المسجد * قالوا دى قحبه تطلب الثواب

(حرف الكاف)

كل من تبعت هواها صارت سرا وبلها رداها * كبرتى يا برقوقه وبقى لك دبوقه * كانوا مغانى صاروا ملاهى لا راحت ولا جات كما هى * كلى قليه وباتى هنيه * كانها من الباسطيه قماش على جريده * كانها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر * كانها من عمايم اليهود صفرا طويله رفيعه * كانها من بيت الوالى ما يتحدث فيها سوى الحاشيه * كانها ضبة جعيدى مخلوعه ولا تاخدشى

(حرف اللام)

لو كان ما ينقش الا السمان بارت المواشط من زمان * للساعة ما حبلت جابت المرسين * * لولا المعاير ما كانت الحراير

(حرف الميم)

ماشطه وتمشط بنتها * من افتكرنا بياسمينا ما نسينا

(حرف النون)

نوايه تسند الجره قال وتسند الزير الكبير

(حرف الهاء)

هش يا دبانه أنا حبلى من مولانا *

(حرف الواو)

وجه لا يرى بالذهب يشترى

(حرف اللام الف)

لا انتى مليحه ولا تغنى بايش تدلى

(حرف الياء)

يعيش المدلل بلا مكلل * يا غزالة الاقمار اين كنتى بالنهار * يا ما تحت النقاب والشعريه من كل بليه * يا من ملنا ما كان حلنا * للساعه ما لنا فى العشره سنه

(الباب السابع فى البيان والبلاغة والفصاحه وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول)

(الفصل الاول فى البيان والبلاغة) امّا البيان فقد قال الله تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان وقال صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا قال ابن المعتز البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول * وأمّا حده فقد قال الجاحظ البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى * وأمّا البلاغة فانها من حيث اللغة هى أن يقال بلغت المكان اذا اشرفت عليه وان لم تدخله قال الله تعالى فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى أم لكم ايمان علينا بالغة أى وثيقة كانها قد بلغت النهاية وقال اليونانى البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة وقال الهندى البلاغة تصحيح الاقسام واختيار الكلام وقال الكندى يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ

كثير المعانى * وقيل ان معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس فقال أقلهم لفظا وأسهلهم معنى واحسنهم بديهة ولو لم يكن فى ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم وافتخر به حيث يقول نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم وذلك انه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعانى الكثيرة * وقيل ثلاثة تدل على عقول أصحابها الرسول على عقل المرسل والهدية على عقل المهدى والكتاب على عقل الكاتب * وقال أبو عبد الله وزير المهدى البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة * وقال البصرى خير الكلام ما قل ودل وجل ولم يخل * وقالوا البلاغة ميدان لا يقطع الا بسوابق الاذهان ولا يسلك الا ببصائر البيان قال الشاعر

لك البلاغة ميدان نشأت به * وكلنا بقصور عنك نعترف

مهما لى العذر فى نظم بعثت به * من عنده الدر لا يهدى له الصدف

(وروى) أن ليلى الاخيلية مدحت الحجاج فقال يا غلام اذهب الى فلان فقل له يقطع لسانها قال فطلب حجاما فقالت ثكلتك امك انما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة فلولا تبصرها بأنحاء الكلام ومذاهب العرب والتوسعة فى اللفظ ومعانى الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل * وقال الثعالبى البليغ من يحول الكلام على حسب الامالى ويخط الالفاظ على قدر المعانى والكلام البليغ ما كان لفظه فخلا ومعناه بكرا * وقال الامام فخر الدين الرازى رحمة الله تعالى عليه فى حد البلاغة انها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما فى قلبه مع الاحتراز عن الايجاز المخل والتطويل الممل ولهذه الاصول شعب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق الى أقوم طريق

(الفصل الثانى فى الفصاحة) قال الامام فخر الدين الرازى رحمة الله تعالى عليه اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد وأصلها من قولهم أفصح اللبن اذا أخذت عنه الرغوة وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة بل يستعملونهما استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد فى تسوية الحكم بينهما ويزعم بعضهم أن البلاغة فى المعانى والفصاحة فى الالفاظ ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح * وقال يحيى بن خالد ما رأيت رجلا قط الا هبته حتى يتكلم فان كان فصيحا عظم فى صدرى وان قصر سقط من عينى * وقد اختلف الناس فى الفصاحة فمنهم من قال انها راجعة الى الالفاظ دون المعانى ومنهم من قال انها لا تختص الا لفاظ وحدها واحتج من خص الفصاحة بالالفاظ بان قال نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح وهذه الالفاظ فصيحة ولا نرى قائلا يقول هذا معنى فصيح فدل على أن الفصاحة من صفات الالفاظ دون المعانى وان قلنا انها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح وذلك غير مألوف فى كلام الناس والذى أراه فى ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف فى الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحا حسنا * ومن المستحسن فى الالفاظ تباعد مخارج الحروف فاذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة فى مواضعها غير قلقة ولا مكدودة والمعيب من ذلك كقول القائل

لو كنت كنت كمت الحب كنت كما * كما وكنت ولكن ذاك لم يكن

وكقول بعضهم أيضا

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه * ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وكقول الآخر

وقبر حرب بمكان قفر * وليس قرب قبر حرب قبر

قيل ان هذا البيت لا يمكن انشاده في الغالب عشر مرات متوالية الا ويغلط المنشد فيه لان القرب في الخارج يحدث ثقلا في النطق به وقيل من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه السلام على مصر وملك زمام الامور وأطلعه ملكها على الخفي من أمره والمستور قال الشاعر

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * ولم يبق الا صورة اللحم والدم

وسمع النبي صلى الله عليه وسلم من عمه العباس كلاما فصيحا فقال بارك الله لك ياعم في جمالك أي فصاحتك * وعرضت على المتوكل جارية شاعرة فقال أبو العيناء يستجيزها أحمد الله كثيرا * فقالت * حيث أنشأ لك ضريرا * فقال يا أمير المؤمنين قد أحسنت في اساءتها فاشترها * وقال فيلسوف كما أن الآنية تمتحن باطنانها فيعرف صحيحها من مكسورها فكذلك الانسان يعرف حاله من منطقه * وقال المبرد قلت للمجنون أجز في هذا البيت

أرى اليوم يوما قد تكاثف غيمه * وابراقه فاليوم لاشك ماطر

فقال

وقد حجبت فيه السحائب شمسه * كما حجبت ورد الخدود المحاجر

وقال عبد الملك لرجل حدثني فقال يا أمير المؤمنين افتتح فان الحديث يفتح بعضه بعضا * وقال الهيثم بن صالح لابنه يابني اذا أقللت من الكلام اكثرت من الصواب قال يا أبت فان أنا اكثرت اكثرت يعني كلاما وصوابا قال يابني ما رأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك * وقال الشعبي كنت احدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فأقول أجزها أصلحك الله فان الحديث من وراء ذلك فيقول والله لحديثك أحب الي منها * وقال ابن عيينة الصمت منام العلم والنطق يقظته ولا منام الا بيقظ ولا يقظة الا بمنام قال ابن المبارك

وهذا اللسان بريد الفؤاد * يدل الرجال على عقله

ومر رجل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه ومعه ثوب فقال له أبو بكر أتبيعه فقال لا رحمك الله فقال أبو بكر لو تستقيمون لقومت ألسنتكم هلا قلت لا ورحمك الله * ومنه ما حكي أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء فقال لا وايد الله أمير المؤمنين فقال المأمون ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها وكان الصاحب يقول هذه الواو وأحسن من واوات الاصداغ ويقال اللسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم وقال بعضهم شعرا

سحبان يقصر عن بحور بيانه * عجزا ويغرق منه تحت عباب

وكذا الذي قس ناطق بعكاظه * يعيا لديه بحجة وجواب

وقيل انه جمع ابن المنكدر شابان فكانا اذا رأيا امرأة متجملة قالا قد أبرقنا وهما يظنان

أن ابن المنكدر لا يغطن فرأى باقبة فيها امرأة فقالا بارقة وكانت قبيحة فقال ابن المنكدر بل صاعقة * وكان أصحاب أبي علي النقي اذا رأوا امرأة جميلة يقولون حجة فعرضت لهم قبيحة فقالوا داحضة * وكتب ابراهيم بن المهدي اياك والتتبع لوحشي الكلام طمعا في نيل البلاغة فان ذلك العناء الاكبر وعليك بما سهل مع تجنبك لالفاظ السفل * ويقال القول على حسب همة القائل يقع والسيف بقدر عضد الضارب يقطع * وقال الاحنف سمعت كلام أبي بكر حتى مضى وكلام عمر حتى مضى وكلام عثمان حتى مضى وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة * وقال معاوية رضي الله عنه ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها ما أغلقت بابا فأرادات فضه الا فضته ولا فتحت بابا فأرادت اغلاقه الا أغلقته * ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الرمز وهو من الذكاء والفصاحة ما حكي أن رجلا كان أسيرا في بني بكر بن وائل وعزموا على غزو قومه فسألهم في رسول يرسله الى قومه فقالوا لا ترسله الا بحضرتنا لنحذرهم وتحذرهم فجاؤا بعبد أسود فقال له أتعقل ما أقوله لك قال نعم اني لعاقل فأشار بيده الى الليل فقال ما هذا قال الليل قال ما أرالك الا عاقلا ثم ملأ كفه من الرمل وقال كم هذا قال لا أدري وانه لكثير فقال أيما أكثر النجوم أم الشعران قال كل كثير فقال أبلغ قومي التحية وقل لهم يكرموا فلانا يعني أسيرا كان في ايديهم من بني بكر بن وائل فان قومه لي مكرمون وقل لهم ان العرفج قد دنا وشكت النساء وأمرهم أن يعروا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها وأن يركبوا جملي الاصهب بأمارة ما أكلت معكم حيسا واسألوا عن خبري أخي الحرث فلما أدى العبد الرسالة اليهم قالوا قد جن الاعور والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملا أصهب ثم دعوا بأخيه الحرث فقصوا عليه القصة فقال قد أنذركم أما قوله قد دنا العرفج يريد أن الرجال قد استلأمت وا وابسوا السلاح وأما قوله شكت النساء أي أخذت الشكاة للسفر وأما قوله أعروا ناقتي الحمراء أي ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الجمل الاصهب أي الجبل وأما قوله أكلت معكم حيسا أي أن أخلاطا من الناس قد عزموا على غزوكم لان الحيس يجمع التمر والسمن والاقط فامتثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا * وأسرت طيئ غلاما من العرب فقدم أبوه ليفديه فاشتطوا عليه فقال أبوه والذي جعل الفرقدين يمانيان ويصبحان على جبل طيئ ما عندي غير ما بذلته ثم انصرف وقال لقد أعطيته كلاما ان كان فيه خير فهمه فكأنه قال له الزم الفرقدين يعني في هروبك على جبل طيئ ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجا * وكانت علية بنت المهدي تهوى غلاما خادما اسمه طل فخاف الرشيد أن لا تكتمه ولا تذكره في شعرها فاطلع الرشيد يوما عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة فان لم يصبها وابل فالذي نهى عنه أمير المؤمنين * ومن ذلك قولهم تركت فلانا يأمر وينهى وهو على شرف الموت أي يأمر بالوصية وينهى عن النوح * ويقال ما رأيت فلانا أي ما ضربته في رئته ولا كلمته أي ما جرحته فان الكلوم الجراح وما رأيت ربيعا فالربيع حظ الارض من الماء والربيع النهر وما رأيت كافرا ولا فاسقا فالكافر السحاب والفاسق الذي تجرد من ثيابه وما رأيت فلانا راكعا ولا ساجدا ولا مصليا فالراكع

العاثر الذى كبا لوجهه والساجد المدمن النظر والمصلى الذى يجىء بعد السابق وما أخذت لفلان دجاجة ولا فرّوجا فالدجاجة الكبة من الغزل والفرّوجة الدرّاعة وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورا فالبقرة العيال الكثيرة يقال جاء فلان يسوق بقره أى عياله والثور القطعة الكبيرة من الاقط (وحكى) أنّ معاوية رضى الله عنه بينما هو جالس فى بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الاحنف بن قيس اذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا وكان آخر كلامه أن لعن عليا رضى الله عنه ولعن لاعنه فقال الاحنف يا أمير المؤمنين انّ هذا القائل لو يعلم أنّ رضاك فى لعن المرسلين للعنهم فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك عليا رضى الله عنه فلقد لقى ربه وأفرد فى قبره وخلا بعمله وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته فقال معاوية يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت وايم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعا أو كرها فقال له الاحنف يا أمير المؤمنين ان تعفنى فهو خير لك وان تجبرنى على ذلك فوالله لا تجرى شفتاى به أبدا فقال قم فاصعد قال أما والله لانصفنك فى القول والفعل قال وما أنت قائل ان أنصفتنى قال أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ثم أقول أيها الناس انّ أمير المؤمنين معاوية أمرنى أنّ ألعن عليا ألا وان معاوية وعليا اقتتلا فاختلفا فادّعى كل واحد منهما انه مبغىّ عليه وعلى فئته فاذا دعوت فأمّنوا رحمكم الله ثم اقول اللهمّ العن أنت وملائكتك وانبياؤك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية اللهمّ العنهم لعنا كثيرا أمّنوا رحمكم الله يا معاوية لا ازيد على هذا ولا أنقص حرفا ولو كان فيه ذهاب روحى فقال معاوية اذا نعفيك يا أبا بحر * وقال معاوية لعقيل ابن أبى طالب ان عليا قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضينى منك الا ان تلعنه على المنبر قال أفعل فصعد المنبر ثم قال بعد أن حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم أيها الناس ان معاوية بن أبى سفيان قد أمرنى أن ألعن علىّ بن أبى طالب فالعنوه فعليه لعنة الله ثم نزل فقال له معاوية انك لم تبين من لعنت منهما بينه فقال والله لا زدت حرفا ولا نقصت حرفا والكلام الى نية المتكلم * ودخلت امرأة على هرون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت يا أمير المؤمنين أقرّ الله عينك وفرّحك بما آتاك وأتمّ سعدك لقد حكمت فقسطت فقال لها من تكونين ايتها المرأة فقالت من آل برمك ممن قتلت رجالهم واخذت أموالهم وسلبت نوالهم فقال امّا الرجال فقد مضى فيهم امر الله ونفذ فيهم قدره وأمّا المال فمردود اليك ثم التفت الى الحاضرين من أصحابه فقال أتدرون ما قالت هذه المرأة فقالوا ما نراها قالت الا خيرا قال ما اظنكم فهمتم ذلك اما قولها اقرّ الله عينك اى اسكنها عن الحركة واذا سكنت العين عن الحركة عميت وأمّا قولها وفرّحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة وأما قولها وأتمّ الله سعدك فأخذته من قول الشاعر

اذا تمّ امر بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فاخذته من قوله تعالى واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا فتعجبوا من ذلك (وحكى) أن بعضهم دخل على عدوّه من النصارى فقال له أطال الله بقاءك وأقرّ عينك وجعل يومى قبل يومك والله انه ليسرنى ما يسرّك فاحسن اليه وأجازه

على دعائه وأمره بصلته وكان ذلك دعاء عليه لان معنى قوله أطال الله بقاءك حصول منفعة المسلمين به فى أداء الجزية وأما قوله وأقر عينك فمعناه سكن الله حركتها أى أعماها وأما قوله وجعل يومى قبل يومك أى جعل الله يومى الذى ادخل فيه الجنة قبل يومك الذى تدخل فيه النار وأما قوله انه ليسرنى ما يسرك فان العافية تسره كما تسره الاخرى فانظر الى الاشتراك وفائدته ولولا الاشتراك لما تهيأ للمتسرمراد ولاسلم له فى التخلص قياد * وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن فكلفه بعض الخلفاء القراءة فى المصحف فحفظ فى نيف وعشرين موضعا من جملتها قوله تعالى واوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون بالغين المعجمة والسين المهملة وقوله وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه بالباء الموحدة ليكون لهم عدوا وحزنا بالباء الموحدة ومايجمعون يأتيانا الاكل ختار بالجيم والباء الموحدة هم أحسن أثاثا ورئيا بالزاى وترك الهمزة عذابى أصيب به من أشاء بالسين المهملة صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة بالنون والعين المهملة سلام عليكم لا نبتغى باسقاط التاء بل الذين كفروا فى عزة وشقاق بالغين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغزة وهذا لا يقع الامن الاذكياء (وحكى) أن المأمون ولى عاملا على بلاد وكان يعرف منه الجور فى حكمه فأرسل اليه رجلا من أرباب دولته ليمتحنه فلما قدم عليه أظهر له انه قدم فى تجارة لنفسه ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه فأكرم نزله وأحسن اليه وسأله أن يكتب كتابا الى أمير المؤمنين المامون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة فكتب كتابا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذا بالعزم عاملا بالحزم قد عدل بين رعيته وساوى فى أقضيته أغنى القاصد وأرضى الوارد وأنزلهم منه منازل الاولاد وأذهب ما بينهم من الضغائن والاحقاد وعمر منهم المساجد الدائرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة وهم مع ذلك داعون لامير المؤمنين يريدون النظر الى وجهه والسلام فكان معنى قوله آخذا بالعزم أى اذا عزم على ظلم أو جور فعله فى الحال وقوله قد عدل بين رعيته وساوى فى أقضيته أى أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغنى والفقير وقوله عمر منهم المساجد الدائرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة يعنى أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيأ من الدنيا ومعنى قوله يريدون النظر الى وجه امير المؤمنين أى ليشكوا حالهم وما نزل بهم فلما جاء الكتاب الى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره (ومن ذلك ما حكى) أن القاضى الفاضل كان له صديق خصيص به وكان صديقه هذا قريبا من الملك الناصر صلاح الدين وكان فيه فضيلة تامة فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهم بقتله فتسحب الى بلاد التتر وتوصل الى أن صار وزيرا عندهم وصار يعرف التتر كيف يتوصل الى الملك الناصر بما يؤذيه فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل اكتب اليه كتابا عرفه فيه انى أرضى عليه واستعطفه غاية الاستعطاف الى ان يحضر فاذا حضر قتلته واسترحت منه فتحير الفاضل بين الاثنين صديقه يعز عليه والملك لا يمكنه مخالفته فكتب اليه كتابا واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم وكتب ان شاء الله تعالى كما جرت به العادة

فى الكتب فشدد ان ثم اوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه فى غاية الكمال وما فهم ان وكان قصد الفاضل ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فلما وصل الكتاب الى الرجل فهمه وكتب جوابه بانه سيحضر عاجلا فلما أراد أن ينهى الكتاب ويكتب ان شاء الله تعالى مد النون وجعل فى آخرها ألفا وأراد بذلك انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فلما وصل الكتاب الى الفاضل فهم الاشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك (وحكى) أن بعض الملوك طلع يوما الى أعلى قصره يتفرج فلاحت منه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار الى جانب قصره لم ير الراؤن أحسن منها فالتفت الى بعض جواره فقال لها لمن هذه فقالت يا مولاى هذه زوجة غلامك فيروز فقال فنزل الملك وقد خامره حبها وشغف بها فاستدعى بفيروز وقال له يا فيروز قال لبيك يا مولاى قال خذ هذا الكتاب وامض به الى البلد الفلانية وائتنى بالجواب فاخذ فيروز الكتاب وتوجه الى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه وجهز امره وبات ليلته فلما اصبح ودع أهله وسار طالبا الحاجة الملك ولم يعلم بما قد دبره الملك وأما الملك فانه لما توجه فيروز قام مسرعا وتوجه مختفيا الى دار فيروز فقرع الباب قرعا خفيفا فقالت امرأة فيروز من بالباب قال أنا الملك سيد زوجك ففتحت له فدخل وجلس فقالت له أرى مولانا اليوم عندنا فقال زائرا فقالت أعوذ بالله من هذه الزيارة وما اظن فيها خيرا فقال لها ويحك انى أنا الملك سيد زوجك وما أظنك عرفتنى فقالت بل عرفتك يا مولاى ولقد علمت انك الملك ولكن سبقتك الاوائل فى قولهم

ساترك ماءكم من غير ورد * وذا لكثرة الوراد فيه
اذا سقط الذباب على طعام * رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الاسود ورود ماء * اذا كان الكلاب ولغن فيه
ويرتع الكريم بخيص بطن * ولا يرضى مساهمة السفيه

وما أحسن يا مولاى قول الشاعر

قل للذى شفه الغرام بنا * وصاحب الغدر غير محبوب
والله لا قال قائل أبدا * قد أكل الليث فضلة الذيب

ثم قالت أيها الملك تأتى الى موضع شرب كلبك تشرب منه قال فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها فنسى نعله فى الدار هذا ما كان من الملك واما ما كان من فيروز فانه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه فى راسه فتذكر أنه نسيه تحت فراشه فرجع الى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره فوجد نعل الملك فى الدار فطاش عقله وعلم أن الملك لم يرسله فى هذه السفرة الا لامر يفعله فسكت ولم يبد كلاما وأخذ الكتاب وسار الى حاجة الملك فقضاها ثم عاد اليه فانعم عليه بمائة دينار فمضى فيروز الى السوق واشترى ما يليق بالنساء وهيا هدية حسنة واتى الى زوجته فسلم عليها وقال لها قومى الى زيارة بيت أبيك قالت وماذا قال ان الملك أنعم علينا واريد ان تظهرى لاهلك ذلك قالت حبا وكرامة ثم قامت من ساعتها وتوجهت الى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها فأقامت عند أهلها مدة شهر فلم يذكرها زوجها ولا التمسها فاتى اليه أخوها وقال له يا فيروز اما

أن تخبرنا بسبب غضبك واما أن تحاكمنا الى الملك فقال ان شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها على حقا فطلبوه الى الحكم فأتى معهم وكان القاضي اذ ذاك عند الملك جالسا الى جانبه فقال أخو الصبية أيد الله مولانا قاضي القضاة انى اجرت هذا الغلام بستانا سالم الحيطان بئر ماء معين عامرة وأشجار مثمرة فأكل ثمره وهدم حيطانه وأخرب بئره فالتفت القاضي الى فيروز وقال له ما تقول يا غلام فقال فيروز أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته اليه أحسن ما كان فقال القاضي هل سلم اليك البستان كما كان قال نعم ولكن أريد منه السبب لرده قال القاضي ما قولك قال والله يا مولاى ما رددت البستان كراهة فيه وانما جئت يوما من الايام فوجدت فيه أثرا لاسد فخفت أن يغتالني فحزمت دخول البستان اكراما للاسد قال وكان الملك متكئا فاستوى جالسا وقال يا فيروز ارجع الى بستانك آمنا مطمئنا فوالله ان الاسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرا ولا التمس منه ورقا ولا ثمرا ولا شيأ ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس ووالله ما رأيت مثل بستانك ولا أشد احترازا من حيطانه على شجره قال فرجع فيروز الى داره ورد زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشئ من ذلك والله أعلم وهذا كله مما يأتي به الانسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز * ومنه ما يجده المتستر في أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق ورضا الخصم بما وافق مراده لان في المعاريض مندوحة عن الكذب كما روى في غزوة بدر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان سائرا بأصحابه يقصد بدرا فلقيهم رجل من العرب فقال ممن القوم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم من ماء فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول من ماء من ماء يريدها لينظر أي العرب يقال لهم ماء فسار النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه لوجهته وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله فان الله عز وجل قال فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق وكما روى عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت ذهابهما الى الغار هو رجل يهدين السبيل وقد صدق فيما قال رضي الله عنه فقد هداه وهدانا السبيل ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الاسلام وكما حكي عن الامام الشافعي رضي الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول في القرآن فقال الشافعي اياى تعنى قال نعم قال مخلوق فرضي خصمه منه بذلك ولم يرد الشافعي الا نفسه وكما حكي عن ابن الجوزي رحمه الله تعالى انه سئل وهو على المنبر وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته وهم فريقان قوم سنية وقوم شيعة فقيل له من أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر أم علي رضي الله عنهما فقال أفضلهما بعده من كانت ابنته تحته فأرضى الفريقين ولم يرد الا أبا بكر رضي الله عنه لان الضمير في ابنته يعود الى أبي بكر رضي الله عنه وهي عائشة رضي الله عنها وكانت تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيعة ظنوا أن الضمير في ابنته يعود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي فاطمة رضي الله عنها وكانت تحت علي رضي الله عنه فهذه منه جيدة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وسنة والله أعلم

(الفصل الثالث فى ذكر الفصحاء من الرجال) * دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم فأحب الحسن أن يتكلم فزجره وقال يا صبى تتكلم فى هذا المقام فقال يا أمير المؤمنين ان كنت صبيا فلست بأصغر من هدهد سليمان ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال أحطت بما لم تحط به ثم قال ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الامر بالكبر لكان داود أولى * ولما أفضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود فاذا فيهم وفد الحجاز فنظر الى صغير السن وقد أراد ان يتكلم فقال ليتكلم من هو أسن منك فانه أحق بالكلام منك فقال الصبى يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان فى مجلسك هذا من هو أحق به منك قال صدقت فتكلم فقال يا أمير المؤمنين انا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذى منّ علينا بك ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك أما عدم الرغبة فقد أمنا بك فى منازلنا وأما عدم الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك فنحن وفد الشكر والسلام فقال له عمر رضى الله عنه عظنى يا غلام فقال يا أمير المؤمنين ان أناسا غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون فنظر عمر فى سن الغلام فاذا له اثنتا عشرة سنة فأنشدهم عمر رضى الله تعالى عنه

تعلم فليس المرء يولد عالما * وليس أخو علم كمن هو جاهل
فان كبير القوم لا علم عنده * صغير اذا التفت عليه المحافل

(وحكى) أن البادية قحطت فى أيام هشام فقدمت عليه العرب فهابوا أن يكلموه وكان فيهم درواس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة له ذؤابة وعليه شملتان فوقعت عليه عين هشام فقال لحاجبه ما شاء أحد أن يدخل علىّ الا دخل حتى الصبيان فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقا فقال يا أمير المؤمنين ان للكلام نشرا وطيا وانه لا يعرف ما فى طيه الا بنشره فان أذن لى أمير المؤمنين أن أنشره نشرته فأعجبه كلامه وقال انشره لله درك فقال يا أمير المؤمنين انه أصابتنا سنون ثلاث سنة اذابت الشحم وسنة أكلت اللحم وسنة دقت العظم وفى أيديكم فضول مال فان كانت لله ففرقوها على عباده وان كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم وان كانت لكم فتصدقوا بها عليهم فان الله يجزى المتصدقين فقال هشام ما ترك الغلام لنا فى واحدة من الثلاث عذرا فأمر للبوادى بمائة ألف دينار وله بمائة ألف درهم ثم قال له ألك حاجة قال مالى حاجة فى خاصة نفسى دون عامة المسلمين فخرج من عنده وهو من أجل القوم * وقيل ان سعد بن ضمرة الاسدى لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره فبعث اليه يقول ان لك عندى ألف ناقة على انك تدخل فى طاعتى فوفد عليه وكان صغيرا لحشة فاقتحمته عينه وتنقصه فقال مهلا أيها الملك ان الرجال ليسوا بعظم أجسامهم وانما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ان نطق نطق ببيان وان صال صال بجنان ثم أنشأ يقول

يا أيها

يا أيها الملك المرجو نائله * انى لمن معشر شم الذرى زهر
فلا تغرنك الاجسام ان لنا * أحلام عاد وان كنا الى قصر
فكم طويل اذا أبصرت جثته * تقول هذا غداة الروع ذو ظفر
فان ألم به أمر فأفظعه * رأيته خاذلا للاهل والزمر

فقال صدقت فهل لك علم بالامور قال انى لا أنقض منها المفتول وأبرم منها المحلول وأجيلها حتى تجول ثم أنظر فيها الى ما تؤول وليس للدهر بصاحب من لا ينظر فى العواقب قال فتعجب النعمان من فصاحته وعقله ثم أمر له بألف ناقة وقال له يا سعدان أقمت واسينالك وان رحلت وصلناك فقال قرب الملك أحب الى من الدنيا وما فيها فأنعم عليه وأدناه وجعله من أخص ندمائه *(وحكى) أن هرقل ملك الروم كتب الى معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه يسأله عن الشئ ولا شئ وعن دين لا يقبل الله غيره وعن مفتاح الصلاة وعن غرس الجنة وعن صلاة كل شئ وعن اربعة فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء وعن رجل لا أب له وعن رجل لا أم له وعن قبر جرى بصاحبه وعن قوس قزح ما هو وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها وعن ظاعن ظعن مرة واحدة ولم يظعن قبلها ولا بعدها وعن شجرة نبتت من غير ماء وعن شئ تنفس ولا روح له وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد وعن البرق والرعد وصوته وعن المحو الذى فى القمر فقيل لمعاوية است هنالك ومتى أخطأت فى شئ من ذلك سقطت من عينه فاكتب الى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل فكتب اليه فأجابه أما الشئ فالماء قال الله تعالى وجعلنا من الماء كل شئ حى وأما لا شئ فانها الدنيا تبيد وتفنى وأما دين لا يقبل الله غيره فلا اله الا الله وأما مفتاح الصلاة فالله أكبر وأما غرس الجنة فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وأما صلاة كل شئ فسبحان الله وبحمده وأما الاربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فآدم وحواء وناقة صالح وكبش اسمعيل وأما الرجل الذى لا أب له فالمسيح وأما الرجل الذى لا أم له فآدم عليه السلام وأما القبر الذى جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام سار به فى البحر وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق وأما البقعة التى طلعت عليها الشمس مرة واحدة فبطن البحر حين انفلق لبنى اسرائيل وأما الظاعن الذى ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها فجبل طور سيناء كان بينه وبين الارض المقدسة أربع ليال فلما عصت بنو اسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين فنادى منادان قبلتم التوراة كشفته عنكم والا ألقيته عليكم فأخذوا التوراة معذرين فرده الله تعالى الى موضعه فذلك قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهم الآية وأما الشجرة التى نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التى أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام وأما الشئ الذى تنفس بلا روح فالصبح قال الله تعالى والصبح اذا تنفس وأما اليوم فعمل وأمس فمثل وغد أجل وبعد غد فأمل وأما البرق فمخاريق بأيدى الملائكة تضرب بها السحاب وأما الرعد فاسم الملك الذى يسوق السحاب وصوته زجره وأما المحو الذى فى القمر

فقول الله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل * ودعا بعض البلغاء اصديق له فقال نعم الله عليك ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترجوه وتفضل عليك بما لم تحتسبه (وحكى) أن الحجاج سأل يوما الغضبان بن القبعثرى عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها ان قال له من اكرم الناس قال أفقههم فى الدين وأصدقهم لليمين وأبذلهم للمسلمين وأكرمهم للمهاجرين وأطعمهم للمساكين قال فمن ألأم الناس قال المعطى على الهوان المقتر على الاخوان الكثير الالوان قال فمن شر الناس قال أطولهم جفوة وأدومهم صبوة وأكثرهم خلوة وأشدهم قسوة قال فمن أشجع الناس قال أضربهم بالسيف وأقراهم للضيف وأتركهم للحيف قال فمن أجبن الناس قال المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف المرتعش عند الوقوف المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف قال فمن أثقل الناس قال المتفيهق فى الملام الضنين بالسلام المهذار فى الكلام المتعقب على الطعام قال فمن خير الناس قال أكثرهم احسانا وأقومهم ميزانا وأدومهم عفرانا وأوسعهم ميدانا قال لله أبوك فكيف يعرف الرجل الغريب أحسيب هو أم غير حسيب قال أصلح الله الامير ان الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداراته على أصله فالعاقل البصير بالاحساب يعرف شمائل والنذل الجاهل بجهله لخسله كمثل الدرة اذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها واذا نظر اليها العقلاء عرفوها وأكرموها فهى عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة فقال الحجاج لله أبوك فما العاقل والجاهل قال أصلح الله الامير العاقل الذى لا يتكلم هذرا ولا ينظر شزرا ولا يضمر غدرا ولا يطلب عذرا والجاهل هو المهذار فى كلامه المنان بطعامه الضنين بسلامه المتطاول على امامه الفاحش على غلامه قال لله أبوك فما الحازم الكيس قال المقبل على شأنه التارك لما لا يعنيه قال فما العاجز قال المعجب بآرائه الملتفت الى ورائه قال هل عندك من النساء خبر قال أصلح الله الامير انى بشأنهن خبير ان شاء الله تعالى ان النساء من امهات الاولاد بمنزلة الاضلاع ان عدلتها انكسرت ولهن جوهر لا يصلح الا على المداراة فمن داراهن انتفع بهن وقرت عينه ومن شاورهن كدرن عيشه وتكدرت عليه حياته وتنغصت لذاته فأكرمهن اعفهن وأفخرهن أحسابهن العفة فاذا زان عنها فهن أتتن من الجيفة فقال له الحجاج يا غضبان انى موجهك الى ابن الاشعث واقدا فاذا أنت قائل له قال أصلح الله الامير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه فقال انى أظنك لا تقول له ما قلت وكأنى بصوت جلاجلك تجعجل فى قصرى هذا قال كلا أصلح الله الامير أحدد له اسانى وأجربه فى ميدانى قال فعند ذلك أمره بالمسير الى كرمان فلما توجه الى ابن الاشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عينا عليه أى جاسوسا وكان يفعل ذلك مع جميع رسله فلما قدم الغضبان على ابن الاشعث قال له ان الحجاج قد هم بخلعك وعزلك فخذ حذرك وتغذ به قبل أن يتعشى بك فأخذ حذره عند ذلك ثم أمر للغضبان بجائزة سنية وخلع فاخرة فأخذها وانصرف راجعا فأتى الى رملة كرمان فى شدة الحر والقيظ وهى رملة شديدة الرمضاء فضرب قبته فيها وحط عن رواحله فبينما هو كذلك اذا بأعرابى من بنى بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصد انحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزالة وقت الظهيرة وقد ظمئ ظمأ

شديدا فقال السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال الغضبان هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها ما حاجتك يا أعرابي قال اصابتني الرمضاء وشدة الحر والظمأ فتيممت قبتك ارجو بركتها قال الغضبان فهلا تيممت قبة اكبر من هذه وأعظم قال ايتهن تعني قال قبة الامير ابن الاشعث قال تلك لا يوصل اليها قال ان هذه أمنع منها فقال الاعرابي ما اسمك يا عبد الله قال آخذ فقال وما تعطي قال أكره أن يكون لي اسمان قال بالله من اين أنت قال من الارض قال فأين تريد قال امشي في مناكبها فقال الاعرابي وهو يرفع رجلا ويضع اخرى من شدة الحر أتقرض الشعر قال انما يقرض الفأر فقال افتسجع قال انما تسجع الحمامة فقال ياهذا ائذن لي أن ادخل قبتك قال خلفك اوسع لك فقال قد أحرقني حر الشمس قال مالي عليها من سلطان فقال الرمضاء احرقت قدمي قال بل عليها تبرد فقال اني لا أريد طعامك ولا شرابك قال لا تتعرض لما لا تصل اليه ولو تلفت روحك فقال الاعرابي سبحان الله قال نعم من قبل أن تطلع اضراسك فقال الاعرابي ما عندك غير هذا قال بلى هراوة أضرب بها رأسك فاستغاث الاعرابي يا جارني كعب قال الغضبان بئس الشيخ انت فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث فقال الاعرابي ما رأيت رجلا أقسى منك ائتك مستغيثا فحجبتني وطردتني هلا أدخلتني قبتك وطار حتى القريض قال مالي بمعاداتك من حاجة فقال الاعرابي بالله ما اسمك ومن انت فقال أنا الغضبان ابن القبعثرى فقال اسمان منكران خلقا من غضب قال قف متوكئا على باب قبتي برجلك هذه العوجاء فقال قطعها الله ان لم تكن خيرا من رجلك هذه الشمعاء قال الغضبان لو كنت حاكما لجرت في حكومتك لان رجلي في الظل قاعدة ورجلك في الرمضاء قائمة فقال الاعرابي اني لاظنك حرورياً قال اللهم اجعلني ممن يتحرى الخير ويريده فقال اني لاظن عنصرك فاسدا قال ما اقدرني على اصلاحه فقال الاعرابي لا ارضاك الله ولا حيالك ثم ولى وهو يقول

لا بارك الله في قوم تسودهم * اني اظنك والرحمن شيطانا
اتيت قبته أرجو ضيافته * فأظهر الشيخ ذو القرنين حرمانا

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الاشعث وبين الاعرابي قال له الحجاج يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان قال اصلح الله الامير أرض يابسة الجيش بها ضعاف هزلا ان كثروا جاعوا وان قلوا اضاعوا فقال له الحجاج ألست صاحب الكلمة التي بلغتني انك قلت لابن الاشعث تغدر بالحجاج قبل أن يتعشى بك فوالله لاحبسنك عن الوساد ولانزلنك عن الجياد ولاشهرنك في البلاد قال الامان ايها الامير فوالله ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له فقال له ألم اقل لك كأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا اذهبوا به الى السجن فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء الله ثم ان الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها فقال لمن حوله كيف ترون قبتي هذه وبناءها فقالوا ايها الامير انها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة قليل عيبها كثير خيرها قال لم لم تخبروني بنقصها قالوا لا يصفها لك الا الغضبان فبعث الى الغضبان فأحضره وقال له كيف ترى قبتي هذه وبناءها قال اصلح الله الامير بنيتها في غير بلدك لا لك ولا لولدك لا تدوم لك ولا يسكنها ورثتك

ولا تبقى لك وما أنت لها بباق فقال الحجاج قد صدق الغضبان ردوه الى السجن فلما حملوه قال سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين فقال أنزلوه فلما أنزلوه قال رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين فقال اضربوا به الارض فلما ضربوا به الارض قال منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى فقال جروه فأقبلوا يجرونه وهو يقول بسم الله مجراها ومرساها ان ربى لغفور رحيم فقال الحجاج ويلكم اتركوه فقد غلبنى دهاه وخبثه ثم عفا عنه وأنعم عليه وخلى سبيله (وحدث الزبير) قال دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المامون وقد كانت ضياعهم أخذت فقال السلام عليك يا امير المؤمنين محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك اتأذن له فى الكلام فقال تكلم فقال الحمد لله رب العالمين ولا اله الا الله رب العرش العظيم وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين وأستمتع الله لحياطة دينا ودنيانا ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك يا امير المؤمنين ونسأل الله أن يمد فى عمرك من أعمارنا وأن يقيك الاذى بأسماعنا وأبصارنا فان الحق لا تعفو آثاره ولا ينهدم مناره ولا ينبث جبله ولا يزول مادمت بين الله وبين عباده والامين على بلاده يا امير المؤمنين هذا المقام مقام العائذ بظلك الهارب الى كنفك الفقير الى رحمتك وعدلك من تعاود النوائب وسهام المصائب وكاب الدهر وذهاب النعمة وفى نظر امير المؤمنين ما يخرج كربة المكروب ويرد غليل القلوب وقد نفذ أمر امير المؤمنين فى الضياع التى افادناها نعم آبائه الطيبين ونوافل اسلافه الطاهرين الراشدين وقدمت مقامى هذا متوسلا اليك بآبائك الطيبين وبالرشيد خير الهداة الراشدين والمهدى ناصر المسلمين والمنصور منكل الظالمين ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفا اليك بالطاعة التى أفرغ عليها غضى واحتنكت بها سنى وريش بها اجتاحى متعوذا من شماتة الاعداء وحلول البلاء ومقارفة الشدة بعد الرخاء يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن على جدى وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين وعرفه وقد أثبت الله الحق فى نصابه وأقره فى داره وأربابه يا أمير المؤمنين ان الدهر ذو اغتيال وقد يقلب حالا بعد حال فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار والنجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدرا بعد صفو ومرا بعد حلو وهبنا نعم آبائك اللاتى غذتنا صغارا وكبارا وشبابا وأشياخا وأمشاجا فى الاصلاب ونطفا فى الارحام وقدمنا فى القرابة حيث قدمنا الله منك فى الرحم فان رقابنا قد ذلت لسخطك ووجوهنا قد عنت لطاعتك فأقلنا عثرتنا يا أمير المؤمنين ان الله قد سهل بك الوعور وجلابك الدجور وملأ من خوفك القلوب والصدور بك يردع الفاسق ويقمع بك المنافق فارتبط نعم الله عندك بالعفو والاحسان فان كل راع مسؤل عن رعيته وان النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها يا امير المؤمنين انه لا عفو أعظم من عفو امام قادر عن مذنب عاثر وقد قال الله جل ثناؤه وتعالت قدرته وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافى ومنعه الكافى ثم أنشد يقول

امير المؤمنين اتاك ركب * لهم قربى وليس لهم تلاد

هم الصدر المقدم من قريش * وأنت الرأس تتبعك العباد
لقد طابت بك الدنيا ولذت * وأرجو أن يطيب بك المعاد
فكيف تنالكم لحظات عين * وكيف يقل سوددك البلاد

قال فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة والجوائز السنية وأمر برد ضياعه وقرب منزلته وأدناه ودفع اليه من المال ما أغناه * ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء ما حكى أن عبد الملك بن مروان جلس يوما وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته فقال أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله علي ما يتمناه فقام اليه سويد بن غفلة فقال أنا لها يا أمير المؤمنين قال هات فقال نعم يا امير المؤمنين أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غبب فم قفا كف لسان منخر نغنوغ هامة وجه يد وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين فقام بعض اصحاب عبد الملك وقال يا أمير المؤمنين انا أقولها من جسد الانسان مرتين فضحك عبد الملك وقال لسويد أسمعت ما قال قال اصلح الله الامير أنا اقولها ثلاثا فقال هات ولك ما تتمناه فابتدأ يقول انف اسنان اذن بطن ينصر برثة ترقوة ثمرة تنية ثغر ثنايا ثدي جمجمة جنب جبهة حلق حنك حاجب خد خنصر خاصرة دبر دماغ درادير ذقن ذكر ذراع رقبة رأس ركبة زند زردمة زب فهنا لك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه ساق مرة سبابة شفة شفرشارب صدر صدغ صلعة ضلع ضفيرة ضرس طحال طرة طرف ظهر ظفر ظلم عين عنق عاتق غبب غلصمة غنة فم فك فؤاد قلب قفا قدم كف كتف كعب لسان لحية لوح منخر مرفق منكب نغنوغ ناب نن هامة هيئة هيف وجه وجنة ورك يمين يسار يافوخ ثم نهض مسرعا فقبل الارض بين يدي أمير المؤمنين قال فعندها ضحك عبد الملك وقال والله ما تزيدنا عليها شيأ اعطوه ما يتمناه ثم اجازه وأنعم عليه وبالغ في الاحسان اليه * وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء وكان على عتوه واسرافه جوادا وكان اذا ضحك واستغرق في الضحك اتبع ذلك بالاستغفار مرات وكان يطعم على ألف خوان وكان يطوف على الموائد ويقول يا أهل الشأم مزقوا الخبز لئلا يعود اليكم ثانيا وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال وذلك في كل يوم وكان يقول ارى الناس يتخلفون عن طعامي فقيل له انهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا فقال قد جعلت رسولي اليهم كل يوم الشمس اذا طلعت وعند الماء اذا غربت * (حكى) عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع اهل بيته وأولي النجدة من جنده وقال ايها الناس ان العراق كدر ماؤها وكثر غوغاؤها واملولح عذبها وعظم خطبها وظهر نسرامها وعسر اخمادنيرانها فهل من مهد لهم بسيف قاطع وذهن جامع وقلب ذكي وأنف حمي فيخمد نيرانها ويردع غيلانها وينصف مظلومها ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد وتأمن العباد فسكت القوم ولم يتكلم أحد فقام الحجاج وقال يا أمير المؤمنين انا للعراق قال ومن أنت لله ابوك قال انا الليث الضمضام والهزبر الهشام انا الحجاج بن يوسف قال ومن اين قال من ثقيف كهوف الضيوف ومستعملي السيوف قال اجلس لا أم لك فلست هنالك

ثم قال مالي اري الرؤس مطرقة والالسن معتقلة فلم يجبه أحد فقام اليه الحجاج وقال أنا مجندل الفساق ومطفئ نار النفاق قال ومن أنت قال أنا قاصم الظلمة ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة وآفة الكفر والريبة قال اليك عني وذالك فلست هنالك ثم قال من للعراق فسكت القوم وقام الحجاج وقال أنا للعراق فقال اذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وان لكل شئ يا ابن يوسف آية وعلامة فما آيتك وما علامتك قال العقوبة والعفو والاقتدار والبسط والازورار والادناء والابعاد والجفاء والبر والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب فمن جادلني قطعته ومن نازعني قصمته ومن خالفني نزعته ومن دنا مني اكرمته ومن طلب الامان أعطيته ومن سارع الى الطاعة بجلته فهذه آيتي وعلامتي وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني فان كنت للاعناق قطاعا وللاموال جماعا وللارواح نزاعا ولك في الاشياء انتفاعا والافلستبدل بي أمير المؤمنين فان الناس كثير ولكن من يقوم بهذا الامر قليل فقال عبد الملك أنت لها فما الذي تحتاج اليه قال قليل من الجند والمال فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال هيئ له من الجند شهوته وألزمهم طاعته وحذرهم مخالفته ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك فخرج الحجاج قاصدا نحو العراق قال عبد الملك بن عمير فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة اذ أتانا آت فقال هذا الحجاج قدم اميرا على العراق فقطاوات الاعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد فاذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثما بها ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله وأهل الكوفة يومئذ ذو حالة حسنة وهيئة جميلة فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته وموالية واتباعه عليهم الخز والديباج قال وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابي التميمي فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له اسبه لكم قال اكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابي وقال لعن الله بني امية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها فوالله لو دام هذا اميرا كما هو ما كان بشئ والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال هل اجتمعتم فلم يرد عليه أحد شيأ فقال اني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم فقال رجل من القوم قد اجتمعنا اصلح الله الامير فكشف عن لثامه ونهض قائما فكان اول شئ نطق به أن قال والله اني لارى رؤسا أينعت وقد حان قطافها واني لصاحبها واني لارى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى والله يا أهل العراق ان أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لانكم طالما أثرتم الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لاتكان بكم في البلاد ولا جعلنكم مثلا في كل واد ولاضربنكم ضرب عرائب الابل واني يا أهل العراق لا أعد الا وفيت ولا اعزم الا أمضيت فاياي وهذه الزرافات والجماعات وقيل وقال وكان ويكون يا أهل العراق انما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا

فليس منى الاهدار والاكثار انما هو هذا السيف ثم لا يفسلح الشتاء من الصيف حتى يذل الله لامير المؤمنين صعبكم ويقيم له أودكم ثم انى وجدت الصدق مع البر ووجدت البر فى الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور فى النار وقد وجهنى أمير المؤمنين اليكم وأمرنى أن انفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وانى أقسم بالله لأجلدن رجلا يتخلف بعد أخذ عطائه ثلاثة أيام الا ضربت عنقه يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان الى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيأ فقال الحجاج اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيأ عليه هذا أدبكم الذى تأدبتم به أما والله لأؤدبنكم أدبا غير هذا الادب اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد الا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعد ما فرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش فقال ايها الامير انى على الضعف كما ترى ولى ابن هو أقوى منى على الاسفار أفتقبله بدلا منى فقال نقبله أيها الشيخ فلما ولى قال له قائل أتدرى من هذا أيها الامير قال لا قال هذا عمير بن صابى الذى يقول

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى * تركت على عثمان تبكى حلائله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضى الله عنه وهو مقتول فوطئ فى بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال الحجاج ردوه فلما ردوه قال له الحجاج أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار ان فى قتلك أيها الشيخ اصلاحا للمسلمين يا سياف اضرب عنقه فضرب عنقه وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر * ومن حكايات الحجاج ما حكى أنه لما أسرف فى قتل اسرى دير الجماجم وأعطى الاموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب اليه أما بعد فقد بلغنى عنك اسراف فى الدماء وتبذير فى العطاء وقد حكمت عليك فى الدماء فى الخطا بالدية وفى العمد بالقود وفى الاموال أن ترد ها الى مواضعها ثم تعمل فيها برأيى فانما هو مال الله تعالى ونحن أمناؤه فان كنت أردت الناس لى فما أغنانى عنهم وان كنت أردتهم لنفسك فما أغنانك عنهم وسيأتيك منى أمر ان لين وشدة فلا يؤمننك الا الطاعة ولا يوحشنك الا المعصية واذا أعطاك الله عز وجل الظفر فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا وكتب فى أسفل الكتاب

اذا أنت لم تترك أمورا كرهتها * وتطلب رضائى بالذى أنا طالبه
فان ترمنى غفلة فرشينة * فبارحا قد غص بالماء شاربه
وان ترمنى وثبة أموية * فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأمنن والحوادث جمة * فانك تجزى بالذى أنت كاسبه
فلا تعدما يأتيك منى وان تعد * يقم من به يوما عليك نوادبه
فلا تمنعن الناس حقا علمته * ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فانك ان تعطى الحقوق فانما النوافل شئ لا يشبك واهبه

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب الى أمير المؤمنين أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين يذكر

اسرافى فى الدماء وتبذيرى فى الاموال ولعمرى ما بالغت فى عقوبة أهل المعصية ولا قضيت حقوق أهل الطاعة فان كان قتلى العصاة اسرافا واعطائى المطيعين تبذيرا فليمض لى أمير المؤمنين ما سلف ووالله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمدا فأقاد بهم ولا قتلت الا لك ولا أعطيت الا فيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب فى أسفل الكتاب

اذا أنا لا أبغى رضاك وأتقى * اذاك فليلى لا توارى كواكبه
وما لامرئ بعد الخليفة جنة * تقيه من الامر الذى هو راكبه
اذا قارف الحجاج فيك خطيئة * لقامت عليه بالصياح نوادبه
اذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه * وأقص الذى تسرى الىّ عقاربه
وأعط المواسى فى البلاء عطية * لردّ الذى ضاقت علىّ مذاهبه
فمن يتقى بؤسى ويرجو مودّتى * ويخشى غدا والدهر جم نوائبه
وأمرى اليك اليوم ما قلت قلته * وما لم تقله لم أقل ما يقاربه
ومهما أردت اليوم منى أردته * وما لم ترده اليوم انى مجانبه
وقف بى على حدّ الرضا لا أجوزه * مدى الدهر حتى يرجع الدرّ حالبه
والا فدعنى والامور فاننى * شفيق رفيق أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب الى عبد الملك قال خاف أبو محمد صولتى ولم يعاود لأمر كرهته ان شاء الله تعالى فمن يلومنى على محبته يا غلام اكتب اليه الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عينا بما هنالك * وفى مروج الذهب للمسعودىّ أن أمّ الحجاج وهى الفارعة بنت همام ولدته مشوّها لا دبر له فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثدى وأعياهم أمره فيقال ان الشيطان تصوّر لهم فى صورة الحرث بن كلدة حكيم العرب فسألهم عن ذلك فأخبره مخبر من أهله فقال لهم اذبحوا له تيسا وألعقوه من دمه وأولغوه فيه ثم اطلوا به وجهه ففعلوا ذلك فقبل الثدى فلاجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء وكان يخبر عن نفسه أن اكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدر غيره عليها وكانت أمه متزوّجة قبل أبيه الحرث بن كلدة فدخل عليها يوما فى السحر فوجدها تخلل أسنانها فطلقها فسألته لم فعل فقال لها ان كنت باكرت الغداء فأنت شرهة وان كان بقايا طعام بفيك فأنت قذرة فقالت كل ذلك لم يكن وانما تخللت من شظايا السواك فقال قضى الامر فتزوّجها بعده يوسف بن عقيل الثقفى فاولدها الحجاج * وقيل انّ الحجاج تقلد الامارة وهو ابن عشرين سنة ومات وله ثلاث وخمسون سنة وكان من عنف السياسة وثقل الوطأة وظلم الرعية والاسراف فى القتل على ما لا يبلغه وصف أحصى من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله فى حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفا ووجد فى سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل وكان يحبس الرجال والنساء فى موضع واحد ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحرّ والبرد * وقيل للشعبىّ أكان الحجاج مؤمنا قال نعم يا لطاغوت وقال لو جاءت كل أمّة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم وقد مضى القول

فى ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم وما أعان الله تعالى عليه واستحضرته من أخبارهم وأنا قائل ان شاء الله تعالى ما استحضرته من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان

*(ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن)

*(حكى) عن أبى عبد الله النميرى انه قال كنت يوما مع المأمون وكان بالكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر فبينما هو سائر اذ لاحت له طريدة فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل فأشرف على نهر ماء من الفرات فاذا هو بجارية عربية خماسية القد قاعدة النهد كأنها القمر ليلة تمامه وبيدها قربة قد ملأتها ماء وحملتها على كتفها وصعدت من حافة النهر فانحل وكاؤها فصاحت برفيع صوتها ايا أبت أدرك فاها قد غلبنى فوها الاطاقة لى بفيها قال فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها فقال لها المأمون يا جارية من أى العرب أنت قالت أنا من بنى كلاب قال وما الذى حملك أن تكونى من الكلاب فقالت والله لست من الكلاب وانما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف ويضربون بالسيف ثم قالت يا فتى من أى الناس أنت فقال أو عندك علم بالانساب قالت نعم قال لها أنا من مضر الحمراء قالت من أى مضر قال من أكرمها نسبا وأعظمها حسبا وخيرها أما وأبا ممن تهابه مضر كلها قالت أظنك من كنانة قال أنا من كنانة قالت فمن أى كنانة قال من أكرمها مولدا وأشرفها محتدا وأطولها فى المكرمات يدا ممن تهابه كنانة وتخافه فقالت اذن أنت من قريش قال أنا من قريش قالت من أى قريش قال من أجلها ذكرا وأعظمها فخرا ممن تهابه قريش كلها وتخشاه قالت أنت والله من بنى هاشم قال أنا من بنى هاشم قالت من أى هاشم قال من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة ممن تهابه هاشم وتخافه قال فعند ذلك قبلت الارض وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين قال فعجب المأمون وطرب طربا عظيما وقال والله لأتزوجن بهذه الجارية لانها من أكبر الغنائم ووقف حتى تلاحقته العساكر فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه فزوجه بها وأخذها وعاد مسرورا وهى والدة ولده العباس والله أعلم

(وحكى) أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها فوصف للحجاج حسنها فأنفذ اليها يخطبها وبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتى ألف درهم ودخل بها ثم انها لما حدرت معه الى بلد أبيها المعزة وكانت هند فصيحة أديبة فأقام بها الحجاج بالمعزة مدة طويلة ثم ان الحجاج رحل بها الى العراق فأقامت معه ماشاء الله ثم دخل عليها فى بعض الايام وهى تنظر فى المرآة وتقول

وما هند الا مهرة عربية * سليلة أفراس تحللها بغل
فان ولدت فحلا فلله درها * وان ولدت بغلا فجاءت به البغل

فانصرف الحجاج راجعا ولم يدخل عليها ولم تكن علمت به فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ اليها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتى ألف درهم وهى التى كانت لها عليه وقال يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد عليهما فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها يقول لك أبو محمد الحجاج

كنت فبنت وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله فقالت اعلم يا ابن طاهر انا والله كنا فما حمدنا وبنا فما ندمنا وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها فأرسل اليها يخطبها فأرسلت اليه كتابا تقول فيه بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين أن الاناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها وكتب اليها يقول اذا ولغ الكلب في اناء أحدكم فليغسله سبعا احداهن بالتراب فاغسلي الاناء يحل الاستعمال فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة فكتبت اليه بعد الثناء عليه يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد الا بشرط فان قلت ما هو الشرط قلت أن يقود الحجاج محملي من المعرة الى بلدك التي أنت فيها ويكون ماشيا حافيا بحليته التي كان فيها أولا فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكا شديدا وأنفذ الى الحجاج وأمره بذلك فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف وأنفذ الى هند يأمرها بالتجهز فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند فركبت هند في محمل الزفاف وركب حولها جواريها وخدمها وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها ثم انها قالت للهيفاء يا داية اكشفي لي سجف المحمل فكشفته فوقع وجهها في وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشأ يقول

فان تضحكي مني فيا طول ليلة * تركتك فيها كالقباء المفرج

فأجابته هند تقول

ومانيالي اذا أرواحنا سلمت * بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والعز مرتجع * اذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب الى أن قربت من بلد الخليفة فرمت بدينار على الارض ونادت يا جمال انه قد سقط منا درهم فارفعه الينا فنظر الحجاج الى الارض فلم يجد الا دينارا فقال انما هو دينار فقالت بل هو درهم قال بل دينار فقالت الحمد لله سقط منا درهم فعوضنا الله دينارا فخجل الحجاج وسكت ولم يرد جوابا ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها وكان من أمرها ما كان وقد وجدت في بعض النسخ ما هو أوسع من هذا ولكن اقتصرت على القليل منه اذ فيه الغرض والله أعلم * وقيل ان جارية عرضت على الرشيد ليشتريها فتأملها وقال لمولاها خذ جاريتك فلولا كلف بوجهها وخنس بأنفها لاشتريتها فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول فقال قولي فأنشدت تقول

ماسلم الظبي على حسنه * كلا ولا البدر الذي يوصف

الظبي فيه خنس بين * والبدر فيه كلف يعرف

قال فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها وقيل عرضت على المأمون جارية بارعة في الجمال فائقة في الكمال غير أنها كانت تعرج برجلها فقال لمولاها خذ بيدها وارجع فلولا عرج بها لاشتريتها فقالت الجارية يا أمير المؤمنين انه في وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه فأعجبه

سرعة جوابها وأمر بشرائها * ومن ذلك ما حكى أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب فعبر يوما تحت جوسق ببستان فرأى جارية ذات وجه زاهر وكمال باهر لا يستطيع أحد وصفها فلما نظر اليها ذهل عقله وطار لبه فعاد الى منزله وأرسل اليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه وكانت الجارية عزباء وكتب اليها رقعة يعرض اليها بالزيارة فى جوسقها فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية ثم أرسلت اليه مع العجوز عنبرا وجعلت فيه زرّ ذهب وربطت ذلك على منديل وقالت للعجوز هذا جواب رقعته فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه وتحير فى أمره وكانت له ابنة صغيرة السن فلما رأت أباها متحيرا فى ذلك قالت له يا أبت أنا علمت معناه قال وما هو لله درك قالت

أهدت لك العنبر فى جوفه * زرّ من التبر خفى اللمام
فالزر والعنبر معناهما * زرهكذا مختفيا فى الظلام

قال فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها * (وحكى) أن طائفة من بنى تميم كانوا يكسرون أول الفعل فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة فنادا ها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب اليهم من كسر الفعل فقال لاى شئ يا بنى تميم ما تكسنون فقالت ولم لا تكسنى وكسرت الفعل فضحك عليها وقال أفعل ان شاء الله فخجلت من قوله وتغير وجهها وأرادت أن توقعه كما أوقعها فقالت له هل تحسن شيأ من العروض قال نعم قالت قطع لى

حوّلوا عنا كنيستكم * يا بنى حمالة الحطب

فقطعه فوقف على عن ثم ابتدأ بالنون والالف مع بقية الحروف فضحكت عليه وأضحكت أصحابه فقال ويحك لم تبرحى حتى أخذت بثارك (وحكى) ان شاعرا كان له عدو فبينما هو سائر ذات يوم فى بعض الطرق اذا هو بعدوه فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة فقال له يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت ولكن سألتك الله اذا أنت قتلتنى امض الى دارى ووقف بالباب وقل * ألا أيها البنتان ان أبا كما * فقال سمعا وطاعة ثم انه قتله فلما فرغ من قتله أتى الى داره ووقف بالباب وقال * ألا أيها البنتان ان أبا كما * وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل ألا أيها البنتان ان أبا كما * أجابتاه بفم واحد * قتيل خذا بالثار عن أنا كما * ثم تعانقتا بالرجل ورفعتاه الى الحاكم فاستقرره فأقر بقتله فقتله والله أعلم * وقيل بينما كثير عزة مارّ بالطريق يوما اذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشى فقال لها تنحى عن الطريق فقالت له ويحك ومن تكون قال أنا كثير عزة قالت قبحك الله وهل مثلك ينتحى له عن الطريق قال ولم قالت ألست القائل

وما روضة بالحسن طيبة الثرى * يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزة موهنا * اذا أرجت بالمجمر اللدن نارها

ويحك يا هذا لو تبخرت بالمجمر اللدن مثلى ومثل أمك لطاب ريحهما لا قلت مثل سيدك امرئ القيس

وكنت اذا ما جئت بالليل طارقا * وجدت بها طيبا وان لم تطيب

فقطعته ولم يرد جوابا * وقيل أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لاصحابه ما تقولون فيها

قالوا عاجلوها بالقتل أيها الامير فقالت الخارجية لقد كان وزراء صاحبك خيرا من وزرائك ياحجاج قال ومن هو صاحبي قالت فرعون استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا أرجئه وأخاه * وأتى بأخرى من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر اليه فقيل لها الامير يكلمك وأنت لا تنظرين اليه فقالت اني لاستحي أن أنظر الى من لا ينظر الله اليه (وحكى) ابن الجوزي في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لما ولي عمر رضي الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة درهم وأن فاطمة رضي الله عنها كان صداقها على بن أبي طالب كرم الله وجهه أربعمائة درهم فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضي الله عنها فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال أيها الناس لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين فهاب الناس أن يكلموه فقامت امرأة في يدها طول فقالت له كيف يحل لك هذا والله تعالى يقول وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيأ فقال عمر رضي الله عنه امرأة أصابت ورجل أخطأ * وقيل جاءت امرأة الى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقالت يا أمير المؤمنين ان زوجي يصوم النهار ويقوم الليل فقال لها نعم الرجل زوجك وكان في مجلسه رجل يسمى كعبا فقال يا أمير المؤمنين ان هذه المرأة تشتكي زوجها في أمر مباعدته اياها عن فراشه فقال له كما فهمت كلامها احكم بينهما فقال كعب على بزوجها فاحضر فقال له ان هذه المرأة تشتكيك قال أفي أمر طعام أم شراب قال بل في أمر مباعدتك اياها عن فراشك فأنشأت المرأة تقول

يا أيها القاضي الحكيم أنشده * ألهى خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يرقده * فلست في أمر النساء أحمده

فانشأ الزوج يقول

زهدني في فرشها وفي الحلل * أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطول * وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال له القاضي

ان لها عليك حقا لم يزل * في أربع نصيبها من عقل
فعاطها ذا الحق ودع عنك العلل

ثم قال ان الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة فقال عمر رضي الله عنه لا أدري من أيكم أعجب أمن كلامها أم من حكمك بينهما اذهب فقد وليتك البصرة * (حكاية المتكلمة بالقرآن) قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى خرجت حاجا الى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا في بعض الطريق اذا أنا بسواد على الطريق فتميزت ذلك فاذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت سلام قولا من رب رحيم قال فقلت لها يا رحمك الله ما تصنعين في هذا المكان قالت ومن يضلل الله فلا هادي له فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها أين تريدين قالت سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام

الى

الى المسجد الاقصى فعلمت أنها قد قضت حجها وهى تريد بيت المقدس فقلت لها أنت منذ كم فى هذا الموضع قالت ثلاث ليال سويا فقلت ما أرى معك طعاما تأكلين قالت هو يطعمنى ويسقين فقلت فبأى شئ تتوضئين قالت فلم نجد وماء فتيمموا صعيدا طيبا فقلت لها ان معى طعاما فهل لك فى الاكل قالت ثم أتموا الصيام الى الليل فقلت ليس هذا شهر رمضان قالت ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم فقلت قد أبيح لنا الافطار فى السفر قالت وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون فقلت لم لا تكلمينى مثل ما أكلم قالت ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فقلت فمن أى الناس أنت قالت ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا فقلت قد أخطأت فاجعلينى فى حل قالت لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم فقلت فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة قالت وما تفعلوا من خير يعلمه الله قال فأنخت ناقتى قالت قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم فغضضت بصرى عنها وقلت لها اركبى فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فزفرت ثيابها فقالت وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم فقلت لها اصبرى حتى أعقلها قالت ففهمناها سليمان فعقلت الناقة وقلت لها اركبى فلما ركبت قالت سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون قال فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت واقصد فى مشيك واغضض من صوتك فجعلت أمشى رويدا رويدا وأترنم بالشعر فقالت فاقرؤا ما تيسر من القرآن فقلت لها لقد أوتيت خيرا كثيرا قالت وما يذكر الا أولوا الالباب فلما مشيت بها قليلا قلت ألك زوج قالت يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم فسكت ولم أكلمها حتى ادركت بها القافلة فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها فقالت المال والبنون زينة الحياة الدنيا فعلمت أن لها أولادا فقلت وما شأنهم فى الحج قالت وعلامات وبالنجم هم يهتدون فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها قالت واتخذ الله ابراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليما يا يحيى خذ الكتاب بقوة فناديت يا ابراهيم يا موسى يا يحيى فاذا أنا بشبان كأنهم الاقمار قد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت قابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه فمضى أحدهم فاشترى طعاما فقدموه بين يدى فقالت كلوا واشربوا هنيأ بما أسلفتم فى الايام الخالية فقلت الآن طعامكم على حرام حتى تخبرونى بأمرها فقالوا هذه أمتنا منذ أربعين سنة لم تتكلم الا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء فقلت ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الثامن فى الاجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك)

(قيل) ان معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له هيه يا معن تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف على قوله

معن بن زائدة الذى زادت به * شرفا على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين انما أعطيته على قوله

مازلت يوم الهاشمية معلنا * بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه * من وقع كل مهند وسنان

فقال أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوائز والخلع * ووفد ابن أبي محجن على معاوية فقام خطيبا فأحسن فحسده معاوية وأراد أن يوقعه فقال له أنت الذي أوصاك أبوك بقوله

اذا مت فادفني الى جنب كرمة * تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فانني * أخاف اذا ما مت أن لا أذوقها

قال بل أنا الذي يقول أبي

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته * وسائل الناس ما جودي وما خلقي
أعطي الحسام غداة الروع حصته * وعامل الرمح اروي به من العلق
وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض * وأكتم السر فيه ضربة العنق
ويعلم الناس اني من سراتهم * اذا اسما بصر الرعديد بالفرق

فقال له معاوية أحسنت والله يا ابن أبي محجن وأمر له بصلة وجائزة * (وقيل) أخذ عبد الملك ابن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثي فقال له ألست القائل

ومنا شريد والبطين وقعنب * ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال يا أمير المؤمنين انما قلت ومنا أمير المؤمنين شبيب وأردت بذلك مناداة لك فكان ذلك سببا لنجاته * ودخل شريك بن الاعور على معاوية وكان دميما فقال له معاوية انك لدميم والجميل خير من الدميم وانك لشريك ومالله من شريك وان أبالك لاعور والصحيح خير من الاعور فكيف سدت قومك فقال له انك معاوية ومامعاوية الا كلبة عوت فاستعوت الكلاب وانك لابن صخر والسهل خير من الصخر وانك لابن حرب والسلم خير من الحرب وانك لابن أميه وما أمية الا أمة صغرت فكيف صرت أمير المؤمنين ثم خرج وهو يقول

ايشتمني معاوية بن حرب * وسيفي صارم ومعي لساني
وحولي من ذوي يزن ليوث * ضراغمة تهش الى الطعان
يعير بالدمامة من سفاه * وربات الحجال من الغواني

ودخل يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج فقال له سليمان قبح الله رجلا أجرأ رسنه وأولاك أمانته فقال يا أمير المؤمنين رأيتني والامر لك وهو عني مدبر فلو رأيتني وهو علي مقبل لاستكبرت مني ما استصغرت واستعظمت مني ما استحقرت فقال سليمان أترى الحجاج استقر في جهنم فقال يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك فان الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة وهو يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك وشمال أخيك فحيثما كانا كان * وقال يهودي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم الا خمس عشرة سنة حتى تفانلتم فقال علي كرم الله وجهه ولم أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة * ووجد الحجاج على منبره

مكتوبا قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار فكتب تحته قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور * ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره فأجلسه معه على سريره ثم قال له انتم معشر بنى هاشم تصابون فى أبصاركم فقال له عقيل وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم * وقيل اجتمعت بنو هاشم يوما عند معاوية فأقبل عليهم وقال يا بنى هاشم ان خيرى لكم لممنوح وان بابى لكم لمفتوح فلا يقطع خيرى عنكم ولا يردنى بابى دونكم ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا انكم ترون انكم أحق بما فى يدى منى واذا اعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم أعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا قصرت كالمسلوب والمسلوب لا حد له هذا مع انصاف قائلكم واسعاف سائلكم قال فأقبل عليه ابن عباس رضى الله عنهما فقال والله ما منحتنا شيأ حتى سألناه ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه ولئن قطعت عنا خيرك لخير الله أوسع منك ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفن انفسنا عنك وأما هذا المال فليس لك منه الا ما للرجل من المسلمين ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر بحمله خف ولا حافر أكفالك أم أزيدك قال كفانى يا ابن عباس * وقال معاوية يوما أيها الناس ان الله حباقريشا بثلاث فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم وأنذر عشيرتك الاقربين ونحن عشيرته الاقربون وقال تعالى وانه لذكر لك ولقومك ونحن قومه وقال تعالى لايلاف قريش ايلافهم ونحن قريش فأجابه رجل من الانصار فقال على رسلك يا معاوية فان الله تعالى يقول وكذب به قومك وهو الحق وأنتم قومه وقال تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وأنتم قومه وقال تعالى وقال الرسول يارب ان قومى اتخذوا هذا القران مهجورا وأنتم قومه ثلاثة بثلاثة ولو زدتنا زدناك * وقال معاوية أيضا لرجل من اليمن ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة فقال أجهل من قومى قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ولم يقولوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه * وقال يوما لجارية بن قدامة ما كان أهونك على قومك اذ سموك جارية فقال ما كان أهونك على قومك اذ سموك معاوية وهى الانثى من الكلاب قال اسكت لا أم لك قال أم لى ولدتنى أما والله ان القلوب التى أبغضتك بها لبين جوانحنا والسيوف التى قاتلناك بها الفى أيدينا وانك لم تهلكنا قسوة ولم تملكنا عنوة ولكنك اعطيتنا عهدا وميثاقا وأعطيناك سمعا وطاعة فان وفيت لنا وفينا لك وان نزعت الى غير ذلك فانا تركناك وراءنا رجالا شدادا وأسنة حدادا فقال معاوية لا أكثر الله فى الناس مثلك يا جارية فقال له قل معروفا فان شر الدعاء محيط بأهله * وخطب معاوية يوما فقال ان الله تعالى يقول وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم فعلام تلومونى اذا قصرت فى عطاياكم فقال له الاحنف وانا والله لا نلومك على ما فى خزائن الله ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه فجعلته فى خزائنك وحلت بيننا وبينه * وقيل دخل مجنون الطاق يوما الى الحمام وكان بغير مئزر فرآه ابو حنيفة رضى الله عنه وكان فى الحمام فغمض عينيه فقال له المجنون متى اعماك الله قال حين هتكت سترك * ومن ذلك ما حكى أن الحجاج خرج يوما متنزها فلما فرغ من نزهته

صرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه فاذا هو بشيخ من بني عجل فقال له من اين أيها الشيخ قال من هذه القرية قال كيف ترون عمالكم قال شر عمال يظلمون الناس ويستحلون أموالهم قال فكيف قولك في الحجاج قال ذاك ما ولي العراق شر منه قبحه الله وقبح من استعمله قال أتعرف من أنا قال لا قال انا الحجاج قال جعلت فداك أو تعرف من انا قال لا قال أنا فلان بن فلان مجنون بني عجل أصرع في كل يوم مرتين قال فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة وقال رجل لصاحب منزل أصلح خشب هذا السقف فانه يقرقع قال لا تخف فانه يسبح قال اني أخاف أن تدركه رقة فيسجد وقالت عجوز لزلزل وجهها أما تستحي أن ترني ولك حلال طيب قال أما حلال فنعم وأما طيب فلا وقال ملك لوزيره ما خير ما يرزقه العبد قال عقل يعيش به قال فان عدمه قال ادب يتحلى به قال فان عدمه قال مال يستره قال فان عدمه قال فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد وتنبأ رجل في زمن المنصور فقال له المنصور أنت نبي سفلة فقال جعلت فداك كل نبي يبعث الى شكله ومن الاجوبة المسكتة المستحسنة ما ذكر أن ابراهيم مغنى الرشيد غنى يوما بين يديه فقال له احسنت احسن الله اليك فقال له يا أمير المؤمنين انما يحسن الله الى بك فأمر له بمائة ألف درهم وقال رجل لبعض العلوية انت بستان فقال العلوي وأنت النهر الذي يسقى منه البستان وذبحت عائشة رضي الله تعالى عنها شاة وتصدقت بها وأفضلت منها كتفا فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ما عندك منها فقالت ما بقي منها الا كتف فقال كلها بقي الا كتفا وقال عبد الله بن يحيى لابي العيناء كيف الحال قال أنت الحال فانظر كيف انت لنا فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته وكان عمرو ابن سعد بن سالم في حرس المأمون ليلة فخرج المأمون يتفقد الحرس فقال لعمرو من أنت قال عمرو عبدك اسعدك الله ابن سعد اسعدك الله ابن سالم سالمك الله قال أنت تكلؤنا الليلة قال الله يكلؤك يا امير المؤمنين وهو خير حفظا وهو أرحم الراحمين فقال المأمون

ان أخا الهيجاء من يسعى معك * ومن يضر نفسه لينفعك

ومن اذا ريب زمان صدعك * شتت فيك شمله ليجمعك

ادفعوا اليه أربعة آلاف دينار فقال عمرو وددت لو أن الابيات طالت وقال المعتصم للفتح ابن خاقان وهو صبي صغير أرأيت يا فتح أحسن من هذا الفص لفص كان في يده قال نعم يا أمير المؤمنين اليد التي هو فيها احسن منه فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة وقيل ان رجلا سأل العباس رضي الله عنه أأنت اكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكبر وأنا ولدت قبله وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندي أأنت سعيد قال امير المؤمنين السعيد وانا ابن مرة وقال المأمون للسيد بن أنس أأنت السيد قال امير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس وقال الحجاج للمهلب وهو يماشيه أأنا اطول أم أنت قال الامير أطول وأنا ابسط قامة أراد الطول وهو الفضل والاجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعتها لعجزت عنها ولكني اقتصرت على هذا وأوجزت وفيما ذكرته من ذلك كفاية واسال الله تعالى العون والعناية

الباب التاسع في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد

قيل خطب المأمون فقال اتقوا الله عباد الله وأنتم فى مهل بادروا الاجل ولا يغرنكم الامل فكأنى بالموت قد نزل فشغلت المرء شواغله وفوت عنه فواصله وهيئت اكفانه وبكاه جيرانه وصار الى التراب الخالى بجسده البالى فهو فى التراب عفير والى ما قدم فقير وقال الشعبى ما سمعت أحدا يخطب الا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطئ ما خلا زيادا فانه لا يزداد الا ازدادا حسانا وخطب على رضى الله عنه فقال فى خطبته عباد الله الموت الموت ليس منه فوت ان أقمتم أخذكم وان فررتم منه ادركم الموت معقود بنواصيكم فالنجا النجا والوحا الوحا فان وراءكم طالبا حثيثا وهو القبر ألا وان القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ألا وانه يتكلم فى كل يوم ثلاث كلمات فيقول أنا بيت الظلمة أنا بيت الوحشة أنا بيت الديدان ألا وان وراء ذلك اليوم يوما أشد منه يوما يشيب فيه الصغير ويسكر فيه الكبير وتذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ألا وان وراء ذلك اليوم يوما أشد منه فيه نار تستعر حرها شديد وقعرها بعيد وحليها حديد وماؤها صديد ليس لله فيها رحمة قال فبكى المسلمون بكاء شديدا ثم قال ألا وان وراء ذلك اليوم جنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين ادخلنا الله واياكم دار النعيم وأجارنا واياكم من العذاب الاليم (وخطب) الحجاج بن يوسف فقال فى بعض خطبه ان ابراهيم بن عبد الله بن الحسن رضى الله عنه خطب بالبصرة فقال ايها الناس كل كلام فى غير ذكر فهو لغو وكل صمت فى غير فكر فهو سهو والدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط بينهما ونحن فى أضغاث أحلام قيل اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد وأظهر قوم الكراهة فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبرا ثم قال أمير المؤمنين هذا وأشار الى معاوية ثم قال فان يهلك فهذا وأشار الى يزيد ثم قال فمن أبى فهذا وأشار الى سيفه فقال له معاوية أنت سيد الخطباء

(فصل) فى ذكر الشعر والشعراء ومعرفاتهم قيل ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجارى والشرف العالى والمكان الخضر الخالى وقيل امتلأ على النابغة الجعدى أربعين يوما فلم ينطق بالشعر ثم ان بنى جعدة غزوا فظفروا فاستخفه الطرب والفرح فرام الشعر فذل له ما استصعب عليه فقال له قومه والله لنحن باطلاق لسان شاعرنا اسر منا بالظفر بعدونا وقال أبو نواس ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى فحاظنك بالرجال وقال الخليل الشعراء امراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاؤا جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من اطلاق المعنى وتقييده ومن تسهيل اللفظ وتعقيده وقيل وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له أقرأت القرآن قال نعم قال اقرضت القريض قال نعم قال ارويت الشعر قال لا فكتب الى عبد الله أبا زياد بارك الله لك فى ابنك فأروه الشعر فقد وجدته كاملا وانى سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول اروا الشعر فانه يدل على محاسن الاخلاق وبقى مساويها وتعلموا الانساب فربّ رحم مجهولة قد وصلت بمعرفة النسب

وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم في البر والبحر ولقد ذممت بالهرب يوم صفين فما ثنى الاقول القائل

اقول لها اذا جشأت وجاشت * مكانك تحمدي او تستريحي

وقيل لم يرقط اعلم بالشعر والشعراء من خلف الاحمر كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء فلا يتميز عن مقولهم ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة وبذل له بعض الملوك مالا جزيلا على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يعطي الشعراء فقيل له في ذلك فقال خير مالك ما وقيت به عرضك وقال أبو الزناد ما رأيت اروى للشعر من عروة قلت له ما أروى لك يا أبا عبد الله فقال وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها ما كان ينزل بها شيء الا أنشدت فيه شعرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بقول القائل * كفى الاسلام والشيب للمرء ناهيا * ولم ينطق به موزونا فقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه اشهد انك رسول الله حقا وتلا قوله تعالى وما علمناه الشعر وما ينبغي له * ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الاوس وشجاعها

وما المال والاخلاق الا معارة * فما اسطعت من معروفها فتزود

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها

لعمرك ما الايام الا معارة * فما اسطعت من معروفها فتزود

ومن ذلك قول عبدة بن الطبيب

فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

اخذه من قول امرئ القيس

فلو أنها نفس تموت شريتها * ولكنها نفس تساقط أنفسا

ويقال سرق شيأ واسترقه فقد استحقه وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ فمن السرقة الفاحشة قول كثير في عبد الملك بن مروان

اذا ما أراد الغزو لم يثن همه * حصان عليها عقد درّ يزينها

اخذه من قول الحطيئة ولم يغير سوى الروي

اذا ما أراد الغزو لم يثن همه * حصان عليها الوأو شنوف

وجرير على سعة بحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله

فلو كان الخلود بفضل قوم * على قوم لكان لنا الخلود

من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وتر ويه النسوان وهو

فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت * ولكن حمد المرء غير مخلد

وقد قال الشماخ

وامر ترجى النفس ليس بنافع * وآخر تخشى ضيره لا يضيرها

وهو مأخوذ من قول الآخر

ترجى النفوس الشيء لا تستطيعه * وتخشى من الاشياء ما لا يضيرها

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول

وأحسن من نور تفتحه الصبا * بياض العطايا فى سواد المطالب

أخذه من قول الاخطل

رأيت بياضا فى سواد كأنه * بياض العطايا فى سواد المطالب

(ومن سقطات الشعراء) ماقيل ان أبا العتاهية كان مع تقدمه فى الشعر كثيرا لسقط روى انه لقى محمد بن مبادر بمكة فمازحه وضاحكه ثم انه دخل على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة فى كل سنة وأنا أقول فى كل سنة مائتى قصيدة فأدخله الرشيد اليه وقال ماهذا الذى يقول أبو العتاهية فقال يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول

ألا ياعين الساعه * أموت الساعة الساعه

اقلت كثيرا ولكنى أقول

ابن عبد الحميد يوم توفى * هتر كنا ما كان بالمهدود

مادرى نعشه ولا حاملوه * ما على النعش من عفاف وجود

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم فكاد أبو العتاهية يموت غما وأسفا * وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين ويسلمون اليه فى الفضيلة والسبق وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال

انما عظم سلمى حبتى * قصب السكر لاعظم الحمل

واذا أدنيت منها بصلا * غلب المسك على ريح البصل

هذا مع قوله

اذا قامت لمشيتها تثنت * كأن عظامها من خيزران

ومع قوله فى الفخر

كأن مثار النقع فوق رؤسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومع قوله أيضا

اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وأبو الطيب المتنبى فى فضله المشهور وأخذه بزمام الكلام وقوته على رقائق المعانى وعلى مافى شعره من الحكم والامثال السائرة يقول

وضاقت الارض حتى صارهاربهم * اذا رأى غير شئ ظنه رجلا

وغير شئ معناه المعدوم والمعدوم لايرى فهذا سقط فاحش

ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجه الاسماع قوله

تقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا * قلاقل عيس كلهن قلاقل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى

ان كان مثلك كان أو هو كائن * فبرئت حينئذ من الاسلام

ومن معانيه المسروقة قوله

وتهب نفوس أهل النهب أولى * بأهل الجد من نهب القماش

أخذ من قول أبي تمام

ان الاسود أسود الغاب همتها * يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

قال أبو عبد الله الزبيري اجتمع راوية جرير وراوية كثير وراوية جميل وراوية الاحوص وراوية نصيب فافتخر كل منهم وقال صاحبي أشعر فحكموا السيدة سكينة بنت الحسين بينهم لعقلها وبصرها بالشعر فخرجوا حتى استأذنوا عليها وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذي يقول

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأي ساعة أحلى من الزيارة بالطروق قبح الله صاحبك وقبح شعره فهلا قال فادخلي بسلام ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذي يقول

يقر بعيني ما يقر بعينها * وأحسن شيء ما به العين قرت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح أيحب صاحبك أن ينكح قبح الله صاحبك وقبح شعره ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذي يقول

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها * ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أراه هوى وانما طلب عقله قبح الله صاحبك وقبح شعره * ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذي يقول

أهيم بدعد ما حييت فان أمت * فوا حزني من ذا يهيم بها بعدي

فما له همة الا من يعشقها بعده قبحه الله وقبح شعره هلا قال

اهيم بدعد ما حييت فان أمت * فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

ثم قالت لراوية الاحوص أليس صاحبك الذي يقول

من عاشقين تواعدا وتراسلا * ليلا اذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها * حتى اذا وضح الصباح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره هلا قال تعانقا فلم تمس على واحد منهم وأحجم رواتهم عن جوابها رضي الله عنها * (وروى) ابن الكلبي قال لما أفضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز وفدت اليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله فأقاموا ببابه أياما لا يؤذن لهم في الدخول حتى قدم عدي بن ارطاة عليه وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال

يا أيها الرجل المزجى مطيته * هذا زمانك اني قد خلا زمني

أبلغ خليفتنا ان كنت لاقيه * أني لدى الباب كالمشدود في قرن

لا تنس حاجتنا الا قيت مغفرة * قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فقال نعم يا أبا عبد الله فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وألسنتهم مسمومة وسهامهم صائبة فقال عمر رضي الله عنه مالي وللشعراء فقال يا أمير المؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مدح فأعطى وفيه اسوة لكل مسلم قال صدقت فمن بالباب منهم قال ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي قال لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه أليس هو القائل

ألا ليتني في يوم تدنو منيتي * شممت الذي ما بين عينيك والفم
وليت حنوطي من مشاش وأدمغ * وليت حنوطي من مشاشك والدم
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي * هنالك أو في جنة أو جهنم

فليته عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ثم يعمل عملا صالحا والله لا يدخل علي أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال جميل بن معمر العذري قال أليس هو القائل

ألا ليتنا نحيا جميعا فان نمت * يوافي لدى الموتى ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغب * اذا قيل قد سوى عليها صفيحها
أطل نهاري لا أراها وتلتقي * مع الليل روحي في المنام وروحها

والله لا يدخل علي أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال كثير عزة قال أليس هو القائل

رهبان مدين والذين عهدتهم * يبكون من حذر الفراق قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها * خروا لعزة ركعا وسجودا

أبعده الله فوالله لا يدخل علي أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال الاحوص الانصاري قال أبعده الله والله لا دخل علي أبدا أليس هو القائل وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه

الله بيني وبين سيدها * يفرق مني بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال همام بن غالب الفرزدق قال أليس هو القائل يفتخر بالزنا في قوله

هما دلياني من ثمانين قامة * كما انقض بازل بين الريش كاثره
فلما استوت رجلاي في الارض قالتا * أحي فيرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الاحراس لا يفطنوا بنا * وليت في أعقاب ليل أبادره

والله لا دخل علي أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال الاخطل التغلبي قال أليس هو القائل

واست بصائم رمضان عمري * واست بآكل لحم الاضاحي
واست بزاجر عيسا بكورا * الى اطلال مكة بالنجاح
واست بقائم كالعبد يدعو * قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولا * وأسجد عند منبلج الصباح

أبعده الله عني فوالله لا دخل علي أبدا ولا وطئ لي بساطا وهو كافر فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت قال جرير قال أليس هو القائل

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعي بسلام

فان كان ولا بد فهذا فأذن له قال عدي بن ارطاة فخرجت فقلت ادخل يا جرير فدخل وهو يقول

ان الذي بعث النبي محمدا * جعل الخلافة في الامام العادل
وسع الخلائق عدله ووقاره * حتى ارعووا وأقام ميل المائل

انى لاجو منه نفعا عاجلا * والنفس مواعة بحب العاجل
واقه أنزل فى الكتاب فريضة * لابن السبيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه قال ياجرير اتق الله ولا تقل الا حقا فأنشأ يقول

كم بالیمامة من شعثاء أرملة * ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن يعد لك يبكى فقد والده * كالفرخ فى العش لم يدرج ولم يطر
أذكرا لجهد والبلوى التى نزلت * أم قد كفانى ما بلغت من خبرى
انا لنرجو اذا ما الغيث أخلفنا * من الخليفة ما نرجو من المطر
ان الخلافة جاءته على قدر * كما أتى ربه موسى على قدر
هذى الارامل قد قضيت حاجتها * فمن لحاجة هذا الارمل الذكر
الخير مادمت حيا لا يفارقنا * بوركت ياعمر الخيرات من عمر

فقال والله ياجرير لقد وافيت الامر ولا أملك الا ثلاثين دينارا فعشرة أخذها عبد الله ابنى وعشرة أخذتها أم عبد الله ثم قال لخادمه ادفع اليه العشرة الثالثة فقال والله ياأمير المؤمنين انها لاحب مال اكتسبته ثم خرج فقال له الشعراء ماوراءك ياجرير فقال ورائى مايسوءكم خرجت من عند امير يعطى الفقراء ويمنع الشعراء وانى عنه لراض ثم أنشأ يقول

رأيت رقى الجن لا يستفزه * وقد كان شيطانى من الجن راقيا

(ومما جاء فى كبوات الجياد وهفوات الامجاد)

قال الاحنف الشريف من عدت سقطاته وقلت عثراته وقالوا كل صارم ينبو وكل جواد يكبو * وكان الاحنف بن قيس حليما سيدا يضرب به المثل وقد عدت له سقطة وهو أن عمرو بن الاهتم دس اليه رجلا يسفهه فقال ياأبا بحر ما كان أبوك فى قومه قال كان أوسطهم وسيدهم ولم يتخلف عنهم فرجع اليه ثانيا فقال انه من قبل عمرو بن الاهتم فقال ما كان أبوك قال كانت له فتوة ومروأة ومكارم أخلاق ولم يكن أهتم سلاجا * وقال سعيد بن المسيب ما فاتنى الاذان فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أربعين سنة ثم قام يريد الصلاة فوجد الناس قد خرجوا من المسجد * (وقال) قتادة ما نسيت شيأ قط ثم قال ياغلام ناولنى نعلى قال النعل فى رجلك وكان هشام بن عبد الملك من رجال بنى أمية ودهاتهم وقد عدت له سقطات منها أن الحادى حدا به يوما فقال

انى عليك أيها النجى * أكرم من يمشى به المطى

فقال هشام صدقت * وذكر عنده سليمان وأخوه فقال والله لا شكونه يوم القيامة الى أمير المؤمنين عبد الملك ولى الخلافة قال الحمد لله الذى أنقذنى من النار بهذا المقام * قال النابغة أى الرجال المهذب * وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب العاشر فى التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول

(الفصل الاول فى التوكل على الله تعالى) قال الله تعالى وتوكل على الحى الذى لا يموت وقال تعالى وعلى ربهم يتوكلون وقال تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه * وعن أبى

هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير رواه مسلم قيل معناه متوكلون وقيل قلوبهم رقيقة وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتعود بطانا وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود من دعانى أجبته ومن استغاثنى أغثته ومن استنصرنى نصرته ومن توكل علىّ كفيته فأنا كافى المتوكلين وناصر المستنصرين وغياث المستغيثين ومجيب الداعين *(حكى) أنه كان فى زمن هرون الرشيد قد حصل للناس غلاء سعر وضيق حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتدادا عظيما فامر الخليفة هرون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء وأمر بكسر آلات الطرب ففى بعض الايام رؤى عبد يصفق ويرقص ويغنى فحمل الى الخليفة هرون الرشيد فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال ان سيدى عنده خزانة برّ وأنا متوكل عليه أن يطعمنى منها فلهذا أنا اذا الا أبالى فانا أرقص وأفرح فعند ذلك قال الخليفة اذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله أولى فسلم للناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على الله تعالى (وحكى) أن حاتما الاصم كان رجلا كثير العيال وكان له أولاد ذكور واناث ولم يكن له الا حبة واحدة وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج فدا خل الشوق قلبه ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم ثم قال لهم لو أذنتم لابيكم أن يذهب الى بيت ربه فى هذا العام حاجا ويدعوا لكم ماذا عليكم لو فعلتم فقالت زوجته وأولاده أنت على هذه الحالة لا تملك شيأ ونحن على ما ترى من الفاقة فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة وكان له ابنة صغيرة فقالت ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك دعوه يذهب حيث شاء فانه متناول للرزق وليس برزاق فذكرتهم ذلك فقالوا صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج وخرج مسافرا وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون لو سكتت ما تكلمنا فرفعت الصغيرة طرفها الى السماء وقالت الهى وسيدى ومولاى عودت القوم بفضلك وانك لا تضيعهم فلا تخيبهم ولا تخجلنى معهم فبينما هم على هذه الحالة اذ خرج أمير البلدة متصيدا فانقطع عن عسكره وأصحابه فحصل له عطش شديد فاجتاز ببيت الرجل الصالح حاتم الاصم فاستسقى منهم ماء وقرع الباب فقالوا من أنت قال الامير بيابكم يستسقيكم فرفعت زوجة حاتم رأسها الى السماء وقالت الهى وسيدى سبحانك البارحة بتنا جياعا واليوم يقف الامير على بابنا يستسقينا ثم انها أخذت كوزا جديدا وملأته ماء وقالت للمتناول منها اعذرونا فأخذ الامير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال هذه الدار لامير فقالوا لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الاصم فقال الامير لقد سمعت به فقال الوزير يا سيدى لقد سمعت انه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيأ وأخبرت انهم البارحة باتوا جياعا فقال الامير ونحن أيضا قد ثقلنا عليهم اليوم وليس من المروأة أن يثقل مثلنا على مثلهم ثم حل الامير منطقته من وسطه ورمى بها فى الدار ثم قال لاصحابه من أحبنى فليلق

منطقته فخلى جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها اليهم ثم انصرفوا فقال الوزير السلام عليكم أهل البيت لا تنبكم الساعة بثمن هذه المناطق فلما نزل الامير رجع اليهم الوزير ودفع اليهم ثمن المناطق مالا جزيلا واسترد هامنهم فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديدا فقالوا لها ما هذا البكاء انما يجب أن تفرحي فان الله قد وسع علينا فقالت يا أم والله انما بكائي كيف بتنا البارحة جياعا فنظر الينا مخلوق نظرة واحدة فأغنانا بعد فقرنا فالكريم الخالق اذا نظر الينا لا يكلنا الى أحد طرفة عين اللهم انظر الى أبينا ودبره بأحسن التدبير هذا ما كان من أمرهم وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فانه لما خرج محرما ولحق بالقوم توجع أمير الركب فطلبوا له طبيبا فلم يجدوا فقال هل من عبد صالح فدل على حاتم فلما دخل عليه وكلمه دعا له ونعوفي الامير من وقته فأمر له بما يركب وما يأكل وما يشرب فنام تلك الليلة مفكرا في أمر عياله فقيل له في منامه يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معا ملتنا معه ثم أخبر بما كان من أمر عياله فأكثر الثناء على الله تعالى فلما قضى حجه ورجع تلقته أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ثم قال صغار قوم كبار قوم آخرين ان الله لا ينظر الى أكبركم ولكن ينظر الى أعرفكم به فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فانه من توكل على الله فهو حسبه * ومن كلام الحكماء من أيقن أن الرزق الذى قسم له لا يفوته تجمل الراحة ومن علم أن الذى قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع ومن علم أن مولاه خير له من العباد فقصده كفاه همه وجع ثمله * وفى الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال يا غلام انى أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الامة لو اجتمعت على أن تنفعك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن تضرك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الصحف وجفت الاقلام * ورفع الى الرشيد أن بدمشق رجلا من بنى أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند يخشى على المملكة منه وكان الرشيد يومئذ بالكوفة قال مسارة خادم الرشيد فاستدعانى الرشيد وقال اركب الساعة الى دمشق وخذ معك مائة غلام واثتنى بفلان الاموى وهذا كتابى الى العامل لا توصله الا اذا امتنع عليك فاذا أجاب فقيده وعاجله بعد أن تحصى جميع ما تراه وما يتكلم به واذكر لى حاله وما له وقد أجلتك لذهابك ستا ولمجيئك ستا ولا قمت يوما أفهمت قلت نعم قال فسر على بركة الله فخرجت أطوى المنازل ليلا ونهارا لا أنزل الا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق فلما فتح الباب دخلت قاصدا نحو دار الاموى فاذا هى دار عظيمة هائلة ونعمة طائلة وخدم وحشم وهيبة ظاهرة وحشمة وافرة ومصاطب متسعة وغلمان فيها جلوس فهجمت على الدار بغير اذن فبهتوا وسألوا عنى فقيل لهم ان هذا رسول أمير المؤمنين فلما صرت فى وسط الدار رأيت أقواما محتشمين فظننت أن المطلوب فيهم فسألت عنه فقيل لى هو فى الحمام فأكرمونى وأجلسونى وأمروا بمن هى ومن صحبتى الى مكان آخر وأنا انتقد الدار وأتأمل الاحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان فسلم على وسألنى عن أمير المؤمنين فأخبرته انه بعافية فحمد الله تعالى ثم أحضرت له

أطباق الفاكهة فقال تقدم يا منارة كل معنا متأملت تأملا كثيرا اذ لم يكنني فقلت ما آكل فلم يعاودني ورأيت مالم أره الا في دار الخلافة ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيبا ولا أعطر رائحة ولا أكثر آنية منه فقال تقدم يا منارة فكل قلت ليست لي به حاجة فلم يعاودني ونظرت الى أصحابي فلم أجد أحدا منهم عندي فحزنت لكثرة حفدته وعدم من عندي فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر ثم قام فصلى الظهر فأتم الركوع والسجود وأكثر من الركوع بعدها فلما فرغ استقبلني وقال ما أقدمك يا منارة فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبله ووضعه على رأسه ثم فضه وقرأه فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله فضاقت الدار بهم على سعتها فطار عقلي وماشككت انه يريد القبض علي فقال الطلاق يلزمه والحج والعتق والصدقة وسائر أيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى ينكشف أمره ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلني وقدم رجليه وقال هات يا منارة قيودك فدعوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع في المحمل وركبت معه في المحمل وسرنا فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدأ يحدثني بانبساط ويقول هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا وهذا البستان لي وفيه من غرائب الاشجار وطيب الثمار كذا وكذا وهذه المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا فقلت يا هذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه امرك حتى انفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك وأنت ذاهب اليه ما تدري ما تقدم عليه وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيدا فريدا وأنت تحدثني حديثا غير مفيد ولا نافع لك ولا سألتك عنه وكان شغلك بنفسك أولى بك فقال انا لله وانا اليه راجعون لقد أخطأت فراستي فيك يا منارة ما ظننت انك عند الخليفة بهذه المكانة الا لوفور عقلك فاذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء أما خروجي على ما ذكرت فاني على ثقة من ربي الذي بيده ناصيتي وناصية أمير المؤمنين فهو لا يضر ولا ينفع الا بمشيئة الله تعالى فان كان قد قضى علي بأمر فلا حيلة لي بدفعه ولا قدرة لي على منعه وان لم يكن قد قدر الله علي بشيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الارض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك الا باذن الله تعالى ومالي ذنب فأخاف وانما هذا واش وشى عند أمير المؤمنين بهتان وأمير المؤمنين كامل العقل فاذا اطلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي وعلى عهد الله لا كلمتك بعدها الا جوابا ثم أعرض عني وأقبل على التلاوة ومازال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر واذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا فلما دخلت على الرشيد قبلت الارض فقال هات يا منارة أخبرني من يوم خرجت عني الى يوم قدومك علي فابتدأت أحدثه بأموري كلها مفصلة والغضب يظهر في وجهه فلما انتهيت الى جمعه لاولاده وغلمانه وخواصه وضيق الدار بهم وتفقدي لاصحابي فلم أجد منهم أحدا اسود وجهه فلما ذكرت عينه عليهم تلألأ الايمان المغلظة تهلل وجهه فلما قلت انه قدم رجليه أسفر وجهه واستبشر فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وبساتينه وما قلت له وما قال لي قال هذا رجل محسود على نعمته ومكذوب عليه وقد أزعجناه وأرعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله اخرج اليه وانزع قيوده وفكه وأدخله علي مكرما ففعلت فلما دخل قبل الارض فرحب به أمير المؤمنين

وأجلسه واعتذر اليه فتكلم بكلام فصيح فقال له أمير المؤمنين سل حوائجك فقال سرعة رجوعي الى بلدي وجمع شملي بأهلي وولدي قال هذا كائن فسل غيره قال عدل أمير المؤمنين في عماله ما أحوجني الى سؤال قال فخلع عليه أمير المؤمنين ثم قال يا منارة اركب الساعة معه حتى تردّه الى المكان الذي أخذته منه قم في حفظ الله وودائعه ورعايته ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك فانظر الى حسن توكله على خالقه فانه من توكل عليه كفاه ومن دعاه لبّاه ومن سأله أعطاه ما تمناه وروي أن هذه الكلمات وجدها كعب الاحبار مكتوبة في التوراة وكتبها وهي يا ابن آدم لا تخافنّ من ذي سلطان مادام سلطاني باقيا وسلطاني لا ينفد أبدا يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق مادامت خزائني ملآنة وخزائني لا تنفد أبدا يا ابن آدم لا تأنس بغيري وأنا لك فان طلبتني وجدتني وان أنست بغيري فتلك وفاتك الخير كله يا ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وقسمت رزقك فلا تتعب وفي أكثر منه فلا تطمع ومن أقل منه فلا تجزع فان أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندي محمودا وان لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لاسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها اركض الوحوش في البرّ ولا ينالك منها الا ما قدرته لك وكنت عندي مذموما يا ابن آدم خلقت السموات السبع والارضين السبع ولم أعي بخلقهنّ أيعييني رغيف أسوقه لك من غير تعب يا ابن ادم أنا لك محب فبحقي عليك كن لي محبا يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد كما لا أطالبك بعمل غد فاني لم انس من عصاني فكيف من أطاعني وأنا على كل شئ قدير وبكل شئ محيط قال الشاعر

وما ثم الا الله في كل حالة * فلا تشكل يوما على غير لطفه
فكم حالة تأتي ويكرهها الفتى * وخيرته فيها على رغم أنفه

ولمؤلفه رحمه الله تعالى

توكل على الرحمن في الامر كله * فما خاب حقا من عليه توكلا
وكن واثقا بالله واصبر لحكمه * تفز بالذي ترجوه منه تفضلا

(الفصل الثاني في القناعة والرضا بما قسم الله) جاء في تفسير قوله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة أن المراد بها القناعة وقال صلى الله عليه وسلم القناعة مال لا ينفد وقيل يا رسول الله ما القناعة قال الاياس مما في أيدي الناس واياكم والطمع فانه الفقر الحاضر وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من القناعة بالجانب الاوفر وانه كان يشتهي الشئ فيدافعه سنة قال الكندي * العبد حر ما قنع * والحر عبد ما طمع * وقال بشر بن الحرث خرج فتى في طلب الرزق فبينما هو يمشي فاعيا فأوى الى خراب يستريح فيه فبينما هو يدير بصره اذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط فتأملها فاذا هي

انى رأيتك قاعدا مستقبلي * فعلمت انك للهموم قرين
هوّن عليك وكن بربك واثقا * فأخو التوكل شأنه التهوين
طرح الاذى عن نفسه في رزقه * لما تيقن انه مضمون

قال فرجع الفتى الى بيته ولزم التوكل وقال اللهم أدبنا أنت * قال الجاحظ انما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم في مصالحهم ولولا ذلك لاختار واكلهم الملك والسياسة والتجارة

والفلاحة

والفلاحة وفى ذلك بطلان المصالح وذهاب المعايش فكل صنف من الناس مزين لهم ماهم فيه فالحائك اذا رأى من صاحبه تقصيرا او خلفا قال ويلك ياحجام والحجام اذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال ويلك ياحائك فجعل الله تعالى الاختلاف سببا للائتلاف فسبحانه من مدبر قادر حكيم ألا ترى الى البدوى فى بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف كلبه معه فى بيته لباسه شملة من وبر أو شعر ودواؤه بعر الابل وطيبه القطران وبعر الظباء وحلى زوجته الودع وثماره المقل وصيده اليربوع وهو فى مفازة لايسمع فيها الاصوت بومة وعواء ذئب وهو قانع بذلك مفتخر به * وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه يابنى اذا طلبت الغنى فاطلبه فى القناعة فانها مال لا ينفد واياك والطمع فانه فقر حاضر وعليك باليأس فانك لم تيأس من شئ الا أغناك الله عنه * وأصاب داود الطائى فاقة كبيرة فجاءه حماد بن أبى حنيفة رضى الله عنه باربعمائة درهم من تركة ابيه وقال هى من مال رجل ما اقدم عليه احدا فى زهده وورعه وطيب كسبه فقال لو كنت أقبل من أحد شيأ لقبلتها تعظيما للميت واكراما للحى ولكنى احب أن أعيش فى عز القناعة * وقال عيسى عليه الصلاة والسلام اتخذوا البيوت منازل والمساجد مساكن وكلوا من بقل البرية واشربوا من الماء القراح واخرجوا من الدنيا بسلام * وأنشد المبرد

ان ضن زيد بما فى بطن راحته * فالارض واسعة والرزق مبسوط
ان الذى قدر الاشيا بحكمته * لم ينسنى قاعدا والرحل محطوط

قال عبد الواحد بن زيد ما أحسب أن شيأ من الاعمال يتقدم الصبر الا الرضا ولا أعلم درجة ارفع من الرضا وهو رأس المحبة * قيل له متى يكون العبد راضيا عن ربه قال اذا سرته المصيبة كما تسره النعمة * وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدى فسكر يوما ففاتته الصلاة فجاءته جارية له بجمرة فوضعتها على رجله فانتبه مذعورا فقالت له اذا لم تصبر على نار الدنيا فكيف تصبر على نار الآخرة فقام فصلى الصلوات وتصدق بما يملكه وذهب يبيع البقل فدخل عليه فضيل وابن عيينة فاذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شئ فقالا له انه لم يدع أحد شيأ لله الا عوضه الله منه بديلا فما عوضك عما تركت له قال الرضا بما أنا فيه * وقال الثورى ما وضع أحد يده فى قصعة غيره الا ذل له * وقال الفضيل من رضى بما قسم الله له بارك الله له فيه * وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول الشمس فى الشتاء جلالى ونور القمر سراجى وبقل البرية فاكهتى وشعر الغنم لباسى أبيت حيث يدركنى الليل ليس لى ولد يموت ولا بيت يخرب انا الذى كببت الدنيا على وجهها بيت مفرد

ان القناعة من يحلل بساحتها * لم يلق فى ظلها هما يؤرقه

* وقال عيسى عليه الصلاة والسلام انظروا الى الطير تغدو وتروح ليس معها شئ من أرزاقها لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها فان زعمتم أنكم أكبر بطونا من الطير فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها * وقيل وفد عروة بن اذينة على هشام بن عبد الملك فشكا اليه خلته فقال له ألست القائل

لقد علمت وما الاسراف من خلقى * أن الذى هو رزقى سوف يأتينى

أسعى اليه فيعيني تطلبه * ولو قعدت أتاني ليس يعييني

وقد جئت من الحجاز الى الشأم فى طلب الرزق فقال يا أمير المؤمنين اقتد وعظت فأبلغت وخرج فركب ناقته وكر الى الحجاز راجعا فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال فى نفسه رجل من قريش قال حكمة ووفد على بجهته ورددته خائبا فلما اصبح وجه اليه بألفى دينار فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال فقال أبلغ أمير المؤمنين منى السلام وقل له كيف رأيت قولى سعيت فأكديت فرجعت فأتانى رزقى فى منزلى * ولما ولى عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له أنصارى وثقفى فلما سار تخلف الانصارى وقال الذى أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطينى فوفد الثقفى وقال أحوز الحظين فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له ما فعل زميلك الانصارى قال رجع الى أهله فأمر للثقفى بأربعة آلاف دينار وبعث الى الانصارى بمائتى آلاف دينار فخرج الثقفى وهو يقول

فوالله ما حرص الحريص بنافع * فيغنى ولا زهد القنوع بضائر
خرجنا جميعا من مساقط رؤسنا * على ثقة منا بجود ابن عامر
فلما أتخنا الناجيات ببابه * تخلف عنى البشر بى ابن جابر
وقال ستكفينى عطية قادر * على ما يشاء اليوم للخلق قاهر
فان الذى أعطى العراق ابن عامر * لربى الذى أرجو لسد مفاقرى
فقلت خلالى وجهه ولعله * سيجعل لى حظ الفتى المتزاور
فلما أتانى سال عنه صبابة * اليه كما حنت ظؤار الاباعر
فأبت وقد أيقنت أن ليس نافعا * ولا ضائر شيئ خلاف المقادر

قيل اوحى الله تعالى الى موسى صلوات الله وسلامه عليه اتدرى لم رزقت الاحمق قال لا يا رب قال ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال * ولبعض العرب

ولا تجزع اذا اعسرت يوما * فقد أيسرت فى الزمن الطويل
* ولا تظنن بربك ظن سوء * فان الله أولى بالجميل *
* وان العسر يتبعه يسار * وقول الله أصدق كل قيل *
فلو أن العقول تساق رزقا * لكان المال عند ذوى العقول

وأوحى الله تعالى الى يوسف عليه الصلاة والسلام انظر الى الارض فنظر اليها فانفجرت فرأى دودة على صخرة ومعها الطعام فقال له أترانى لم أغفل عنها وأغفل عنك وأنت نبى وابن نبى * ودخل على بن أبى طالب رضى الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفا على باب المسجد أمسك على بغلتى فأخذ الرجل لجامها ومضى وترك البغلة فخرج على وفى يده درهمان ليكافئ بهما الرجل على امساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام فركبها ومضى ودفع لغلامه الدرهمين يشترى بهما لجاما فوجد الغلام اللجام فى السوق قد باعه السارق بدرهمين فقال على رضى الله عنه ان العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد على ما قدر له * وقيل لراهب من أين تأكل فاشار الى فيه وقال الذى خلق هذا الرحى يأتيها بالطحين * وقال سليم بن المهاجر الجيلى

كسوت جميل الصبر وجهي فصانه * به الله عن غشيان كل بخيل
فما عشت لم آت البخيل ولم اقم * على بابه يوما مقام ذليل
وان قليلا يستر الوجه أن يرى * الى الناس مبذولا لغير قليل

وصلى معروف الكرخي خلف امام فلما فرغ من صلاته قال الامام لمعروف من أين تأكل قال اصبر حتى أعيد صلاتي التي صليتها خلفك قال ولم قال لان من شك في رزقه شك في خالقه * وقال أبو حازم ما لم يكتب لي لو ركبت الريح ما أدركته * وقال عمر بن أبي عمر اليوناني

غلا السعر في بغداد من بعد رخصه * وانى في الحالين بالله واثق
فلست أخاف الضيق والله واسع * غناه ولا الحرمان والله رازق

وقال القهستاني

غنى بلادنيا عن الخلق كلهم * وان الغنى الاعلى عن الشئ لا به

وقال منصور الفقيه

الموت اسهل عندي * بين القنا والاسنه
والخيل تجري سراعا * مقطعات الاعنه
من أن يكون لنذل * على فضل ومنه

وأنشد أعرابي

أيا مالك لا تسأل الناس والتمس * بكفيك فضل الله فالله أوسع
ولو تسأل الناس التراب لاوشكوا * اذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال عليك باليأس مما في ايدي الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر * وقيل اذا وجدت الشئ في السوق فلا تطلبه من صديقك * وقيل لاعرابية من أين معاشكم قالت لولم نعش الا من حيث نعلم لم نعش * وقال أعرابي أحسن الاحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقر لك معها من فوقك * وقال المعري

اذا كنت تبغي العيش فابغ توسطا * فعند التناهي يقصر المتطاول
وفي البدور النقص وهي أهلة * ويدركها النقصان وهي كوامل

وقال آخر

اقنع بأيسر رزق أنت نائله * واحذر ولا تتعرض للارادات
فما صفا البحر الا وهو منتقص * ولا تعكر الا في الزيادات

وقال أعرابي استظهر على الدهر بخفة الظهر قال هشام بن ابراهيم البصري

وكم ملك جانبته عن كراهة * لاغلاق باب او لتشديد حاجب
ولي في غنى نفسي مراد ومذهب * اذا انصرفت عني وجوه المذاهب

وقيل ينبغي أن يكون المرء في دنياه كالمدعو الى الوليمة ان أتته صحفة تناولها وان لم تأته لم يرصدها ولم يطلبها * وقال شقيق بن ابراهيم البلخي قال لي ابراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أخبرني عما انت عليه قلت ان رزقت اكلت وان منعت صبرت قال هكذا تعمل كلاب

بلغ فقلت كيف تعمل أنت قال ان رزقت آثرت وان منعت شكرت وقال بعضهم

هي القناعة فالزمها تعش ملكا * لو لم يكن منك الا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها * هل راح منها بغير القطن والكفن

وقال آخر

وان القناعة كنز الغنى * فصرت بأذيالها ممتسك
فلا ذا يراني على بابه * ولا ذا يراني له منهمك
فصرت غنيا بلا درهم * أمر على الناس شبه الملك

جاء فتح الموصلي الى أهله بعد العتمة فلم يجد عندهم شيأ للعشاء ووجدهم بغير سراج فجلس ليلته يبكي من الفرح ويقول باي يد كانت مني تركت مثلي على هذه الحالة والله تعالى أعلم

(الفصل الثالث في ذم الحرص والطمع وطول الامل) قال الله تعالى ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر قال يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك الا ما اكلت فأفنيت ولبست فابليت وتصدقت فامضيت وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ياعائشة ان أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب واياك ومجالسة الاغنياء ولا تستخلقي ثوبا حتى ترقعيه وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال صلاح أول هذه الامة بالزهد واليقين وهلاك آخر هذه الامة بالبخل والامل * وقيل الحرص ينقص من قدر الانسان ولا يزيد في رزقه * وقيل لحكيم ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب قال لانه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب وما أحسن ما قال بعضهم

اذا ما وعت حرصك كنت عبدا * لكل دنيئة تدعى اليها

وقال آخر واجاد

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يشب * ان الحريص على الدنيا لفي تعب

وقيل للاسكندر ما سر ورا الدنيا قال الرضا بما رزقت منها قيل فما غمها قال الحرص عليها * وقال الحسن لو رأيت الاجل ومروره لنسيت الامل وغروره * وقال ابو سعيد الخدري رضي الله عنه اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة اشترى الى شهر ان أسامة لطويل الامل وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يخرج فيبول ثم يمسح بالتراب فاقول ان الماء منك قريب فيقول ما يدريني لعلي ما أبلغه وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه لا يزال الكبير شابا في اثنين حب المال وطول الامل * وقيل لمحمد بن واسع كيف تجدك قال قصير الاجل طويل الامل مسيء العمل وقيل من جرى في عنان أمله كان عاثرا بأجله لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال ولقد أحسن ابو العباس احمد بن مروان في قوله

وذي حرص تراه يلم وفرا * لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يعسل وهو طاو * فريسته ليأكلها سواه

ولقد أحسن من قال فى الجناس الحقيقى

اذا ما نازعتك النفس حرصا * فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه * وعد فرزق يومك رزق أمسك

ومن كلام الحكماء اياكم وطول الامل فان من ألهاه أمله أخزاه عمله قال عبد الصمد ابن المعدل

ولى أمل قطعت به الليالى * أرانى قد فنيت به وداما

قال الحسن اياكم وهذه الامانى فانه لم يعط أحد بالامنية خيرا قط فى الدنيا ولا فى الآخرة قال قس بن ساعدة

وما قد تولى فهو لاشك فائت * فهل يشفعنى ليتنى ولعلنى

وقال آخر

ولا تتعلل بالامانى فانها * عطايا أحاديث النفوس الكواذب

وقال آخر وأجاد

الله أصدق والآمال كاذبة * وجل هذى المنى فى الصدر وسواس

وقال آخر

شط المزار بسعدى وانتهى الامل * فلا خيال ولا رسم ولا طلل
الارجاء فما ندرى أندركه * أم يستمر فيأتى دونه الاجل

وقال أبو العتاهية

لقد لعبت وجد الموت فى طلبى * وان فى الموت لى شغلا عن اللعب
لو شمرت فكرتى فيما خلقت له * ما اشتد حرصى على الدنيا ولا طلبى

وله أيضا

تعالى الله يا سلم بن عمرو * أذل الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تقاد اليك عفوا * أليس مصير ذلك للزوال

وقد ضمنت البيت الاخير فقلت

أيا من عاش فى الدنيا طويلا * وأفنى العمر فى قيل وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى * وجمع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد اليك عفوا * أليس مصير ذلك للزوال

(ومما جاء فى الطمع وذمه) قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع وقال رضى الله عنه ما الخرصرفا بأذهب لعقول الرجال من الطمع وفى الحديث اياكم والطمع فانه الفقر الحاضر وقال فيلسوف العبيد ثلاثة عبد رق وعبد شهوة وعبد طمع وقال بعضهم من أراد أن يعيش حرا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع وقيل اجتمع كعب وعبد الله بن سلام فقال له كعب يا ابن سلام من أرباب العلم قال الذين يعملون به قال فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج الى الناس واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعى فتواصوا

ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الاعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الطمع وقيل لما خلق الله آدم عليه السلام جمع بطينته ثلاثة أشياء الحرص والطمع والحسد فهي تجري في أولاده الى يوم القيامة فالعاقل يخفيها والجاهل يبديها ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه قال اسمعيل بن قطري القراطسي

حسبي بعلمي ان نفسع * ما الذل الا في الطمع
من راقب الله نزع * عن سوء ما كان صنع
ما طار طير وارتفع * الا كما طار وقع

وقال سابق البربري

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى * سفاها وريب الدهر عنها يخادعه
ويطمع في سوف ويهلك دونها * وكم من حريص أهلكته مطامعه

وقيل لاشعب ما بلغ من طمعك قال أرى دخان جاري فأقت خبزي وقال أيضا ما رأيت رجلين يتساران في جنازة الا ظننت أن الميت أوصى لي بشيء من ماله وما زفت عروس الا كنت بيتي رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها الي قال بعضهم

لا تغضبن على امرئ * لك مانع ما في يديه
واغضب على الطمع الذي * استدعا لك تطلب ما لديه

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الحادي عشر في المشورة والنصيحة والتجارب والنظر في العواقب)

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وشاورهم في الامر واختلف أهل التأويل في أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه أحدها أنه أمره بها في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيعمل عليه وهذا قول الحسن ثانيها انه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل وهذا قول الضحاك ثالثها انه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون وان كان في غنية عن مشورتهم وهذا قول سفيان وقال ابن عيينة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد أمرا شاور فيه الرجال وكيف يحتاج الى مشاورة المخلوقين من الخالق مدبر أمره ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس وان كان عالما وقال عليه الصلاة والسلام ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا افتقر من اقتصد وقال عليه الصلاة والسلام من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل وكان يقال ما استنبط الصواب بمثل المشاورة وقال حكيم المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأي وقال الحسن الناس ثلاثة فرجل رجل ورجل نصف رجل ورجل لا رجل فاما الرجل الرجل فذو الرأي والمشورة وأما الرجل الذي هو نصف رجل فالذي له رأي ولا يشاور وأما الرجل الذي ليس برجل فالذي ليس له رأي ولا يشاور وقال المنصور لولده خذ عني ثنتين لا تقل في غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير وقال الفضل المشورة فيها بركة وانى لاستشير حتى هذه الحبشية الاعجمية وقال أعرابي لا مال أوفر من العقل ولا فقر أعظم من الجهل ولا ظهر أقوى من المشورة وقيل من بدأ بالاستخارة ونى بالاستشارة فحقيق أن لا يخيب رأيه وقيل الرأي السديد أحمى من البطل الشديد

قال أبو القاسم النهروندى

وما ألف مطرور السنان مسدد * يعارض يوم الروع رأيا مسددا

وقال على رضى الله عنه خاطر من استغنى برأيه وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة * فان فساد الرأى أن يترددا

فأضاف اليه قوله

وان كنت ذا عزم فأنفذه عاجلا * فان فساد العزم أن يتقيدا

ولمحمد بن ادريس الطائى

ذهب الصواب برأيه فكأنما * آراؤه اشتقت من التأييد

فاذا دجا خطب تبلج رأيه * صبحا من التوفيق والتسديد

ولمحمد الوراق

ان اللبيب اذا تفرق أمره * فتق الامور مناظرا ومشاورا

وأخو الجهالة يستبد برأيه * فتراه يعتسف الامور مخاطرا

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الامين على المأمون فى العهد

لقد بان وجه الرأى لى غير أننى * عدلت عن الامر الذى كان أحزما

فكيف يرد الدر فى الضرع بعدما * توزع حتى صار نهبا مقسما

أخاف التواء الامر بعد استوائه * وأن ينقض الحبل الذى كان أبرما

وقال آخر

خليلى ليس الرأى فى جنب واحد * أشيرا على اليوم ما تريان

ووصف رجل عضد الدولة فقال له وجه فيه ألف عين وفم فيه ألف لسان وصدر فيه ألف قلب وقال اردشير بن بابك أربعة تحتاج الى أربعة الحسب الى الادب والسرور الى الامن والقرابة الى المودة والعقل الى التجربة وقال لا تستحقر الرأى الجزيل من الرجل الحقير فان الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها وقال جعفر بن محمد لا تكونن أول مشير وايالك والرأى الخطير وتجنب ارتجال الكلام ولا تشيرن على مستبد برأيه ولا على متلون ولا على لحوح وقيل ينبغى أن يكون المستشار صحيح العلم مهذب الرأى فليس كل عالم يعرف الرأى الصائب وكم ناقد فى شئ ضعيف فى غيره قال أبو الاسود الدؤلى

وما كل ذى نصح بمؤتيك نصحه * وما كل مؤت نصحه بلبيب

ولكن اذا ما استجمعا عند واحد * فحق له من طاعة بنصيب

وكان اليونان والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه وانما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به لمعان شتى منها انه لا يقع بين المستشارين منافسة فتذهب اصابة الرأى لان من طباع المشتركين فى الامر التنافس والطعن من بعضهم فى بعض وربما سبق احدهم بالرأى الصواب فحسده وعارضه وفى اجتماعهم ايضا للمشورة تعريض السر للاذاعة فاذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للابهام

فان عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد وان عفا عنهم ألحق الجاني بمن لا ذنب له وقيل اذا أشار عليك صاحبك برأي ولم تحمد عاقبته فلا تجعلن ذلك عليه لوما وعتابا بأن تقول أنت فعلت وأنت أمرتني ولولا أنت فهذا كله ضجر ولوم وخفة وقال افلاطون اذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة لانه بالاستشارة قد خرج من عداوتك الى موالاتك وقيل من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره فهو كمن يذر في السباخ قال الشاعر يمدح من له رأي وبصيرة

يصير بأعقاب الامور كأنما * يخاطبه من كل أمر عواقبه

وقال ابن المعتز المشورة راحة لك وتعب على غيرك وقال الاحنف لا تشاور الجائع حتى يشبع ولا العطشان حتى يروى ولا الاسير حتى يطلق ولا المقل حتى يجد ولما أراد نوح ابن مريم قاضي مرو أن يزوج ابنته استشار جارا له مجوسيا فقال سبحان الله الناس يستفتونك وأنت تستفتيني قال لابد أن تشير علي قال ان رئيس الفرس كسرى كان يختار المال ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ورئيس العرب كان يختار الحسب ورئيسكم محمد كان يختار الدين فانظر لنفسك بمن تقتدي * وكان يقال من أعطي أربعا لم يمنع أربعا من أعطي الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب وقيل اذا استخار الرجل ربه واستشار صحبه واجهد رأيه فقد قضى ما عليه ويقضي الله في أمره ما يحب * وقال بعضهم خير الرأي خير من فطنه وتقديمه خير من تأخيره وقالت الحكماء لا تشاور معلما ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء ولا صاحب حاجة يريد قضاءها ولا خائفا ولا حاقنا * وقيل سبعة لا ينبغي لصاحب لب أن يشاورهم جاهل وعدو وحسود ومراء وجبان وبخيل وذو هوى فان الجاهل يضل والعدو يريد الهلاك والحسود يتمنى زوال النعمة والمرائي واقف مع رضا الناس والجبان من رأيه الهرب والبخيل حريص على جمع المال فلا رأي له في غيره وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته * (وحكي) أن رجلا من أهل يثرب يعرف بالاسلمي قال ركبني دين أثقل كاهلي وطالبني به مستحقوه واشتدت حاجتي الى مال لابد منه وضاقت علي الارض ولم أهتد الى ما أصنع فشاورت من أثق به من ذوي المودة والرأي فأشار علي بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق فقلت له تمنعني المشقة وبعد الشقة وتيه المهلب ثم اني عدلت عن ذلك المشير الى استشارة غيره فلا والله ما زادني على ما ذكره الصديق الاول فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق وقصدت العراق فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقلت له أصلح الله الامير اني قطعت اليك الدهناء وضربت أكباد الابل من يثرب فانه أشار علي بعض ذوي النجى والرأي بقصدك لقضاء حاجتي فقال هل أنت بنا بوسلة أو بقرابة وعشيرة فقلت لا ولكني رأيتك أهلا لقضاء حاجتي فان قمت بها فأهل لذلك أنت وان يحل دونها حائل لم أذم يومك ولم أيأس من غدك فقال المهلب لحاجبه اذهب به وادفع اليه ما في خزانة مالنا الساعة فأخذني معه فوجدت في خزانته ثمانين ألف درهم فدفعها الي فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحا

وسرورا

وسرورا ثم عاد الحاجب الى اليه مسرعا فقال هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك فقلت نعم أيها الامير وزيادة فقال الحمد لله على نجح سعيك واجتنائك جنى مشورتك وتحقق ظن من أشار عليك بقصدنا قال الاصمعي فلما سمعت كلامه وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه

يا من على الجود صاغ الله راحته * فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطاياك أهل الارض قاطبة * فانت والجود منعوتان من عود
من استشار فباب النجح منفتح * لديه فيما ابتغاه غير مردود

ثم عدت الى المدينة فقضيت ديني ووسعت على أهلي وجازيت المشير علي وعاهدت الله تعالى ان لا أترك الاستشارة في جميع أموري ما عشت *(وحكي) عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ولا تتجاوز عنها سياسة الملك فحبسه عنده ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي وكان والي على الكوفة ما أفسد عقيدته فيه وأوحشه منه وصرف وجهه اليه عنه فتألم المنصور من ذلك وساءظنه وتأرق جفنه وقل أمنه وتزايد خوفه وحزنه فأدته فكرته الى أمر دبره وكتمه عن جميع حاشيته وستره واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة اكرامه ثم أخرج من كان بحضرته وأقبل على عيسى وقال له يا ابن العم اني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سوالمساعد الى على حمل ثقله فهل أنت في موضع ظني بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي فقال له عيسى بن موسى أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه فقال ان عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه وفي قتله صلاح ملكنا فخذه اليك واقتله سرا ثم سلمه اليه وعزم المنصور على الحج مضمرا أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه الى أعمامه اخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصا فيكون قد استراح من الاثنين عبد الله وعيسى قال عيسى فلما أخذت عمي وأفكرت في قتله رأيت من الرأي أن أشاور في قضيته من له رأي عسى أن أصيب الصواب في ذلك فأحضرت يونس ابن فروة الكاتب وكان لي حسن ظن في رأيه وعقيدة صالحة في معرفته فقلت له ان أمير المؤمنين دفع الي عمه عبد الله وأمرني بقتله واخفاء أمره فما رأيك في ذلك وما تشير به فقال لي يونس أيها الامير احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين فاني أرى لك أن تدخله في مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه اليه وتجعل دونه مغالق وأبوابا وأظهر لامير المؤمنين انك قتلته وأنفذت أمره فيه وانتهيت الى العمل بطاعته فكأني به اذا تحقق منك انك فعلت ما أمرك به وقتلت عمه أمرك باحضاره على رؤس الاشهاد فان اعترفت أنك قتلته بأمره أنكر أمره لك وآخذك بقتله وقتلك قال عيسى بن موسى فقبلت مشورة يونس وعملت بها وأظهرت لامير المؤمنين أني أنفذت أمره ثم حج المنصور فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه أني قد قتلت عمه عبد الله دس الى عمومته اخوة عبد الله وحثهم على أن يسألوه في أخيهم ويستوهبوه منه

فجاؤا اليه وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم فسألوه في عبد الله فقال نعم ان حقوقكم تقتضي اسعافكم بحاجتكم كيف وفيها صلة رحم واحسان الى من هو في مقام الوالد ثم أمر باحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته فقال يا عيسى كنت دفعت اليك قبل خروجي الى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك الى حين رجوعي فقال عيسى قد فعلت أمير المؤمنين فقال المنصور قد سألني فيه عمومتك وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم باجابة سؤالهم فيه فائتنا به الساعة قال عيسى فقلت يا امير المؤمنين ألم تأمرني بقتله والمبادرة الى ذلك قال كذبت لم آمرك بذلك ولو أردت قتله لاسلمته الى من هو بصدد ذلك ثم أظهر الغيظ وقال لعمومته قد أفربقتل أخيكم مدعيا أني أمرته بقتله وقد كذب علي فقالوا يا أمير المؤمنين فادفعه الينا لنقتله به ونقتص منه فقال شأنكم به قال عيسى فأخذوني الى الرحبة واجتمع الناس علي فقام واحد من عمومتي الى وسل سيفه ليضربني به فقلت له يا عم أفاعل أنت قال اي والله كيف لا اقتلك وقد قتلت أخي فقال لهم لا تعجلوا وردوني الى أمير المؤمنين فردوني اليه فقلت يا أمير المؤمنين انما أردت قتلي بقتله والذي دبرته على عصمني الله تعالى من فعله وهذا عملك باق حتى سوى فان أمرتني بدفعه اليهم دفعته اليهم الساعة فأطرق المنصور وعلم أن ريح فكره صادفت اعصارا وأن انفراده بتدبيره قارف خسارا ثم رفع رأسه وقال ائتنا به فمضى عيسى وأحضر عبد الله فلما رآه المنصور قال لعمومته اتركوه عندي وانصرفوا حتى أرى فيه رأيا قال عيسى فتركته وانصرفت وانصرف اخوته فسلمت روحي وزالت كربتي وكان ذلك ببركة الاستشارة يونس وقبول مشورته والعمل بها ثم ان المنصور أسكن عبد الله في بيت اساسه قدبني على الملح ثم أرسل الماء حوله ليلا فذاب الملح وسقط البيت فمات عبد الله ودفن بمقابر باب الشام وسلم عيسى من هذه المكيدة ومن مهام مراميها البعيدة *(ومما جاء في النصيحة) اعلموا أن النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين قال الله تعالى اخبارا عن نوح عليه السلام ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون وقال شعيب عليه السلام ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين وقال صالح عليه السلام ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين ولعامتهم فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس له بأهل والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهرا وباطنا والرغبة في محابه والبعد عن مساخطه وموالاة من اطاعه ومعاداة من عصاه والجهاد في رد العصاة الى طاعته قولا وفعلا والنصيحة لكتابه اقامته في التلاوة وتحسينه عند القراءة وتفهم ما فيه والذب عنه من تأويل المحرفين وطعن الطاعنين وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين قال الله تعالى كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب والنصيحة للرسول عليه السلام احياء سنته بالطلب لها واحياء طريقته في بث الدعوة وتأليف الكلمة والتخلق بالاخلاق الطاهرة والنصيحة للائمة معاونتهم على ما كلفوا القيام به بتنبيههم عند الغفلة وارشادهم عند الهفوة وتعليمهم ما جهلوا وتحذيرهم ممن يريد

بهم السوء واعلامهم بأخلاق عمالهم وسيرتهم فى الرعية وسد خلتهم عند الحاجة وردّ القلوب النافرة اليهم والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتفريج كربهم وتوقى ما يشغل خواطرهم ويفتح باب الوسواس عليهم واعلم أنّ جرعة النصيحة مرّة لا يقبلها الا أولوا العزم وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قل لى فى وجهى ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره وفى منثور الحكم وذلّ من نصحك وقلاك من مشى فى هواك وقال أبو الدرداء رضى الله عنه ان شئتم لا أنصحن لكم ان أحب عباد الله الى الله الذين يحببون الله تعالى الى عباده ويعملون فى الارض نصحا ولورقة بن نوفل

لقد نصحت لاقوام وقلت لهم * انى النذير فلا يغرركم أحد
لا شئ مما ترى تبقى بشاشته * الا الاله ويردى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه * والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد انى قد أعددتك لامر فقال يا أمير المؤمنين ان الله تعالى قد أعدّ لك منى قلبا معقودا بنصيحتك ويدا مبسوطة لطاعتك وسيفا مجردا على عدوك وأنشد الاصمعى

النصح أرخص ما باع الرجال فلا * تردد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصائح لا تخفى مناهلها * على الرجال ذوى الالباب والفهم

ولمعاذ بن مسلم

نصحتك والنصيحة ان تعدّت * هوى المنصوح عزلها القبول
فخالفت الذى لك فيه حظ * فنالك دون ما أملت غول

وقيل أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده فى يد الحجاج فلم يقبل منه وسار اليه فحبسه وحبس أهله فقال فيروز

أمرتك أمرا حازما فعصيتنى * فأصبحت مسلوب الامارة نادما
أمرتك بالحجاج اذ أنت قادر * فنفسك أول اللوم ان كنت لائما
فما أنا بالباكى عليك صبابة * وما أنا بالدامى اليك لترجع سالما

ويقال من اصفرّ وجهه من النصيحة اسودّ لونه من الفضيحة وقال طرفة

ولا ترفدنّ النصح من ليس أهله * وكن حين تستغنى برأيك غانيا
وان امرأ يوما تولى برأيه * فدعه يصب الرشد أو يك غاويا

وفى مثله قال بعضهم

من الناس من ان يستشرك فتجتهد * له الرأى يستغششك مالم تتابعه
فلا تمحن الرأى من ليس أهله * فلا أنت محمود ولا الرأى نافعه

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الثانى عشر فى الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك)

قال الله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن

وقال الله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون وقال تعالى ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات والآيات فى ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة منشورة * وروينا فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان * وقال شيخنا محيى الدين النووى رحمة الله تعالى عليه فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم ان هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب فى معناها انكم اذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة من ضل ومن جملة ما امر به الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والآية مرتبة فى المعنى على قوله تعالى ما على الرسول الا البلاغ * وقال محمد بن تمام الموعظة جند من جنود الله تعالى ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط ان استمسك نفع وان وقع اثر * ومن كلام على رضى الله تعالى عنه لا تكون ممن لا تنفعه الموعظة الا اذا بالغت فى ايلامه فان العاقل يتعظ بالادب والبهائم لا تتعظ الا بالضرب وانشد الجاحظ

وليس يزجركم ما توعظون به * والبهم يزجرها الراعى فتنزجر

وكتب رجل الى صديق له اما بعد فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك واستحى من الله بقدر قربه منك وخفه بقدر قدرته عليك والسلام * وقيل من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ * وقال لقمان الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير * قيل اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام انك ان أتيتنى بعبد آبق كتبتك عندى حميدا ومن كتبته عندى حميدا لم أعذبه بعدها أبدا * وقال الرشيد لمنصور بن عمار عظنى وأوجز فقال يا أمير المؤمنين هل أحد أحب اليك من نفسك قال لا قال ان أردت أن لا تسىء الى من تحب فافعل وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه أيها الناس الايام تطوى والاعمار تفنى والابدان فى الثرى تبلى وان الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد ويقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب فى الباقيات الصالحات * ولما لقى ميمون بن مهران الحسن البصرى قال له لقد كنت أحب أن ألقاك فعظنى فقرأ الحسن البصرى أفرأيت من اتخذ الهه هواه أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون فقال عليك السلام أبا سعيد لقد وعظتنى أحسن موعظة * ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله عليا رضى الله عنه دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق فدعا الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وقال اوصيكما بتقوى الله تعالى والرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ولا تأسفا على شئ فاتكما منها فانكما عنها راحلان افعلا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ثم دعا محمدا ولده وقال له أما سمعت ما أوصيت به أخويك قال بلى قال فانى أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ولا تقطع أمرا دونهما ثم أقبل

عليهما

عليهما وقال أوصيكما به خيرا فانه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه فأحباه ثم قال يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر والعدل في الصديق والعدو والعمل في النشاط والكسل والرضا عن الله في الشدة والرخاء يا بني ما شر بعده الجنة بشر ولا خير بعده النار بخير وكل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار عافية يا بني من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ومن رضي بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته ومن سل سيف البغي قتل به ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيها ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بيته ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره ومن أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط الأنذال احتقر ومن دخل مداخل السوء اتهم ومن جالس العلماء وقر ومن مزح استخف به ومن أكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر خطاؤه ومن كثر خطاؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار يا بني الأدب ميزان الرجل وحسن الخلق خير قرين يا بني العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت الا عن ذكر الله تعالى وواحد في ترك مجالسة السفهاء يا بني زينة الفقر الصبر وزينة الغنى الشكر يا بني لا شرف أعلى من الاسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيع أنجح من التوبة ولا لباس أجمل من العافية يا بني الحرص مفتاح التعب ومطية النصب *

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر الى أهله يبكون حوله فقال جادلكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء وتركتم لكم جميع ما جمع وتركتم عليه ما حمل ما أعظم منقلب هشام ان لم يغفر الله له * وقال الاوزاعي للمنصور في بعض كلامه يا أمير المؤمنين أما علمت انه كان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ما هذه الجريدة التي بيدك اقذفها الا تلا قلوبهم رعبا فكيف بمن سفك دماء المسلمين وانتهب أموالهم يا أمير المؤمنين ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابيا من غير تعمد يا أمير المؤمنين لو أن ذنوبا من النار صب ووضع على الارض لاحرقها فكيف بمن يتجرعه ولو أن ثوبا من النار وضع على الارض لأحرقها فكيف بمن يتقمصه ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن يتسلسل بها ويرد فضلها على عاتقه * وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال قلت لجعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكان والى المدينة احذر أن يأتي رجل غدا ليس له في الاسلام نسب ولا أب ولا جد فيكون أولى برسول الله صلى الله عليه وسلم منك كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى وكما كانت امرأة نوح وامرأة لوط أولى بفرعون ومن ابطأ به عمله لم يسرع به نسبه ومن اسرع به عمله لم يبطئ به نسبه * وروى زياد عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال لما بعث أبو جعفر الى مالك بن أنس وابن طاوس قال دخلنا عليه وهو جالس على فرش وبين يديه أنماع قد بسطت وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الاعناق فأومأ الينا ان اجلسا فجلسنا فأطرق زمانا طويلا ثم رفع رأسه والتفت الى ابن طاوس وقال حدثني عن أبيك قال سمعت ابي يقول قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اشد الناس عذابا يوم القيامة رجل اشركه الله تعالى
فى ملكه فادخل عليه الجور فى حكمه فأمسك ابو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه قال
مالك فضممت ثيابى مخافة أن ينالها شئ من دم ابن طاوس ثم قال يا ابن طاوس ناولنى
هذه الدواة فأمسك عنه فقال ما يمنعك أن تناولنيها قال أخاف أن تكتب بها معصية
فأكون شريكك فيها فلما سمع ذلك قال قوما عنى فقال ابن طاوس ذلك ما كنا نبغى قال مالك
فما زلت اعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله
عنه قال لكعب الاحبار يا كعب خوفنا قال أوليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله
عليه وسلم قال بلى يا كعب ولكن خوفنا فقال يا امير المؤمنين اعمل فانك لو وافيت
يوم القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملهم مما ترى فنكس عمر رضى الله عنه رأسه
وأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال يا كعب خوفنا فقال يا امير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر
ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر ثم افاق فقال
يا كعب زدنا فقال يا امير المؤمنين ان جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب
ولا نبى مرسل الا جثا على ركبتيه يقول يارب لا اسألك اليوم الا نفسى * وقال سيدى
الشيخ ابو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه دخلت على الافضل بن امير الجيوش وهو
امير على مصر فقلت السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فردّ السلام على نحو ما سلمت ردّا جميلا
واكرمنى اكراما جزيلا وامرنى بدخول مجلسه وامرنى بالجلوس فيه فقلت ايها الملك انّ الله
تعالى قد احلك محلا عليا شامخا وانزلك منزلا شريفا باذخا وملكك طائفة من ملكه
واشركك فى حكمه ولم يرض أن يكون امر احد فوق امرك فلا ترض أن يكون احد
اولى بالشكر منك وليس الشكر باللسان وانما هو بالفعال والاحسان قال الله تعالى
اعملوا آل داود شكرا واعلم أن هذا الذى اصبحت فيه من الملك انما صار اليك بموت من كان
قبلك وهو خارج عنك بمثل ما صار اليك فاتق الله فيما خولك من هذه الامة فان الله تعالى
سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير قال الله تعالى فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون
وقال تعالى وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين واعلم ايها الملك
ان الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الانس والجن
والشياطين والطير والوحش والبهائم وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث اصاب
ثم رفع عنه حساب ذلك اجمع فقال له هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فوالله
ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف أن تكون
استدراجا من الله تعالى ومكرا به فقال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر
فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم وأغث الملهوف أعانك الله على نصر المظلوم
وجعلك كهفا للملهوف وامانا للخائف ثم أتممت المجلس بأن قلت قد رحت البلاد
شرقا وغربا فما اخترت مملكة وارتحت اليها ولذت بى الاقامة فيها غير هذه المملكة
ثم أنشدته

والناس

والناس اكيس من أن يحمدوا رجلا * حتى يروا عنده آثار احسان

وقال الفضل بن الربيع حج هرون الرشيد سنة من السنين فبينما أنا نائم ذات ليلة اذ سمعت قرع الباب فقلت من هذا فقال أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعا فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال ويحك قد حاك فى نفسى شئ لا يخرجه الا عالم فانظر لى رجلا اسأله عنه فقلت ههنا سفيان بن عيينة فقال امض بنا اليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال جد لما جئنا له فحادثه ساعة ثم قال له أعليك دين قال نعم فقال يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عنى صاحبك شيأ فانظر لى رجلا أسأله فقلت ههنا عبد الرزاق بن همام فقال امض بنا اليه فاتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا قلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال جد لما جئنا له فحادثه ساعة ثم قال له أعليك دين قال نعم فقال يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عنى صاحبك شيأ فانظر لى رجلا اسأله فقلت ههنا الفضيل بن عياض فقال امض بنا اليه فأتيناه فاذا هو قائم يصلى فى غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال مالى ولامير المؤمنين فقلت سبحان الله أما تجب عليك طاعته ففتح الباب ثم ارتقى الى أعلى الغرفة فأطفا السراج ثم التجأ الى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفى اليه فقال أواه من كف ما ألينها ان نجت غدا من عذاب الله تعالى فقلت فى نفسى ليكلمنه الليلة بكلام نقى من قلب تقى فقال جد لما جئنا له رحمك الله تعالى فقال وفيم جئت حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سالتهم أن يتحملوا عنك شقصا من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبا لك أشدهم هربا منك ثم قال ان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظى ورجاء بن حيوة فقال لهم انى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال سالم بن عبد الله ان اردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها على الموت وقال محمد بن كعب ان أردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم عندك ولدا فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك وقال رجاء بن حيوة ان أردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم متى شئت مت وانى لاقول هذا وانى لاخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الاقدام فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا فبكى هرون بكاء شديدا حتى غشى عليه فقلت له ارفق بأمير المؤمنين فقال يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا ثم أفاق هرون الرشيد فقال زدنى فقال يا أمير المؤمنين بلغنى أن عاملا لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه شكا اليه سهرا فكتب له عمر يقول يا أخى اذكر سهر أهل النار فى النار وخلود الابدان فان ذلك يطرد بك الى ربك نائما ويقظان واياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر ما أقدمك

فقال له لقد خلعت قلبي بكلامك لاوليت ولا يه أبدا حتى ألقى الله عز وجل فبكى هرون بكاء شديدا ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم جاء اليه فقال يارسول الله أمرني امارة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ياعباس نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة فان استطعت أن لا تكون اميرا فافعل فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال زدني يرحمك الله فقال ياحسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فان استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل واياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فان النبي صلى الله عليه وسلم قال من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال له أعليك دين قال نعم دين لربي لا يحاسبني عليه فالويل لي ان ناقشني والويل لي ان سألني والويل لي ان لم يلهمني حجتي قال هرون انما أعني دين العباد قال ان ربي لم يأمرني بهذا وانما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فقال له هرون هذه ألف دينار فخذها وأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك فقال سبحان الله أبادلتك على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا سلك الله ووفقك ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فقال لي هرون اذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا فان هذا سيد المسلكين اليوم * واعلم أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط وصفات قال سليمان الخواص من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ومن وعظه على رؤس الاشهاد فانما بكته * وقالت أم الدرداء رضي الله تعالى عنها من وعظ أخاه سرا فقد يسره وزانه ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه * ويقال من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وستره ومن وعظه جهرا فقد فضحه وضره * وعن عبد العزيز بن أبي رواد قال كان الرجل اذا رأى من أخيه شيأ أمره في ستر ونهاه في ستر فيؤجر في ستره ويؤجر في أمره ويؤجر في نهيه * وعن عمر رضي الله تعالى عنه اذا رأيتم أخا كم زلة فقوموه وسددوه وادعوا الله أن يرجع به الى التوبة فيتوب عليه ولا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيكم وبالله التوفيق الى أقوم طريق وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الثالث عشر في الصمت وصون اللسان والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول

*(الفصل الاول في الصمت وصون اللسان) قال الله تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وقال تعالى ان ربك لبالمرصاد واعلم انه ينبغي للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام الا كلاما تظهر المصلحة فيه ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الامساك عنه لانه قد يجر الكلام المباح الى حرام أو مكروه بل هذا كثير وغالب في العادة والسلامة لا يعادلها شئ وروينا في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت قال الشافعي في الام اذا أراد أحدكم الكلام فعليه ان يفكر في كلامه فان ظهرت المصلحة تكلم

وان شئت لم يتكلم حتى تظهر وروينا في صحيحيهما عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال قلت يارسول الله أي المسلمين أفضل قال من سلم الناس من لسانه ويده وروينا في كتاب الترمذي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال قلت يارسول الله ما النجاة قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك قال الترمذي حديث حسن وروينا في كتاب الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه والاحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة وفيما أشرت اليه كفاية لمن وفقه الله تعالى * وأما الآثار عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شئ منها فمما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا فقال أحدهما لصاحبه كم وجدت في ابن آدم من العيوب فقال هي أكثر من أن تحصر وقد وجدت خصلة ان استعملها الانسان سترت العيوب كلها قال وما هي قال حفظ اللسان وقال الامام الشافعي رضي الله عنه لصاحبه الربيع يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فانك اذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها وقال بعضهم مثل اللسان مثل السبع ان لم توثقه عداعليك ولحق شره ومما أنشدوه في هذا الباب

احفظ لسانك أيها الانسان * لا يلدغنك انه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه * كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقال الفارسي

لعمرك ان في ذنبي لشغلا * لنفسي عن ذنوب بني أميه
على ربي حسابهم اليه * تناهى علم ذلك لا اليه

وقال علي رضي الله عنه اذا تم العقل نقص الكلام وقال أعرابي رب منطق صدع جمعا وسكوت شعب صدعا وقال وهب بن الورد بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس وقال علي بن هشام رحمة الله تعالى عليه

لعمرك ان الحلم زين لاهله * وما الحلم الا العادة وتحلم
اذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة * وعي فان الصمت أولى وأسلم

وقال ابن عيينة من حرم الخير فليصمت فان حرمهما فالموت خير له وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابي ذر رضي الله عنه عليك بالصمت الا من خير فانه مطردة للشيطان وعون على أمر دينك * ومن كلام الحكماء من نطق في غير خير فقد لغا ومن نظر في غير اعتبار فقد سها ومن سكت في غير فكر فقد لها * وقيل لو قرأت صحيفتك لا غمدت صفيحتك ولو رأيت مافي ميزانك لخفت على لسانك * ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته فقيل له ألا تتكلم فقال الكلام صيرني في بطن الحوت * وقال حكيم اذا أعجبك الكلام فاصمت واذا أعجبك الصمت فتكلم * وكان يقال من السكوت ما هو أبلغ من الكلام لان السفيه اذا سكت عنه كان في اغتمام * وقيل لرجل بم سادكم الاحنف فوالله ما كان بأكبركم سنا ولا بأكثركم مالا فقال بقوة سلطانه على لسانه * وقيل الكلمة أسيرة في وثاق الرجل فاذا تكلم بها صار في وثاقها * وقيل اجتمع أربعة ملوك فتكاموا فقال ملك الفرس

ماندمت على مالم أقل مرة وندمت على ماقلت مرارا وقال قيصر انا على رد مالم أقل أقدر مني على رد ماقلت وقال ملك الصين مالم أتكلم بكلمة ملكتها فاذا تكلمت بها ملكتني وقال ملك الهند العجب ممن يتكلم بكلمة ان رفعت ضرت وان لم ترفع لم تنفع * وكان بهرام جالسا ذات ليلة تحت شجرة فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه فقال ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والانسان لو حفظ هذا لسانه ماهلك * وقال علي رضي الله تعالى عنه بكثرة الصمت تكون الهيبة * وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه الكلام كالدواء ان أقللت منه نفع وان اكثرت منه قتل * وقال لقمان لولده يابني اذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك بقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف انتن فيقلن بخير ان تركتنا قال الشاعر

احفظ لسانك لاتقول فتبتلى * ان البلاء موكل بالمنطق

*(الفصل الثاني في تحريم الغيبة) اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشارا في الناس حتى لايسلم منها الا القليل من الناس وهي ذكرك الانسان بما يكره ولو بما فيه سواء كان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه او عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو بكتابك أو رمزت اليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك فأما الدين فكقولك سارق خائن ظالم متهاون بالصلاة متساهل في النجاسات ليس بارا بوالديه قليل الادب لايضع الزكاة مواضعها لايجتنب الغيبة وأما البدن فكقولك أعمى أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود أو أصفر وأما غيرهما فكقولك فلان قليل الادب متهاون بالناس لايرى لاحد عليه حقا كثير النوم كثير الاكل وما أشبه ذلك أو كقولك فلان أبوه نجار أو اسكاف أو حداد أو حائك تريد تنقيصه بذلك أو فلان سيئ الخلق متكبر مراء معجب بحول جبار ونحو ذلك أو فلان واسع الكم طويل الذيل وسخ الثوب ونحو ذلك * وقد روينا في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل وان كان في أخي ما أقول قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته قال الترمذي حديث حسن صحيح وروينا في سنن أبي داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت للنبي صلى الله عليه وسلم حسبك من صفية كذا وكذا قال بعض الرواة تعني قصيرة فقال لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته أي خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة تنها وروينا في سنن أبي داود عن أنس رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بي الى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم وروى عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليزني فيتوب فيتوب الله عليه وان صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفر له صاحبها وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال

من اغتاب المسلمين وأكل لحومهم بغير حق وسعى بهم الى السلطان جيء به يوم القيامة مزرقة عيناه ينادى بالويل والثبور يعرف أهله ولا يعرفونه وقال معاوية بن قرة أفضل الناس عند الله أسلمهم صدرا وأقلهم غيبة وقال الاحنف فى خصلتان لا اغتاب جليسى اذا غاب عنى ولا أدخل فى أمر قوم لا يدخلونى فيه وقيل للربيع بن خيثم ما نراك تعيب أحدا فقال أست عن نفسى راضيا فأتفرغ لذم الناس وأنشد

لنفسى أبكى لست أبكى لغيرها * لنفسى من نفسى عن الناس شاغل

وقال كثير عزة

وسعى الى تعييب عزة نسوة * جعل الاله خدودهن نعالها

وقال محمد بن حزم أول من عمل الصابون سليمان وأول من عمل السويق ذو القرنين وأول من عمل الخيس يوسف وأول من عمل خبز الجرادق نمرود وأول من كتب فى القراطيس الحجاج وأول من اغتاب ابليس لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ان المغتاب اذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة وان أصر فهو أول من يدخل النار ويقال لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك ومن اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك وقيل للحسن البصرى رضى الله تعالى عنه ان فلانا اغتابك فاهدى اليه طبقا من رطب فأتاه الرجل وقال له اغتبتك فأهديت الى فقال الحسن أهديت الى حسناتك فأردت أن أكافئك وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت والدى لانهما أحق بحسناتى واذا حاكى انسان انسانا بأن يمشى متعارجا أو متطاولا أو غير ذلك من الهيئات يريد تنقيصه بذلك فهو حرام وبعض المتفقهين والمتعبدين يعرضون بالغيبة تعريضا تفهم به كما تفهم بالتصريح فيقال لاحدهم كيف حال فلان فيقول الله يصلحنا الله يغفر لنا الله يصلحه نسأل الله العافية نحمد الله الذى لم يبتلنا بالدخول على الظلمة نعوذ بالله من الكبر يعافينا الله من قلة الحياء الله يتوب علينا وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة * واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها فيجب على من يستمع انسانا يبتدئ بغيبة أن ينهاه ان لم يخف ضررا فان خافه وجب عليه الانكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس ان تمكن من مفارقته فان قال بلسانه اسكت وقلبه يشتهى سماع ذلك قال بعض العلماء ان ذلك نفاق قال الله تعالى واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ومما أنشدوه فى هذا المعنى

وسمعك صن عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به
فانك عند سماع القبيح * شريك لقائله فانتبه
وكم أزعج الحرص من طالب * فوافى المنية فى مطلبه

*(الفصل الثالث فى تحريم السعاية بالنميمة) قال الله تعالى ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم الآية وحسبك بالنمام خسة ورذيلة سقوطه وضعته والهماز المغتاب الذى يأكل لحوم الناس الطاعن فيهم وقال الحسن البصرى هو الذى يغمز بأخيه فى المجلس وهو

الهمزة اللمزة وقال علي والحسن البصري رضي الله عنهما العتل الفاحش السيء الخلق وقال ابن عباس رضي الله عنهما العتل الفاتك الشديد المنافق وقال عبيد بن عمير العتل الاكول الشروب القوي الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة وقال الكلبي هو الشديد في كفره وقيل العتل الشديد الخصومة بالباطل والزنيم هو الذي لا يعرف من أبوه قال الشاعر

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغي الامة ذو حسب لئيم

وروينا في صحيحي البخاري ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة نمام وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله قال الامام أبو حامد الغزالي رحمة الله تعالى عليه النميمة انما تطلق في الغالب على من ينم قول الغير الى المقول فيه كقوله فلان يقول فيك كذا فينبغي للانسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس الا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع معصية وينبغي لمن حملت اليه نميمة وقيل له قال فيك فلان كذا أن لا يصدق من نم اليه لان النمام فاسق وهو مردود الخبر وأن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح فعله ويبغضه في الله تعالى فانه بغيض عند الله والبغض في الله واجب وأن لا يظن بالمنقول عنه السوء لقول الله تعالى اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم وسعى رجل الى بلال بن أبي بردة برجل وكان أمير البصرة فقال له انصرف حتى أكشف عنك فكشف عنه فاذا هو ابن بغي يعني ولد زنا قال أبو موسى الاشعري رضي الله عنه لا يتم على الناس الا ولد بغي وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال شراركم المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغاز ملعون كل قتات ملعون كل نمام ملعون كل منان والشغاز المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة والقتات النمام والمنان الذي يعمل الخير ويمن به وأما السعاية الى السلطان والى كل ذي قدرة فهي المهلكة والحالقة لانها تجمع الخصال الذميمة من الغيبة وشؤم النميمة والتغرير بالنفوس والاموال في النوازل والاحوال وتسلب العزيز عزه وتحط المكين عن مكانته والسيد عن مرتبته فكم دم أراقه سعي ساع وكم حريم استبيح بنميمة نمام وكم من صفيين تباعدا وكم من متواصلين تقاطعا وكم من محبين افترقا وكم من اثنين تهاجرا وكم من زوجين تطالقا فليتق الله ربه عز وجل رجل ساعدته الايام وتراخت عنه الاقدار أن يصغي لساع أو يستمع لنمام ووجد في حكم القدماء أبغض الناس الى الله المشاء قال الاصمعي هو الرجل يسعى بأخيه الى الامام فيهلك نفسه وأخاه وامامه وقال بعض الحكماء احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون اذا سرق اللصوص المتاع سرقوا هم المودات وفي المثل السائر من أطاع الواشي ضيع الصديق وقد تقطع الشجرة فتنبت ويقطع اللحم السيف فيندمل واللسان لا يندمل جرحه * ودفع انسان رقعة الى الصاحب بن عباد يحثه

فيها على أخذ مال يتيم وكان مالا كثيرا فكتب اليه على ظهرها النميمة قبيحة وان كانت صحيحة والميت رحمه الله واليتيم جبره الله والساعي لعنه الله ولا حول ولا قوة الا بالله ورويتا في كتاب أبي داود والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيأ فاني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر ومن الناس من يتلون ألوانا ويكون بوجهين ولسانين فيأتي هؤلاء بوجه وهؤلا بوجه وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى

قل للذي لست أدري من تلونه * أناصح أم على غشي يناجيني
اني لاكثر مما متني عجبا * يدنو شجي وأخري منك تأسوني
تغتابني عند أقوام وقد حسنت * في آخرين وكل عنك يأتيني
هذان شيآن قد نافيت بينهما * فاكفف لسانك عن شتمي وتزييني

وقيل لالف لحوح جوح خير من واحد متلون وكان يشبه المتلون بأبي براقش وأبي قلمون وأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون في اليوم ألوانا وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألوانا ويقال للطائش الذي لا ثبات معه أبو رياح تشبيها بشمال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع يدور مع الريح وبناؤه ممدودة وأصابعها مضمومة الا السبابة فاذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به فانه يدور بأضعف نسيم يصيبه والذي يعمله الصبيان من قرطاس على قصبة يسمى أبا رياح ايضا ويقال اخلاق الملوك مثل في المتلون قال بعضهم

ويوم كأخلاق الملوك تلونا * فصحو وتغييم رطل ووابل
أشبهه ايالك يا من صفاته * دنو واعراض ومنع ونائل

وكلم معاوية الاحنف في شئ بلغه عنه فأنكره الاحنف فقال له معاوية بلغني عنك الثقة فقال له الاحنف ان الثقة لا يبلغ مكروها وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية واذا أتاه ساع يقول له ان صدقا أبغضناك وان كذبتنا عاقبناك وان استقلتنا أقلناك وكتب في جواب كتاب ساع نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لان السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شئ وأخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الناس فانه لو كان في سعايته صادقا لكان في صدقه لئيما اذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة وقيل من سعى بالنميمة حذره الغريب ومقته القريب وقال المأمون النميمة لا تقرب مودة الا أفسدتها ولا عداوة الا جددتها ولا جماعة الا بددتها ثم لا بد لمن عرف بها ونسب اليها أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه وأنشد بعضهم

من نم في الناس لم تؤمن عقاربه * على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدري به أحد * من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعهد منه كيف ينقضه * والويل للود منه كيف يفنيه

وقال آخر

يسعى عليك كما يسعى الى الملك فلا * تأمن غوائل ذي وجهين كاد

وقال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى

من يخبرك بشتم عن أخ * فهو الشاتم لا من شتمك
ذاك شئ لم يواجهك به * انما اللوم على من أعلمك

وقال آخر

ان يعلموا الخير اخفوه وان علموا * شرا اذاعوا وان لم يعلموا كذبوا

وقال آخر

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا * مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به * وان ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقال الحسن ستر ما عاينت أحسن من اشاعة ما ظننت وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها

(ومما جاء في النهي عن اللعن)

ما روينا في صحيحي البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن المؤمن كقتله وروينا في صحيح مسلم أيضا عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة وروينا في سنن أبي داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا لعن شيأ صعدت اللعنة الى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط الى الارض فتغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يمينا وشمالا فاذا لم تجد مساغا رجعت الى الذي لعن ان كان أهلا لذلك والا رجعت الى قائلها ويجوز لعن أصحاب الاوصاف المذمومة على العموم كقوله لعن الله الظالمين لعن الله الكافرين لعن الله اليهود والنصارى لعن الله الفاسقين لعن الله المصورين ونحو ذلك وثبت في الاحاديث الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الواصلة والمستوصلة وأنه قال لعن الله آكل الربا وأنه قال لعن الله المصورين وأنه قال لعن الله من لعن والديه وأنه قال لعن الله من ذبح لغير الله وأنه قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وأنه قال لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال وجميع هذه الالفاظ في البخاري ومسلم بعضها فيهما وبعضها في أحدهما والله أعلم

(ومما جاء في العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخمول نعمة وكل يتبرأ والظهور نقمة وكل يتمنى وقال بعضهم

تلحف بالخمول تعش سليما * وجالس كل ذي أدب كريم

وقال جعفر بن الفراء

من أخمل النفس أحياها وروحها * ولم يبت طاويا منها على ضجر
ان الرياح اذا اشتدت عواصفها * فليس ترمي سوى العالي من الشجر

وقال أعرابي رب وحدة أنفع من جليس ووحشة أنفع من أنيس وكان أبو معاوية الضرير

يقول

يقول فى خصلتان ما يسرنى بهما رد بصرى قلة الاعجاب بنفسى وخلو قلبى من اجتماع الناس الى وقال عمر رضى الله عنه خذوا حظكم من العزلة وصعد حسان على أطم من آطام المدينة ونادى بأعلى صوته ياصباحاه فاجتمعت الخزرج فقالوا ما عندك قال قلت بيت شعر فأحببت أن تسمعوه فقالوا هات ياحسان فقال

وان امرأ أمسى وأصبح سالما ● من الناس الا ما جنى لسعيد

ولما بنى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه منزله بالعقيق قيل له تركت منازل اخوانك وأسواق الناس ونزلت بالعقيق فقال رأيت أسواقهم لاغبة ومجالسهم لاهية فوجدت الاعتزال فيما عنا لك عافية وقيل لعروة أخى مرداس لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم فقال أكره أن يميل قلبى باجتماعكم الى حب الرياسة فأخسر الدارين وقال سفيان بن عيينة دخلنا على الفضل فى مرضه نعوده فقال ما جاء بكم والله لولم تجيئوا لكان أحب الى ثم قال نعم الشئ المرض لولا العيادة وقيل للفضل ان ابنك يقول وددت لو أنى بالمكان الذى أرى الناس فيه ولا يرونى فقال ويح ابنى لم لا أتمها فقال لا أراهم ولا يرونى وقال على رضى الله تعالى عنه طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعته وبكى على خطيئته فكان من نفسه فى شغل والناس منه فى راحة وقال سفيان الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس وقيل لراهب فى صومعته ألا تنزل فقال من شئ على وجه الارض غير والكلام فى مثل هذا كثير وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الرابع عشر فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الاسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه

روى عن الحسن أنه قال للحجاج سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقروا السلاطين وبجلوهم فانهم عز الله وظله فى الارض اذا كانوا عدولا فقال الحجاج ألم نكن فيهم اذا كانوا عدولا قال قلت بلى وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال قلت للنبى صلى الله عليه وسلم أخبرنى عن هذا السلطان الذى ذلت له الرقاب وخضعت له الاجساد ما هو قال ظل الله فى الارض فاذا أحسن فله الاجر وعليكم الشكر واذا أساء فعليه الاصر وعليكم الصبر وعنه عليه الصلاة والسلام أيما راع استرعى رعيته ولم يحطها بالامانة والنصيحة من وراثها الا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التى وسعت كل شئ وقال مالك ابن دينار رضى الله تعالى عنه وجدت فى بعض الكتب يقول الله تعالى أنا ملك الملوك ورقاب الملوك بيدى فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة لا تشغلوا ألسنتكم بسب الملوك ولكن توبوا الى الله يعطفهم عليكم وقال جعفر بن محمد رحمة الله تعالى عليه كفارة عمل السلطان الاحسان الى الاخوان وقال كسرى لسيرين ما أحسن هذا الملك لو دام فقال لو دام لاحد ما انتقل الينا ومر طارق الشرطى بابن شبرمة فى موكبه فقال

أراها وان كانت تحب فانها ● سحابة صيف عن قليل تقشع

وجلس الاسكندر يوما فارفع اليه حاجة فقال لا أعد هذا اليوم من أيام ملكي وقال الجاحظ ليس شئ ألذ ولا أسر من عز الامر والنهي ومن الظفر بالاعداء ومن تقليد المنن أعناق الرجال لان هذه الامور تصيب الروح وحظ الذهن وقسمة النفس وقيل الملك خليفة الله في عباده وان يستقيم أمر خلافته مع مخالفته وقال الحجاج سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها وقال أردشير لابنه يابني الملك والدين اخوان لاغنى لاحدهما عن الآخر فالدين أس والملك حارس ومالم يكن له اس فمهدوم ومالم يكن له حارس فضائع قيل لما دنت وفاة هرمز وأمر أنه حامل عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى ولد له ولد فتملك وأغار العرب على نواحي فارس في صباه فلما أدرك ركب وانتخب من أهل النجدة فرسانا وأغار على العرب فانتهكهم بالقتل ثم خلع أكتاف سبعين ألفا فقيل له ذو الاكتاف وأمر العرب حينئذ بارخاء الشعور ولبس المصبغات وأن يسكنوا بيوت الشعر وأن لا يركبوا الخيل الاعراة * وقيل من أخلاق الملوك حب التفرد كان أردشير اذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان واذا لبس حلة لم ير على أحد مثلها واذا تختم بخاتم كان حراما على أهل المملكة أن يتختموا بمثله وكان سعيد بن العاص بمكة اذا اعتم لم يعتم أحد بمثل عمامته مادامت على رأسه وكان الحجاج اذا وضع على رأسه عمامة لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها وكان عبد الملك اذا لبس الخف الاصفر لم يلبس أحد مثله حتى ينزعه وأخبرني من سافر الى اليمن أنه لا يأكل الاوز بها أحد غير الملك وقيل من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضعة عن ابنها وكان أردشير متى شاء قال لا رفع أهل مملكته وأوضعهم كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت حتى كان يقال يأتيه ملك من السماء وماذاك الا بتفحصه وتيقظه وكان علم عمر رضي الله عنه بمن نأى عنه كعلمه بمن بات معه على وساد واحد ولقد اقتفى معاوية أثره وتعرف الى زياد رجل فقال أتتعرف الي وأنا أعرف بك من أبيك وأمك وأعرف هذا البرد الذي عليك ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه وعن بعض العباسيين قال كلمت المأمون رحمه الله تعالى في امرأة خطبتها وسألته النظر اليها فقال يا أبا فلان من قضتها وحليتها وفعلها وشأنها كيت وكيت فوالله مازال يصفها ويصف أحوالها حتى أبهتني

(ومما جاء في طاعة ولاة أمور الاسلام)

أمر الله تعالى بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم وروينا في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله الانصاري رضي الله عنهما قال بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم وسئل كعب الاحبار عن السلطان فقال ظل الله في أرضه من ناصحه اهتدى ومن غشه ضل وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لا تسبوا السلطان فانه ظل الله في الارض به يقوم الحق ويظهر الدين وبه يدفع الله الظلم ويهلك الفاسقين وقال عمر بن عبد العزيز

لمؤدبه كيف كانت طاعتي لك قال أحسن طاعة قال فأطعني كما كنت أطيعك خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك ومن ثوبك حتى تبدو عقباك * وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني وقد ورد في الاحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالسمع والطاعة لولي الامر ومناصحته ومحبته والدعاء له ولو تتبعت ذلك لطال الكلام لكن اعلم أرشدني الله وإياك الى الاتباع وجنبنا الزيغ والابتداع أن من قواعد الشريعة المطهرة والملة الحنيفية المحررة أن طاعة الائمة فرض على كل الرعية وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان وأن طاعته عصمة من كل فتنة وبطاعة السلطان تقام الحدود وتؤدى الفروض وتحقن الدماء وتؤمن السبل وما أحسن ما قالت العلماء ان طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها وان الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة بري من الذمة وان طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القويم وان الخروج منها خروج من أنس الطاعة الى وحشة المعصية ومن غش السلطان ضل وزل ومن أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا في أرفع محل وان طاعة السلطان واجبة أمر الله تعالى بها في كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم وقد اقتصرنا من ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما بيناه ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وأن يصلح شأننا انه قريب مجيب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(الباب الخامس عشر فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته)

(أما صحبة السلطان) فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما قال لي أبي يا بني اني أرى أمير المؤمنين يستخليك ويستشيرك ويقدمك على الاكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم واني أوصيك بخلال ثلاث لا تفشين له سرا ولا تجربن عليه كذبا ولا تغتابن عنده أحدا قال الشعبي رحمه الله تعالى قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف فقال اي والله ومن عشرة آلاف وقال بعض الحكماء اذا زادك السلطان تأنيسا فزده اجلالا واذا جعلك أخا فاجعله أبا واذا زادك احسانا فزده فعل العبد مع سيده واذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس فأخذوا في الثناء عليه فعليك بالدعاء له ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة فان ذلك شبيه بالوحشة والغربة * وقال مسلم بن عمران خدم السلطان لا تغتر بالسلطان اذا أدناك ولا تغتر منه اذا أقصاك * وروي أن بعض الملوك استصحب حكيما فقال له أصحبك على ثلاث خصال قال وما هن قال لا تهتك لي سترا ولا تشتم لي عرضا ولا تقبل في قول قائل حتى تستشيرني قال هذا لك فما الذي عليك قال لا أفشي لك سرا ولا أدخر عنك نصيحة ولا أوثر عليك أحدا قال نعم الصاحب للمستصحب أنت وقال بزرجمهر اذا خدمت ملكا من الملوك فلا تطمعه في معصية خالقك فان احسانه اليك فوق احسان الملك وابقاعه بك أغلظ من ابقاعه * وقالوا اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار لانهم انما احتجبوا عن الناس

لقيام الهيبة فلا تترك الهيبة وان طال أنسك بهم تزدد تعظيما * وقالوا علم السلطان وكأنك تتعلم منه وأشر عليه وكأنك تستشيره واذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ويثق بك فاياك والدخول بينه وبين بطانته فانك لاتدرى متى يتغير منك فيكونون عونا عليك واياك أن تعادى من اذا شاء أن يطرح ثيابه ويدخل مع الملك فى ثيابه فعل وفى الامثال القديمة احذروا زمارة الخمدة وفيه قيل بيت مفرد

ليس الشفيع الذى يأتيك متزرا * مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

وقال يحيى بن خالد اذا صحبت السلطان فدار مدراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الاحمق *(وأما ما جاء فى التحذير من صحبة السلطان)* فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهى عن صحبة السلطان قال فى كتاب كليلة ودمنة ثلاثة لايسلم عليها الا القليل صحبة السلطان وائتمان النساء على الاسرار وشرب السم على التجربة * وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر وأعظم منه خطرا من صحب السلطان وكان بعض الحكماء يقول أحق الامور بالتثبت فيها أمور السلطان فان من صحب السلطان بغير عقل فقد لبس شعار الغرور * وفى حكم الهند صحبة السلطان على مافيها من العز والثروة عظيمة الخطر * وقيل للعتابى لم لاتصحب السلطان على مافيك من الادب قال لانى رأيته يعطى عشرة آلاف فى غير شئ ويرمى من السور فى غير شئ ولا أدرى أى الرجلين أكون * وقال معاوية لرجل من قريش اياك والسلطان فانه يغضب غضب الصبى ويبطش بطش الاسد * وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عنى أربعا لاتصحبن السلطان وان أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر ولاتخلون بامرأة وان أقرأتها القرآن ولا تصل من قطع رحمه فانه لك أقطع ولاتتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدا وكم رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه فافسده هو به فكان كما قيل

عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

ومثل من صحب السلطان ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطا مائلا فاعتمد عليه ليقيمه فخر الحائط عليه فأهلكه قال الشاعر

ومعاشر السلطان شبه سفينة * فى البحر ترجف دائما من خوفه
ان أدخلت من مائه فى جوفها * يغتالها مع مائها فى جوفه

وفى كتاب كليلة ودمنه لايسعد من ابتلى بصحبة الملوك فانهم لاعهد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم ولا يرغبون فيك الا أن يطمعوا فيما عندك فيقترب عند ذلك فاذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك ولا ود للسلطان ولا اخاء والذنب عنده لايغفر * وقالت الحكماء صاحب السلطان كراكب الاسد يخافه الناس وهو لركوبه أخوف * وقال محمد بن واسع والله لسف التراب ولقضم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين * وقال محمد بن السماك الذباب على العذرة خير من العابر على أبواب الملوك * وقيل من صحب السلطان قبل ان يتأدب فقد غرر بنفسه * وقال ابن المعتز من شارك السلطان فى عز الدنيا شاركه فى ذل الآخرة وعنه اذا زاد السلطان تأنيسا واكراما فزده تهيبا واحتشاما * وقال أبو على

الصغانى اياك والملوك فان من والاهم أخذوا ماله ومن عاداهم أخذوا رأسه وقيل مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار أبواب الملوك تحتاج الى ثلاثة عقل وصبر ومال ومحنته مكتوب كذب عدو الله من كان له واحد منهم لم يقرب باب السلطان * وقال حسان بن ربيع الحميرى لا تثقن بالملك فانه ملول ولا بالمرأة فانها خؤون ولا بالدابة فانها شرود * وقال عبد ابن عمير ما ازداد رجل من السلطان قربا الا ازداد من الله بعدا ولا كثرت أتباعه الا كثرت شياطينه ولا كثر ماله الا كثر حسابه وقال ابن المبارك رحمه الله

أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا * ولا أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما * استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال بعضهم فى ولاة بنى مروان

اذا ما قطعتم ليلكم بمدامكم * وأفنيتم أيامكم بمنام
فمن ذا الذى يغشاكم فى ملمة * ومن ذا الذى يغشاكم بسلام
رضيتم من الدنيا بأيسر بلغة * بلثم غلام أو بشرب مدام
ولم تعلموا أن اللسان موكل * بمدح كرام أو بذم لئام

نهت الحكماء عن خدمة الملوك فقالوا ان الملوك يستعظمون فى الثواب رد الجواب ويستقلون فى العقاب ضرب الرقاب * وقيل شر الملوك من أمنه الجرىء وخافه البرىء والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب السادس عشر فى ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك)

قال الله تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام واجعل لى وزيرا من أهلى فلو كان السلطان يستغنى عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ثم ذكر حكمة الوزارة فقال اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة وأن يفوض اليه السلطان اذا استكملت فيه الخصال المحمودة ثم قال كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا دلت هذه الآية على أن بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة وكما يحتاج أن يجمع الناس الى السلاح وأفره الخيل الى السوط وأحد الشفار الى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم الى الوزير * وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله * وقال وهب بن منبه قال موسى انى أرى عون امن ولك الجنة ولك ملكا قال حتى أشاورهامان فشاوره فى ذلك فقال له هامان بينما أنت اله تعبد اذ صرت تعبد فأنف واستكبر وكان من أمره ما كان وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالا ولبئس القرناء شر قرين لشر خدين وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة * وفى الامثال نعم الظهير الوزير وأول ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله فى انتخاب الوزراء واستنقاء الجلساء ومحادثة العقلاء فهذه ثلاث خلال

تدل على كماله وبهذه الخلال يجمل فى الخلق ذكره وترسخ فى النفوس عظمته والمرء موسوم بقرينه * وكان يقال حلية الملوك وزرائهم وزراؤهم وفى كتاب كليله ودمنه لا يصلح السلطان الا بالوزراء والاعوان * وقال شريح بن عبيد لم يكن فى بنى اسرائيل ملك الا ومعه رجل حكيم اذا رآه غضبان كتب اليه صحائف فى كل صحيفة ارحم المسكين واخبر الموت واذكر الآخرة فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه ومثل الملك الخير والوزير السوء الذى يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافى فيه التمساح فلا يستطيع المرء دخوله وان كان سابحا والى الماء محتاجا * ومثل السلطان كمثل الطبيب ومثل الرعية كمثل المرضى ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والاطباء فاذا كذب السفير بطل التدبير وكما أن السفير اذا أراد أن يقتل أحدا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فاذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل كذلك الوزير ينقل الى الملك ما ليس فى الرجل فيقتله الملك فمن ههنا شرط فى الوزير أن يكون صدوقا فى لسانه عدلا فى دينه مأمونا فى أخلاقه بصيرا بأمور الرعية وتكون بطانة الوزير أيضا من أهل الامانة والبصيرة * وليحذر الملك أن يولى الوزارة لئيما فالئيم اذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالاشراف وتكبر على ذوى الفضل ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء وكان الوزير من أهل العقل والادب فوجد عنده رجلا ذميا كان الخليفة يميل اليه ويقربه فقال الوزير منشدا

يا ملكا طاعته لازمه * وحبه مفترض واجب
ان الذى شرفت من أجله * يزعم هذا انه كاذب

وأشار الى الذمى فاسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك فسأله فلم يجد بدا من أن يقول هو صادق فاعترف بالاسلام وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع وقال لوزيره اذا رأيتنى غضبان فادفع الى رقعة بعد رقعة وكان فى الاولى انك لست بالله وانك ستموت وتعود الى التراب فيأكل بعضك بعضا وفى الثانية ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء وفى الثالثة اقض بين الناس بحكم الله فانهم لا يصلحهم الا ذلك ولما كانت أمور المملكة عائدة الى الوزراء وأزمة الملوك فى أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر فقالوا الاغترار بمودة الامير اذا غشك الوزير واذا أحبك الوزير فثم ولا تخش الامير ومثل السلطان كالدار والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها انزعج وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر فكما أن من لم ينظر فى المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه كذلك السلطان اذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤفا بهم واعلم أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة وان استقلها وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس وكما أن المرآة لا تريك وجهك الا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدا كذلك السلطان لا يكمل أمره الا بجودة عقل الوزير وصحة فهمه ونقاء قلبه والله تعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

(الباب السابع عشر في ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر)

(أما الحجاب) فقد قيل لا شئ أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب وقيل اذا سهل الحجاب احجمت الرعية عن الظلم واذا عظم الحجاب هجمت على الظلم * وقال ميمون بن مهران كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه من بالباب فقال رجل أناخ ناقته الآن يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن له أن يدخل فلما دخل قال حدثني أبي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من ولي شيأ من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجبه الله عنه يوم القيامة فقال عمر لحاجبه الزم بيتك فما رؤي على بابه بعد ذلك حاجب وكان خالد ابن عبد الله القشيري يقول لحاجبه اذا أخذت مجلسي فلا تحجبن عني أحدا فان الوالي لا يحتجب الا لثلاث عيب يكره أن يطلع عليه أحد أو ريبة يخاف منها أن تظهر أو بخل يكره معه أن يسأل شيأ * وكانت العجم تقول لا شئ أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك ولا شئ أهيب للرعية واكف لهم عن الظلم من سهولته وقيل لبعض الحكماء ما الجرح الذي لا يندمل قال حاجة الكريم الى اللئيم ثم يردّه بغير قضائها قيل فما الذي هو أشد منه قال وقوف الشريف ببابِ الدنيء ثم لا يؤذن له ووقف عبد الله بن العباس بن الحسن العلوي على باب المأمون يوما فنظر اليه الحاجب ثم أطرق فقال عبد الله لقوم معه أنه لو أذن لنا لدخلنا ولو صرفنا لانصرفنا ولو اعتذر الينا قبلنا وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا افهم معناه ثم تمثل بهذا البيت

وما عن رضى كان الحمار مطيتي * ولكن من يمشي سيرضى بما ركب

ثم انصرف فبلغ ذلك المأمون فضرب الحاجب ضربا شديدا وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب قال الشاعر

رأيت أناسا يسرعون تبادرا * اذا فتح البواب بابك اصبعا
ونحن جلوس ساكتون رزانة * وحلما الى أن يفتح الباب أجمعا

ووقف رجل خراساني ببابِ ابي دلف العجلي حينا فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف في وصولها اليه وفيها

اذا كان الكريم له حجاب * فما فضل الكريم على اللئيم

فأجابه أبو دلف بقوله

اذا كان الكريم قليل مال * ولم يعذر تعلل بالحجاب
وابواب الملوك محجبات * فلا تستنكرن حجاب بابي

ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم

سأهجركم حتى يلين حجابكم * على أنه لا بد سوف يلين
خذوا حذركم من صفوة الدهر انها * وان لم تكن خانت فسوف تخون

وقال آخر

ماذا على بوّاب داركم الذي * لم يعطنا اذنا ولا يستأذن
لو ردّنا ردّا جميلا عنكم * او كان يدفع بالتي هي أحسن

وقال آخر

أمرت بالتسهيل فى الاذن لى * ولم ير الحاجب أن يأذنا
فلست ترانى بعدها عائدا * ولن تراه بعد مستأذنا

وقال آخر

ولقد رأيت ببابدارك جفوة * فبها لحسن صنيعك التكدير
مابال دارك حين تدخل جنة * وببابدارك منكر ونكير

وقال آخر

اذا حيت ألقى عندبابك حاجبا * محياه من فرط الجهالة حالك
ومن عجب مغناك جنة قاصد * وحاجبها من دون رضوان مالك

وقال آخر

ساترك بابا انت تملك اذنه * ولوكنت اعمى عن جميع المسالك
فلوكنت بوّاب الجنان تركتها * وحولت رجلى مسرعا نحو مالك

وقال آخر

ماذا يفيدك ان تكون مجيبا * والعبد بالباب الكريم يلوذ
ماأنت الا فى الحصار معى فلا * تتعب فكل محاصر مأخوذ

وقال أبو تمام

سأترك هذا الباب مادام اذنه * على ماأرى حتى يلين قليلا
فما خاب من لم يأته متعمدا * ولا فاز من قد نال منه وصولا
اذا لم نجد للاذن عندك موضعا * وجدنا الى ترك المجئ سبيلا

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب قل له ان الكرى قد خطب الى نفسى واغاهى هجمة وأهب فخرج الحاجب فقال له الرجل ما الذى قال لك قال قال كلا مالا أفهمه وهو يريد أن لا يأذن لك وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه انما أمهل فرعون مع دعواه الالوهية لسهولة اذنه وبذل طعامه وقال عمرو بن مرّة الجهنى لمعاوية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من أمير يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسئلة الا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسئلته وجاء النامى الشاعر لبعض الامراء فحجبه فقال

سأصبر ان جفوت فكم صبرنا * لمثلك من امير أو وزير
رجوناهم فلما اخلفونا * تمادت فيهم غير الدهور
فبتنا بالسلامة وهى غنم * وباتوا فى المحابس والقبور
ولما لم تنل منهم سرورا * رأينا فيهم كل السرور

وأنشدوا فى ذلك ايضا

قل للذين تحجبوا عن راغب * بمنازل من دونها الحجاب
ان حال عن لقياكم بوّابكم * فالله ليس لبابه بوّاب

واستأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه فهتف بالبكاء فأتى اليه الناس وفيهم كعب فقال ومايبكيك ياسعد فقال ومالى لا ابكى وقد ذهب الاعلام من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاوية يلعب بهذه الامة فقال كعب لاتبك فان فى الجنة قصرا من ذهب يقال له عدن أهله الصديقون والشهداء وأنا أرجو أن تكون من أهله * واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم فحجبه فقال

فى كل يوم لى بابك وقفة * اطوى اليه سائر الابواب
واذا حضرت رغبت عنك فانه * ذنب عقوبته على البواب

(وأما ذكر الولايات ومافيها من الخطر العظيم) فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب جاء فى التفسير أن من اتباع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذى فى قلبك حبه خاصة وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه قال ابن عباس رضى الله عنهما كان الذى أصاب سليمان ابن داود عليهما السلام أن ناسا من أهل جرادة امرأته وكانت من اكرم نسائه عليه تحاكموا اليه مع غيرهم فأحب أن يكون الحق لاهل جرادة فيقضى لهم فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحدا وروى عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان اعطيتها من غير مسئلة أعنت عليها وان اعطيتها عن مسئلة وكلت اليها وقال معقل بن يسار رضى الله عنه سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول مامن عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحته الا لم يجد رائحة الجنة وفى الحديث من ولى من أمور المسلمين شيأ ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث الى عاصم يستعمله على الصدقة فابى وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالى فيقف على جسر جهنم فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه ثم يأمر الله تعالى بالعفو فترجع الى أماكنها فان كان لله مطيعا أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته وان كان لله عاصيا انخرق به الجسر فهوى به فى نار جهنم مقدار سبعين خريفا فقال عمر رضى الله عنه سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم مالم أسمع قال نعم وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان أى والله ياعمر ومع السبعين سبعون خريفا فى واد يلتهب التهابا فضرب عمر رضى الله عنه بيده على جبهته وقال انا لله وانا اليه راجعون من يأخذها بما فيها فقال سلمان من أرغم الله انفه وألصق خده بالارض * وروى أبو داود فى السنن قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ان أبى عريف على الماء وانى أسالك أن تجعل لى العرافة من بعده فقال النبى عليه الصلاة والسلام العرفاء فى النار * وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أشد الناس عذابا يوم القيامة الامام الجائر * وقالت عائشة رضى الله عنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب

ما يودّ أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة وقال الحسن البصرى ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله فقال يارسول الله خرلى فقال اقعد فى بيتك وقال أبو هريرة رضى الله عنه مامن أمير يؤتمر على عشرة الا جىء به يوم القيامة مغلولا أنجاه عدله أو اهلكه وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك هل تدرى ياأمير المؤمنين من أشد الناس عذابا يوم القيامة قال سليمان قل فقال طاوس أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى ملكه فجار فى حكمه فاستدلى سليمان على سريره وهو يبكى فما زال يبكى حتى قام عنه جلساؤه وقال ابن سيرين جاء صبيان الى أبى عبيدة السلمانى يتخيرون اليه فى ألواحهم فلم ينظر اليها وقال هذا حكم لا أتولى حكما أبدا وقال أبو بكر بن أبى مريم حج قوم فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل فقالوا له دلنا على الماء فقال احلفوا لى ثلاثا وثلاثين يمينا انه لم يكن صرّافا ولا مكاسا ولا عريفا ويروى ولا عرّافا ولا بريدا وأنا أدلكم على الماء فحلفوا له ثلاثا وثلاثين يمينا كما قال فدلهم على الماء فقالوا له أعنا على غسله فقال لا حتى تحلفوا لى ثلاثا وثلاثين يمينا كما تقدم فحلفوا له فأعانهم على غسله ثم قالوا له تقدم فصل عليه فقال لا حتى تحلفوا لى ثلاثا وثلاثين يمينا كما تقدم فحلفوا له فصلى عليه ثم التفتوا فلم يجدوا أحدا فكانوا يرون انه الخضر عليه السلام وقال أبو ذر رضى الله عنه قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ياأبا ذر انى أحب لك ما أحب لنفسى وانى أراك ضعيفا فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم * ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق ما حكى أن ملكا من ملوك الفرس يقال له أردشير وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير وكان ذا بأس شديد قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع وأن هذه البنت بكر ذات خدر فسير أردشير يخطبها من أبيها فامتنع من اجابته ولم يرض بذلك فعظم ذلك على أردشير وأقسم بالايمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة وليمثلن بهما أخبث مثلة فسار اليه أردشير فى جيوشه فقاتله فقتله أردشير وقتل سائر خواصه ثم سأل عن ابنته المخطوبة فبرزت اليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسنا وجمالا وقدا واعتدالا فبهت أردشير من رؤيته اياها فقالت له أيها الملك انى ابنة الملك الفلانى ملك المدينة الفلانية وان الملك الذى قتلته أنت قد غزا بلادنا وقتل أبى وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت وانه أسرنى فى جملة الاسارى وأتى بى فى هذا القصر فلما رأتنى ابنته التى أرسلت تخطبها أحبتنى وسألت أباها أن يتركنى عندها لتأنس بى فتركنى لها فكنت أنا وهى كأننا روحان فى جسد واحد فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها الى بعض الجزائر فى البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك فقال أردشير وددت لو أنى ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة ثم انه تأمل الجارية فرآها فائقة فى الجمال فمالت نفسه اليها فأخذها للتسرى وقال هذه أجنبية من الملك ولا أحنث فى يمينى باخذها ثم انه واقعها وأزال بكارتها فحملت منه فلما ظهر عليها الحمل اتفق أنها تحدثت معه يوما وقدر أنه منشرح الصدر فقالت له أنت غلبت أبى وأنا غلبتك فقال لها ومن أبوك فقالت له هو ملك بحر الأردن وأنا ابنته التى خطبتها منه وانى سمعت انك أقسمت لتقتلنى فتحملت عليك بما سمعت والآن هذا ولدك فى بطنى فلا يتهيأ لك

قتلى فعظم ذلك على أردشير اذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه فانتهرها وخرج من عندها مغضبا وعول على قتلها ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها فلما رأى الوزير عزمه قويا على قتلها خشي أن تحدث الملوك عنه بمثل هذا وأنه لا يقبل فيها شفاعة شافع فقال أيها الملك ان الرأى هو الذى خطر لك والمصلحة هى التى رأيتها أنت وقتل هذه الجارية فى هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لانه أحق من أن يقال ان امرأة قهرت رأى الملك وحنقته فى يمينه لاجل شهوة النفس ثم قال أيها الملك ان صورتها مرحومة وجمال الملك معها وهى أولى بالستر ولا أرى فى قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق فقال له الملك نعم ما رأيت خذها غرقها فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلا الى بحر الاردن ومعه ضوء ورجال وأعوان فتحيل الى أن طرح شيأ فى البحر أوهم من كان معه انها الجارية ثم انه أخفاها عنده فلما أصبح جاء الى الملك فأخبره انه غرقها فشكره على ما فعل ثم ان الوزير تأول الملك حقا مختوما وقال أيها الملك انى نظرت مولدى فرأيت أجلى قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس فى النجوم وان لى أولادا وعندى مال قد ادخرته من نعمتك فخذه اذا أنا مت ان رأيت وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادى بالسوية فانه ارثى الذى قد ورثته من أبى وليس عندى شئ اكتسبته منه الا هذا الجوهر فقال له الملك يطول الرب فى عمرك ومالك لك ولا ولادك سواء كنت حيا أو ميتا فالح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة فأخذه الملك وأودعه عنده فى صندوق ثم مضت أشهر جارية فوضعت ولدا ذكرا جميلا حسن الخلقة مثل فلقة القمر فلاحظ الوزير جانب الادب فى تسميته فرأى انه ان اخترع له اسما وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الادب وان هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك فسماه شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك فان شاه ملك وبور ابن ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد الى أن بلغ الولد حد التعليم فعلمه كل ما يصلح لاولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية وهو يوهم انه مملوك له اسمه شاه بور الى أن راهق البلوغ هذا كله وأردشير ليس له ولد وقد طعن فى السن وأقعده الهرم فمرض وأشرف على الموت فقال للوزير أيها الوزير قد هرم جسمى وضعفت قوتى وانى أرى أنى ميت لا محالة وهذا الملك يأخذه من بعدى من قضى له به فقال الوزير لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولى بعده الملك ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الاردن وبحملها فقال الملك لقد ندمت على تغريقها ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكرا فلما شاهد الوزير من الملك الرضى قال أيها الملك انها عندى حية ولقد وضعت ولدا ذكرا من أحسن الغلمان خلقا وخلقا فقال الملك أحق ما تقول فأقسم الوزير أن نعم ثم قال أيها الملك ان فى الولد روحانية تشهد بأبوة الاب وفى الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن لا يكاد ذلك ينخرم أبدا وانى آتى بهذا الغلام بين عشرين غلاما فى سنه وهيئته ولباسه وكلهم ذوو آباء معروفين خلاهو وانى أعطى كل واحد منهم صولجانا وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك فى مجلسك هذا ويتأمل الملك صورهم وخلقتهم وشمائلهم فكل من مالت اليه نفسه وروحانيته فهو هو فقال الملك نعم التدبير الذى قلت

فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدى الملك فكان الصبى منهم اذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها الاشاه بور فانه كان اذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه فلاحظ اردشير ذلك منه مرارا فقال له أيها الغلام ما اسمك قال شاه بور فقال له صدقت أنت ابنى حقا ثم ضمه اليه وقبله بين عينيه فقال له الوزير هذا هو ابنك أيها الملك ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبى منهم والد بحضرة الملك فتحقق الصدق فى ذلك ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها فقبلت يد الملك فرضى عنها فقال الوزير أيها الملك قد دعت الضرورة فى هذا الوقت الى احضار الحق المختوم فأمر الملك باحضاره ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحه فاذا فيه ذكر الوزير وانثياه مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولا من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة قال فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس فى الخدمة وشدة مناصحته فزاد سروره وتضاعف فرحه اصيانة الجارية واثبات نسب الولد ولحوقه به ثم ان الملك عوفى من مرضه الذى كان به وصح جسمه ولم يزل يتقلب فى نعمه وهو مسرور بابنه الى أن حضرته الوفاة ورجع الملك الى ابنه شاه بور بعد موت ابيه وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

الباب الثامن عشر فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول

(الفصل الاول فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم) قال الله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وقال تعالى فاحكم بينهما بالحق ولا تشطط وقال تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حكم بين اثنين تحاكما اليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق فعليه لعنة الله * وعن ابى حازم قال دخل عمر على أبى بكر رضوان الله عليهما فسلم عليه فلم يرد عليه فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف أخاف أن يكون وجد على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلم عبد الرحمن أبا بكر فقال أتانى وبين يدى خصمان قد فزغت لهما قلبى وسمعى وبصرى وعلمت أن الله سائلى عنهما وعما قالا وقلت * واذا دعى رجل على على عند عمر رضى الله عنهما وعلى جالس فالتفت عمر اليه وقال يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك فقام فجلس مع خصمه فتناظرا وانصرف الرجل ورجع على الى مجلسه فتبين لعمر التغير فى وجه على فقال يا أبا الحسن مالى أراك متغيرا اكرهت ما كان قال نعم قال وماذا قال كنيتنى بحضرة خصمى هل لا قلت يا على قم فاجلس مع

خصمك فأخذ عمر برأس علي رضي الله عنهما فقبله بين عينيه ثم قال بأبي انتم بكم هدانا الله وبكم اخرجنا من الظلمات الى النور * وعن أبي حنيفة رضي الله عنه القاضي كالغريق في البحر الاخضر الى متى يسبح وان كان سابحا وأراد عمرو بن هبيرة أن يولي ابا حنيفة القضاء فأبى فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب فقال الضرب بالسياط في الدنيا أهون علي من الضرب بمقامع الحديد في الآخرة وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكشف عن باب مغلق فظننا ان كنزا فكتبنا الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فكتب الينا لا تحركوه حتى يقدم اليكم كتابي ثم فتح فاذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان

اذا خان الامير وكاتباه * وقاضي الارض داهن في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل * لقاضي الارض من قاضي السماء

واذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد بن ارم وعن ابن أبي أوفى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله مع القاضي مالم يجر فاذا جار برئ الله منه ولزمه الشيطان وقال محمد بن حريث بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة واجتمع الناس اليه فكان لا يجيبهم فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال اللهم ان كنت تعلم اني لهذا الامر كاره فاقبضني اليك فقبض وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء لعلك تريد أن تكون قاضيا لان يدخل الرجل اصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضيا * وقيل أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الاشعري كان أميرا البصرة وقاضيا فيها وكان يقول ان الرجلين يتقدمان الي فأجد أحدهما أخف على قلبي من الآخر فاقضي له وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيى بن اكثم مع رجل ادعى عليه بثلاثين ألف دينار فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيى لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ولم يكن للرجل بينة فأراد أن يحلف المأمون فدفع اليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال والله ما دفعت لك هذا المال الا خشية أن تقول العامة اني تناولتك من جهة القدرة ثم أمر ليحيى بمال وأجزل عطاءه * وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله الى أبي يوسف ابن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل فقال أبو يوسف قم أنو مر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع ياغلام ائتني بعمرو بن أبي عمرو النخاس فانه ان قدم علي الساعة أمرته ببيع هذا العبد وجعل ثمنه الى أمير المؤمنين ثم ان الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم الى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له لو باعك لا جزت بيعه ولم أردك الى ملكي فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فان ذلك عمود السلطان وقوام الاديان والله تعالى أعلم وقال الابرش الكلبي يمدح بعض القضاة

رفضت وعطلت الحكومة قبله * في آخرين وملها رواضها
حتى اذا ما قام الف بينها * بالحق حتى جمعت أوفاضها

وفي ضد ذلك قول بعضهم

أبكي وأندب ملة الاسلام * اذ صرت تقعد مقعد الحكام
ان الحوادث ما علمت كثيرة * وأرى البعض حوادث الايام

وتقدمت امرأة الى قاض فقال لها جامعك شهود فسكتت فقال كاتبه ان القاضي يقول لك جامعك شهود لمعك قالت نعم هلا قلت مثل ما قال كاتبك كبر سنك وقل عقلك وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك ما رأيت ميتا يقضي بين الاحياء غيرك وقيل المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف الاحكام قاضي مني وقاضي كسكر وقاضي أبيج وهو الذي قال فيه ابو اسحاق الصابي

يارب عجل أعلج * مثل البعير الاهوج
رأيته مطلعا * من خلف باب مرتج
وخلفه عذبية * تذهب طورا وتجي
فقلت من هذا ترى * فقيل قاضي أبيج

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري

رأيت رأسا كدبه * ولحية كالمذبه
فقلت من أنت قل لي * فقال قاضي شلبه

وتقدمت امرأة جميلة الى الشعبي فادعت عنده فقضى لها فقال هذيل الاشجعي

* فتن الشعبي لما * رفع الطرف اليها
* فتنته بنان * كيف لورا معصميها
ومشت مشيا رويدا * ثم هزت منكبيها
فقضى جورا على الخصـ * ـم ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الاشجعي ثلاثين سوطا وحكي ابن أبي ليلى قال انصرف الشعبي يوما من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول فتن الشعبي لما فتن الشعبي لما ولم تعرف بقية البيت فلقنها الشعبي وقال رفع الطرف اليها ثم قال أبعده الله اما انا فما قضيت الا بالحق وأنشد بعضهم في أمين الحكم

تماوتن اذا مشيت تخشعا * حتى تصيب وديعة لليتيم

(الفصل الثاني في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون) أما الرشوة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعن الله الراشي والمرتشي وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تولوا اليهود ولا النصارى فانهم يقبلون الرشا ولا يحل في دين الله الرشا قال الشهيدي واصحابنا اليوم اقبل للرشا منهم وفي نوابغ الحكم ان البراطيل تنصر الاباطيل وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال من شفع شفاعة ليرد بها حقا أو يدفع بها ظلما فاهدى له

فقيل فذلك السجن فقيل له ما كنا نرى السجن الا الاخذ على الحكم قال الاخذ على الحكم كفر وأنشد المبرد رحمه الله تعالى

وكنت اذا خاصمت خصما كبيته * على الوجه حتى خاصمتني الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غلبت * علي وقالت قم فانك ظالم

(واما الدين وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال)

فقد روى عن أبي امامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من تداين بدين وفي نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء ومن تداين بدين وليس في نفسه وفاؤه ثم مات اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة رواه الحاكم وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتي له بجنازة لم يسأل عن شئ من عمل الرجل ويسأل عن دينه فان قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه وان قيل ليس عليه دين صلى عليه فأتي بجنازة فلما قام ليكبر سأل صلى الله عليه وسلم هل على صاحبكم من دين فقالوا دينار ان يا رسول الله فعدل النبي صلى الله عليه وسلم عنه وقال صلوا على صاحبكم فقال علي كرم الله وجهه هما علي يا رسول الله وهو بري منهما فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى عليه ثم قال لعلي رضي الله عنه جزاك الله عنه خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك انه ليس من ميت يموت وعليه دين الا وهو مرتهن بدينه ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة وقال بعض الحكماء الدين هم بالليل وذل بالنهار وهو غل جعله الله في أرضه فاذا أراد الله أن يذل عبدا جعله طوقا في عنقه وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى دينا له على رجل فقالوا خرج الى الغزو فقال اشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن رجلا قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضى دينه وعن الزهري قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على أحد عليه دين ثم قال بعد أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من مات وعليه دين فعلي قضاؤه ثم صلى عليهم وعن جابر لا هم الا هم الدين ولا وجع الا وجع العين وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من تزوج امرأة بصداق ينوي أن لا يؤديه اليها فهو زان ومن استدان دينا ينوي أن لا يقضيه فهو سارق وقال حبيب بن ثابت ما احتجت الى شئ أستقرضه الا استقرضته من نفسي أراد أنه يصبر الى أن تمكن الميسرة ونظيره قول القائل

واذا غلا شئ على تركته * فيكون أرخص ما يكون اذا غلا

وقال بعضهم أيضا

لقد كان القريض سمير قلبي * فألهتني القروض عن القريض

وقال غيلان بن سرة التميمي

واني لأقضي الدين بالدين بعدما * يرى طالبي بالدين أن لست قاضيا

فأجابه نعلبة بن عمير

اذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن * قضاء ولكن ذا الغرم على غرم

واستقرض الاصمعي من خليل له فقال حبا وكرامة ولكن سكن قلبي برهن يساوي ضعف ماطلبه فقال يا أبا سعيد أما تثق بي قال بلى وان خليل الله كان واثقا بربه وقد قال له ولكن ليطمئن قلبي اللهم توف عنا دين الدنيا باليسرة ودين الآخرة بالمغفرة برحمتك يا أرحم الراحمين

(الفصل الثالث في ذكر القصاص والمتصوفة وماجاء في الرياء ونحو ذلك)

(أما ماجاء في ذكر القصاص والمتصوفة)

فقد روى عن خباب بن الارت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بني اسرائيل لما قصوا هلكوا وروي أن كعبا كان يقص فلما سمع الحديث ترك القصص وقال ابن عمر رضي الله عنهما لم يقص أحد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وانما كان القصص حين كانت الفتنة وقال ابن المبارك سألت الثوري من الناس قال العلماء قلت فمن الاشراف قال المتقون قلت فمن الملوك قال الزهاد قلت فمن الغوغاء قال القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام قلت فمن السفهاء قال الظلمة * قيل وهب رجل لقاص خاتما بلا فص فقال وهب الله لك في الجنة غرفة بلا سقف وقال قيس ابن جبير النهشلي الصعقة التي عند القصاص من الشيطان وقيل لعائشة رضي الله عنها ان أقواما اذا سمعوا القرآن صعقوا فقالت القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال * وسئل ابن سيرين عن اقوام يصعقون عند سماع القرآن فقال ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله الى آخره فان صعقوا فهو كما قالوا * وكان عمر وقاص يبكي بمواعظه فاذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبورا صغيرا فيحركه ويقول مع هذا الغم الطويل يحتاج الى فرح ساعة * وقال بعضهم قلت لصوفي يعني جبتك فقال اذا باع الصياد شبكته فبأي شئ يصيد * وسئل بعض العلماء عن المتصوفة فقال أكلة رقصة * وعظ عيسى عليه السلام بني اسرائيل فأقبلوا يمزقون الثياب فقال ماذنب الثياب أقبلوا على القلوب فعاتبوها

(وأما ماجاء في الرياء)

فقد قال الله تعالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين وقيل لو أن رجلا عمل عملا من البر وكتمه ثم احب أن يعلم الناس انه كتمه فهو من أقبح الرياء وقيل كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله فليس من الله في شئ وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر يا رسول الله قال الرياء وقيل بينما عابد يمشي ومعه غمامة على رأسه تظله فجاء رجل يريد أن يستظل معه فنفره وقال ان أقمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظلني فقال له الرجل قد علم الناس أني لست ممن تظله الغمامة فخولها الله تعالى الى ذلك الرجل وقال عبد الاعلى السلمي يوما الناس يزعمون أني مراء وكنت أمس والله صائما ولا أخبرت بذلك

أحدا اللهم أصلح فسادقلوبنا واسترفضائحنا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب التاسع عشر في العدل والاحسان والانصاف وغير ذلك)

اعلم أرشدك الله أن الله تعالى أمر بالعدل ثم علم سبحانه وتعالى انه ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الاحسان وهو فوق العدل فقال تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى الآية فلو وسع الخلائق العدل ماقرن الله به الاحسان والعدل ميزان الله تعالى في الارض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي والحق من المبطل واعلم ان عدل الملك يوجب محبته وجوره يوجب الافتراق عنه وأفضل الازمنة أيام العدل وروينا من طريق أبي نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعمل الامام العادل في رعيته يوما واحدا أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عاما وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة وروينا في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لكعب الاحبار أخبرني عن جنة عدن قال يا أمير المؤمنين لا يسكنها الا نبي أو صديق أو شهيد أو امام عادل فقال عمر والله ما أنا نبي وقد صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما الامام العادل فاني ارجو أن لا اجور وأما الشهادة فأنى لي بها قال الحسن فجعله الله صديقا شهيدا حكما عادلا وسأل الاسكندر حكماء أهل بابل أيما أبلغ عندكم الشجاعة أو العدل قالوا اذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة ويقال عدل السلطان أنفع من خصب الزمان وقيل اذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو اليه من خراب مدينته ويسأله مالا يرمها به فكتب اليه عمر قد فهمت كتابك فاذا قرأت كتابي فحصن مدينتك بالعدل ونق طرقها من الظلم فانه مرمتها والسلام ويقال ان الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف فلم يزل يتناقص حتى صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ارتفع في السنة الاولى الى ثلاثين ألف ألف وفي الثانية الى ستين ألف ألف وقيل أكثر وقال ان عشت لا بلغنه الى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فمات في تلك السنة ومن كلام كسرى لا ملك الا بالجند ولا جند الا بالمال ولا مال الا بالبلاد ولا بلاد الا بالرعايا ولا رعايا الا بالعدل * ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور فكتب المنصور لعامله استوف لأمير المؤمنين حقه وفرق مابقي بين الغرماء فلم يلتفت الى كتابه وضرب المنصور بسهم من المال كما ضرب لأحد الغرماء ثم كتب للمنصور اني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء فكتب اليه المنصور ملئت الارض بك عدلا * وكان أحمد بن طولون والي مصر

متحليا بالعدل مع تجبره وسفكه للدماء وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم (حكى) أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطبح يوما فلقيها بعض صالحى مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره فدخل العباس اليه واخبره بذلك فأمر باحضار ذلك الرجل الصالح فلما أحضر اليه قال أنت الذى كسرت العود قال نعم قال أفعلت ان هو قال نعم هو لابنك العباس قال أفما أكرمته لى فقال أكرمه لك بمعصية الله عز وجل والله تعالى يقول والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك ثم قال كل منكر رأيته فغيره وأنا من ورائك * ووقف يهودى لعبد الملك بن مروان فقال يا أمير المؤمنين ان بعض خاصتك ظلمنى فأنصفنى منه وأذقنى حلاة العدل فأعرض عنه فوقف له ثانيا فلم يلتفت اليه فوقف له مرة ثالثة وقال يا أمير المؤمنين انا نجد فى التوراة المنزلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه ان الامام لا يكون شريكا فى ظلم احد حتى يرفع اليه فاذا رفع اليه ذلك ولم يزله فقد شاركه فى الظلم والجور فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث فى الحال الى من ظلمه فعزله وأخذ لليهودى حقه منه * وروى أن رجلا من العقلاء غضب بعض الولاة ضيعة له فأتى الى المنصور فقال له اصلحك الله يا أمير المؤمنين أأذكر لك حاجتى أم أضرب لك قبلها مثلا فقال بل اضرب المثل فقال ان الطفل الصغير اذا نابه أمر يكرهه فانما يفزع الى أمه اذ لا يعرف غيرها ويظنا منه أن لا ناصر له غيرها فاذا ترعرع واشتد كان فراره الى أبيه فاذا بلغ وصار رجلا وحدث به أمر شكاه الى الوالى لعلمه أنه أقوى من أبيه فاذا ازداد عقله شكا الى السلطان لعلمه انه أقوى ممن سواه فان لم ينصفه السلطان شكاه الى الله تعالى لعلمه انه اقوى من السلطان وقد نزلت بى نازلة وليس أحد فوقك أقوى منك الا الله تعالى فان أنصفتنى والا رفعت أمرى الى الله تعالى فى الموسم فانى متوجه الى بيته وحرمه فقال المنصور بل تنصفك وأمر أن يكتب الى واليه برد ضيعته اليه * وكان الاسكندر يقول يا عباد الله انما الهكم الله الذى فى السماء الذى نصر نوحا بعد حين الذى يسقيكم الغيث عند الحاجة واليه مفزعكم عند الكرب والله لا يبلغنى ان الله تعالى أحب شيئا الا أحببته واستعملته الى يوم أجلى ولا أبغض شيأ الا أبغضته وهجرته الى يوم أجلى وقد أنبئت أن الله تعالى يحب العدل فى عباده ويبغض الجور من بعضهم على بعض فويل للظالم من سيفى وسوطى ومن ظهر منه العدل من عمالى فليتكئ فى مجلسى كيف شاء وليتمن على ما شاء فلن تخطئه أمنيته والله تعالى المجازى كلا بعمله * ويقال اذا لم يعمر الملك ملكه بالانصاف خرب ملكه بالعصيان * وقيل مات بعض الاكاسرة فوجد والده سفطا ففتح فوجد فيه حبة رمان كبيرا مما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها هذه من حب رمان عمل فى خراجه بالعدل * وقيل تظلم أهل الكوفة من واليهم فشكوه الى المأمون فقال ما علمت فى عمالى أعدل ولا أقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه فقال رجل منهم يا أمير المؤمنين ما أحد أولى بالعدل والانصاف منك فان كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلدا بلدا حتى

يلحق

يلحق كل بلد من عدله مثل الذى لحقنا ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا واذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم * وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة فنزل بواصل بن عطاء وقال بلغنى أبيات عن سليم بن يزيد العدوى فى العدل فقمنا اليه فأشرف علينا من غرفة فقال لواصل من هذا الذى معك قال عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم فقال رحب على رحب وقرب على قرب فقال انه يحب أن يسمع أبياتك فى العدل فقال سمعا وطاعة وأنشد يقول

حتى متى لانرى عدلا نسر به * ولانرى لولاة الحق أعوانا
مستمسكين بحق قائمين به * اذا تلون أهل الجور ألوانا
يالله رجال لادواء له * وقائد ذى عمى يقتاد عميانا

فقال المنصور وددت لو أنى رأيت يوم عدل ثم مت * وقيل لما ولى عمر بن عبد العزيز أخذ فى رد المظالم فابتدأ بأهل بيته فاجتمعوا الى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سلك طريقا فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذى سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أفضى الامر الى معاوية جزه يمينا وشمالا وايم الله ان مد فى عمرى لأردنه الى ذلك الطريق الذى سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقالت له يا ابن أخى انى أخاف عليك منهم يوما عصيبا فقال كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا امنيه الله * وقال وهب بن منبه اذا هم الوالى بالجور أو عمل به أدخل الله النقص فى أهل مملكته فى الاسواق والزروع والضروع وكل شئ واذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة فى أهل مملكته كذلك * وقال الوليد بن هشام ان الرعية لتصلح بصلاح الوالد وتفسد بفساده * وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان ملكا من الملوك خرج يسير فى مملكته متنكرا فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالامس فقال له الملك ما بال حلبها نقص أرعت فى غير مرعاها بالامس فقال لا ولكن أظن أن ملكا رآها أو وصله خبرها فهم باخذها فنقص لبنها فان الملك اذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة فتاب الملك وعاهد ربه فى نفسه أن لا يأخذها ولا يحسد أحدا من الرعية فلما كان من الغد حلبت عادتها * ومن المشهور بارض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وان كل قصبة منها تعصر قدحا فعزم الملك على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك فقالت نعم ثم انها عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح فقال لها اين الذى كان يقال فقالت هو الذى بلغك الا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها منى فارتفعت البركة منها فتاب الملك وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبدا ثم أمر بها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح (وحكى) سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمه الله فى كتابه سراج الملوك قال حدثنى بعض الشيوخ ممن كان يروى الاخبار بمصر قال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ولم يكن فى ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل شيأ فى ذلك العام ولا تمرة واحدة وقال لى شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهى تحمل عشرة أرادب سنين

وبيعة وكان صاحبها يبيعها فى سنى الغلاء كل وبيعة بدينار (وحكى) أيضا رحمه الله تعالى قال شهدت فى الاسكندرية والصيد مطلق للرعية السمك يطفو على الماء لكثرته وكانت الاطفال تصيده بالخرق من جانب البحر ثم جزء الوالى ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد الى يومنا هذا وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم الى الرعية ان خيرا فخير وان شرا فشر * وروى أصحاب التواريخ فى كتبهم قالوا كان الناس اذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتساءلون اذا تلاقوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وما أشبه ذلك وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الانهار وغرس الاشجار ولما ولى سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح كان الناس يتحدثون ويتساءلون فى الاطعمة الرفيعة ويتغالون فى المناكح والسراري ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك ولما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم ورد كل ليلة وكم يحفظ فلان وكم يختم وكم يصوم من الشهر وما أشبه ذلك فينبغى للامام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضى الله عنهم ويقتدى بهم فى الاقوال والافعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك وليس فوق السلطان العادل منزلة الا نبى مرسل أو ملك مقرب وقد قيل ان مثله كمثل الرياح التى يرسلها الله تعالى نشرا بين يدى رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحا للثمرات وروحا للعباد ولو تتبعت ما جاء فى العدل والانصاف وفضل الامام العادل لألفت فى ذلك مجموعا جامعا لهذا المعنى ولكن اقتصرت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأمه السامع وبالله التوفيق الى أقوم طريق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب العشرون فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك)

قال الله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين وقال تعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قيل هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم وقال تعالى انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وقال تعالى وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الاسلام وقال أيضا صلى الله عليه وسلم رحم الله عبدا كان لاخيه قبله مظلمة فى عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتى يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم وقال أيضا صلى الله عليه وسلم من اقتطع حق امرئ مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال له رجل يا رسول الله ولو كان شيأ يسيرا قال ولو كان قضيبا من أراك وعن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى الى يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتا من بيوتى ولا حد من عبادى عندأحد منهم مظلمة فانى ألعنه مادام قائما يصلى بين يدى حتى يرد تلك الظلامة الى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

فى الجنة وعن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم اياك ودعوة المظلوم فانما يسأل الله تعالى حقه وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عبد ظلم فشخص ببصره الى السماء الا قال الله عز وجل لبيك عبدى حقا لأنصرنك ولو بعد حين وعنه أيضا أنه قال ألا ان الظلم ثلاثة فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب فاما الظلم الذى لا يغفر فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وأما الظلم الذى لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا وأما الظلم المغفور والذى لا يطلب فظلم العبد نفسه * ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال يارب ان حملك على الظالمين قد أضر بالمظلومين فنام تلك الليلة فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى ذلك المصلوب فى أعلى عليين واذا منادى ينادى حملى على الظالمين أحل المظلومين فى أعلى عليين * وقيل من سلب نعمة غيره سلب نعمته غيره * وسمع مسلم بن بشار رجلا يدعو على من ظلمه فقال له كل الظالم الى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك ويقال من طال عدوانه زال سلطانه وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم * ورى على لوح فى أفق السماء مكتوب فيه لا اله الا الله محمد رسول الله وتحته هذا البيت

فلم أر مثل العدل للمرء رافعا * ولم أر مثل الجور للمرء واضعا

وقال الشاعر

كفت الصحيح وكامنك فى سقم * فان سقمت فانا السالمون غدا
دعت عليك أكف ظالما ظلمت * ولن تريد مظلومة أبدا

وكان معاوية يقول انى لاستحيى أن أظلم من لا يجد على ناصرا الا الله * وقال أبو العيناء كان لى خصوم ظلمة فشكوتهم الى أحمد بن دواد وقلت قد تظافروا على وصاروا يدا واحدة فقال يد الله فوق أيديهم فقلت له ان لهم مكرا فقال ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله قلت هم فئة كثيرة فقال كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله * وقال يوسف بن اسباط من دعا الظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه * وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم من أشار الى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه وان كان أخاه لأبيه وأمه وقال مجاهد يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام فيقال لهم هل يؤذيكم هذا فيقولون اى والله فيقال لهم هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين * وقال ابن مسعود رضى الله عنه لما كشف الله العذاب عن قوم يونس عليه السلام تراد وا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده الى صاحبه وقال أبو ثور بن يزيد الحجر فى البنيان من غير حله عربون على خرابه وقال غيره لو أن الجنة وهى دار البقاء أسست على حجر من الظلم لاوشك أن تخرب وقال بعض الحكماء اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك لا يعجبك رحب الذراعين سفاك الدماء فان له قاتلا لا يموت وقال ميمون بن مهران كان يزيد ابن حاتم يقول ما هبت شيأ قط هيبتى من رجل ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له الا الله فيقول حسبك الله الله بينى وبينك وقال بلال بن مسعود اتق الله فمن لا ناصر له الا الله * وبكى

علي بن الفضل يوما فقيل له ما يبكيك قال أبكي على من ظلمني اذا وقف غدا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيري * ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر يا سليمان اذكر يوم الاذان فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له ما يوم الاذان فقال قال الله تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين قال فما ظلامتك قال أرض لي بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك فكتب الى وكيله ادفع اليه أرضه وأرضا مع أرضه وروى أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب بعلمه حتى فاق في العلوم فضربه المعلم يوما من غير ذنب فاوجعه فقد أنوشروان عليه فلما ولي الملك قال للمعلم ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلما فقال له لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعدي فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنوشروان زه زه * وقال محمد بن سويد وزير المأمون

فلا تأمن الدهر حرا ظلمته * فما ليل حران ظلمت بنائم

وروى أن بعض الملوك رقم على بساطه

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرا * فالظلم مصدره يفضي الى الندم
تنام عينالك والمظلوم منتبه * يدعو عليك وعين الله لم تنم

وما أحسن ما قال الآخر

أتهزأ بالدعاء وتزدريه * وما تدري بما صنع الدعاء
سهام الليل نافذة ولكن * لها أمد وللأمد انقضاء
فيمسكها اذا ما شاء ربي * ويرسلها اذا نفذ القضاء

وقال أبو الدرداء اياك ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فانها تسري بالليل والناس نيام وقال الهيثم ابن فراس اسامي من بني سامة بن لؤي في الفضل بن مروان

تجبرت يا فضل بن مروان فاعتبر * فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم * أبادهم الموت المشتت والقتل

يريد الفضل بن الربيع والفضل بن يحيى والفضل بن سهل * ووجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة مكتوب فيها

وحق الله ان الظلم لؤم * وان الظلم مرتعه وخيم
الى ديان يوم الدين نمضي * وعند الله تجتمع الخصوم

ووجد القاسم بن عبيد الله وزير المكتفي في مصلاه رقعة مكتوبا فيها

بغى ولليغي سهام تنتظر * أنفذ في الاحشاء من وخز الابر
سهام أيدي الفاتكين في السحر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء ما كنت لأتى هذا بعد ما حدثني ابراهيم قال وما حدثك ابراهيم قال حدثني عن علقمة عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين الظلمة وأعوان الظلمة

وأشياع الظلمة حتى من يرى لهم قلما أو لاق لهم دواة فيجمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في نار جهنم وروى هرون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال جلس أبي للمظالم يوما فلما انقضى المجلس رأى رجلا جالسا فقال له ألك حاجة قال نعم أدنني اليك فانى مظلوم وقد أعوزني العدل والانصاف قال ومن ظلمك قال أنت ولست أصل اليك فأذكر حاجتي قال وما يحجبك وقد ترى مجلسي مبذولا قال يحجبني عنك هيبتك وطول لسانك وفصاحتك قال ففيم ظلمتك قال في ضيعتي الفلانية أخذها وكيلك غصبا مني بغير ثمن فاذا وجب عليها خراج أديته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها فيبطل ملكي فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدي خراجها وهذا لم يسمع مثله في المظالم فقال له محمد هذا قول تحتاج معه الى بينة وشهود وأشياء فقال له الرجل أيؤمنني الوزير من غضبه حتى أجيب قال نعم قد أمنتك قال البينة هم الشهود واذا شهدوا فليس يحتاج معهم الى شئ آخر فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء وأي شئ هذه الاشياء ان هي الا الجور وعدولك عن العدل فضحك محمد وقال صدقت والبلاء موكل بالمنطق واني لارى فيك مصطنعا ثم وقع له برد ضيعته وأن يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه فكان قبل أن يتوصل الى الانصاف واعادة ضيعته له يقال له يا فلان كيف الناس فيقول بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك وردّ عليه ضيعته وأنصفه قال له ليلة كيف الناس الآن قال بخير وقد اعتدت معهم الانصاف ورفعت عنهم الاجحاف ورددت عليهم الغصوب وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم بقائك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب * ومما نقل في الآثار الاسرائيلية في زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلا من ضعفاء بني اسرائيل كان له عائلة وكان صيادا يصطاد السمك ويقوت منه اطفاله وزوجته فخرج يوما للصيد فوقع في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ثم أخذها ومضى الى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد فرفع العواني خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصبا بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال الهي جعلتني ضعيفا وجعلته قويا عنيفا فخذلي بحقي منه عاجلا فقد ظلمني ولا صبر لي الى الآخرة ثم ان ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة الى منزله وسلمها الى زوجته وأمرها أن تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاها ونكزته في اصبع يده نكزة طار بها عقله وصار لا يقر بها قراره فقام وشكا الى الطبيب ألم يده وما حل به فلما رآها قال له دواؤها أن تقطع الاصبع لئلا يسري الالم الى بقية الكف فقطع اصبعه فانتقل الالم والوجع الى الكف واليد وازداد التألم وارتعدت من خوفه فراقصه فقال له الطبيب ينبغي أن تقطع اليد الى المعصم لئلا يسري الالم الى الساعد فقطعها فانتقل الالم الى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضوا انتقل الالم الى العضو الآخر الذي يليه فخرج هائما على وجهه مستغيثا الى ربه ليكشف عنه ما نزل به فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى في منامه قائلا يقول له يا مسكين الى كم تقطع أعضاءك امض الى خصمك الذي ظلمته وأرضه فانتبه من النوم وفكر في أمره فعلم أن الذي أصابه من جهة الصياد فدخل المدينة

وسأل عن الصياد وأتى اليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الاقالة مما جناه ودفع اليه شيأ من ماله وتاب من فعله فرضى عنه خصمه الصياد فسكن فى الحال ألمه وبات تلك الليلة فردّ الله تعالى عليه يده كما كانت ونزل الوحى على موسى عليه السلام يا موسى وعزتى وجلالى لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته عذابا امتدت به حياته (ومما تضمنته أخبار الاخيار) ما رواه أنس رضى الله عنه قال بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قاعد اذ جاءه رجل من أهل مصر فقال يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك فقال عمر رضى الله عنه لقد عذت بمعيذ فما شأنك فقال سابقت بفرسى ابنا لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعنى بسوطه ويقول أنا ابن الاكرمين فبلغ ذلك عمرا أباه فخشى أن آتيك فحبسنى فى السجن فانفلت منه فهذا الحين أتيتك فكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص اذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان وقال للمصرى أقم حتى يأتيك فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه الى جانبه قام المصرى فرمى اليه عمر رضى الله عنه بالدرة قال أنس رضى الله عنه فلقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول اضرب ابن الاكرمين قال يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت قال ضعها على صلع عمرو فقال يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذى ضربنى قال أما والله لو فعلت ما منعتك أحد حتى تكون أنت الذى تنزع ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا فجعل عمرو يعتذر اليه ويقول انى لم أشعر بهذا وقيل لما ظلم أحد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا الى السيدة نفيسة يشكونه اليها فقالت لهم متى يركب فقالوا فى غد فكتبت رقعة ووقفت بها فى طريقه وقالت يا أحمد يا ابن طولون فلما رآها عرفها فنزل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فاذا فيها ملكتم فأسرتم وقدرتم فقهرتم وخولتم فعسفتم وردت اليكم الارزاق فقطعتم هذا وقد علمتم أن سهام الاسحار نافذة غير مخطئة لاسيما من قلوب أوجعتموها وأكباد جوّعتموها وأجساد عرّيتموها فحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم اعملوا ما شئتم فانا صابرون وجوروا فانا بالله مستجيرون واظلموا فانا الى الله متظلمون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون قال فعدل لوقته *(وحكى) أن الحجاج حبس رجلا فى حبسه ظلما فكتب اليه رقعة فيها قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام والموعد القيامة والسجن جهنم والحاكم لا يحتاج الى بينة وكتب فى آخرها

ستعلم يا نؤم اذا التقينا * غدا عند الاله من الظلوم
أما والله ان الظلم لؤم * وما زال الظلوم هو الملوم
سينقطع التلذذ عن أناس * أداموه وينقطع النعيم
الى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم

(وحكى) أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى قال كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد أن أكل فأتته منزجما وقال يا خادم فاسرعنا الجواب فقال ويلكم أعينونى والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدرا فى سفينة فارغة فاقبضوا عليه وائتونى به ووكلوا

بالسفينة من يحفظها فأسرعنا فوجدنا ملاحا فى سفينة منحدرة وهى فارغة فقبضنا عليه ووكلنا بها من يحفظها وصعدنا به الى المعتضد فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال أصدقنى يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التى قتلتها اليوم والا ضربت عنقك فتلعثم وقال نعم كنت سحرا فى المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلى كثير وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فمها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها فى الماء ولم أجسر على حمل سلبها الى دارى لئلا يفشو الخبر على فعولت على الهروب والانحدار الى واسط فصبرت الى أن خلا الشط فى هذه الساعة من الملاحين واخذت فى الانحدار فتعلق بى هؤلاء القوم فحملونى اليك فقال وأين الحلى والسلب قال فى صدر السفينة تحت البوارى قال المعتضد على به الساعة فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببغداد من خرجت له امرأة الى المشرعة الفلانية سحرا وعليها ثياب فاخرة وحلى فليحضر فحضر فى اليوم الثانى أهلها وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك اليهم قال فقلت يا مولاى من أعلمك أو حى اليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية فقال بل رأيت فى منامى رجلا شيخا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادى يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التى قتلها اليوم ظلما وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يفتك فكان ما شاهدتم فيتعين على كل ولى أمر أن يعدل فى الاحكام وأن يتبصر فى رعيته وعلى كل عاقل أن يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالنصفة ويراقب الله فى السر والعلانية ويعلم أن الله يجازى على الخير والشر ويعاقب الظالم على ظلمه وينتصر للمظلوم ويأخذ له حقه ممن ظلمه واذا أخذ الظالم لم يفلته والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

الباب الحادى والعشرون فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان

(الفصل الاول فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج والانفاق من بيت المال وسيرة العمال) قال جعفر بن يحيى الخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل وما استنذروا بمثل الظلم وأسرع الامور فى خراب البلاد تعطيل الارضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور ومثل السلطان اذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الارضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو ان شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذى يطين سطحه بتراب أساس بيته واذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الارضين فيتركونها فتخرب الارض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج وينتج من ذلك ضعف الاجناد واذا ضعف الجند طمع الاعداء فى السلطان وروى أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميرا يحدثه فقال يا أمير المؤمنين كان

بالموصل يومه وبالبصرة يومه فخطبت يومة الموصل بنت يومة البصرة لابنها فقالت يومة البصرة لا اجيب خطبة ابنك حتى تجعلي لي في صداق ابنتي مائة ضيعة خربة فقالت يومة الموصل لا أقدر عليها ولكن ان دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك قال فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية وقال أبو الحسن بن علي الاسدي اخبرني ابي قال وجدت في كتاب قبطي باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية ان مبلغ ما كان يستخرج لفرعون في زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه من اموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين أربعة وعشرون ألف الف واربعمائة ألف دينار من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد كحفر الخلجان والانفاق على الجسور وسد الترع وتقوية من يحتاج الى التقوية من غير رجوع عليه بها لاقامة العوامل والتوسعة في البلدان وغير ذلك من الآلات واجرة من يستعان به لحمل البذر وسائر نفقات تطبيق الارض ثمانمائة الف دينار ولما ينصرف للارامل والايتام وان كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من بر فرعون اربعمائة الف دينار ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صلاتهم مائتا الف دينار ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبا وينادى عليه برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر فيحضر لذلك جمع كثير مائتا الف دينار فاذا فرقت الاموال على اربابها دخل امناء فرعون اليه وهنؤه بتفرقة الاموال ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والنعماء والسلامة وانهوا اليه حال الفقراء فأمر باحضارهم وتغيير شعثهم ويدلهم السماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب فاقته فان كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذي كان له ولما ينصرف في نفقات فرعون الراتبة في كل سنة مائتا الف دينار ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك ويجعله في بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار وقال أبو رهم كانت ارض مصر أرضا مدبرة حتى ان الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيجيئونه حيث شاؤا ويرسلونه حيث شاؤا وذلك قول فرعون أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي الآية وكان ملك مصر عظيما لم يكن في الارض أعظم منه ملكا وكانت الجنان بحافتي النيل متصلة لا ينقطع منها شئ عن شئ والزروع كذلك من اسوان الى رشيد وكانت ارض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا ماء مادبروا من جسورها وحافاتها والزروع ما بين الجبلين من أولها الى آخرها وذلك قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ في حفره وتدبيره لجعل اهل القرى يسألونه ان يجري لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالا فكان يذهب به من قرية الى قرية من المشرق الى المغرب ومن الشمال الى القبلة ويسوقه كيف اراد والى حيث قصد فليس خليج بمصر اكثر عطوفا منه فاجتمع له من ذلك اموال عظيمة جزيلة فحملها الى فرعون واخبره بالخبر فقال لهامان فرعون انه ينبغي للسيد ان يعطف على عبيده ويفيض عليهم من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بأيديهم ورد على اهل القرى اموالهم فرد عليهم ما اخذه منهم فاذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ولا يخاف

عذابه ولا يؤمن يوم الحساب فكيف تكون سيرة من يقول لا اله الا الله محمد رسول الله ويوقن بالحساب والثواب والعقاب وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى اجعلني على خزائن الارض قال هي خزائن مصر ولما استوثق أمر مصر ليوسف عليه السلام وكمل وصارت الاشياء اليه وأراد الله تعالى أن يعوضه على صبره لما لم يرتكب محارمه وكانت مصر أربعين فرسخا في مثلها وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب وناب عنه الا بعد أن دعاه الى الاسلام فأسلم وكانت السنون التي حصل فيها الغلاء والجوع مات العزيز وتملك يوسف وافتقرت زليخا وعمي بصرها فجعلت تتكفف الناس فقيل لها لو تعرضت للملك لعله يرحمك ويعينك ويغنيك فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه ثم قيل لها الا تفعلي لانه ربما يتذكر ما كان منك اليه من المراودة والحبس فينسى الملك ويكافئك على ما سبق منك اليه فقالت انا أعلم بحلمه وكرمه فجلست له على رابية في طريقه يوم خروجه وكان يركب في زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته فلما أحست به قامت ونادت سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم والعبيد ملوكا بطاعتهم فقال يوسف عليه السلام من أنت فقالت أنا التي كنت أخدمك بنفسي وأرجل شعرك بيدي وأكرم مثواك بجهدي وكان مني ما كان وقد ذقت وبال أمري وذهبت قوتي وتلف مالي وعمي بصري وصرت أسأل الناس فمنهم من يرحمني ومنهم من لا يرحمني وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر كلها صرت مرحومتهم بل محرومتهم وهذا جزاء المفسدين فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديدا وقال لها هل بقي في قلبك من حبك اياي شئ قالت نعم والذي اتخذ ابراهيم خليلا لنظرة الملك أحب الي من ملء الارض ذهبا وفضة فمضى يوسف وأرسل اليها يقول ان كنت أيما تزوجتك وان كنت ذات بعل أغنيتك فقالت لرسول الملك أنا أعرف أنه يستهزئ بي هو لم يرني في أيام شبابي وجمالي فكيف يقبلني وأنا عجوز عمياء فقيرة فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتزوج بها وأدخلت عليه فمسح يوسف عليه السلام قدميه وقام يصلي ودعا الله تعالى باسمه العظيم الاعظم فرد الله عليها حسنها وجمالها وشبابها وبصرها كهيئتها يوم راودته فواقعها فاذا هي بكر فولدت له افرائيم بن يوسف ومنشا بن يوسف وطاب في الاسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما فينبغي للقوي أن لا ينسى الضعيف وللغني أن لا ينسى الفقير فرب مطلوب يصير طالبا ومرغوب فيه يصير راغبا ومؤمل يصير سائلا وراحم يصير مرحوما فنسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته ويغنينا بفضله ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الارض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع * ومن حسن سيرة العمال ما روي أن عمر رضي الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال له عمير بن سعد فلما مضت السنة كتب اليه عمر رضي الله عنه أن اقدم علينا فلم يشعر عمر الا وقد قدم عليه ماشيا حافيا عكازته بيده واداوته ومزوده وقصعته على ظهره فلما نظر اليه عمر قال له يا عمير أجبتنا أم البلاد بلادسوء فقال يا أمير المؤمنين أمانها لك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن وقد جئت اليك بالدنيا أجرها بقرابها فقال له وما معك من الدنيا قال عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا ان لقيته ومزود أحمل فيه طعامي واداوة أحمل فيها ماء لشربي ولطهوري وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسي وآكل

فيها طعامي فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد الاتباع لما مضى قال فقام عمر رضي الله عنه من مجلسه الى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه فبكى بكاء شديدا ثم قال اللهم ألحقني بصاحبي غير مفتضح ولا مبدل ثم عاد الى مجلسه فقال ما صنعت في عملك يا عمير فقال أخذت الابل من أهل الابل والجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شئ لاتيتك به فقال عمر عد الى عملك يا عمير قال أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردني الى أهلي فاذن له فأتى أهله فبعث عمر رجلا يقال له حبيب بمائة دينار وقال له اختبر لي عميرا وانزل عليه ثلاثة ايام حتى ترى حاله هل هو في سعة أم ضيق فان كان في ضيق فادفع اليه المائة دينار فاتاه حبيب فنزل به ثلاثا فلم ير له عيشا الا الشعير والزيت فلما مضت ثلاثة ايام قال يا حبيب ان رأيت أن تتحول الى جيراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشا منا فاتانا والله وتالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به قال فدفع اليه المائة دينار وقال قد بعث بك أمير المؤمنين اليك فدعا بقرر وخلق لامر أته فجعل يصر منها الخمسة دنانير والستة والسبعة ويبعث بها الى اخوانه من الفقراء الى أن انفدها فقدم حبيب على عمر وقال جئتك يا امير المؤمنين من عند ازهد الناس وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير فأمر له عمر بوسقين من طعام وثوبين فقال يا أمير المؤمنين اما الثوبان فأقبلهما واما الوسقان فلا حاجة لي بهما عندنا هلي صاع من بر هو كافيهم حتى ارجع اليهم وروى ان عمر رضي الله عنه صر أربعمائة دينار وقال للغلام اذهب بها الى ابي عبيدة بن الجراح ثم تربص عنده في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها فذهب بها الغلام اليه وقال له يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه في بعض حوائجك قال وصله الله ورحمه ثم دعا بجاريته وقال لها اذهبي بهذه السبعة الى فلان وبهذه الخمسة الى فلان حتى انفدها فرجع الغلام الى عمر وأخبره فوجده قد عمل مثلها لمعاذ بن جبل فقال له انطلق بها الى معاذ بن جبل وانظر ما يكون من امره فمضى اليه وقال له كما قال لابي عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة فرجع الغلام فأخبر عمر فقال انهم اخوة بعضهم من بعض رضي الله تعالى عنهم أجمعين

(الفصل الثاني في أحكام أهل الذمة) روى عن عبد الرحمن بن غنم قال كتبنا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى اهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا واموالنا واهل ملتنا وشرطنا لكم على انفسنا ان لا نحدث في مدائننا ولا فيما حوالينا كنيسة ولاديرا ولا قلية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان محتطا منها في خطط المسلمين في ليل ولا في نهار وان نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوسا ولا نكتمه عن المسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركنا ولا ندعو اليه أحدا ولا نمنع احدا من ذوي قراباتنا الدخول في دين الاسلام ان اراده وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا ارادوا الجلوس وان لا نتشبه بالمسلمين في شئ من ملابسهم من قلنسوة

ولا

ولا عمامة ولا نعلين ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب في السروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيأ من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر وأن نجز مقادم رؤسنا ونلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزنار على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في شئ من أسواق المسلمين وطرقهم ولا نضرب بالنواقيس في كنائسنا الا ضربا خفيفا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران في شئ من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع على منازلهم وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى أهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا في شئ مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق فكتب اليه عمر رضي الله عنه أن امض ما سألوه وألحق فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم أن لا يشتروا شيأ من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده وروى أن بني تغلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين انا قوم من العرب افرض لنا قال نصارى قالوا نصارى قال ادعوا الي حجاما ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أرديتهم حزما يحتزمون بها وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج وأن يركبوا على الاكف من شق واحد وروى ان أمير المؤمنين الخليفة جعفرا المتوكل أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زيهم وزي المسلمين وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل فاحيا الله به الحق وأمات به الباطل فهو يذكر بذلك ويترحم عليه مادامت الدنيا وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لا تستعملوا اليهود والنصارى فانهم اهل رشا في دينهم ولا يحل في دين الله الرشا ولما استقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابا موسى الاشعري رضي الله عنه من البصرة وكان عاملا عليها للحساب دخل على عمر وهو في المسجد فاستأذن لكاتبه وكان نصرانيا فقال له عمر قاتلك الله وضرب بيده على فخذه وليت ذميا على المسلمين أما سمعت الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم أولياء بعض الآية هلا اتخذت حنيفيا فقال يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه فقال لا اكرمهم اذ أهانهم الله ولا اعزهم اذ أذلهم الله ولا أدنيهم اذ أقصاهم الله وكتب بعض العمال الى عمر رضي الله عنه ان المدوقد كثروان الجزية قد كثرت أفنستعين بالاعاجم فكتب اليه انهم أعداء الله وانهم لنا غششة فانزلوهم حيث انزلهم الله ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة فقال الى اريد ان اتبعك واصيب معك قال أتؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن نستعين بمشرك ثم لحقه عند الشجرة فقال جئتك لاتبعك واصيب معك قال أتؤمن بالله ورسوله قال لا قال فارجع فلن استعين بمشرك ثم لحقه عند ظهر البيداء فقال له مثل ذلك فأجابه بمثل الاول فقال نعم فخرج به وفرح به المسلمون وكان له قوة وجلد وهذا أصل عظيم في ان لا يستعان بكافر هذا وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ويراق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى عماله ان لا تولوا على اعمالنا

الا أهل القرآن فكتبوا اليها ما قد وجدنا فيهم خيانة فكتب اليهم ان لم يكن في اهل القرآن خير فاجدر أن لا يكون في غيرهم قال أصحاب الشافعي ويلزمهم أن يتميزوا في اللباس عن المسلمين وأن يلبسوا قلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة ويشدوا الزنانير على أوساطهم ويكون في رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات وأما المرأة فانها تشد الزنار تحت الازار وقيل فوق الازار وهو الاولى ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام ويكون أحد خفيها اسود والآخر أبيض ولا يركبون الخيل ولا البغال ولا الحمير الا بالاكاف عرضا ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون في المجالس ولا يبدؤن بالسلام ويلجؤن الى أضيق الطرق ويمنعون أن يطاولوا على المسلمين في البناء وتجوز المساواة وقيل لا تجوز وان تملكوا دارا عالية اقروا عليها ويمنعون من اظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والانجيل ويمنعون من المقام في أرض الحجاز وهي مكة والمدينة واليمامة وان امتنعوا من اداء الجزية والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم وان زنى أحد منهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عينا للكفار أو دل على عورة المسلمين أو فتن مسلما عن دينه او قتله او قطع عليه الطريق انتقض ذمته وفي تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فمنهم من قال انها مقدرة الاقل والاكثر على ما كتب به عمر رضي الله عنه الى عثمان بن حنيف بالكوفة فوضع على الغني ثمانية واربعين درهما وعلى من دونه اربعة وعشرين درهما وعلى من دونه اثني عشر درهما وذلك بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم اجمعين ولم يخالفه احد وكان الصرف اثني عشر بدينار وهذا مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل وأحد قولي الشافعي ويجوز للامام أن يزيد على ما قدره عمر ولا يجوز أن ينقص عنه ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين وأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تهدم كل كنيسة بعد الاسلام ومنع أن تجدد كنيسة وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه وكان عروة بن محمد يهدمها بالصناع وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين وشدد في ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر أن لا يترك في دار الاسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة والله تعالى اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الثاني والعشرون في اصطناع المعروف واغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وادخال السرور عليهم

قال الله تعالى ولا تنسوا الفضل بينكم وقال تعالى وتعاونوا على البر والتقوى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشى في عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين في سبيل الله وعن انس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الخلق كلهم عيال الله فأحب خلقه اليه أنفعهم لعياله رواه البزار والطبراني في معجمه ومعنى عيال الله فقراء الله تعالى والخلق كلهم فقراء الله تعالى وهو يعولهم وروينا في مسند الشهاب عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير الناس أنفعهم للناس وعن كثير بن عبيد

ابن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله خلقا خلقهم لقضاء حوائج الناس آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار فاذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس في الحساب وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سعى لاخيه المسلم في حاجة فقضيت له أو لم تقض غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكتب له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضى لاخيه المسلم حاجة كنت واقفا عند ميزانه فان رجح والا شفعت له رواه أبو نعيم في الحلية وروينا في مكارم الاخلاق لابي بكر الخرائطي عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة وكفر عنه سبعين سيئة فان قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فان مات في خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشى مع أخيه في حاجة فناصحه فيها جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والارض رواه أبو نعيم وابن أبي الدنيا وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عند أقوام نعما يقرها عندهم ما داموا في حوائج الناس ما لم يملوا فاذا ملوا نقلها الله الى غيرهم رواه الطبراني وروينا من طريق الطبراني باسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس اليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال وعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعان ملهوفا كتب الله له ثلاثا وسبعين حسنة واحدة منها يصلح بها آخرته ودنياه والباقي في الدرجات وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون ما يقول الاسد في زئيره قالوا الله ورسوله أعلم قال يقول اللهم لا تسلطني على أحد من أهل المعروف رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قيل يا رسول الله أي الناس أحب الى الله قال انفع الناس للناس قيل يا رسول الله فأي الاعمال أفضل قال ادخال السرور على المؤمن قيل وما سرور المؤمن قال اشباع جوعته وتنفيس كربته وقضاء دينه ومن مشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر واعتكافه ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الاقدام ومن كف غضبه ستر الله عورته وان الخلق السيئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك سره الله يوم القيامة رواه الطبراني في الصغير باسناد حسن وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدخل على أهل بيت من المسلمين سرورا لم يرض الله له سرورا دون الجنة رواه الطبراني وعن جعفر ابن محمد عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أدخل رجل على مؤمن سرورا الا خلق الله من ذلك السرور ملكا يعبد الله تعالى ويوحده فاذا

صار العبد فى قبره أتاه ذلك السرور فيقول له أما تعرفنى فيقول له من أنت فيقول أنا السرور الذى أدخلت على فلان أنا اليوم أؤانسك وحشتك وألقنك حجتك وأثبتك بالقول الثابت وأشهد مشاهدك يوم القيامة وأشفع لك الى ربك وأريك منزلك فى الجنة رواه ابن أبى الدنيا وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه يرفعه اذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس وليقرأ اذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران وآية الكرسى وانا أنزلناه فى ليلة القدر وأم الكتاب فان فيها حوائج الدنيا والآخرة وهو حديث مرفوع ومن كلام الحكماء اذا سألت كريما حاجة فدعه يفكر فانه لا يفكر الا فى خير واذا سألت لئيما حاجة فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل وسأل رجل رجلا حاجة ثم ثنى عن طلبها فقال له المسؤل انمت عن حاجتك فقال ما نام عن حاجته من أسهر لها ولا عدل بها عن محجة النجح من قصد لبها فعجب من فصاحته وقضى حاجته وأمر له بمال جزيل وقال مسلمة لنصيب سلنى فقال كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسئلة فأمر له بألف دينار وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه فوت الحاجة أهون من طلبها الى غير أهلها وعنه أيضا قال لا تكثر على أخيك الحوائج فان الملح اذا أفرط فى مص ثدى أمه نطحته وقال ذو الرياستين لثمامة بن أشرس ما أدرى ما أصنع بكثرة الطلاب فقال زل عن موضعك وعلى أن لا يلقانا منهم أحد فقال له صدقت وجلس لهم فى قضاء حوائجهم وحدث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى قال عرضت على أبى الحسن على بن محمد بن الفرات رقعة فى حاجة لى فقرأها ووضعها من يده ولم يوقع فيها بشئ فأخذتها وقمت وأنا أقول متمثلا من حيث يسمع هذين البيتين

واذا خطبت الى كريم حاجة * وأبى فلا تعقد عليه بحاجب
فلربما منع الكريم ومانه * بخل ولكن سوء حظ الطالب

فقال وقد سمع ما قلت ارجع يا أبا جعفر بغير سوء حظ الطالب ولكن اذا سألتمونا الحاجة فعاودونا فان القلوب بيد الله تعالى فأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت وسأل اسحق بن ربهى اسحق بن ابراهيم المصعبى أن يوصل له رقعة الى المأمون فقال لكاتبه ضمها الى رقعة فلان فقال

تأنّ لحاجتى واشدد عراها * فقد أضحت بمنزلة الضياع
اذا شاركتها بلبان أخرى * أضرّ بها مشاركة الرضاع

وقال أبو دقاقة البصرى

اضحت حوائجنا اليك مناخة * معقولة برحابك الوصال
أطلق فديتك بالنجاح عقالها * حتى تثور معا بغير عقال

وقال سلم الخاسر

* اذا أذن الله فى حاجة * أتاك النجاح على رسله *
فلا تسأل الناس من فضلهم * ولكن سل الله من فضله

ولله در القائل حيث قال

أيها المادح العباد ليعطى * ان لله ما بأيدى العباد *
فاسأل الله ما طلبت اليهم * وارج فرض المقسم الجواد

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضى الله تعالى عنهم قال أتيت باب عمر بن عبد العزيز فى حاجة فقال اذا كانت لك حاجة الىّ فأرسل الىّ رسولا أو اكتب لى كتابا فانى لاستحيى من الله أن يرانى بين يديك وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال والذى وسع سمعه الاصوات ما من أحد أودع قلبا سرورا الا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفا فاذا نزلت به نائبة جرى اليها كالماء فى انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الابل وقال لجابر بن عبد الله الانصارى رضى الله عنهما يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس اليه فان قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء وان لم يقم فيها بما يجب لله عرضها للزوال نعوذ بالله من زوال النعمة ونسأله التوفيق والعصمة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

(الباب الثالث والعشرون فى محاسن الاخلاق ومساويها)

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم فخص الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من كريم الطباع ومحاسن الاخلاق من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤته غيره ثم ما اثنى الله تعالى عليه بشئ من فضائله بمثل ما اثنى عليه بحسن الخلق فقال تعالى وانك لعلى خلق عظيم قالت عائشة رضى الله عنها كان خلقه القرآن يغضب لغضبه ويرضى لرضاه وكان الحسن رضى الله عنه اذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أكرم ولد آدم على الله عز وجل أعظم الانبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله أتى بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى وكان يأكل على الارض ويجلس على الارض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ولا يأكل متكئا ولا على خوان وكان يأكل خبز الشعير غير منخول وكان يأكل القثاء بالرطب ويقول برد هذا يطفئ حر هذا وكان أحب الطعام اليه اللحم ويقول هذا يزيد فى السمع ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل وكان يحب الدباء ويقول يا عائشة اذا طبختم الدباء فاكثروا فيه من الدباء فانها تشد قلب الحزين وكان يقول اذا طبختم الدباء فاكثروا من مرقها وكان يكتحل بالاثمد ولا يفارقه فى سفره قارورة الدهن والكحل والمرآة والمشط والابرة يخيط ثوبه بيده وكان يضحك من غير قهقهة ويرى اللعب المباح ولا ينكره وكان يسابق أهله قالت عائشة رضى الله عنها سابقته فسبقته فلما كثر لحمى سابقته فسبقنى فضرب بكتفى وقال هذه بتلك وكان له عبد واماء لا يرتفع على أحد منهم فى مأكل ولا مشرب ولا ملبس وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب نشأ فى بلاد الجهل والصحارى يتيما لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الاخلاق وكان أفصح الناس منطقا وأحلاهم كلاما وكان يقول أنا أفصح العرب وقال أنس رضى الله عنه والذى بعثه بالحق نبيا ما قال لى فى شئ قط كرهه لم فعلته ولا فى شئ لم أفعله لم لا فعلته ولا لاحد من أهله الا قال دعوه انما كان هذا بقضاء وقدر وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى

لا مانع من أن النبي صلى الله عليه وسلم اذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التي هي أعلى مرتبة من العبودية فالنبي صلى الله عليه وسلم أعطاه الله تعالى مرتبة الملك مع كونه عبد الله متواضعا فحاز المرتبتين مرتبة العبودية ومرتبة الملكية ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويركب الحمار بلا اكاف ويردف خلفه ويأكل الخشن من الطعام ويشبع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى من دعاء لباه ومن صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذي يرفعها يعود المريض ويتبع الجنائز ويجالس الفقراء أعظم الناس من الله مخافة وأنعمهم لله عز وجل بدنا وأجدهم في أمر الله لا تأخذه في الله لومة لائم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أما والله ما كان تغلق من دونه الابواب ولا كان دونه حجاب صلى الله عليه وسلم وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة قط ولا خادما له ولا ضرب بيده شيأ الا أن يجاهد في سبيل الله ولا خير بين أمرين الا اختار أيسرهما الا أن يكون اثما أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه وقال ابراهيم بن عباس لو وزنت كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحاسن الناس لرجحت وهي قوله عليه الصلاة والسلام انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم وفي رواية أخرى فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن وعنه صلى الله عليه وسلم حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه والزمام بيد الملك والملك يجره الى الخير والخير يجره الى الجنة وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه والزمام بيد الشيطان والشيطان يجره الى الشر والشر يجره الى النار وقال بعض السلف الحسن الخلق ذو قرابة عند الاجانب والسيئ الخلق أجنبي عند أهله وقال الفضيل لان يصحبني فاجر حسن الخلق أحب الي من أن يصحبني عابد سيئ الخلق لان الفاجر اذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه والعابد اذا ساء خلقه مقتوه بيت مفرد

اذا رام التخلق جاذبته * خلائقه الى الطبع القديم

قيل أبى الله لسيئ الخلق التوبة لانه لا يخرج من ذنب الا دخل في ذنب آخر لسوء خلقه وعن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان ولكن يقول ما بال أقوام يقولون حتى لا يفضح أحدا وعنه صلى الله عليه وسلم ما شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق وعنه أيضا صلى الله عليه وسلم قال ثلاث من كن فيه كن له من صدق لسانه زكا عمله ومن حسنت نيته زيد في رزقه ومن حسن بره لاهل بيته زيد له في عمره ثم قال وحسن الخلق وكف الاذى يزيدان في الرزق وقيل سوء الخلق يعدي لانه يدعو الى أن يقابل بمثله وكتب الحسن بن علي الى أخيه الحسين رضي الله عنهم في اعطائه الشعراء فكتب اليه الحسين أنت أعلم مني بأن خير المال ما وقى به العرض فانظر الى شرف أدبه وحسن خلقه كيف ابتدأ كتابه بأنت أعلم مني وكان بينه وبين أخيه كلام فقيل له ادخل على أخيك فهو أكبر منك فقال اني سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيما اثنين جرى بينهما كلام فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه الى الجنة وأنا أكره أن اسبق أخي الاكبر الى الجنة فبلغ ذلك الحسن فجاءه عاجلا رضي الله عنهما وأنشد

في المعنى

وانى لالقى المرء أعلم انه * عدو وفى أحشائه الضغن كامن
فأمنحه بشرا غير جمع قلبه * سليما وقد ماتت لديه الضغائن

وسرق بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل فأنفذ الى الجوهريين بصفتها فقالوا باعها فلان من مدة ثم ان ذلك الرجل الذى سرقها قبض عليه وأحضر بين يدى جعفر فلما رأى ما ظهر عليه قال له أراك قد تغيرت لونك ألست يوم كذا طلبت منى هذه الجوهرة فوهبتها لك وأقسم بالله لقد أنسيت هذا ثم أمر للجوهرى بثمنها وقال للرجل خذها الآن حلالا طيبا وبعها بالثمن الذى يليق خاطرك به لاتبع بيع خائف ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعمم يده وجارية على رأسه تتبسم فقال لها المأمون مم تضحكين فقال ابن عباد أنا أخبرك يا أمير المؤمنين تتعجب من قبحى واكرامك اياى فقال لا تعجبى فان تحت هذه العمامة كرما ومجدا قال الشاعر

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم * اذا كانت الاعراض غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى * فما كل مصقول الحديد يمانى

(وحكى) أن بهرام الملك خرج يوما للصيد فانفرد عن أصحابه فرأى صيدا فتبعه طامعا فى لحاقه حتى بعد عن عسكره فنظر الى راع تحت شجرة فنزل عن فرسه ليبول وقال للراعى احفظ على فرسى حتى أبول فعمد الراعى الى العنان وكان ملبسا ذهبا كثيرا فاستغفل بهرام وأخرج سكينا فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذى عليه فرفع بهرام نظره اليه فرآه فغض بصره وأطرق برأسه الى الارض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه وقال للراعى قدم الى فرسى فانه قد دخل فى عينى من سافى الريح فلا أقدر على فتحهما فقدمه اليه فركب وسار الى أن وصل الى عسكره فقال لصاحب مراكبه ان أطراف اللجام قد وهبتها فلا تتهمن بها أحدا (وذكر) أن انوشروان وضع الموائد للناس فى يوم نوروز وجلس ودخل وجوه أهل مملكته فى الايوان فلما فرغوا من الطعام جاؤا بالشراب وأحضرت الفواكه والمشموم فى آنية الذهب والفضة فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه وأنوشروان يراه فلما فقده الشرابى صاح بصوت عال لايخرجن أحد حتى يفتش فقال كسرى ولم فأخبره بالقضية فقال قد أخذه من لا يرده ورآه من لا يتم عليه فلا تفتش أحدا فأخذ الرجل الجام ومضى فكسره وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه وجدد له كسوة جميلة فلما كان فى مثل ذلك اليوم جلس الملك ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية فدعاه كسرى وقال له هذا من ذاك فقبل الارض وقال نعم أصلحك الله * وقال عبد الله بن طاهر كنت عند المأمون يوما فنادى يا خادم يا غلام فلم يجبه أحد ثم نادى ثانيا وصاح يا غلام فدخل غلام تركى وهو يقول ما ينبغى للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام الى كم يا غلام فنكس المأمون رأسه طويلا فشككت أنه يأمرنى بضرب عنقه ثم نظر الى فقال يا عبد الله ان الرجل اذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه واذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه

وانا لانستطيع أن نسيء أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا * وقال ابن عباس رضي الله عنهما ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة واليا وكان وجهه ورقة من ورق المصحف فوالله ما ترك فينا فقيرا الا أغناه ولا مديونا الا أدى عنه دينه وكان ينظر الينا بعين أرق من الماء ويكلمنا بكلام أحلى من الجنى ولقد رشهدت منه مشهدا لو كان من معاوية لذكرته تغدينا يوما عنده فأقبل الفراش بصحفة فعثر في وسادة فوقعت الصحفة من يده فوالله ما ردها الا ذقن الوليد وانكب جميع ما فيها في حجره فبقي الغلام متمثلا واقفا ما معه من روحه الا ما يقيم رجليه فقام الوليد فدخل فغير ثيابه وأقبل علينا نبرق أسارير وجهه فأقبل على الفراش وقال يا بائس ما أرانا الا ارتوعناك اذهب فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى * ومرض أحمد بن أبي دواد فعاده المعتصم وقال نذرت ان عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار فقال له أحمد يا أمير المؤمنين فاجعلها في أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الاسعار شدة فقال نويت أن أتصدق بها على من ههنا وأطلق لاهل الحرمين مثلها فقال أحمد متع الله الاسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين فانك كما قال النمري لابيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه

ان المكارم والمعروف أودية * أحلك الله منها حيث تجتمع

من لم يكن بأمين الله معتصما * فليس بالصلوات الخمس ينتفع

وقيل للاحنف بن قيس ممن تعلمت حسن الخلق فقال من قيس بن عاصم بينما هو ذات يوم جالس في داره اذ جاءته خادم له بسفود عليه شواء حار فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله فدهشت الجارية فقال لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى وكان ابن عمر رضي الله عنه اذا رأى أحدا من عبيده يحسن صلاته يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة مرارا له فكان يعتقهم فقيل له في ذلك فقال من خدعنا في الله انخدعنا له * وروى أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة فأتي عليه من فوق سطح طست رماد فتغير أصحابه وبسطوا ألسنتهم في المالقي للرماد فقال أبو عثمان لا تقولوا شيأ فان من استحق أن يصب عليه النار فصولح بالرماد لم يجز له أن يغضب * وقيل لابراهيم بن أدهم تغمده الله تعالى برحمته هل فرحت في الدنيا قط فقال نعم مرتين احداهما اني كنت قاعدا ذات يوم فجاء انسان فبال علي والثانية كنت جالسا فجاء انسان فصفعني * وروى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه دعا غلاما له فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال نعم قال فما حملك على ترك جوابي قال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى (وحكي) أن أبا عثمان الحيري دعاه انسان الى ضيافة فلما وافى باب الدار قال له الرجل يا استاذ ليس لي وجه في دخولك فانصرف رحمك الله فانصرف أبو عثمان فلما وافى منزله عاد الرجل اليه وقال يا استاذ ندمت وأخذ يعتذر له وقال احضر الساعة فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال في الاولى ثم فعل به ذلك أربع مرات وأبو عثمان ينصرف ويحضر ثم قال له يا أستاذ انما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك ثم جعل يعتذر له ويمدحه فقال أبو عثمان لا تمدحني على خلق تجده في الكلاب فان الكلب اذا دعي حضر واذا زجر انزجر * وقال الحرث بن قصي يعجبني من القراء

كل فصيح مضحاك فأما الذى تلقاه ببشر وياقاك بوجه عبوس فلا كثر الله فى المسلمين مثله
ومن محاسن الاخلاق ماحكى عن القاضى يحيى بن اكثم قال كنت نائما ذات ليلة عند
المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينغص على نومى فرأيته وقد قام
يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذى فيه الكيزان
نحو من ثلثمائة خطوة فأخذ منها كوزا فشرب ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه حتى قرب
من الفراش الذى أنا عليه فخطا خطوات خائف لئلا ينبهنى حتى صار الى فراشه ثم رأيته آخر
الليل قام يصول وكان يقوم فى أول الليل وآخره فقعد طويلا يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام
فلما تحركت وثب قائما وصاح ياغلام وتأهب للصلاة ثم جاءنى فقال لى كيف أصبحت يا أبا
محمد وكيف كان مبيتك قلت خير مبيت جعلنى الله فداك ياأمير المؤمنين قال لقد استيقظت
للصلاة فكرهت أن أصيح بالغلام فأزعجك فقلت ياأمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق
الانبياء وأحب لك سيرتهم فهنالك الله تعالى بهذه النعمة وأتمها عليك فأمر لى بألف دينار
فأخذتها وانصرفت قال وبت عنده ذات ليلة فانتبه وقد عرض له السعال فجعلت أرمقه
وهو يحشو فيه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه فسعل وأكب على الارض لئلا
يعلو صوته فانتبه قال يحيى وكنت معه يوما فى بستان ندور فيه فجعلنا نمر بالريحان
فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان أصلح هذا الحوض ولا تغرس فى هذا
الحوض شيا من البقول قال يحيى ومشينا فى البستان من أوله الى آخره وكنت أنا
مما يلى الشمس والمأمون مما يلى الظل فكان يجذبنى ان أتحول أنا فى الظل ويكون
هو فى الشمس فامتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان فلما رجعنا قال ياحيى والله لتكونن
فى مكانى ولاكونن فى مكانك حتى آخذ نصيبى من الشمس كما أخذت نصيبك وتأخذ
نصيبك من الظل كما أخذت نصيبى فقلت والله ياأمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول
بنفسى لفعلت فلم يزل بى حتى تحولت الى الظل وتحول هو الى الشمس ووضع يده على
عاتقى وقال بحياتى عليك الا ماوضعت يدك على عاتقى مثل مافعلت أنا فانه لاخير فى صحبة
من لا ينصف فانظر الى أخلاقهم رضى الله تعالى عنهم ما أحسنها والى أفعالهم ما أزينها
نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا وأن يبارك لنا فى أرزاقنا انه على مايشاء قدير
وبالاجابة جدير ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم

(الباب الرابع والعشرون فى حسن المعاشرة والمودة والاخوة والزيارة وما أشبه ذلك)

اعلم أن المودة والاخوة والزيارة سبب التآلف والتآلف سبب القوة والقوة سبب التقوى
والتقوى حصن منيع وركن شديد بها يمنع الضيم وتنال الرغائب وتنجح المقاصد وقد من الله
تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء وردها بعد الفرقة الى
الالفة والاخاء فقال تعالى واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم
بنعمته اخوانا ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لاوليائه من الكرامة اذ جعلهم اخوانا على
سرر متقابلين وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الاخاء وندب اليه وآخى بين الصحابة

رضى الله تعالى عنهم أجمعين وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يقاسون فيها من الالم اذ يقولون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين وأنشدوا فى ذلك

* وما المرء الا باخوانه * كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير فى الكف مقطوعة * ولا خير فى الساعد الاجذم

وقال زياد خير ما اكتسب المرء الاخوان فانهم معونة على حوادث الزمان ونوائب الحدثان وعون فى السراء والضراء ومن كلام على رضى الله عنه وكرم وجهه

عليك باخوان الصفاء فانهم * عماد اذا اعتدتهم وظهور
وان قليلا ألف خل وصاحب * وان عدوا واحد الكثير

وقال الاوزاعى الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب ان لم تكن مثله شانته وقال عبد الله ابن طاهر المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والاخوان كنوز وافرة وقال المأمون للحسن بن سهل نظرت فى اللذات فوجدتها كلها معلولة سوى سبعة قال وما السبعة يا أمير المؤمنين قال خبز الحنطة ولحم الغنم والماء البارد والثوب الناعم والرائحة الطيبة والفراش الوطىء والنظر الى الحسن من كل شئ قال فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال قال صدقت وهى أولاهن وقال سليمان بن عبد الملك أكلت الطيب ولبست اللين وركبت الفاره وافتضضت العذراء فلم يبق من لذاتى الا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ وكذلك قال معاوية رضى الله عنه نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أستمرئه وشربت الاشربة حتى رجعت الى الماء وركبت المطايا حتى اخترت نعلى ولبست الثياب حتى اخترت البياض فما بقى من اللذات ما تتوق اليه نفسى الا محادثة أخ كريم وأنشدوا فى معنى ذلك

وما بقيت من اللذات الا * محادثة الرجال ذوى العقول
وقد كانوا نعدهم قليلا * فقد صاروا أقل من القليل

وقال لبيد

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه * والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقال آخر

اذا ما أتت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالا لزلته عذرا

وقيل لابن السماك أى الاخوان أحق ببقاء المودة قال الوافر دينه الوافى عقله الذى لا يملك على القرب ولا ينال على البعد ان دنوت منه دانا وان بعدت عنه راعاك وان استعنت به عضدك وان احتجت اليه رفدك وتكون مودته فعله أكثر من مودته قوله وأنشدوا فى المعنى

ان أخاك الصدق من يسعى معك * ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك * شتت فيك شمله ليجمعك

وقال

وقال غيره

وليس أخي من ودّني بلسانه * ولكن أخي من ودّني وهو غائب
ومن ماله مالي اذا كنت معدما * ومالي له ان اعوزته النوائب

وقال أبو تمام

من لي بانسان اذا أغضبته * وجهلت كان الحلم ردّ جوابه
واذا صبوت الى المدام شربت من * أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بطرفه * وبقلبه ولعله أدرى به

وقيل لخالد بن صفوان أيّ اخوانك أحب اليك قال الذي يسدّ خلتي ويغفر زلتي ويقيل عثرتي وقيل من لا يؤاخي الا من لا عيب فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه الا بايثاره على نفسه دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه وكثر تعبه قال الشاعر

ومن لم يغمض عينه عن صديقه * وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

وقال آخر

اذا كنت في كل الامور معاتبا * صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
وان أنت لم تشرب مرارا على الاذى * ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقالوا اذا رأيت من أخيك أمرا تكرهه او خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم ودّه ولكن داو كلمته واستر عورته وأبقه وابرأ من عمله قال الله تعالى فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون فلم يأمره بقطعهم وانما أمره بالبراءة من عملهم السيئ وقال صلى الله عليه وسلم الارواح أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقال عليه الصلاة والسلام ان روحي المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه وفي ذلك قال بعضهم

هويتكم بالسمع قبل لقائكم * وسمع الفتى يهوى لعمري كطرفه
وخبرت عنكم كل جود ورفعة * فلما التقينا كنتم فوق وصفه

وقال آخر

تبسم الثغر عن أوصافكم فغدا * من طيب ذكركم نشرا فاحيانا
فمن هناك عشقناكم ولم نركم * والاذن تعشق قبل العين أحيانا

ما تحابّ اثنان في الله الا كان أفضلهما عند الله أشدّهما حبا لصاحبه ما زار أخ أخا في الله شوقا اليه ورغبة في لقائه الا نادته ملائكة من ورائه طبت وطابت لك الجنة وقالوا ليس سرور يعدل لقاء الاخوان ولا غم يعدل فراقهم وقالوا شرّ الاخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدّة وقالوا انّ من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقا ولعدوّ صديقك عدوّا وقالوا أعجب الاشياء ودّ من يهودي وحفظ من نصراني ورياضة من دهري وكرم من أعجمي والحذر من الكريم اذا أهنته واللئيم اذا اكرمته والعاقل اذا أحرجته والاحمق اذا مازحته والفاجر اذا عاشرته وقالوا اصحب من الاخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسي جمائله وبقي شاكرا ناشرا ذاكرا لجميلتك يوليك عليها

الاحسان الكثير الجزيل ويجعل أنه ما بلغ من مكافاتك القليل وقال ابن عائشة لقاء الخليل شفاء الغليل وقال بعض الحكماء اذا وقع بصرك على شخص فعكر هته فاحذره جهدك قال عبد الله بن طاهر

خليلي ليس البغضاء حال مبينة * وللحب آثار ترى ومعارف
فمن تنكر العينان فالقلب منكر * وما تعرف العينان فالقلب عارف

وقال آخر

وكنت اذا الصديق أراد غيظي * وشرقني على ظمأ بريق
غفرت ذنوبه وكظمت غيظي * مخافة أن أعيش بلا صديق

وقال آخر

وليس فتى الفتيان من جل همه * صبوح وان أمسى فضل غبوق
ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا * لضر عدو أو لنفع صديق

(وأما آداب المعاشرة) فالبشاشة والبشر وحسن الخلق والادب فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة اذا لقوا والمصافحة اذا تلاقوا وكان القعقاع بن شور الهذلي اذا جالسه رجل يجعل له نصيبا من ماله ويعينه على حوائجه ودخل يوما على معاوية فأمر له بألف دينار وكان هناك رجل قد فسح له في المجلس فدفعها اليه الذي فسح له فقال

وكنت جليس قعقاع بن شور * وما يشقى بقعقاع جليس
فحول السن ان نطقوا بخير * وعند الشر مطراق عبوس

وقال ابن عباس رضي الله عنهما جالسوا على ثلاث أن أرمقه بطرفي اذا أقبل وأوسع له اذا جلس وأصغي له اذا حدث ويقال لكل شيء محل ومحل العقل مجالسة الناس ومثل الجليس الحسن كالعطار ان لم يصبك من عطره أصابك من رائحته ومثل الجليس السوء مثل الكير ان لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدخانه وكانت تحية العرب صبحتك الانعمة وطيب الاطعمة وتقول أيضا صبحتك الافالح وكل طير صالح ووصف المأمون قائما بحسن المعاشرة فقال انه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب وقيل أول ما يتعين على الجليس الانصاف في المجالسة بأن يلحظ بعين الادب مكانه من مكان جليسه فيكون كل منهما في محله وقال صلى الله عليه وسلم ذو العلم والسلطان احق بشرف المنزل وقال جعفر الصادق رضي الله عنه اذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدر وينبغي للانسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه فقد قيل ان نشاط المتكلم بقدر اقبال السامع ويتعين عليه ان يحدث المستمع على قدر عقله ولا يبتدع كلاما لا يليق بالمجلس فقد قيل لكل مقام مقال وخير القول ما وافق الحال وأوجبوا على المستمع انه اذا ورد عليه من المتكلم ما كان مزريا سمعه أولا أن لا يقطع عليه ما يقوله بل يسكت الى أن يستوعب منه القول وعد وا ذلك من باب الادب واعلم اذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه وقيل غاية ان أهينوا فلا يلوموا الا أنفسهم الجالس في مجلس ليس له باهل والمقبل بحديثه على

من لا يسمعه والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخل فيه والمتعرض لما لا يعنيه والمتآمر على رب البيت في بيته والآتي الى مائدة بلا دعوة وطالب الخير من أعدائه والمستخف بقدر السلطان ويتعين على الجليس ان يراعي ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصا اذا كان جليسه ذهنا فقد قيل رب كلمة سلبت نعمة وقال أبو العباس السفاح ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي لم يعد على حديثا قط وقيل ان أبا العباس كان يحدثه يوما اذا عصفت الريح فارمت طستا من سطح الى المجلس فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلي ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح فقال ما أعجب شأنك يا هذلي فقال ان الله يقول ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وانما لي قلب واحد فلما تحيره النور بحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ولا وجدت لها فقال السفاح اني بقيت لك لارفعن مكانك ثم أمر له بمال جزيل وصلة كبيرة وكان ابن خارجة يقول ما غلبني أحد قط غلبة رجل يصغي الى حديثي وفي نوابغ الحكم أكرم حديث أخيك بانصاتك وصنه من وصمة التفاتك وقيل من حق الملك اذا تثاءب أو ألقى المروحة من يده أو مد رجليه أو قعطى أو تكأ أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم من بحضرته وكان اردشير اذا عطس قام سماره ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث وان طال الدهر قال روح بن زنباع أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة فما أعدت عليه حديثا الا مرة واحدة فقال لي قد سمعته منك وعن الشعبي قال ما حدثت بحديث مرتين رجلا بعينه وقال عطاء بن أبي رباح ان الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه قط وقد سمعت به من قبل أن يولد وقيل المودة طلاقة الوجه والتودد الى الناس وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه ان المسلمين اذا التقيا فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ يده تحاتت ذنوبهما كتحات ورق الشجر وقيل البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر وقيل من السنة اذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم وان كن اجعل لكل واحد منهم نصيبا وقالوا اذا أردت حسن المعاشرة فالق عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة ولا تنظر في عطفيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات واذا جلست فلا تتكبر على أحد وتحفظ من تشبيك أصابعك ومن العبث بلحيتك ومن اللعب بخاتمك وتحليل أسنانك وادخال اصبعك في أنفك وكثرة بصاقك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وليكن مجلسك هادئا وحديثك منظوما مرتبا واصغ الى كلام مجالسك واسكت عن المضاحك ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك عندهما واذا خاصمت فأنصف وتحفظ من جهلك وتجنب مجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الاشارة بيدك ولا الالتفات الى من وراءك وأهدئ غضبك وتكلم واذا قربك سلطان فكن منه على حذر واحذر انقلابه عليك وكلمه بما يشتهي ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه وان كنت لذلك مستحقا عندهم وايالك وصديق العافية فانه أعدى الاعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ولا تجالس الملوك فان فعلت فالتزم ترك الغيبة

ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الالفاظ والمذاكرة باخلاق الملوك والحذر منهم وان ظهرت المودة ولا تجلس أمامهم ولا تحاك أسنانك بعد الاكل عندهم ولا تجالس العامة فان فعلت فآداب ذلك تركك الخوض فى حديثهم وقلة الاصغاء الى أراجيفهم والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم واياك أن تمازح لبيبا أو سفيها فان اللبيب يحقد عليك والسفيه يتجرأ عليك ولان المزح يخرق الهيبة ويذهب بماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الايمان والمودة ويثبت فقه الفقيه ويجرى السفيه ويميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة والذلة ومن بلى فى مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك غفر له ما كان فى مجلسه ذلك (وأما آداب المسايرة) فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعقب هو وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فى سفر على بعير فكان اذا جاءت نوبته فى المشى مشى فيعز ما ان عليه أن لا يمشى فيأبى ويقول ما أنتم بأقدر منى على مشى وما أنا بأغنى منكم عن أجر وقال صلى الله عليه وسلم لا تنضوا ظهور الدواب كراسى وقيل لا تتقدم الاصاغر على الاكابر الا فى ثلاث اذا ساروا البلا أو خاضوا سيلا أو واجهوا خيلا

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه فى ثلاث فى نكبته وغيبته ووفاته

وأما ما جاء فى الاخوان القليل الموافاة العديم المكافأة الذين ليس عندهم لصديق مصافاة

فقال وهب بن منبه صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت وجلا غفر لى زلة ولا أقالنى عثرة ولا استرلى عورة وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه اذا كان الغدر طبعا فالثقة بكل أحد عجز وقيل لبعضهم ما الصديق قال اسم وضع على غير مسمى وحيوان غير موجود قال الشاعر

سمعنا بالصديق ولا نراه * على التحقيق يوجد فى الانام
وأحسبه محالا لا تفقوه * على وجه المجاز من الكلام

وقال أبو الدرداء كان الناس ورقا لا شوك فيه فصاروا شوكا لا ورق فيه وقال جعفر الصادق لبعض اخوانه أقل من معرفة الناس وأنكر من عرفت منهم وان كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر وقيل لبعض الولاة كم لك صديق فقال أما فى حال الولاية فكثير وانشد

الناس اخوان من دامت له نعم * والويل للمرء ان زلت به القدم

ولما نكب على بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحدا من اصحابه الذين كانوا يألفونه فى ولايته فلما ردت اليه الوزارة وقف اصحابه ببابه ثانيا فقال

ما الناس الامع الدنيا وصاحبها * فكلما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان وثبت * يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال آخر

فما أكثر الاصحاب حين نعدهم * ولكنهم في النائبات قليل

وقال البحتري

ايا لك تغتر أو تخدعك بارقة * من ذي خداع يرى بشرا وألطافا
فلو قلبت جميع الارض قاطبة * وسرت في الارض اوساطا واطرافا
لم تلق فيها صديقا صادقا أبدا * ولا أخا يبذل الانصاف ان صافى

وقال بعضهم في المعنى أيضا

خليلي جربت الزمان وأهله * فما نالني منهم سوى الهم والعنا
وعاشرت أبناء الزمان فلم أجد * خليلا يوفي بالعهود ولا أنا

وقال آخر

لما رأيت بني الزمان ومابهم * خل وفي للشدائد أصطفي
فعلمت أن المستحيل ثلاثة * الغول والعنقاء والخل الوفي

بيت مفرد

وكل خليل ليس في الله وده * فاني به في وده غير واثق

وقال آخر

اذا ما كنت متخذا خليلا * فلا تأمن خليلك أن يخونا
فانك لم يخنك اخ امين * ولكن قل ما تلقى أمينا

وقال آخر

تحب عدوي ثم تزعم أنني * أود لك ان الرأي عنك لعازب
وليس اخي من ودني بلسانه * ولكن اخي من ودني وهو غائب
ومن ماله مالي اذا كنت معدما * ومالي له ان اعوزته النوائب

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة وامر بقطع يده بلغه انه زور عنه كتابا الى اعدائه وعزله لم يأت اليه احد ممن كان يحسبه ولا توجع له ثم ان السلطان ظهر له في بقية يومه انه برئ مما نسب اليه فخلع عليه ورد اليه وظائفه فأنشد يقول هذه الابيات

تحالف الناس والزمان * فحيث كان الزمان كانوا
عادا في الدهر نصف يوم * فانكشف الناس لي وبانوا
يا أيها المعرضون عنا * عودوا فقد عاد لي الزمان

ومثله في المعنى

اخوك اخوك من يدنو ترجو * مودته وان دعي استجابا
اذا حاربت حارب من تعادي * وزاد سلاحه منك اقترابا

وقال ابو بكر الخالدي

وأخ رخصت عليه حتى ملني * والشئ مملول اذا ما رخص
ما في زمانك من يعز وجوده * ان رمته الا صديق مخلص

فيجب على الانسان أن لا يصحب الا من له دين وتقوى فان المحبة في الله تنفع في الدنيا والآخرة وما أحسن ما قال بعضهم

وكل محبة في الله تبقى * على الحالين من فرح وضيق
وكل محبة فيما سواه * فكالحلفاء في لهب الحريق

فينبغي للانسان أن يجتنب معاشرة الاشرار ويترك مصاحبة الفجار ويهجر من ساءت خلقته وقبحت بين الناس سيرته قال الله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال تعالى وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم فأثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم وذلك انما هو في الاخلاق خاصة فليس أحد من الخلق الا وفيه خلق من أخلاق البهائم ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة فاذا رأيت الرجل جاهلا في خلائقه غليظا في طبائعه قويا في بدنه لا تؤمن ضغائنه فألحقه بعالم النمورة والعرب تقول أجهل من نمر واذا رأيت الرجل هجاما على أعراض الناس فقد ماثل عالم الكلاب فان دأب الكلب أن يحن ومن لا يحفوه ويؤذي من لا يؤذيه فعامله بما كنت تعامل به الكلب اذا نبح ألست تذهب وتتركه واذا رأيت انسانا قد جبل على الخلاف ان قلت نعم قال لا وان قلت لا قال نعم فالحقه بعالم الحمير فان دأب الحمار أدنيته بعد وان أبعدته قرب فلا تنتفع به ولا يكمل مفارقته وان رأيت انسانا مجبولا على الاموال والارواح فالحقه بعالم الاسود وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الاسد واذا بليت بانسان خبيث كثير الروغان فألحقه بعالم الثعالب واذا رأيت من يمشي بين الناس بالنميمة ويفرق بين الاحبة فالحقه بعالم الظربان وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة مشى بينهم ظربان فتفرقوا واذا رأيت انسانا لا يسمع الحكمة والعلم وينفر من مجالسة العلماء ويألف أخبار أهل الدنيا فالحقه بعالم الخنافس فانه يحبها أكل العذرات وملامسة النجاسات وتنفر من ريح المسك والورد واذا شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها واذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعلها يبيض ثيابه ويعدل عمامته وينظر في عطفيه فالحقه بعالم الطواويس واذا بليت بانسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات فألحقه بعالم الجمال والعرب تقول أحقد من جمل فتجنب قرب الرجل الحقود وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الاشرار وأهل الغدر ومن لا وفاء لهم فانه اذا فعل ذلك سلم من مكايد الخلق وأراح قلبه وبدنه والله أعلم *(وأما الزيارة والاستدعاء اليها)* فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتباذلين فيّ والمتزاورين فيّ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل الا ظلي وقال صلى الله عليه وسلم من عاد مريضا أو زار أخا نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا وقيل المحبة شجرة أصلها الزيارة قال الشاعر

زر من تحب وان شطت بك الدار * وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعك بعد من زيارته * ان المحب لمن يهواه زوار

ولتكن الزيارة غبا لقوله صلى الله عليه وسلم زر غبا تزدد حبا قال الشاعر في معنى ذلك

علمك باغباب الزيارة انها * اذا كثرت صارت الى الهجر مسلكا

ألم تر أن الغيث يسأم دائما * ويسئل بالابدى اذا هو أمسكا

ويقال الاكثار من الزيارة ملل والاقلال منها مخل وكتب صديق الى صديقه هذا البيت

اذا ما تقاطعنا ونحن ببلدة * فافضل قرب الدار منا على البعد

وقال آخر

وان مرورى بالديار التى بها * سليمى ولم ألمم بها لجفاء

وقال آخر

قد أتانا من آل سعدى رسول * حبذا ما يقول لى وأقول

وقال آخر

أزور بيوتا لا صقات ببيتها * وقلبى فى البيت الذى لا أزوره

وزار محمد بن يزيد المهلبى المستعين ووهب له مائتى ألف درهم وأقطعه أرضا فقال

وخصصتنى بزيارة أضفى لنا * مجدا بها طول الزمان مؤثل

وقضيت دينى وهو دين وافر * لم يقضه مع جوده المتوكل

وكتب المأمون الى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة

نحن فى أفضل السرور ولكن * ليس الا بكم يتم السرور

عيب ما نحن فيه يا أهل ودى * أنكم غيبتم ونحن حضور

فأجدوا المسير بل ان قدرتم * أن تطيروا مع الرياح تطيروا

وقيل لفيلسوف أى الرسل أنجح قال الذى له جمال وعقل وقيل اذا أرسلتم رسولا فى حاجة فاتخذوه حسن الوجه حسن الاسم وقال لقمان لابنه يا بنى لا تبعث رسولا جاهلا فان لم تجد حكيما عارفا فكن رسول نفسك وقال بعضهم

اذا أبطأ الرسول فقل نجاح * ولا تفرح اذا عجل الرسول

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الخامس والعشرون فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل الشفاعة واصلاح ذات البين وفيه فصلان

(الفصل الاول فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم) قال الله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه لعبده فقال عز وجل ان الله بالناس لرؤف رحيم وقال تعالى الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم قال المفسرون الرحمن اسم رقيق يدل على العطف والرقة واللطف والكرم والمنة والحلم على الخلق والرحيم مثله وقيل يقال رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لا يضع الله

الرحمة الاعلى رحيم قلنا يارسول الله كلنا رحيم قال ليس الرحيم الذى يرحم نفسه وأهله خاصة ولكن الرحيم الذى يرحم المسلمين رواه أبو يعلى والطبرانى وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من لا يرحم لا يرحم ومن لا يغفر لا يغفر له وعنه صلى الله عليه وسلم قال ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل ان كنتم تريدون رحمتى فارحموا خلقى رواه أبو محمد بن عدى فى كتاب الكامل وروينا من طريق الطبرانى عن الشعبى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر قال الطبرانى انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فسألته عن هذا الحديث فقال النبى صلى الله عليه وسلم وأشار بيده صحيح صحيح صحيح ثلاثا وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فوجده مستلقيا على ظهره وصبيانه يلعبون على بطنه فأنكر ذلك عليه فقال له عمر كيف أنت مع أهلك قال اذا دخلت سكت الناطق فقال له اعتزل فانك لا ترفق بأهلك وولدك فكيف ترفق بامة محمد صلى الله عليه وسلم وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أبدال أمتى لن يدخلوا الجنة بالاعمال ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدر والرحمة لجميع المسلمين

(الفصل الثانى فى الشفاعة واصلاح ذات البين) قال الله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شئ مقيتا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره فيقول له جعلت لك جاها فهل نصرت به مظلوما أو وقعت به ظالما أو أغثت به مكروبا وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له وعن أبى بردة عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جاءنى طالب حاجة فاشفعوا له لكى تؤجروا ويقضى الله تعالى على لسان نبيه ماشاء وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الصدقة صدقة اللسان قيل يارسول الله وما صدقة اللسان قال الشفاعة تفك بها الاسير وتحقن بها الدماء وتجر بها المعروف الى أخيك وتدفع عنه بها كربة رواه الطبرانى فى المكارم وقال على رضى الله عنه الشفيع جناح الطالب وقال رجل لبعض الولاة ان الناس يتوسلون اليك بغيرك فينالون معروفك ويشكرون غيرك وأنا أتوسل اليك بك ليكون شكرى لك لا لغيرك وقيل كان المنصور معجبا بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم وكان الناس لعظم قدره يفزعون اليه فى الشفاعات فثقل ذلك على المنصور فحجبه مدة ثم لم يصبر عنه فأمر الربيع أن يكلمه فى ذلك فكلمه وقال اعف أمير المؤمنين لا تثقل عليه فى الشفاعات فقبل ذلك منه فلما توجه الى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع فسألوه ايصالها الى

المنصور فقص عليهم القصة فأبوا الا أن يأخذها فقال انفذوها فى كمى ثم دخل عليه وهو فى الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين فقال له أما ترى الى حسنها يا أبا عبد الله فقال له يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيما آتاك وهنالك باقام نعمته عليك فيما أعطاك لقد بنت العرب فى دولة الاسلام ولا العجم فى سالف الايام أحسن ولا أحسن من مدينتك ولكن سمجتها فى عينى خصلة قال وما هى قال ليس لى فيها ضيعة فتبسم وقال قد حسنتها فى عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها فقال أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر فجعل الله ما بقى الى عمرك أكثر من ماضيه ثم أقام معه يومه ذلك فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كمه فجعل يردهن ويقول ارجعن خائبات خاسرات فضحك المنصور وقال يحق عليك الا أخبرتنى وأعلمتنى بخبر هذه الرقاع فأعلمه وقال ما أنبت يا ابن معلم الخير الا كريما وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر

لسنا وان احسابنا كرمت * يوما على الاحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا * تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

ثم نصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها قال محمد فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت وقال المبرد أتانى رجل لاشفع له فى حاجة فأنشدنى لنفسه

انى قصدتك لا أدلى بمعرفة * ولا بقرب ولكن قد فشت نعمك
فبت حيران مكروبا يؤرقنى * ذل الغريب ويغشينى الكرى كرمك
ما زات أنكب حتى زلزلت قدمى * فاستدل لتثبيتها لازلزلت قدمك
فلو شممت بغير العرف ما علقت * به يداك ولا انقادت له شيمك

قال فشفعت له وأنلته من الاحسان ما قدرت عليه وكتب رجل الى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت

شفعى اليك الله لاشئ غيره * وليس الى رد الشفيع سبيل

فأمره بلزوم الدهليز فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفا ذهب الرجل فقال يحيى والله لو أقام الى آخر عمره ما قطعتها عنه شعر

وقد جئتكم بالمصطفى متشفعا * وما خاب من بالمصطفى يتشفع
الى باب مولانا رفعت ظلامتى * عسى الهم عنى والمصائب ترفع

وقال آخر

تشفع بالنبى فكل عبد * يجار اذا تشفع بالنبى
ولا تجزع اذا ضاقت أمور * فكم لله من لطف خفى

وروى أن جبريل عليه السلام قال يا محمد لو كانت عبادة الله تعالى على وجه الارض لعملنا ثلاث خصال سقى الماء للمسلمين واعانة أصحاب العيال وستر الذنوب على المسلمين اذا أذنبوا اللهم استر ذنوبنا واقض عنا تبعاتنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب السادس والعشرون فى الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه

فصلان

(الفصل الاول فى الحياء) قالت عائشة رضى الله تعالى عنها مكارم الاخلاق عشرة صدق الحديث وصدق اللسان وأداء الامانة وصلة الرحم والمكافأة بالصنيع وبذل المعروف وحفظ الذمام للجار وحفظ الذمام للصاحب وقرى الضيف ورأسهن الحياء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء شعبة من الايمان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستحى فاصنع ماشئت وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه من كسا الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه وعن زيد بن على عن آبائه يرفعونه من لم يستحى فهو كافر وقال أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه انى لادخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فأحنى فيه صلبى حياء من ربى وقال بعضهم الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون فى الوعاء وقال الخواص ان العباد عملوا على أربع منازل على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء فأرفعها منزلة الحياء لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال قالوا سواء علينا رأيناه أو رآنا وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه وبقال القناعة دليل الامانة والامانة دليل الشكر والشكر دليل الزيادة والزيادة دليل بقاء النعمة والحياء دليل الخير كله

(الفصل الثانى فى التواضع واين الجانب وخفض الجناح) قال الله تعالى واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل العبادة التواضع وقال صلى الله عليه وسلم لا ترفعونى فوق قدرى فتقولوا فى ما قالت النصارى فى المسيح فان الله عز وجل اتخذنى عبدا قبل أن يتخذنى رسولا وأتاه صلى الله عليه وسلم رجل فكلمه فأخذته رعدة فقال صلى الله عليه وسلم له هون عليك فانى لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد وكان صلى الله عليه وسلم يرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم فى مهنة أهله ولم يكن متكبرا ولا متجبرا أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعا وكان اذا حدث بشئ مما آتاه الله تعالى قال ولا فخر وقال صلى الله عليه وسلم ان العفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعزكم الله وان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله وان الصدقة لا تزيد المال الا نماء فتصدقوا يزدكم الله وقال عدى بن ارطاة لاياس بن معاوية انك لسريع المشية قال ذلك أبعد من الكبر وأسرع فى الحاجة وخرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير فقال معاوية لابن عامر اجلس فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار وقيل التواضع سلم الشرف ولبس مطرف بن عبد الله الصوف وجالس مع المساكين فقيل له فى ذلك فقال ان أبى كان جبارا فأحببت أن أتواضع لربى لعله أن يخفف عن أبى تجبره وقال مجاهد ان الله تعالى لما أغرق قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجودى فرفعه فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال الله تعالى لموسى عليه السلام هل تعرف لم كلمتك من بين الناس قال لا يارب قال لانى رأيت

تتمرغ بين يدي في التراب تواضعا لله تعالى وقيل من رفع نفسه فوق قدره انجلب مقت الناس وقال أبو مسلم صاحب الدعوة ما تاه الا وضيع ولا فاخر الا لقيط وكل من تواضع لله رفعه الله فسبحان من تواضع كل شئ لعزجبروت عظمته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب السابع والعشرون في العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك)

اعلم أن الكبر والاعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التاديب والكبر يكسب المقت ويمنع من التأنف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله اليه وقال الاحنف بن قيس ما تكبر أحد الا من زلة يجدها في نفسه ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتأنف منه ونظر افلاطون الى رجل جاهل معجب بنفسه فقال وددت أني مثلك في ظنك وأن أعدائي مثلك في الحقيقة ورأى رجل رجلا يختال في مشيه فقال جعلني الله مثلك في نفسك ولا جعلني مثلك في نفسي وقال الاحنف عجبت لمن يجري في مجرى البول مرتين كيف يتكبر ومر بعض اولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيه فقال له مالك يا بني لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك فقال أوما تعرفني قال اعرفك معرفة جيدة أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه وقالوا لا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة والسيادة وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا فقرن الكبر بالفساد وقال تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق قال بعض الحكماء ما رأيت متكبرا الا تحول ما به بي يعني أتكبر عليه واعلم أن الكبر يوجب المقت ومن مقته رجاله لم يستقم حاله والعرب تجعل جذيمة الابرش غاية في الكبر يقال انه كان لا ينادم أحدا تكبرا ويقول انما ينادمني الفرقدان وكان ابن عوانة من اقبح الناس كبرا روى أنه قال لغلامه اسقني ماء فقال نعم فقال انما يقول نعم من يقدر أن يقول لا اصفعه وصفع ودعا اكارا فكلمه فلما فرغ دعا بماء فقضمض به استقذارا لمخاطبته ويقال فلان وضع نفسه في درجة لو سقط منها لتكسر قال الجاحظ المشهورون بالكبر من قريش بنو مخزوم وبنو أمية ومن العرب بنو جعفر بن كلاب وبنو زرارة بن عدي وأما الاكاسرة فكانوا لا يعدون الناس الا عبيدا وأنفسهم الأربابا وقيل لرجل من بني عبد الدار ألا تأتي الخليفة فقال أخاف أن لا يحتمل الجسر شرفي وقيل للحجاج ابن ارطاة مالك لا تحضر الجماعة قال أخشى أن يزاحمني البقالون وقيل أتى وائل بن حجر الى النبي صلى الله عليه وسلم فاقطعه أرضا وقال لمعاوية اعرض هذه الارض عليه واكتبها له فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة ومشى خلف ناقته فاحرقه حر الشمس فقال له أردفني خلفك على ناقتك قال لست من أرداف الملوك قال فاعطني نعليك قال ما يحل يمنعني يا ابن أبي سفيان ولكن اكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلي ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفا وقيل انه لحق زمن معاوية ودخل عليه فاقعده معه على السرير وحدثه

وقال المسرور بن هند لرجل أتعرفني قال لا قال أنا المسرور بن هند قال ما أعرفك قال فتعسا ونكسا لمن لم يعرف القمر قال الشاعر

قولا لأحمق يلوى التيه أخدعه * لو كنت تعلم ما في التيه لم تته
التيه مفسدة للدين منقصة * للعقل مهلكة للعرض فانتبه

وقيل لا يتكبر الا كل وضيع ولا يتواضع الا كل رفيع والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الثامن والعشرون في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت)

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعتبة بن أبي معيط وكانا تفاخرا وقوله تعالى أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمنا يوم القيامة نزلت في أبي جهل وعمار بن ياسر والنسب الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف الانساب وقد قال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر وقد نفى الله تعالى الفخر بالانساب بقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فالفخر في الاسلام بالتقوى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نبيكم واحد وان أباكم واحد وانه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى ألا هل بلغت وقال الاصمعي بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة اذ رأيت شابا متعلقا باستار الكعبة وهو يقول

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم * يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا * وأنت يا حي يا قيوم لم تنم *
أدعوك ربي حزينا هائما قلقا * فارحم بكائي بحق البيت والحرم
ان كان جودك لا يرجوه ذو سفه * فمن يجود على العاصين بالكرم

ثم بكى بكاء شديدا وأنشد يقول

ألا أيها المقصود في كل حاجة * شكوت اليك الضر فارحم شكاتي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي * فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتيت بأعمال قباح رديئة * وما في الورى عبد جنى بجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى * فاين رجائي ثم أين مخافتي *

ثم سقط على الارض مغشيا عليه فدنوت منه فاذا هو زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين فرفعت رأسه في حجري وبكيت فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه وقال من هذا الذي يهيج علينا قلت عبدك الاصمعي سيدي ما هذا البكاء والجزع وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة أليس الله تعالى يقول انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا فقال هيهات هيهات يا أصمعي ان الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرا قرشيا أليس الله تعالى يقول فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فاولئك الذين

خسروا انفسهم فى جهنم خالدون والفخر وان نمت عنه الاخبار النبوية ومجته العقول الذكية الا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعا لا تكلفا وجبلة لا تعلما ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم الاعم ولا ينبه على مناقبهم سواهم وكان كعب بن زهير اذا أنشد شعرا قال لنفسه أحسنت وجاوزت والله الاحسان فيقال له أتحلف على شعرك فيقول نعم لانى أبصر به منكم وكان الكميت اذا قال قصيدة صنع لها خطبة فى الثناء عليها ويقول عند انشاده أى علم بين جنبى وأى لسان بين فكى وقال الجاحظ لو لم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب ولما أبدع ابن المقفع فى رسالته التى سماها بالتيمة تنزيها لها عن المثل سكنت من النفوس موضع ارادته من تعظيمها ولو لم يضلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله وسنذكر فى هذا الباب ان شاء الله تعالى شيأ من نظم البلغاء ونثرهم فى الافتخار ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره قال أبو بكر الهذلى سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوى الفلاة وعليه جبة خز وعمامة عدنية وفى يده سوط يكاد يمس الارض فلما رآه المنصور أمرنى باحضاره فدعوته وسألته عن نسبه وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولاة الصدقة فأحسن الجواب فأعجبه ما رأى منه فقال أنشدنى شعرا فانشده شعرا لاوس بن حجر وغيره من الشعراء من بنى عمرو بن تميم وحدثه حين أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله

ان الامور اذا أوردتها صدرت * ان الامور لها وردوا صدار

فقال ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت قال كان اثقل العرب على عدوه وطأة واقراهم لضيفه وأحوطهم من وراء جاره اجتمعت العرب بعكاظ فكلهم اقروا له بهذه الخلال فقال له والله يا أخا بنى تميم لقد أحسنت اذ وصفت صاحبك ولكنى احق بينه منه ومن شعر أبى الطحان

وانى من القوم الذين هم هم * اذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب * بدا كوكب تاوى اليه كواكبه
اضاءت لهم أحسابهم ووجوههم * دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
ومازال فيهم حيث كان مسود * تسير المنايا حيث سارت ركائبه

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال من ابن على رضى الله تعالى عنه فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان الله عز وجل لم يبعث بعثا الا جعل له عدوا من المجرمين فانا ابن على وأنت ابن صخر وأمك هند وأمى فاطمة وجدك قيد له وجدتى خديجة فلعن الله ألأمنا حسبا وأخملنا ذكرا وأعظمنا كفرا وأشدنا نفاقا فاصاح اهل المسجد آمين آمين فقطع معاوية خطبته ودخل منزله وروى أن معاوية خرج حاجا فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالا ولم يحضر الحسن بن على رضى الله عنهما فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن على فقال له معاوية مرحبا برجل تركناه حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليجعلنا فقال له الحسن ولم ينفد ما عندك وخراج الدنيا يجبى اليك فقال معاوية انى قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند فقال الحسن قد رددته عليك وأنا ابن

فاطمة ودخل الحسين يوما على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول نحن ونحن وانا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال أشهد أن محمدا رسول الله قال الحسين يا يزيد جدّه من هذا فخجل يزيد ولم يرد جوابا وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر

لقد فاخرتنا من قريش عصابة * بمط خدود وامتداد اصابع
فلما تنازعنا الفخار قضى لنا * عليهم بما نهوى نداء الصوامع
ترانا سكوتا والشهيد بفضلنا * عليهم جهير الصوت من كل جامع

وله أيضا

انى وقومى من أنساب قومهم * كمسجد الخيف من بجبوحة الخيف
ما علق السيف منا بابن عاشرة * الا وهمته أمضى من السيف

وتفاخر العباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة وعلي بن أبي طالب فقال العباس أنا صاحب السقاية والقائم عليها وقال طلحة أنا خادم البيت وسمي فتناحه فقال علي ما أدري ما تقولان أنا صليت الى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر فنزلت أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر الآية وتفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة آباء مشركين فقال الآخر أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام أما الذي عدّ تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعل عاشرهم في النار والذي انتسب الى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم في الجنة قال سلمان الفارسي

أبى الاسلام لا أب لي سواه * اذا افتخروا بقيس أو تميم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك فقال الفرزدق أنا ابن محيي الموتى فأنكر سليمان قوله فقال يا أمير المؤمنين قال الله تعالى ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا وجدي فدى الموؤدات فاستحياهن فقال سليمان انك مع شعرك لفقيه وكان صعصعة جدّ الفرزدق أول من فدى الموؤدات وللعباس بن عبد المطلب

ان القبائل من قريش كلها * لبرون انا هام أهل الابطح
وترى لنا فضلا على ساداتها * فضل المنار على الطريق الاوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المرواني من الاندلس الى صاحب مصر يفتخر

ألستم بني مروان كيف تبدلت * بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
اذا ولد المولود منا تهللت * له الارض واهتزت اليه المنابر

وكتب اليه كتابا يهجوه فيه ويسبه فكتب اليه صاحب مصر أما بعد فانك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لاجبناك والسلام وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضا فحضر عنده ذات ليلة ابراهيم بن مخرمة الكندي وخالد بن صفوان بن الاهتم فخاضوا في الحديث وتذاكروا مضر واليمن فقال ابراهيم بن مخرمة يا أمير المؤمنين ان أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكا ورثوا الملك كابرا عن كابر وآخرا عن

أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصبا وليس من شئ لهم خطر الا اليهم ينسب ان سئلوا أعطوا وان نزل بهم ضيف قروه فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة فقال أبو العباس ما أظن التميمي رضي بقولك ثم قال ما تقول أنت يا خالد قال ان أذن لي أمير المؤمنين في الكلام تكلمت قال تكلم ولا تهب أحدا قال أخطأ المقتحم بغير علم ونطق بغير صواب وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الانام وأكرم الكرام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فله المنة به علينا وعليهم فنا النبي المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور وزمزم والحطيم والمقام والحجابة والبطحاء وما لا يحصى من المآثر ومنا الصديق والفاروق وذو النورين والرضا والولي وأسد الله وسيد الشهداء وبنا عرفوا الدين وأتاهم اليقين فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه ثم أقبل خالد على ابراهيم فقال ألك علم بلغة قومك قال نعم قال فما اسم العين عندكم قال الجمجمة قال فما اسم السن قال المبدن قال فما اسم الاذن قال الصنارة قال فما اسم الاصابع قال الشناتير قال فما اسم الذئب قال الكنع قال أفعالم أنت بكتاب الله عز وجل قال نعم قال فان الله تعالى يقول انا أنزلناه قرآنا عربيا وقال تعالى بلسان عربي مبين وقال تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل ألم تر أن الله تعالى قال والعين بالعين ولم يقل والجمجمة بالجمجمة وقال تعالى والسن بالسن ولم يقل والمبدن بالمبدن وقال تعالى والاذن بالاذن ولم يقل والصنارة بالصنارة وقال تعالى يجعلون أصابعهم في آذانهم ولم يقل شناتيرهم في صناراتهم وقال تعالى فاكله الذئب ولم يقل فاكله الكنع ثم قال لابراهيم اني أسالك عن أربع ان أقررت بهن قهرت وان جحدتهن كفرت قال وما هن قال الرسول منا أو منكم قال منكم قال فالقرآن أنزل علينا أو عليكم قال عليكم قال فالمنبر فينا أو فيكم قال فيكم قال فالبيت لنا أو لكم قال لكم قال فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنتم الا سائس قرد أو دابغ جلد أو ناسج برد قال فضحك أبو العباس وأقر لخالد وحباه جميعا وقال بشار بن برد يفتخر

اذا نحن صلنا صولة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
اذا ما أعرنا سيدا من قبيلة * ذرا منبر صلى علينا وسلما

وقال السموأل بن عادياء

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه * فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها * فليس الى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا * فقلت لها ان الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا * شباب تسامى للعلا وكهول
وما ضرنا أنا قليل وجارنا * عزيز وجار الاكثرين ذليل
لنا جبل يحتله من نجيره * منيع يرد الطرف وهو كليل

رسا أصله تحت الثرى وسمايه * الى النجم فرع لايزال طويل
وانا أناس لاترى القتل سبة * اذا مارأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول
ومامات منا سيد حتف أنفه * ولاطل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظبات نفوسنا * وليست على غير الظبات تسيل
ونحن كماء المزن مافي نصابنا * كهام ولافينا يعد بخيل
ونذكر ان شئنا على الناس قولهم * ولا ينكرون القول حين نقول
اذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول بما قال الكرام فعول
وما خمدت نار لنا دون طارق * ولا ذمنا في النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة في عدونا * لها غرر مشهورة وحجول
وأسيافنا في كل شرق ومغرب * بها من قراع الدارعين فلول
معودة أن لاتسل نصالها * فتغمد حتى يستباح قتيل
سلي ان جهلت الناس عنا وعنهم * فليس سواء عالم وجهول
فانا بنو الريان قطب لقومهم * تدور رحاهم حولهم وتجول

ولما قدم وفد تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم خطيبهم وشاعرهم خطب خطيبهم فافتخر فلما سكت امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ماخطب به خطيبهم فخطب ثابت بن قيس فأحسن ثم قام شاعرهم وهو الزبرقان بن بدر فقال

نحن الملوك فلاحي يناظرنا * فينا العلاء وفينا تنصب البيع
ونحن نطعمهم في القحط ماكلوا * من العبيط اذا لم يؤنس الفزع
ونحن الكوم عبطا في أرومتنا * للنازلين اذا ما أنزلوا شبعوا
تلك المكارم حزناها مقارعة * اذا الكرام على أمثالها اقترعوا

ثم جلس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت قم فقام فقال

ان الذوائب من فهر وا خوتهم * قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته * تقوى الاله وبالامر الذي شرعوا
قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم * أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة * ان الخلائق فاعلم شرها البدع
لو كان في الناس سباقون بعدهم * فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لايرفع الناس ما أوهت أكفهم * عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
ولا يضنون عن جار بفضلهم * ولا يمسهم في مطمع طمع
خذ منهم ما أتوا عفوا اذا عطفوا * ولا يكن همك الامر الذي منعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم * اذا تفرقت الاهواء والشيع

فقال التميميون عند ذلك ورب الكعبة ان خطيب القوم أخطب من خطيبنا وان شاعرهم أشعر

من شاعرنا وما انتصفنا ولا قاربنا وقال شاعر من بني تميم

أبيني آل شداد علينا * وما يرعى لشداد فصيل
فان تقعد منا صلتا تجدها * غلاظا في أناملها صؤول

وقال سالم بن أبي وابصة

عليك بالقصد فيما أنت فاعله * ان التخلق يأتي دونه الخلق
وموقف مثل حد السيف قمت به * أحمي الذمار وترميني به الحدق
فما زاقت ولا أبديت فاحشة * اذا الرجال على أمثالها زاقوا

(وأما التفاضل والتفاوت)

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل قال يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي لانهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ومن كلام علي رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه أما قولك انا بنو عبد مناف فكذلك نحن ولكن ليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبي طالب وقال أحمد بن سهل الرجال ثلاثة سابق ولاحق وماحق فالسابق الذي سبق بفضله واللاحق الذي لحق بأبيه في شرفه والماحق الذي محق شرف آبائه * وقيل ان عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث وأشعب الطماع وربتهما فقال أشعب فكنت اسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين وقال ابو العوادل زكريا بن هرون

علي وعبد الله بينهما أب * وشتان ما بين الطبائع والفعل
ألم تر عبد الله يطوي على الندا * عليا ويطويه على البخل

وحج أبو الاسود الدؤلي بامرأته وكانت شابة جميلة فعرض لها عمر بن أبي ربيعة فغازلها فاخبرت أبا الاسود فأتاه فقال

واني لينهاني عن الجهل والخنا * وعن شتم أقوام خلائق أربع
حياء وايمان وتقوى وأنني * كريم ومثلي من يضر وينفع
فشتان ما بيني وبينك انني * على كل حال أستقيم وتضلع

وقال ربيعة البرقي

لشتان ما بين اليزيدين في الندا * يزيد سليم والاغر بن حاتم
يزيد سليم سالم المال والفتى * فتى الازد للاموال غير مسالم
فهم الفتى الازدي اتلاف ماله * وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب القيسي أني هجوته * ولكنني فضلت أهل المكارم

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين

يقول أنا الكبير فعظموني * ألا شكلتك أمك من كبير
اذا كان الصغير أعم نفعا * وأجلد عند نائبة الامور
ولم يأت الكبير يوم خير * فما فضل الكبير على الصغير

والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب التاسع والعشرون في الشرف والسودد وعلو الهمة)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رزقه الله مالا فبذل معروفه وكف أذاه فذلك السيد وقيل لقيس بن عاصم بم سدت قومك قال لم أخاصم أحدا الا تركت للصلح موضعا وقال سعيد ابن العاص ما شاتمت رجلا منذ كنت رجلا لاني لم أشاتم الا أحد رجلين اما كريم فأنا أحق أن أجله واما لئيم فأنا أولى أن أرفع نفسي عنه وقالوا من نعت السيد أن يكون يملأ العين جمالا والسمع مقالا وقيل قدم وفد من العرب على معاوية وفيهم الاحنف بن قيس فقال الحاجب ان أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد الا لنفسه فلما وصلوا اليه قال الاحنف لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت ونازلة نزلت ونائبة نابت والكل بهم حاجة الى المعروف من أمير المؤمنين فقال له معاوية حسبك يا أبا بحر فقد كفيت الشاهد والغائب وقال رجل للاحنف بم سدت قومك وما أنت بأشرفهم بيتا ولا أصبحهم وجها ولا أحسنهم خلقا فقال بخلاف ما فيك قال وماذا قال تركي من امرك ما لا يعنيني كما عنالك من أمري ما لا يعنيك وقيل السيد من يكون للاولياء كالغيث الغادي وعلى الاعداء كالليث العادي وكان سبب ارتفاع عرابة الاوسي وسوددة أنه قدم من سفر فجمعه والشماخ بن ضرار المزني الطريق فتحادثا فقال له عرابة ما الذي أقدمك المدينة يا شماخ قال قدمتها لامتار منها فلا له عرابة رواحله برا وتمرا وأتحفه بتحف غير ذلك فأنشد يقول

رأيت عرابة الاوسي يسمو * الى الخيرات منقطع القرين
اذا ما راية رفعت بمجد * تلقاها عرابة باليمين

(وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة)

فمن علت همته وشرفت نفسه عمارة بن حمزة قيل انه دخل يوما على المنصور وقعد في مجلسه فقام رجل وقال مظلوم يا أمير المؤمنين قال من ظلمك قال عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي فقال المنصور يا عمارة قم فاقعد مع خصمك فقال ما هو لي بخصم ان كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها وان كانت لي فقد وهبتها له ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ورفعني وأقعد في أدنى منه لاجل ضيعة وتحدث السفاح هو وأم سلمة يوما في نزاهة نفس عمارة وكبره فقالت له ادع به وأنا أهب له سبتي هذه فان فيها خمسون ألف دينار فان هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس فوجه اليه فحضر فحادثته ساعة ثم رمت اليه بالسبحة وقالت هي من الطرف وهي لك فجعلها عمارة بين يديه ثم قام وتركها فقالت لعله نسيها فبعثت بها اليه مع خادم فقال للخادم هي لك فرجع الخادم فقال قد وهبها لي فاعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه وأهدى عبيد الله بن السري الى عبد الله بن طاهر لما ولي مصر مائة وصيف مع كل وصيف ألف دينار ووجه اليه بذلك ليلا فردة وكتب اليه لو قبلت هديتك ليلا لقبلتها نهارا وما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سبيت فنادت وا معتصماه فبلغه الخبر فركب لوقته وتبعه الجيش فلما فتحها قال لبيك أيتها المنادية وكان سعيد بن عمرو بن العاص

ذا نخوة وهمة قيل له فى مرضه ان المريض يستريح الى الانين والى شرح مابه الى الطبيب فقال أما الانين فهو جزع وعار والله لا يسمع الله منى أنينا فاكون عنده جزوعا وأما وصف مابى الى الطبيب فوالله لا يحكم غير الله فى نفسى ان شاء أمسكها وان شاء قبضها ومن كبر النفس ماروى عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة واحتاج فكان يأكل الحنظل حتى قتله ولم يخبر أحدا بحاجته ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار وحمى الذمار وكانت العرب ترى ذلك دينا تدعو اليه وحقا واجبا تحافظ عليه وكان أبو سفيان بن حرب اذا نزل به جار قال ياهذا انك اخترتنى جارا واخترت داوى دارا فجنايه يدلك على دونك وان جنت عليك يدفاحتكم حكم الصبى على أهله وكان الفرزدق يجير من عاذ بقبر أبيه غالب ابن صعصعة فمن استجار بقبر أبيه فاجاره امرأة من بنى جعفر بن كلاب خافت لما هجا الفرزدق بنى جعفر أن يسبها وينسبها فعاذت بقبر ابيه فلم يذكر لها اسما ولا نسبا ولكن قال

يجوز تصلى الخمس عاذت بغالب * فلا والذى عاذت به لا أضيرها

وقال مروان بن أبى حفصة

هم يمنعون الجار حتى كأنما * لجارهم بين السماكين منزل

وقال ابن بيانة

ولو يكون سواد الشعر فى ذمم * ما كان للشيب سلطان على القمم

وقيل ان الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه وأرغب السجان واستمالته وهرب هو والسجان وقصدا الشام الى سليمان بن عبد الملك بن مروان وكان الخليفة فى ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك فلما وصل يزيد بن المهلب الى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن اليه وأقامه عنده فكتب الحجاج الى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخى أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين وان أمير المؤمنين أعلى رأيا فكتب الوليد الى أخيه سليمان بذلك فكتب سليمان الى أخيه يقول ياأمير المؤمنين انى ما أجرت يزيد بن المهلب الا لانه هو وأبوه واخوته من صنائعنا قديما وحديثا ولم أجره والا امير المؤمنين وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلما ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم وقد صار الى واستجارنى فأجرته وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم فان رأى أمير المؤمنين أن لا يحقرنى فى ضيفى فليفعل فانه أهل الفضل والكرم فكتب اليه الوليد أنه لابد أن ترسل الى يزيد مغلولا مقيدا فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده ثم شد قيد هذا الى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعا بغلين وأرسلهما الى أخيه الوليد وكتب اليه أما بعد ياأمير المؤمنين فقد وجهت اليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان واقد هممت أن أكون ثالثهما فان هممت ياأمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله ثم اجعل يزيد ثانيا واجعلنى اذا شئت ثالثا والسلام فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان فى سلسلة واحدة اطرق الوليد استحياء وقال

لقد أسأنا الى أبي أيوب اذ بلغنا به هذا المبلغ فأخذ يزيد يتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد مايحتاج الى كلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج ثم انه أحضر حقدا وأزال عنهما الحديد وأحسن اليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم ورد هما الى سليمان وكتب كتابا الى الحجاج يقول له لاسبيل لك على يزيد بن المهلب فاياك أن تعاود نى فيه بعد اليوم فسار يزيد الى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده فى أعلى المراتب وأرفع المنازل * وحكى أن رجلا من الشيعة كان يسعى فى فساد الدولة فجعل المهدى لمن دل عليه أو أتى به مائة ألف درهم فاخذه رجل من بغداد فأيس من نفسه فمر به معن بن زائدة فقال له يا أبا الوليد أجرنى أجارك الله فقال معن للرجل مالك ومالك فقال ان أمير المؤمنين طالبه قال خل سبيله قال لا أفعل فامر معن غلمانه فاخذوه غصبا وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل فاخبر أمير المؤمنين المهدى بالقصة فارسل خلف معن فاحضره فلما دخل عليه قال له يا معن أتجير على قال نعم يا أمير المؤمنين قتلت فى يوم واحد فى طاعتكم خمسة آلاف رجل هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيها طاعتى أفاتر ونى أهلا أن تجيروا الى رجلا واحدا استجارنى فاستصبا المهدى وأطرق طويلا ثم رفع رأسه وقال قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد قال ان رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجارنى فيكون قد أجاره وحباه قال قد أمرت له بخمسين ألف درهم فقال معن يا أمير المؤمنين ينبغى أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وان ذنب الرجل عظيم فان رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل قال قد أمرت له بمائة ألف درهم فرجع معن الى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه وقال له لاتتعرض لمساخط الخلفاء * وكان جعفر بن أبى طالب يقول لابيه يا أبت انى لاستحى أن أطعم طعاما وجيرانى لايقدرون على مثله فكان أبوه يقول انى لارجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب * وسقط الجراد قريبا من بيت بعض العرب فجاء أهل الحى فقالوا نريد جارك فقال أما اذ جعلتموه جارى فوالله لاتصلون اليه وأجاره حتى طار فسمى مجير الجراد وقيل هو أبو حنبل والحكايات فى معنى ذلك كثيرة والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الثلاثون فى الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الاولياء والصالحين رضى الله عنهم أجمعين

اعلم أن أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم أجمعين وفضائلهم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر والى الله أحبهم وأحب من يحبهم وأسأل الله أن يميتنى على محبة نبى محمد صلى الله عليه وسلم ومحبتهم وأن يحشرنا فى زمرتهم وتحت ألويتهم انه على مايشاء قدير وبالاجابة جدير (شعر)

انى أحب أبا حفص وشيعته * كما أحب عتيقا صاحب الغار
وقد رضيت عليا قدوة علما * وما رضيت بقتل الشيخ فى الدار
كل الصحابة سادانى ومعتقدى * فهل على بهذا القول من عار

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح منكم

اليوم صائما فقال أبو بكر أنا يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أطعم اليوم منكم مسكينا فقال أبو بكر أنا قال فمن عاد منكم اليوم مريضا قال أبو بكر أنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمعن في أحد الا دخل الجنة وقال صلى الله عليه وسلم لو كان بعدي نبي لكان عمر وقال له النبي صلى الله عليه وسلم والذي بعثني بالحق بشيرا ما سلكت واديا الا سلك الشيطان واديا غيره ولما أسلم رضي الله عنه قال يا رسول الله ألسنا على الحق قال بلى قال والذي بعثك بالحق نبيا لا نعبد الله سرا بعد هذا اليوم ولما قدم عمر رضي الله عنه الشأم وقف على طومر سينا فأرسل البطريق عظماءهم وقال انظروا الى ملك العرب فرآه على فرس وعليه جبة صوف مرقعة مستقبل الشمس بوجهه ومخلاته في قربوس السرج وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلقا خبز يابس يمسحها من التين ويأكلها فوصفه للبطريق فقال لا نرى بمحاربة هذا طاقة اعطوه ما شاء * وأما أمير المؤمنين عثمان رضي الله تعالى عنه ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة فهو جامع القرآن ومن استحيت منه ملائكة الرحمن رضي الله عنه وقال جبير بن عمير دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها أخبريني من كان أحب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت فاطمة قلت انما أسألك عن الرجال قالت زوجها فوالله لقد كان صواما قواما وأقدسات نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده فردها الى فيه قلت فما حملك على ما كان فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت أمر قضي علي وقال معاوية لضرار بن حمزة الكناني صف لي عليا فاستعفى فألح عليه فقال أما اذ فلا بد انه والله كان بعيد المدى شديد القوى يقضي العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته كان والله غزير العبرة طويل الفكرة يقلب كفه ويعاتب نفسه يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن وكان والله يجيبنا اذا سألناه ويأتينا اذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له يعظم أهل الدين ويحب المساكين لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل في محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ الخائف ويبكي بكاء الحزين فكأني الآن اسمعه يقول يا دنيا الي تعرضت أم الي تشوقت هيهات هيهات غري غيري قد أبنتك ثلاثا لا رجعة لي فيك فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير آه من قلة الزاد ووحشة الطريق قال فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحيته وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار قال حزني عليه والله حزن من ذبح ولدها في حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا تسكن حيرتها ثم قام فخرج * وقيل أول من سل سيفا في سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضي الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلا صائح فقال قتل محمد فخرج متجردا وسيفه معه صلتا فتلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مالك يا زبير قال سمعت انك قتلت قال فماذا أردت أن تصنع قال أردت والله أن استعرض أهل مكة وروى اخبط بسيفي من قدرت عليه فضمه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه واعطاه ازاره فاستتر به وقال له أنت حواري ودعا له قال الاوزاعي كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها وباع داره بسبعمائة ألف

درهم فقيل له يا أبا عبد الله غبنت قال كلا والله انى لم أعبن اشهدكم انها فى سبيل الله تعالى وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فقال من حملك على ظهره وكان حمله على ظهره طلحة حتى استقل على الصخرة قال طلحة قال اقرئه السلام واعلمه انى لا اراه يوم القيامة فى هول من أهوالها الا استنقذته منه من هذا الذى عن يمينك قال المقداد بن الاسود قال ان الله يحبه ويأمرنا أن نحبه من هذا الذى بين يديك يتقى عنك قال عمار بن ياسر قال بشره بالجنة حرمت النار على عمار ومر أبو ذر على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل عليه السلام فى صورة دحية الكلبى فلم يسلم فقال جبريل هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه فقال أتعرفه يا جبريل قال والذى بعثك بالحق نبيا لهو فى ملكوت السموات السبع أشهر منه فى الارض قال بم نال هذه المنزلة قال بزهده فى هذه الحطام الفانية وقال ابن عمر رضى الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله ليدفع بالمسلم الصالح عن الف بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض الآية وقال أبو بكر السقاح لابى بكر الهذلى بم بلغ الحسن ما بلغ قال جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثنتى عشرة سنة لم يجاوزه الى غيرها حتى يعرف تأويلها ولم يقلب درهما قط فى تجارة ولم يل عملا للسلطان ولم يأمر بشئ حتى يفعله ولم ينه عن شئ حتى يدعه قال السقاح بهذا بلغ وقال الجاحظ كان الحسن يستثنى من كل غاية فيقال فلان أزهد الناس الا الحسن وأفقه الناس الا الحسن وأفصح الناس الا الحسن وأخطب الناس الا الحسن وقال بعضهم كان عمر بن عبد العزيز ازهد من أويس لان عمر ملك الدنيا فزهد فيها وأويس لم يملكها فقيل لو ملكها الفعل كما فعل عمر فقال لا يدرى من لم يجرب كن جربت وقال انس فى ثابت البنانى ان للخير مفاتيح وان ثابتا من مفاتيح الخير وكان حبيب الفارسى من أخيار الناس وهو الذى اشترى نفسه من ربه أربع مرات بأربعين ألفا كان يخرج البدرة فيقول يا رب اشتريت نفسى منك بهذه ثم يتصدق بها وكان أيوب السختيانى من أزهد الناس وأورعهم ذكر عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى فقال رحم الله أيوب لقد شهدت منه مقاما عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم لا أذكر ذلك المقام الا اقشعر جلدى وقال سفيان الثورى جهدت جهدى على أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر وكان الخليل بن أحمد النحوى من أزهد الناس وأعلاهم نفسا وكان الملوك يقصدونه ويبذلون له الاموال فلا يقبل منها شيأ وكان يحج سنة ويغزو سنة حتى مات رحمه الله وقال ابن خارجة جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملكين كتبا عليه شيأ وروى أنه غسل كرز بن وبرة فلم يوجد على جسده مثقال لحم وعن محمد بن الحسن قال كان أبو حنيفة واحد زمانه لو انشقت عنه الارض لانشقت عن جبل من الجبال فى العلم والكرم والزهد والورع وج وكيع بن الجراح أربعين حجة ورابط فى عباد ان أربعين ليلة وختم بها القرآن أربعين ختمة وتصدق بأربعين ألفا وروى أربعة آلاف حديث وما روى واضعا جنبه قط ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبى رباح وهو أسود مفاتل الشعر يفتى الناس فى الحلال والحرام فقال يقول * تلك المكارم لا قعبان من لبن * ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين سيدى أبو عبد الله محمد بن اسمعيل المغربى استاذ ابراهيم بن شيبان كان عجيب الشان لم يأكل مما وصلت اليه أيدى بنى آدم سنين كثيرة وكان

أكله من أصول النعشب شيأ تعودا كله * ومنهم سيدى فتح بن شخرف بن داود يكنى أبا نصر من الزاهدين الورعين لم يأكل الخبز ثلاثين سنة قال أحمد بن عبد الجبار سمعت أبى يقول صحبت فتح بن شخرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه الى السماء ثم رفعها يوما فقال طال شوقى اليك فعجل قدومى عليك وقال محمد بن جعفر سمعت انسانا يقول غسلنا فتح بن شخرف فرأينا مكتوبا على فخذه لا اله الا الله فتوهمناه مكتوبا واذا هو عرق داخل الجلد ومات ببغداد فصلى عليه ثلاثا وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحوا من خمسة وعشرين ألفا الى ثلاثين ألفا * ومنهم سيدى فتح بن سعيد الموصلى يكنى أبا نصر من أقران بشر الحافى ومرى السقطى كبير الشأن فى باب الورع والمجاهدات قال ابراهيم بن نوح الموصلى رجع فتح الموصلى الى أهله بعد صلاة العتمة وكان صائما فقال عشونى فقالوا ما عندنا شئ نعشيك به فقال ما بالكم جلوس فى الظلمة فقالوا ما عندنا شئ نسرج به فجعل يبكى من الفرح و يقول الهى مثلى يترك بلا عشاء ولا سراج بأى يد كانت منى فما زال يبكى الى الصباح وقال فتح رأيت بالبادية غلاما لم يبلغ الحلم وهو يمشى وحده ويحرك شفتيه فسلمت عليه فرد على السلام فقلت الى أين فقال الى بيت ربى عز وجل فقلت بماذا تحرك شفتيك قال أتلو كلام ربى فقلت انه لم يجر عليك قلم التكليف قال رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سنا منى فقلت خطاك قصيرة وطريقك بعيدة فقال انما على نقل الخطا وعليه البلاغ فقلت أين الزاد والراحلة قال زادى يقينى وراحلتى رجلاى فقلت أسألك عن الخبز والماء قال ياعماه أرأيت لو دعاك مخلوق الى منزله أكان يحمل لك أن تحمل زادك الى منزله قلت لا فقال ان سيدى دعا عباده الى بيته وأذن لهم فى زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوادهم وانى استقبحت ذلك فحفظت الادب معه أفتراه يضيعنى فقلت حاشا وكلا ثم غاب عن بصرى فلم أره الا بمكة فلما رآنى قال أنت أيها الشيخ بعد على ذلك الضعف من اليقين * ومنهم سيدى أبو عثمان سعيد بن اسمعيل الجبرى صحب شاه الكرمانى ويحيى بن معاذ الرازى وكان يقال فى الدنيا ثلاثة لا رابع لهم أبو عثمان الجبرى بنيسابور والجنيد ببغداد وأبو عبد الله الحلاج بالشام ومن كلامه لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه اربعة أشياء المنع والعطاء والعز والذل وقال منذ أربعين سنة ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته ولا انتقلنى الى شئ فسخطته * ومنهم سيدى سليمان الخواص يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين والعباد الموصوفين سكن الشأم ودخل بيروت وكان أكثر مقامه ببيت المقدس قيل اجتمع حذيفة المرعشى وابراهيم بن أدهم ويوسف بن اسباط فتذاكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت فقال بعضهم الغنى من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد من عيش يكفه عن فضول الدنيا وقال بعضهم الغنى من لم يحتج الى الناس فقيل لسليمان ما تقول أنت فى ذلك فبكى وقال رأيت جوامع الغنى فى التوكل ورأيت جوامع الفقر فى القنوط والغنى حق الغنى من أسكن الله فى قلبه من غناه يقينا ومن معرفته توكلا ومن قسمته رضا فذلك الغنى حق الغنى وان أمسى طاويا وأصبح معوزا فبكى القوم من كلامه * ومنهم سيدى أبو سليمان ابن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الدارانى أحد رجال الطريقة قدس الله سره كان من

أجل السادات وأرباب الجد في المجاهدات ومن كلامه من أحسن في نهاره كفي في ليله ومن أحسن في ليله كفي في نهاره ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت له وقال لكل شئ علامة وعلامة الخذلان ترك البكاء وقال لكل شئ صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن وقال أحمد بن أبي الحواري شكوت الى أبي سليمان الوسواس فقال اذا أردت أن ينقطع عنك فاي وقت أحسست به فافرح فانك اذا فرحت به انقطع عنك لانه لا شئ أبغض الى الشيطان من سرور المؤمن واذا اغتممت به زادك وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى اجتمعوا ليلا على أبي سليمان الداراني فسمعوه يقول يارب ان طالبتني بسريرتي طالبتك بتوحيدك وان طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك وان جعلتني من اهل النار اخبرت اهل النار بحبي اياك وقال علي بن الحسين الحداد سألت ابا سليمان باي شئ تعرف الابرار قال بكتمان المصائب وصيانة الكرامات وروى عنه انه قال نمت ليلة عن وردي فاذا حوراء تقول لي أتنام وانا اربي لك في الخدور منذ خمسمائة عام * ومنهم سيدي ابو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوفة كوفي الاصل ولكنه سكن انطاكية ومن كلامه لا تغتم الا من شئ يضرك غدا ولا تفرح الا بشئ يسرك غدا وله كرامات ظاهرة وبركات متواترة * ومنهم سيدي ابو عبد الله محمد بن يوسف البناء اصبهاني الاصل كتب عن ستمائة شيخ ثم غلب عليه الانفراد والخلوة الى ان خرج الى مكة بشرط التصوف وقطع البادية على التجريد وكان في ابتداء امره يكسب في كل يوم ثلاثة دراهم وثلثا فيأخذ من ذلك لنفسه دانقا ويتصدق بالباقي ويختم مع العمل كل يوم ختمة فاذا صلى العتمة في مسجده خرج الى الجبل الى قريب الصبح ثم يرجع الى العمل وكان يقول في الجبل يارب اما ان تهب لي معرفتك او تامر الجبل ان ينطبق علي فاني لا اريد الحياة بلا معرفتك * ومنهم سيدي يحيى بن معاذ الرازي قدس الله سره يكنى ابا زكرياء احد رجال الطريق كان اوحد وقته ومن كلامه لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه ويوم حشره ميزانه وقال ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال ان لم تنفعه فلا تضره وان لم تسره فلا تغمه وان لم تمدحه فلا تذمه وقال الصبر على الخلوة من علامات الاخلاص وقال بئس الصديق صديقا يحتاج الى ان يقال له اذكرني في دعائك وقال على قدر حبك لله يحبك الخلق وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق وعلى قدر شغلك بالله تشتغل في امرك الخلق وقال من كان غناه في كيسه لم يزل فقيرا ومن كان غناه في قلبه لم يزل غنيا ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروما وروى انه قدم شيراز فجعل يتكلم على الناس في علم الاسرار فاتته امرأة من نسائها فقالت كم تريد ان تاخذ من هذه البلدة قال ثلاثون الفا اصرفها في دين علي بخراسان فقالت لك علي ذلك على ان تاخذها وتخرج من ساعتك فرضي بذلك فحملت اليه المال فخرج من الغد فعوتبت تلك المراة فيما فعلت فقالت انه كان يظهر اسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامة فغرت على ذلك * ومنهم سيدي يوسف بن الحسين الرازي يكنى ابا يعقوب كان وحيد وقته في اسقاط التصنع عالما أديبا صحب ذا النون المصري وابا تراب النخشبي من كلامه اذا اردت ان تعلم العاقل من الاحمق فحدثه بالمحال فان قبل فاعلم انه احمق وقال اذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم

انه لا يجيء منه شيء وقال لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصي أحب الي من أن ألقاه بذرة من التصنع وقال أبو الحسن الدراج قصدت زيارة ابن الحسين الرازي من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله فكل من سالته يقول أي شيء تريد من هذا الزنديق فضيقوا صدري حتى عزمت على الانصراف فبت تلك الليلة في مسجد ثم قلت في نفسي جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت الى مسجده فوجدته جالسا في المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام وقال من أين قلت من بغداد فقال أتحسن من قولهم شيأ قلت نعم وأنشدته

رأيتك تبني دائما في قطيعتي * ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

فأطبق المصحف ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه ثم التفت الي وقال يا بني أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق وها أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ولم تقطر من عيني قطرة وقد قامت علي القيامة بهذا البيت * ومنهم سيدي حاتم بن علوان الاصم قدس الله سره يكنى أبا عبد الرحمن من اكابر مشايخ خراسان صحب شقيقا البلخي ومن كلامه الزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة والآخرة راغبة وقال من ادعى ثلاثا بغير ثلاث فهو كذاب من ادعى حب الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب ومن ادعى محبة النبي صلى الله عليه وسلم من غير محبة الفقر فهو كذاب ومن ادعى حب الجنة من غير انفاق ماله فهو كذاب وسأله رجل علام بنيت أمرك في التوكل على الله عز وجل قال على أربع خصال علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره وعلمت أني لا أخلو من عين الله عز وجل حيث كنت فانا أستحي منه وسبب تسميته بالاصم ما حكاه أبو علي الدقاق أن امرأة جاءت تسأله عن مسئلة فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة فقال حاتم ارفعي صوتك وأراها انه أصم فسرت المرأة بذلك وقالت انه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم رحمة الله تعالى عليه * ومنهم الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صحب أبا بكر المصري وأبا علي الروذباري وكان أوحد مشايخ وقته من كلامه روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وان كتموها وتظهر عليهم دلائلها وان أخفوها وتدل عليهم وان ستروها وأنشد في هذا المعنى

اذا ما أسرت أنفس الناس ذكره * تبينه فيهم ولم يتكلموا
تطيب به أنفاسهم فتذيعها * وهل سر مسك اودع الريح يكتم

ومن كلامه أيضا اذا انقطع العبد الى الله تعالى بالكلية فاول ما يفيده الاستغناء به عن الناس وقال صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم وقال اذا سكن الخوف في القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه * ومنهم سيدي جعفر بن نصير الخلدي يكنى بابي محمد بغدادي المنشا والمولد صحب الجنيد وانتهى اليه وحج قريبا من ستين حجة وروي أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكي بكاء بحرقة فقال لها مالك تبكين فقالت ثكلي بولدي فانشا يقول

يقولون شكلي ومن لم يذق * فراق الاحبة لم يشكل
لقد جرعتني ليالي الفراق * شرابا أمر من الحنظل

وروى أنه كان له فص فوقع منه يوما في الدجلة وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة اذا دعا به عادت فدعا به فوجد الفص في وسط أوراق كان يتصفعها وصورة الدعاء أن تقول يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع علي ضالتي وقد روى أنه يقرأ قبله سورة والضحى ثلاثا وروى الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه قال ودعت في بعض حجاتي المزين الكبير الصوفي فقلت زودني شيأ فقال ان فقدت شيأ أو أردت أن يجمع الله بيني وبينك أو بينك وبين انسان فقل يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين كذا فان الله يجمع بينك وبين ذلك الشيء أو الانسان * ومنهم سيدي معروف بن فيروز الكرخي قدس الله سره يكنى أبا محفوظ من كبار المشايخ مجاب الدعوة وهو أستاذ السري وكان أبواه نصرانيين فأسلماه الى مؤدبهم وهو صبي فكان المؤدب يقول له قل هو ثالث ثلاثة فيقول بل هو الواحد الصمد فضربه المؤدب على ذلك ضربا موجعا فهرب منه فكان أبوا ميقولان لابنه يرجع البناء على أي دين شاء فنوافقه عليه فرجع الى أبويه فدق الباب فقيل من بالباب فقال معروف فقيل على أي دين فقال على دين الاسلام فاسلم أبواه وكان مشهورا باجابة الدعوة ومن كلامه رضي الله عنه اذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الفترة والكسل وكان يعاتب نفسه ويقول يا مسكين كم تبكي وتندب أخلص تخلص وقال سري سألت معروفا عن الطائفين لله بأي شيء قدروا على الطاعات لله عز وجل قال بخروج حب الدنيا من قلوبهم ولو كانت في قلوبهم لما صحت لهم سجدة ومن انشاداته

الماء يغسل ما بالثوب من درن * وليس يغسل قلب المذنب الماء

وقال ابراهيم الاطروش كان معروف قاعدا يوما على الدجلة ببغداد فمر بنا صبيان في زورق يضربون بالملاهي ويشربون فقال له أصحابه أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء فادع عليهم فرفع يديه الى السماء وقال الهي وسيدي كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة فقال له أصحابه انما قلنا لك ان تدعو عليهم ولم نقل لك ادع لهم فقال اذا أفرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضرهم ذلك وقال سري رأيت معروفا في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول للملائكة من هذا فقالوا أنت أعلم يا رب قال هذا معروف الكرخي سكر بحبي لا يفيق الا بلقائي وقيل له في مرضه أوص فقال اذا مت فتصدقوا بقميصي هذا فاني أحب أن أخرج من الدنيا عريان كما دخلتها عريان وقال أبو بكر الخياط رأيت في المنام كأني دخلت المقابر فاذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان واذا أنا بمعروف الكرخي ينهم يذهب ويجيء فقلت يا أبا محفوظ ما فعل الله بك أوليس قدمت قال بلى ثم أنشد يقول

موت التقي حياة لا نفاد لها * قد مات قوم وهم في الناس أحياء

* ومنهم قاسم بن عثمان الكرخي يكنى أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ صحب أبا سليمان الداراني وغيره وكان من أقران السري والحرث المحاسبي وكان أبو تراب النخشبي

يعصيه ومن كلامه من أصلح فيما بقي من عمره غفر له ما مضى وما بقي ومن أفسد فيما بقي من عمره أخذ بما مضى وما بقي وقال السلامة كلها في اعتزال الناس والفرح كله في الخلوة بالله عز وجل وسئل عن التوبة فقال التوبة ردّ المظالم وترك المعاصي وطلب الحلال وأداء الفرائض وقال لاصحابه أوصيكم بخمس ان ظلمتم فلا تظلموا وان مدحتم فلا تفرحوا وان ذممتم فلا تحزنوا وان كذبتم فلا تغضبوا وان خانوكم فلا تخونوا وقال محمد بن الفرج سمعت قاسم بن عثمان يقول ان لله عبادا قصدوا الله بهمومهم فأفردوه بطاعتهم واكتفوا به في نوائبهم ورضوا به عوضا عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا فليس لهم حبيب غيره ولا قرة عين الا فيما قرب اليه وكان يقول قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة ثم قال اعرف وضع رأسك ونم فما عبد الله الخلق بشئ أفضل من المعرفة وروى عنه أنه قال رأيت في الطواف حول البيت رجلا فتقربت منه فاذا هو لا يزيد على قوله اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتي لم تقض فقلت له مالك لا تزيد على هذا الكلام فقال أحدثك كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا فاعتزلنا نضرب أعناقنا فنظرت الى السماء فاذا سبعة أبواب مفتحة عليها سبع جوار من الحور العين على كل باب جارية فتقدم رجل منا فضربت عنقه فرأيت جارية في يدها منديل قد هبطت الى الارض فضربت أعناق الستة وبقيت أنا وبقي باب وجارية فلما قدمت لتضرب عنقي استوهبني بعض خواص الملك فوهبني له فجعلتها تقول يا شئ فاتك هذا يا محروم وأغلقت الباب فأنا يا أخي متحسر على ما فاتني قال قاسم بن عثمان أراه أفضلهم لانه رأى ما لم يروا وترك يعمل على الشوق * ومنهم سيدي أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي كان جليل القدر مالكي المذهب عظيم الشان صحب الجنيد ومن في عصره وكان بالغ في تعظيم الشرع المطهر وكان اذا دخل شهر رمضان المعظم جد في الطاعات ويقول هذا شهر عظمه ربي فأنا أولى بتعظيمه وسئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم خير عمل المرء كسب يمينه فقال اذا كان الليل فخذ ماءك وتهيأ للصلاة وصل ما شئت ومد يديك وسل الله عز وجل فذلك كسب يمينك ولما حج ورأى مكة المشرفة فشرفها الله تعالى وقع مغشيا عليه فلما أفاق أنشد يقول

هذه دارهم وأنت محب * ما بقاء الدموع في الاماق

وروي انه قال كنت يوما جالسا بجري في خاطري أني بخيل فقلت مهما فتح الله علي به اليوم ادفعه الى أول فقير يلقاني قال فبينما أنا متفكر اذ دخل علي شخص ومعه خمسون دينارا فقال اجعل هذه في مصالحك فأخذتها وخرجت واذا أنا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه فتقدمت اليه وناولته الصرة فقال لي ادفعها للمزين فقلت له انها دنانير فقال انك لبخيل قال فناولتها للمزين فقال المزين ان من عادتنا أن الفقير اذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجرا قال فرميتها في الدجلة وقلت ما اعزلك أحدا لا أذله الله تعالى * ومنهم سيدي زرقان بن محمد أخو ذي النون المصري صاحب سياحة كان بجبل لبنان

(حكي) عن يوسف بن الحسين الرازي قال بينما أنا بجبل لبنان أدور اذ أبصرت زرقان

أخاذى النون المصرى جالسا على عين ماء وقت صلاة العصر فسلمت عليه وجلست من ورائه فالتفت الى وقال ما حاجتك فقلت بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذى النون المصرى اعرضهما عليك فقال قل فقلت سمعته يقول

قد بقينا مذبذبين حيارى * نطلب الوصل ما اليه سبيل
فدواعى الهوى تحف علينا * وخلاف الهوى علينا ثقيل

فقال زرقان ولكنى أقول

قد بقينا مذهلين حيارى * حسبنا ربنا ونعم الوكيل
حيثما الفوز كان ذاك منانا * واليه فى كل أمر نميل

فعرضت أقوالهما على طاهرى المقدسى فقال رحم الله ذا النون المصرى رجع الى نفسه فقال ما قال ورجع زرقان الى ربه فقال ما قال وقال أبو عبد الرحمن السلمى زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى وأظن أنه أخوه مؤاخاة لا أخوة نسب وكان من أقرانه ورفقائه * ومنهم سيدى أبو عبد الله النباجى سعيد بن بريد كان من أقران ذى النون المصرى ومن أقران أستاذى احمد بن أبى الحوارى له كلام حسن فى المعرفة وغيرها روى عنه أنه قال أصابنى ضيق وشدة فبت وأنا مفكر فى المسير الى بعض اخوانى فسمعت قائلا يقول لى فى النوم ايجمل بالحر المريد اذا وجد عند الله ما يريد أن يميل بقلبه الى العبيد فانتبهت وأنا من أغنى الناس * ومنهم سيدى بشر بن الحرث الحافى قدس الله روحه يكنى أبا نصر أحد رجال الطريقة أصله من مرو وسكن بغداد وكان من كبار الصالحين وأعيان الاتقياء المتورعين صحب الفضيل بن عياض وروى عن سرى السقطى وغيره ومن كلامه لا تكون كاملا حتى يأمنك عدوك وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك وقال أقل عقوبة يعاقبها ابن آدم فى الدنيا مفارقة الاحباب وقال غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه وخفاء مكانه عنهم وقال التكبر على المتكبر من التواضع وسئل عن الصبر الجميل فقال الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه الى الناس وقيل انه لقى رجلا سكران فجعل الرجل يقبل يد بشر ويقول يا سيدى يا أبا نصر وبشر لا يدفعه عن نفسه فلما ولى الرجل تغرغرت عينا بشر وجعل يقول رجل أحب رجلا على خير توهمه لعل المحب قد نجا والمحبوب لا يدرى ما حاله وروى أن امرأة جاءت الى أحمد بن حنبل تسأله فقالت انى امرأة أغزل بالليل والنهار وأبيعه ولا أبين غزل الليل من غزل النهار فهل على فى ذلك شئ فقال يجب أن تبيعى فلما انصرفت قال احمد لابنه اذهب فانظر أين تدخل فرجع فقال دخلت دار بشر فقال قد عجبت ان تكون هذه السائلة من غير بيت بشر ولما مرض مرضه الذى مات فيه قال له أهله نرفع ما لك الى الطبيب قال انا بعين الطبيب يفعل بى ما يريد فالحوا عليه فقال لاختنه ادفعى اليهم الماء فدفعته اليهم فى قارورة وكان بالقرب منهم طبيب نصرانى فدفعوا اليه القارورة فقال حركوا الماء فحركوه فقال ضعوه فوضعوه فقالوا له ما بهذا وصفت لنا قال وبماذا وصفت لكم قالوا وصفت بأنك أحذق أهل زمانك فى الطب قال هو كما وصفت لكم ان هذا الماء ان كان ماء نصرانى

فهو ماء راهب قد فتت الخوف كبده وان كان ماء مسلم فماء بشر الحافي لان ما في زمانه أخوف منه قالوا هو ماء بشر فقال انا أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فلما رجعوا الى بشر قال لهم أسلم الطيب قالوا له ومن أعلمك بهذا قال لما خرجتم من عندي نوديت يا بشر ببركة مائك أسلم الطيب توفي سنة سبع وعشرين ومائتين * ومنهم سيدي أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي من أجل المشايخ كبير الشان ومن كلامه مازلت أسوق الى الله تعالى نفسي وهي تبكي الى ان سقتها وهي تضحك وسئل بأي شئ وجدت هذه المعرفة فقال ببطن جائع وبدن عار وقيل له ما أشد ما لقيت في سبيل الله تعالى فقال لا يمكن وصفه فقيل له ما أهون ما لقيته نفسك منك فقال أما هذا فنعم دعوتها الى شئ من الطاعات فلم تجبني فمنعتها الماء سنة وقال الناس كلهم يهربون من الحساب ويتجافون عنه وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني فقيل له لم فقال لعله يقول فيما بين ذلك يا عبدي فأقول لبيك فقوله لي يا عبدي أحب الي من الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء وقال له رجل دلني على عمل أتقرب به الى ربي فقال أحب أولياء الله ليحبوك فان الله تعالى ينظر الى قلوب أوليائه فلعله ينظر الى اسمك في قلب ولي فيغفر لك وسئل عن المحبة فقال استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك توفي سنة احدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى * ومنهم شيخ الطائفة سيدي أبو القاسم الجنيد بن محمد النهاوندي القواريري شيخ وقته وفريد عصره أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه ببغداد صحب جماعة من المشايخ وصحب خاله السري والحرث المحاسبي ودرس الفقه على أبي ثور وكان يفتي في مجلسه بحضرته وهو ابن عشرين سنة ومن كلامه رضي الله عنه علامة اعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه وقال الادب أدبان أدب السر وأدب العلانية فأدب السر طهارة القلوب وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب ورؤي في يده يوما سبحة فقيل له أنت مع تمكنك وشرفك تأخذ بيدك سبحة فقال نعم سبب وصلنا به الى ما وصلنا لا نتركه أبدا وقال حسن بن محمد السراج سمعت الجنيد يقول رأيت ابليس في منامي وكان له عريان فقلت له ألا تستحي من الناس فقال بالله هؤلاء عندك من الناس لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة ولكن الناس عندي ثلاثة نفر فقلت ومن هم قال هم في مسجد الشونيزي قد أضنوا قلبي وأنحلوا جسمي كلما هممت بهم اشاروا الى الله عز وجل فما كاد ان أحرق قال الجنيد فانتبهت من نومي ولبست ثيابي وجئت الى مسجد الشونيزي بليل فلما دخلت المسجد اذا انا بثلاثة أنفس جلوس ورؤسهم في مرقعاتهم فلما أحسوا بي قد دخلت اخرج أحدهم رأسه وقال يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شئ تقبل قيل ان الثلاثة الذين كانوا في مسجد الشونيزي أبو حمزة وأبو الحسن النوري وأبو بكر الدقاق رضي الله عنهم وقال محمد بن قاسم الفارسي بات الجنيد ليلة العيد في الموضع الذي كان يعتاده في البرية فاذا هو وقت السحر بشاب ملتف في عباءة وهو يبكي ويقول

بحرمة غربتي كم ذا الصدود * ألا تحنو علي الا تجود

سرور العيد قد عم النواحي * وحزني في ازدياد لا يبيد

فان كنت اقترفت خلال سوء * فعذرى فى الهوى ان لا اعود

توفى الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد وصلى عليه نحو ستين ألفا رضوان الله عليهم أجمعين * وممن صحبته وانتفعت بصحبته وفاضت الخيرات على ببركته سيدى الشيخ الامام العالم العامل أبو المعالى وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطريخى المالكى قدس الله سره ونور روحه ونور ضريحه كان أوحد زمانه فى الزهد والورع قامعا لأهل الضلال والبدع وله أسرار ظاهرة وبركات متواترة قد أطاع أمره الخلائق عجما وعربا وانتشر ذكره فى البلاد شرقا وغربا وأتت الملوك الى بابه واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه ما أتاه مكروب الا فرج الله كربته ولا طالب حاجة الا قضى الله حاجته كان محافظا على النوافل ملازما للفرض وكان أكثر أكله من المباح من نبات الارض لم يمتع نفسه فى الدنيا بالملاهى والمشارب اللذيذة بل قيل انه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهورا عديدة وكان رضى الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه نصوحا لجميع خلق الله من اعدائه وأحبابه يدخل اليه اعدى عدوه فيقبل ببشره وبره عليه فيخرج من عنده وهو أحب الناس اليه كما قال بعضهم

وانى لألقى المرء أعلم انه * عدوى وفى أحشائه الضغن كامن
فأمنحه بشرى فيرجع قلبه * سليما وقد ماتت لديه الضغائن

وكانت حملة أهل زمانه عليه وأحوالهم فى كل أمر راجعة اليه وكنت كثيرا ما أسمعه يتمثل بهذا البيت

وما حملونى الضيم الا حملته * لانى محب والمحب حمول

وكان رضى الله عنه كثير المصافاة عظيم الموافاة شأنه الحلم والترام بهتك حرمة مسلم ولا فتحه وما استشاره أحد فى أمر الا أرشده الى الخير ونصحه صحبته رضى الله عنه نحو خمس عشرة سنة فكأنها من طيبها كانت سنة ما قطع بره يوما واحدا عنى حتى كنت أظن ان ليس عنده أخص منى وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه فاطبة يض الله وجهه فى القيامة وبلغه من فضل ربه ما ترجاه وكان رضى الله عنه فقيها فى مذهب الامام مالك امام كبير لم ير له فى زمانه من شبيه ولا نظير وله فى علم الحقيقة أقوال وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال ولو تتبعت مناقبه لاتسع الكلام ولكنى أقول كان أوحد عصره والسلام عاش رضى الله عنه نيفا وستين سنة وكان الناس فى زمانه فى عيشة راضية وأحوال حسنة وكان رضى الله عنه كثير الامراض والاسقام حصل له فى آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة ثم تزايد مرضه فى العشر الاول من ذى الحجة الحرام فلما كانت ليلة الحادى عشر اشتد به الامر واحتضر ولم يزل فى النزع الى ثلث الليل الاول من الليلة المذكورة ثم توفى رحمه الله تعالى سعيدا حميدا فى ليلة الجمعة حادى عشر ذى الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وعانمائة ولما أخبر الناس بوفاته عظم مصابه على المسلمين ووقع النوح والبكاء والاسف فى اقطار البلدان حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم صاروا يكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه وكيف لا وهو امام العصر علامة الدهر حق فيه

قول القائل

حلف الزمان ليأتين بمثله * حنثت يمينك يا زمان فكفر

رضي الله عنه ورضي عنا به ونفعنا ببركته في الدين والدنيا والآخرة فشرعوا في تجهيزه وغسله فكنت ممن حضر غسله ولكن لم يكن ذهني معي في تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقده كيف لا وقد كان لي والدا شفيقا وبارا محسنا عشوقا فلما انتهى غسله رضي الله عنه جاء القضاة والنواب والكشاف والولاة وحملوه على أعناقهم ومضوا به الى جامع الخطبة بالمحلة فضاق بهم الجامع على سعته وضاقت الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس فلم ير أكثر جمعا ولا أغزر دمعا من ذلك اليوم وهذا دليل على انه كان قطب أهل زمانه * قال الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه بيننا وبينهم الجنائز يعني بذلك اجتماع الناس والله أعلم فارتفع نعشه على أعناقهم وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيدي سليمان الدواخلي نفعنا الله ببركته ودفن يوم الجمعة بزاويته التي أنشأها بسندفا مع والده الشيخ الامام العالم العلامة مفتي المسلمين سراج الدين أبي حفص عمر الطرسي المالكي في قبر واحد نفعنا الله ببركته وجعل الجنة مثقلبه ومثواه وحشرنا واياه في زمرة سيد الاولين والآخرين محمد خاتم النبيين وأفضل المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ونسأله لنا التوفيق والاعانة وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطرسي أدام الله أيامه للمسلمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(الباب الحادي والثلاثون في مناقب الصالحين وكرامات الاولياء رضي الله عنهم)

اعلم أن كرامات الاولياء لا تنكر ومناقبهم أكثر من أن تحصر نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم في زمرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم المحشر انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير وهو حسبنا ونعم الوكيل * (حكاية) قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى احتبس عنا المطر بالبصرة فخرجنا نستسقي مرارا فلم نر للاجابة أثرا فخرجت أنا وعطاء السلمي وثابت البناني ويحيى البكاء ومحمد بن واسع وأبو محمد السختياني وحبيب الفارسي وحسان بن ثابت بن أبي سنان وعتبة الغلام وصالح المزني حتى اذا صرنا الى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب ثم استسقينا فلم نر للاجابة أثرا حتى انتصف النهار وانصرف الناس وبقيت أنا وثابت البناني بالمصلى فلما أظلم الليل اذا أنا بعبد أسود مليح رقيق الساقين عليه جبة صوف قومت ما عليه بدرهمين فجاء بماء فتوضأ ثم جاء الى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين ثم رفع طرفه الى السماء وقال الهي وسيدي ومولاي الى كم ترد عبادك فيما لا ينفعك أتنفد ما عندك أم نقص ما في خزائنك أقسمت عليك بحبك لي الا ما أسقيتنا غيثك الساعة قال فما تم كلامه حتى تغيمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب قال مالك فتعرضت له وقلت له يا أسود أما تستحي مما قلت قال وما قلت قلت قولك بحبك لي ومن يدريك أنه يحبك قال تنح عني يا من اشتغل عنه بنفسه أفتراه بدأني بذلك الا لمحبته اياي ثم قال محبته لي على قدره ومحبتي له على قدري فقلت له يرحمك الله ارفق قليلا فقال اني مملوك وعلى

فرض من طاعة مالكي الصغير قال فانصرف وجعلنا نقفو أثره على البعد حتى دخل دار نخاس فلما اصبحنا أتينا النخاس فقلت يرحمك الله عندك غلام تبيعه منا للخدمة قال نعم عندي مائة غلام للبيع فجعل يعرض علينا غلاما بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلاما فلم ألق حبيبي فيهم فقال عودا الي في غير هذا الوقت فلما أردنا الخروج من عنده دخلنا حجرة خربة خلف داره واذا بالاسود قائم يصلي فقلت حبيبي ورب الكعبة فجئت الى النخاس فقلت له بعني هذا الغلام فقال يا أبا يحيى هذا غلام ليست له همة في الليل الا البكاء وفي النهار الا الخلوة والوحدة فقلت له لابد من أخذه منك ولك الثمن وما عليك منه فدعاه فجاءه وهو يتناعس فقال خذه بما شئت بعد ان تبرئني من عيوبه كلها فاشتريته منه بعشرين دينارا وقلت له ما اسمك قال ميمون فأخذت بيده أريد المنزل فالتفت الي وقال يا مولاي الصغير لماذا اشتريتني وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين فقلت له والله يا سيدي انما اشتريتك لاخدمك بنفسي قال ولم ذلك فقلت ألست صاحبنا البارحة بالمصلى قال بلى وقد اطلعت على ذلك قلت نعم وأنا الذي عارضتك البارحة في الكلام بالمصلى قال فجعل يمشي حتى أتى الى مسجد فاستأذنني ودخل المسجد فصلى فيه ركعتين خفيفتين ثم رفع طرفه الى السماء وقال الهي وسيدي ومولاي سر كان بيني وبينك أطلعت عليه غيرك فكيف بطيب الآن عيشي أقسمت عليك بك الا ما قبضتني اليك الساعة ثم سجد فانتظرته ساعة فلم يرفع رأسه فجئت اليه وحركته فاذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه قال فمددت يديه ورجليه فاذا هو ضاحك مستبشر وقد غلب البياض على السواد ووجهه كالقمر ليلة البدر واذا شاب قد دخل من الباب وقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أعظم الله أجورنا وأجوركم في أخينا ميمون هاكم الكفن فنا ولني ثوبين ما رأيت مثلهما قط فغسلناه وكفناه فيهما ودفناه قال مالك بن دينار فبقبره نستسقي الى الآن ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه *(وحكى) عن حذيفة المرعشي رضي الله عنه وكان قد خدم ابراهيم الخواص رضي الله عنه وصحبه مدة فقيل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياما لم نأكل طعاما فدخلنا الكوفة فأوينا الى مسجد خرب فنظر الي ابراهيم وقال يا حذيفة أرى بك أثر الجوع فقلت هو كما ترى فقال علي بدواة وقرطاس فأحضرتهما اليه فكتب بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود بكل حال والمشار اليه بكل معنى ثم قال

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر * أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها * فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها * فأجر عبيدك من لهيب النار

قال حذيفة ثم دفع الي الرقعة وقال اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفعها الى أول من يلقاك قال فخرجت فأول من لقيني رجل على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فقرأها وبكى وقال ما فعل بصاحب هذه الرقعة قلت هو في المسجد الفلاني فدفع الي صرة فيها ستمائة درهم فأخذتها ومضيت فوجدت رجلا فسألته من هذا الراكب على البغلة فقال هو رجل

نصرانى قال فجئت ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لاتمس الدراهم فان صاحبها يأتى الساعة فلما كان بعد ساعة أقبل النصرانى راكبا على بغلته فترجل على باب المسجد ودخل فأكب على ابراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول أشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله قال فبكى ابراهيم الخواص فرحا به وسرورا وقال الحمد لله الذى هداك للاسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام * (وحكى) أن بعضهم كان ملاحا بحر النيل المبارك بمصر قال كنت أعدى من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى ومن الجانب الشرقى الى الجانب الغربى فبينما أنا ذات يوم فى الزورق اذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة فقال السلام عليك فرددت عليه السلام فقال أتحملنى الى الجانب الغربى لله تعالى فقلت نعم فطلع الى الزورق وعديت به الى الجانب الغربى وكان على ذلك الفقير مرقعة وبيده ركوة وعصا فلما أراد الخروج من الزورق قال انى أريد أن أحملك أمانة قلت وماهى قال اذا كان غد وقت الظهر تجدنى عند تلك الشجرة ميتا وستنسى فاذا الهمت فاتنى وغسلنى وكفنى فى الكفن الذى تجده عند رأسى وصل على وادفنى تحت الشجرة وهذه المرقعة والعصا والركوة يأتيك من يطلبها منك فادفعها اليه ولا تحتقره قال الملاح ثم ذهب وتركنى فتعجبت من قوله وبت تلك الليلة فلما أصبحت انتظرت الوقت الذى قال لى فلما جاء وقت الظهر نسيت فما تذكرت الا قريب العصر فسرت سرعة فوجدته تحت الشجرة ميتا ووجدت كفنا جديدا عند رأسه تفوح منه رائحة المسك فغسلته وكفنته فلما فرغت من غسله حضر عندى جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحدا فصلينا عليه ودفنته تحت الشجرة كما عهد الى ثم عدت الى الجانب الشرقى وقد دخل الليل فمت فلما طلع الفجر وبانت الوجوه اذا أنا بشاب قد أقبل على فحققت النظر فى وجهه فاذا هو من صبيان الملاهى كان يخدمهم فأقبل وعليه ثياب رقاق وهو مخضوب الكفين وطاره تحت ابطه فسلم على فرددت عليه السلام فقال يا ملاح أنت فلان بن فلان قلت نعم قال هات الوديعة التى عندك قلت ومن أين لك هذا قال لا تسأل فقلت لابد أن تخبرنى فقال لا أدرى الا أنى البارحة كنت فى عرس فلان التاجر فسهرنا نرقص ونغنى الى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن فمت لاستريح واذا برجل قد أيقظنى وقال ان الله تعالى قد قبض فلانا الولى وأقامك مقامه فسر الى فلان بن فلان صاحب الزورق فان الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت قال فدفعتها له فخلع أثوابه الرقاق ورمى بها فى الزورق وقال تصدق بها على من شئت وأخذ الركوة والعصا ولبس المرقعة وسار وتركنى أتحرق وأبكى لما حرمت من ذلك وأقمت يومى ذلك أبكى الى الليل ثم نمت فرأيت رب العزة جل جلاله فى المنام فقال يا عبدى أثقل عليك أن منننت على عبد عاص بالرجوع الى اتخاذ ذلك فضلى أوتيه من أشاء من عبادى وأنا ذو الفضل العظيم * (وحكى) أبو اسحق الصعلوكى قال خرجت سنة الى الحج فبينما أنا فى البادية نائه وقد جن الليل وكانت ليلة مقمرة اذ سمعت صوت شخص ضعيف يقول يا أبا اسحق قد انتظرتك من الغداة فدنوت منه فاذا هو شاب نحيف الجسم قد أشرف على الموت وحوله رياحين كثيرة منها ما أعرف ومنها ما لا أعرف فقلت له من أنت ومن أين أنت قال من مدينة

شمشاط كنت فى عزة ورفعة فطالبتنى نفسى بالغربة والعزلة فخرجت وقد اشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقبض لى وليا من أوليائه وارجو أن تكون أنت هو فقلت ألك حاجة قال نعم لى والدة واخوة وأخوات فقلت هل اشتقت اليهم قط قال لا الا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم فهممت أريدهم فاحتوشتنى السباع والهوام وبكين معى وحملوا الى هذه الرياحين التى تراها قال أبو اسحق فبينما أنا معه يرق له قلبى واذا بحية عظيمة فى فمها باقة نرجس كبيرة فقالت دع ولى الله تعالى فان الله يغار على أوليائه قال فغشى عليه وغشى على فما أفقت الا وهو قد خرجت روحه رحمه الله قال فدخلت مدينة شمشاط بعد ما حجبت فاستقبلتنى امرأة يبدو هاركوة ما رأيت أشبه بالشباب منها فما رأتنى نادت يا أبا اسحق ما شأن الشاب الغريب الذى مات غريبا فانى منتظرتك منذ كذا وكذا فذكرت لها القصة الى أن قلت لها اشم ريحهم فصاحت أواه أواه قد بلغ والله الشم ثم شهقت شهقة خرجت روحها فخرج اليها بنات أتراب عليهن مرقعات ومروط فكفان أمرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع (شعر)

يا نسيما هب من وادى قبا * خبرينى كيف حال الغربا
كم سألت الدهر أن يجمعنا * مثل ما كنا عليه فأبى

(وحكى) أن رجلا كان يعرف بدينار العيار وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ فمر فى بعض الايام بمقبرة فأخذ منها عظما فتفتت فى يده ففكر فى نفسه وقال ويحك يا دينار كانى بك وقد صار عظمك هكذا رفاتا والجسم ترابا فندم على تفريطه وعزم على التوبة ورفع رأسه الى السماء وقال الهى وسيدى ألقيت اليك مقاليد أمرى فاقبلنى وارحمنى ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب فقال يا أماه ما يصنع بالعبد الآبق اذا أخذه سيده قالت يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه فقال أريد جبة من صوف واقراصا من شعير وغلين وافعلى بى كما يفعل بالعبد الآبق لعل مولاى يرى ذلى فيرحمنى ففعلت به ما أراد فكان اذا جن عليه الليل أخذ فى البكاء والعويل ويقول لنفسه ويحك يا دينار ألك قوة على النار كيف تعرضت لغضب الجبار ولا يزال كذلك الى الصباح فقالت له أمه يا بنى ارفق بنفسك فقال دعينى أتعب قليلا لعلى أستريح طويلا يا أماه ان لى غدا موقفا طويلا بين يدى رب جليل ولا أدرى أيؤمر بى الى ظل ظليل أو الى شر مقيل قالت يا بنى خذ لنفسك راحة قال لست للراحة أطلب كانك يا أماه غدا بالخلائق يساقون الى الجنة وأنا أساق الى النار مع أهلها فتركته وما هو عليه فأخذ فى البكاء والعبادة وقراءة القرآن فقرأ فى بعض الليالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ففكر فيها وجعل يبكى حتى غشى عليه فجاءت أمه اليه فنادته فلم يجبها فقالت له يا حبيبى وقرة عينى أين الملتقى فقال بصوت ضعيف يا أماه ان لم تجدينى فى عرصات القيامة فاسألى مالكا خازن النار عنى ثم شهق شهقة فمات رحمه الله تعالى فغسلته أمه وجهزته وخرجت تنادى أيها الناس هلموا الى الصلاة على قتيل النار فجاء الناس من كل جانب فلم ير أكثر جمعا ولا أعز ردمعا من ذلك اليوم فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة فرآه يتبختر فى الجنة وعليه حلة خضراء وهو يقرأ الآية فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون

ويقول وعزته وجلاله سألني ورحمني وغفر لي وتجاوز عني ألا أخبروا عني والدتي بذلك
* (وحكى) عن الحسن البصري قال نزل سائل بمسجد فسأل الناس أن يطعموه كسرة فلم يطعموه فقال الله تعالى لملك الموت اقبض روحه فانه جائع فقبض روحه فلما جاء المؤذن رآه ميتا فأخبر الناس بذلك فتعاونوا على دفنه فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن في المحراب مكتوبا عليه هذا الكفن مردود عليكم بئس القوم أنتم استطعمكم فقير فلم تطعموه حتى مات جوعا من كان من احبابنا الا نكله الى غيرنا * (وحكى) أبو على المصري قال كان لي جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوما حدثني بأعجب ما رأيت من الموتى فقال جاءني شاب في بعض الايام مليح الوجه حسن الثياب فقال لي أتغسل لنا هذا الميت قلت نعم فتبعته حتى أوقفني على باب فدخل هنيهة فاذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينيها فقالت انت الغاسل قلت نعم قالت بسم الله ادخل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فدخلت الدار واذا أنا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات الموت وروحه في لبته وقد شخص بصره وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه فلم أجلس اليه حتى قبض فقلت سبحان الله هذا ولي من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته فأخذت في غسله وأنا ارتعد فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته فقبلته وقالت أما اني سألحق بك عن قريب فلما أردت الانصراف شكرت لي وقالت أرسل الي زوجتك ان كانت تحسن ما تحسنه أنت فارتعدت من كلامها وعلمت أنها الاحقة به فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها الى تلك الجارية فوقفت بالباب واستأذنت فقالت بسم الله تدخل زوجتك فدخلت زوجتي واذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت فغسلتها زوجتي وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما (شعر)

أحبابنا بنتم عن الدار فاشتكت * لبعدكم آصالها وضحاها
وفارقتم الدار الانيسة فاستوت * رسوم مبانيها وفاح كلاها
كأنكم يوم العراق رحلتم * بنومي فعيني لا تصيب كراها
وكنت شحيحا من دموعي بقطرة * فقد صرت سمحا بعدكم بدماها
يراني بساما خليلي يظن بي * سرورا واحشاي السقام ملاها
وكم ضحكة في القلب منها حرارة * يشب لظاها لو كشفت غطاها
رعى الله أياما بطيب حديثكم * تقضت وحياها الحيا وسقاها
فما قلت ايها بعدها لمسامر * من الناس الا قال قلبي آها *

(وحكى) سري السقطي رحمه الله تعالى قال أرقت ليلة ولم أقدر على النوم فلما طلع الفجر صليت فلما أصبحت دخلت المارستان فاذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهي تقول

تغل يدي الى عنقي * وما خانت وما سرقت
وبين جوانحي كبد * احس بها قد احترقت

قال فقلت للقيم ما هذه الجارية قال هذه جارية اختل عقلها فحبست لعلها تصلح فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت

معشر الناس ما جنفت ولكن * انا سكرانة وقلبي صاحي
لم غلمتم يدى ولم آت ذنبا * غير هتكي في حبه وافتضاحي
* أنا مفتونة بحب حبيب * لست أبغي عن بابه من براح
ما عنى من أحب مولى الموالى * وارتضاه لنفسه من جناح

قال فلما سمعت كلامها بكيت بكاء شديدا فقالت يا سري هذا بكاؤك من الصفة فكيف لو عرفته حق المعرفة قال فبينما هي تكلمني اذ جاء سيدها فلما رآني عظمني فقلت والله هي أحق مني بالتعظيم ثم فعلت بها هذا قال لتقصيرها في الخدمة وكثرة بكائها وشدة حنينها وأنينها كأنها ثكلى لا تنام ولا تدعنا ننام وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فانها مطربة قلت فما كان بدء أمرها قال كان العود في حجرها ثم ما فجعلت تقول

وحقك لا نقضت الدهر عهدا * ولا كدرت بعد الصفو ودا
ملأت جوانحي والقلب وجدا * فكيف أقر ياسكني وأهدا
فيا من ليس لي مولى سواه * ترالك رضيتني بالباب عبدا

فقلت لسيدها أطلقها وعلي ثمنها افصاح وافقراه من أين لك عشرون ألفا يا سري فقلت لا تعجل علي فقال تكون في المارستان حتى نوفيني ثمنها فقلت نعم قال سري فانصرفت وعيني تدمع وقلبي يخشع وأنا والله ما عندي درهم من ثمنها فبت طول ليلتي أتضرع الى الله تعالى فاذا بطارق يطرق الباب ففتحت فدخل علي رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر فقال أتعرفني يا سري قلت لا قال أنا أحمد بن المثنى كنت نائما فهتف بي هاتف وقال لي يا أحمد هل لك في معاملتنا فقلت ومن أولى مني بذلك فقال احمل الى سري السقطي خمس بدر من أجل الجارية الفلانية فان لنا بها عناية قال سري فسجدت لله شكرا وجلست أتوقع طلوع الفجر فلما طلع صلينا وذكرنا وانصرفنا نحوها فسمعناها تقول

قد تصبرت الى أن * عيل من حبك صبري
ضاق من غلي وقيدي * وامتهاني منك صدري
ليس يخفى عنك أمري * يا منى قلبي وذخري
* أنت قد تعلم رقي * وتفك اليوم أسري *

قال سري فبينما أنا أسمعها واذا بمولاها قد جاء وهو يبكي فقلت لا بأس عليك قد جئتك برأس مالك وربح عشرة آلاف درهم فقال والله لا فعلت ذلك قلت تزيدك قال والله لو أعطيتني ما بين الخافقين ما فعلت وهي حرة لوجه الله تعالى قال فتعجبت من ذلك وقلت ما كان هذا كلامك بالامس فقال حبيبي لا تؤنبني فالذي وقع لي من التوبيخ كفاني وأشهدك اني قد خرجت من جميع مالي صدقة في سبيل الله تعالى واني هارب الى الله تعالى فبالله لا ترد في عن صحبتك فقلت نعم ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكي فقلت ما يبكيك قال يا أستاذي ما قبلني مولاي لما ندبني اليه وردت علي ما بذلت أشهدك أني قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى في سبيل الله وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى قال سري فقلت ما أعظم بركتك يا جارية قال فنزعنا الغل من عنقها والقيد من رجلها وأخرجناها من المارستان

فنزعت

فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب ولبست خمارا من صوف ومدرعة من شعر وولت قال سري فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال الى مكة فبينما نحن نطوف اذ سمعنا صوتا فتبعناه فاذا هي امرأة كالهلال فلما رأتني قالت السلام عليك يا سري فقلت لها وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت فقالت لا اله الا الله وقع الشك بعد المعرفة فتأملتها فاذا هي الجارية فقلت لها ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق فقالت أنسي به ووحشتي من غيره ثم توجهت الى البيت وقالت الهي كم تخلفني في دار لا أرى فيها أنيسا قد طال شوقي اليك فعجل قدومي عليك ثم شهقت شهقة وخرت ميتة رحمة الله تعالى عليها فلما نظر اليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه الى أن خر الى جانبها ميتا رحمة الله عليه فدفناهما في قبر واحد (شعر)

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم * من الود الا ما رجعتم الى وصلي
ولا تحرموني نظرة من جمالكم * فلن تجدوا عبدا ذليلا لكم مثلي
فوالله ما يهوى فؤادي سواكم * ولو رشقوه بالاسنة والنبل

(وحكي) انه كان في زمن بني اسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير فاعتراه فتور في بعض الايام فأزال الله عنه سحابته وحجب اجابته فكثر لذلك حزنه وشجونه وطال كمده وأنينه ومازال يشتاق الى زمن الكرامة ويبكي ويتأسف ويتحسر ويتلهف فقام ليلة من الليالي فصلى ما شاء الله وبكى وتضرع ودعا الله تعالى ونام فقيل له في المنام اذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك فأت الملك الفلاني في بلد كذا واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك قال فسار الرجل يقطع الارض حتى وصل الى تلك البلد التي ذكرت له في المنام فدخلها وسال من يرشده الى قصر الملك فجاء الى القصر واذا عند بابه غلام جالس على كرسي عظيم من الذهب الاحمر مرصع بالدر والجوهر والناس بين يديه يسألونه حوائجهم وهو يصرف الناس فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه فقال له الغلام من أين أنت وما حاجتك فقال من بلاد بعيدة وقصدي الاجتماع بالملك فقال له الغلام لا سبيل لك اليه اليوم فسل حاجتك أقضها لك ان استطعت فقال ان حاجتي لا يقضيها الا الملك فقال الغلام ان الملك ليس له الا يوم واحد في الجمعة يجتمع اليه الناس فيه فاذهب حتى يأتي ذلك اليوم فانصرف الرجل الى مسجد داثر وأقام يعبد الله تعالى فيه وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس فلما كان ذلك اليوم الذي يجلس فيه الملك جاء الى القصر فوجد خلقا كثيرا عند الباب ينتظرون الاذن فوقف مع جملة الناس فلما خرج الوزير أذن للناس في الدخول فدخل أرباب الحوائج ودخل صاحب السحابة معهم واذا بالملك جالس وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم فجعل رأس النوبة يقدم الناس واحدا بعد واحد حتى وصلت النوبة لصاحب السحابة فلما نظر اليه الملك قال مرحبا بصاحب السحابة اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس وأنظر في أمرك قال فتحير صاحب السحابة في أمره فلما فرغ الملك من حوائج الناس قام من مجلسه فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه الى قصره ثم مشى به في دهليز القصر فلم يجد في طريقه الا مملوكا واحدا

فسار به حتى انتهى الى باب من جريد واذا به بناء مهدوم وحيطان مائلة وبيت خرب فيه برش وليس هناك ما يساوى عشرة دراهم الا سجادة خلقة وقدح للوضوء وحصير رثة وشئ من الخوص فانخلع الملك من ثياب الملك ولبس مرقعة من صوف وجعل على رأسه قلنسوة من شعر ثم جلس وأجلس صاحب السحابة ونادى يا فلانة قالت لبيك قال أتدرين من هو الليلة ضيفنا قالت نعم هو صاحب السحابة فدعا بها لحاجة فخرجت فاذا هى امرأة كالشن البالى عليها مسح من شعر خشن وهى شابة صغيرة قال الرجل فالتفت الى الملك وقال يا أخى نطلعك على حالنا أو نقضى حاجتك وتنصرف فقلت والله لقد شغلنى حالكما عما جئت بسببه فقال الملك الله يعلم انه كان لى فى هذا الامر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابرا عن كابر فلما توفوا الى رحمة الله تعالى ووصل الامر الى بغض الله الى الدنيا وأهلها فأردت أن أسيح فى الارض وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم فيملكونه عليهم فخفت عليهم دخول الفتنة وتضييع الدين والشرائع وتبديد شمل الدين فبايعونى وأنا والله كاره فتركت أمورهم على ما كانت عليه وجعلت السماط على عادته والحراس على حالها والمماليك على دأبها ولم أغير شيأ وأقعدت المماليك على الابواب بالسلاح أربابا لاهل الشر وردعا عن أهل الخير وتركت القصر مبنيا على حاله وفتحت له بابا وهو الذى رأيته يوصلنى الى هذه الخربة فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا وأضفر الخوص وأبيعه وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتى هذه التى رأيتها وهى ابنة عمى زهدت فى الدنيا كزهدى واجتهدت حتى صارت كالشن البالى والناس لا يعلمون ما نحن فيه ثم انى أقمت لى نائبا ينوب عنى طول الجمعة وعلمت انى مسؤل فجعلت لى يوما فى الجمعة أبرز للناس فيه وأكشف عن مظالمهم كما رأيت وأنا على هذه الحالة مدة فأقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خوصنا ونبتاع من ثمنها طعاما ونفطر معنا ونبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك ان شاء الله تعالى فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسى العمر فأخذ ما عمله من خوص وساربه الى السوق فباعه واشترى من ثمنه خبزا وفولا واشترى بباقى ثمنه خوصا فلما كان عند الغروب أفطرا وأفطرت معهما وبت عندهما قال فقاما فى نصف الليل يصليان ويبكيان فلما كان عند السحر قال الملك اللهم ان عبدك هذا يطلب منك رد سحابته وانك قد دللته علينا اللهم اردد ها علينا فانك على كل شئ قدير والمرأة تؤمن على دعائه واذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء فقال لى الملك البشارة بقضاء حاجتك وتجهيل اجابتك قال فودعتهما وانصرفت والسحابة معى كما كانت فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيأ الا اعطانى اياه رحمة الله تعالى عليهما (شعر)

استعمل الصبر تجنى بعده العسلا * ولازم الباب حتى تبلغ الاملا
ومرغ الخد فى أعتابه سحرا * واحمل لمرضاته فى الحب كل بلا
* فما يفوز بوصل يا أخى سوى * صب لنقل الهوى والوجد قد حملا
هذا الحبيب ينادى فى الدجى سحرا * فانهض وكن رجلا بالسعى قد وصلا

(وحكى) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال خرجت الى مكة حاجا فبينما أنا سائر اذ رأيت شابا ساكتا لا يذكر الله تعالى فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء وقال يا من لا تسره الطاعات

ولا تضره المعاصي هب لي مالا يضرك واغفر لي مالا يضرك ثم رأيته بذي الحليفة وقد لبس احرامه والناس يلبون وهو لا يلبي فقلت هذا جاهل فدنوت منه فقلت له يا فتى قال لبيك قلت لم لا تلبي فقال يا شيخ وما تغني التلبية وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات والله اني لاخشى أن أقول لبيك فيقول لا لبيك ولا سعديك لا أسمع كلامك ولا أنظر اليك فقلت له لا تقل فانه حليم اذا غضب رضي واذا رضي لم يغضب واذا وعد وفى وما وعد عفا فقال يا شيخ أتشير علي بالتلبية قلت نعم فبادر الى الارض واضطجع ووضع خده على التراب وأخذ حجرا فوضعه على خده الآخر وأسبل دموعه وقال لبيك اللهم لبيك قد خضعت لك وهذا مصري بين يديك فاقام كذلك ساعة ثم مضى فما رأيته الا بعرفة وهو يقول اللهم ان الناس قد ذبحوا ونحروا وتقربوا اليك وليس لي شيء أتقرب به اليك سوى نفسي فتقبلها مني ثم شهق شهقة وخر ميتا رحمة الله تعالى عليه *(وحكي) انه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الاندلسي وكان شيخا للكل من بالعراق وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات فخرج في بعض السنين الى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما من مشايخ العراق قال الشبلي فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى الى ان وصلنا الى قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد فجعلنا نذود ربة تلك القرية واذا نحن بكأس وبها شماسة وقساقسة ورهبان وهم يعبدون الاصنام والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم ثم انصرفنا الى بئر في آخر القرية واذا نحن بجوار يستقين الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن احسن ولا أجمل منها وفي عنقها قلادة الذهب فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال هذه ابنة من فقيل له هذه ابنة ملك هذه القرية فقال الشيخ فلم لا يدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقي الماء فقيل له أبوها يفعل ذلك بها حتى اذا تزوجها رجل أكرمته وخدمته ولا تعجبها نفسها فجلس الشيخ ونكس رأسه ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم أحدا غير أنه يؤدي الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه ولا يدرون ما يصنعون قال الشبلي فتقدمت اليه وقلت له يا سيدي ان أصحابك ومريديك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحدا فاقبل علينا وقال يا قوم اعلموا أن الجارية التي رأيتموها بالامس قد شغفت بها حبا واشتغل قلبي بها وما بقيت أقدر أفارق هذه الارض قال الشبلي فقلت له يا سيدي أنت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد في سائر الآفاق وعدد مريديك اثنا عشر ألفا فلا تفضحنا واياهم بحرمة الكتاب العزيز فقال يا قوم جرى القلم بما حكم ووقعت في بحار العدم وقد انحلت عني عرى الولاية وطويت عني أعلام الهداية ثم انه بكى بكاء شديدا وقال يا قوم انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر فتعجبنا من أمره وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب ثم انصرفنا عنه راجعين الى بغداد فخرج الناس الى لقائه ومريدوه في جملة الناس فلم يروه فسألوا عنه فعرفناهم بما جرى فمات من مريديه جماعة كثيرة حزنا عليه وأسفا وجعل الناس يبكون ويتضرعون الى الله تعالى ان يرده عليهم وغلقت الرباطات والزوايا والخوانق ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة وخرجت

مع بعض أصحابي نكشف خبره فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقيل لنا انه في البرية يرعى الخنازير فلما وما السبب في ذلك قالوا انه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوجها الا ممن هو على دينها ويلبس العباءة ويشد الزنار ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله وها هو في البرية يرعى الخنازير قال الشبلي فانصدعت قلوبنا وانهملت بالبكاء عيوننا وسرنا اليه واذا به قائم قدام الخنازير فلما رآنا نكس رأسه واذا عليه قلنسوة النصارى وفي وسطه زنار وهو متوكئ على العصا التي كان يتوكأ عليها اذا قام الى المحراب فسلمنا عليه فرد علينا السلام فقلنا ياشيخ ماذا الذي وماذا وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الاحاديث والعلوم فقال يا اخواني وأحبابي ليس لي من الامر شيء سيدي تصرف في كيف شاء وحيث أراد أبعدني عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبابه فالحذر الحذر يا أهل ودادي من صده وابعاده والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء ثم رفع طرفه الى السماء وقال يا مولاي ما كان ظني فيك هذا ثم جعل يستغيث ويبكي وينادي ياشبلي اتعظ بغيرك فنادى الشبلي بأعلى صوته يك المستعان وأنت المستغاث وعليك التكلان اكشف عنا هذه الغمة بجلالك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك قال فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت اليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال قال الشبلي فظننت أن القيامة قد قامت ثم ان الشيخ بكى بكاء شديدا قال الشبلي فقلنا له هل لك أن ترجع معنا الى بغداد فقال كيف لي بذلك وقد استرعيت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب فقلت ياشيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيأ فقال نسيته كله الا آيتين فقلت وما هما قال قوله تعالى ومن يهن الله فما له من مكرم ان الله يفعل ما يشاء والثانية قوله تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل فقلت ياشيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل تحفظ منها شيأ قال حديثا واحدا وهو قوله صلى الله عليه وسلم من بدل دينه فاقتلوه قال الشبلي فتركناه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام واذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر وطلع وهو يشهد شهادة الحق ويجدد اسلامه فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور فنظر الينا وقال ياقوم أعطوني ثوبا طاهرا فأعطيناه ثوبا فلبسه ثم صلى وجلس فقلنا له الحمد لله الذي رد لك علينا وجمع شملنا بك فصف لنا ما جرى لك وكيف كان أمرك فقال ياقوم لما وليتم من عندي سألته بالوداد القديم وقلت له يا مولاي أنا المذنب الجاني فعفا عني بجوده وبستره غطاني فقلنا له بالله نسألك هل كان لمحنتك من سبب قال نعم لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت في نفسي ما قدر هؤلاء عندي وأنا مؤمن موحد فوديت في سري ليس هذا منك ولو شئت عز فنالك ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي فكان ذلك الطائر هو الايمان قال الشبلي ففرحنا به فرحا شديدا وكان يوم دخولنا يوما عظيما مشهودا وفتحت الزوايا والرباطات والخوانق ونزل الخليفة للقاء الشيخ وأرسل اليه الهدايا وصار يجتمع عنده لسماع كلامه أربعون ألفا وأقام على ذلك زمانا طويلا ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث وزاده على ذلك فبينما نحن جلوس عنده في بعض الايام بعد صلاة الصبح واذا نحن بطارق

يطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فاذا شخص ملتف بكساء أسود فقلت له ما الذى تريد فقال قل لشيخكم ان الجارية الرومية التى تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت تخدمتك قال فدخلت فعرفت الشيخ فاصفر لونه وارتعد ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديدا فقال لها الشيخ كيف كان مجيئك ومن أوصلك الى ههنا قالت ياسيدى لما وليت من قريتنا جاءنى من أخبرنى بك فبت ولم يأخذنى قرار فرأيت فى منامى شخصا وهو يقول ان أحببت أن تكونى من المؤمنات فاتركى ما أنت عليه من عبادة الاصنام واتبعى ذلك الشيخ وادخلى فى دينه فقلت ومادينه قال دين الاسلام قلت وما هو قال شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فقلت كيف لى بالوصول اليه قال أغمضى عينيك وأعطينى يدك ففعلت فمشى قليلا ثم قال افتحى عينيك ففتحتهما فاذا أنا بشاطئ الدجلة فقال امضى الى تلك الزاوية وأقرئى الشيخ منى السلام وقولى له ان أخاك الخضر يسلم عليك قال فأدخلها الشيخ الى جواره وقال تعبدى ههنا فكانت اعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى تحل جسمها وتغيرلونها فمرضت مرض الموت وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت قولوا للشيخ يدخل على قبل الموت فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رأته بكت فقال لها لا تبكى فان اجتماعنا غدا فى القيامة فى دار الكرامة ثم انتقلت الى رحمة الله تعالى فلم يلبث الشيخ بعدها الا أياما قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه قال الشبلى فرأيته فى المنام وقد تزوج بسبعين حورا وأول ما تزوج بالجارية وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الثانى والثلاثون فى ذكر الاشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سمعان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال قبل قيام الساعة يرسل الله ريحا باردة طيبة فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الخلق يتهارجون تهارج الحمير وعليهم تقوم الساعة وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى كفى بالمرء شرا أن لا يكون صالحا ويقع فى الصالحين وقال لقمان لابنه يابنى كذب من قال الشر يطفىء الشر فان كان صادقا فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفىء احداهما الاخرى وانما يطفىء الشر الخير كما يطفىء الماء النار ووصف بعضهم رجلا من أهل الشر فقال فلان عرى من حلة التقوى وتحلى عنه طابع الهدى لا تثنيه يد المراقبة ولا تكفه خيفة المحاسبة وهو لدعائم دينه مضيع ولدواعى شيطانه مطيع (شعر)

كأنه التيس قد أودى به هرم * فلا لحم ولا صوف ولا ثمر

وقيل من فعل ما شاء لقى ما شاء وقيل زنى رجل بجارية فأحبلها فقالوا له ياعدو الله هلا اذا ابتليت بفاحشة عزلت قال قد بلغنى أن العزل مكروه قالوا فما بلغك أن الزنا حرام وقيل لاعرابى كان يتعشق قينة ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها فقال فمن لى اذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد وقال أبو العيناء رأيت جارية

مع النخاس وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها فسألتها عن ذلك فقالت يا سيدي انه يواقعني من قيام ويصلي من قعود ويشتغل باعراب ويلحن في القرآن ويصوم الخميس والاثنين ويفطر رمضان ويصلي النحس ويترك الفرض فقلت لأكثر الله في المسلمين مثله وكانت ظلمة القوادة وهي صغيرة في المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم فلما شبت زنت فلما كبرت قادت وقال صاحب المسالك والممالك ان عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحا خلا ملك قمار قال الزمخشري رحمه الله أقمت بقمار سنين فلم أر ملكا أغير منه وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل وقمار ينسب اليها العود القماري كما ينسب الى مندل قال مسكين الدارمي

ولاذنب للعود القماري انه * يحرق ان غنت عليه روائحه

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما عهدت الناس وهواهم تبع لاديانهم وان الناس اليوم أديانهم تبع لاهوائهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم (ماجاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت وفي ذلك قيل

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا * وتستح مخلوقا فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام العاقل شجاع القلب والاحمق شجاع الوجه وذم رجل قوما فقال وجوههم وأيديهم حديد أي وقاح بخلاء ووصف رجل وقحا فقال لودق الحجارة بوجهه لرضها ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها قال الشاعر

لو أن لي من جلد وجهك رقعة * لجعلت منها حافرا للاشهب

وقال آخر

اذا رزق الفتى وجها وقاحا * تقلب في الامور كما يشاء

وقال أنوشروان أربعة قبائح وهي في أربعة أقبح البخل في الملوك والكذب في القضاة والحسد في العلماء والوقاحة في النساء ويقال من جسر أيسر ومن هاب خاب قال الشاعر

لاتكونن في الامور هيوبا * فالى خيبة يصير الهيوب

وقال علي رضي الله عنه اذا هبت أمرا فقع فيه فان شر توقيه أعظم مما تخاف منه وقال رضي الله عنه الغوغاء اذا اجتمعوا ضروا واذا افترقوا نفعوا فقيل قد علمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم قال يرجع أهل المهن الى مهنهم فينتفع الناس بهم كرجوع البناء الى بنائه والنساج الى منسجه والخباز الى مخبزه وقال بعض السلف لاتسبوا الغوغاء فانهم يطفئون الحريق ويخرجون الغريق وقال الاحنف ماقل سفهاء قوم الا ذلوا وقال حكيم لايخرجن أحد من بيته الا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل فان الجاهل لايدفعه الا الجهل أراد السفه قال الشاعر

ألا لايجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقيل الجاهل من لاجاهل له أي من لاسفيه له يدفع عنه وقيل بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس اذ جاءه اعرابي فلطمه فقام اليه واقتص منه عمر فجلد به الارض فقال عمر ايس

بعزيز من ابس فى قومه سقيه وقال الشاعر

ولا يلبث الجهال أن يتهضموا * أخا الحلم مالم يستعن بجهول

وقال صالح بن جناح

اذا كنت بين الجهل والحلم قاعدا * وخيرت أنى شئت فالحلم أفضل

ولكن اذا أنصفت من ليس منصفا * ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل

وقال الاحنف بن قيس

وذى ضغن أبت القول عنه * بحلم فاستمر على المقال

ومن يحلم وليس له سقيه * يلاق المعضلات من الرجال

وقال آخر

فان كنت محتاجا الى الحلم انني * الى الجهل فى بعض الاحايين احوج

ولى فرس للخير بالخير ملجم * ولى فرس للشر بالشر مسرج

* فمن رام تقويمى فانى مقوم * ومن رام تعويجى فانى معوج

وقال آخر

فان قيل حلم قلت للحلم موضع * وحلم الفتى فى غير موضعه جهل

اللهم انا نعوذ بك أن نجهل أو يجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الثالث والثلاثون فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الاخلاق واصطناع المعروف وذكر الاجواد واحاديث الاجواد

اعلم أن الجود بذل المال وأنفعه ما صرف فى وجه استحقاقه وقد ندب الله تعالى اليه فى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قيل ان الجود والسخاء والايثار بمعنى واحد وقيل من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الاكثر فهو صاحب جود ومن آثر غيره بالحاضر وبقى هو فى مقاساة الضرر فهو صاحب ايثار وأصل السخاء هو السماحة وقد يكون المعطى بخيلا اذا صعب عليه البذل والممسك سخيا اذا كان لا يستصعب العطاء (فمن الايثار ما حكى) عن حذيفة العدوى أنه قال انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى فى القتلى ومعى شئ من الماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته فاذا أنا به بين القتلى فقلت له أسقيك فأشار الى أن نعم فاذا برجل يقول آه فأشار الى ابن عمى أن انطلق اليه وأسقه فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فأشار الى أن نعم فسمع آخر يقول آه فأشار الى أن انطلق اليه فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات (ومن عجائب ما ذكر فى الايثار) ما حكاه أبو محمد الازدى قال لما احترق المسجد بمصر وظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات وكتب رقاعا فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال والله ما كنت أبالى لو لا أم لى وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له فى رقعتى الجلد وليس لى أم فخذ انت رقعتى وأعطنى رقعتك ففعل فقتل ذلك

الفتى وتخلص هذا الرجل وقيل لقيس بن سعد هل رأيت قط اسخى منك قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاءزوجها فقالت له انه نزل بنا ضيفان فجاء بناقة فنحرها وقال شأنكم فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال شأنكم فقلنا ما أكلنا من التى نحرت البارحة الا القليل فقال انى لا أطعم ضيفانى البائت فبقينا عنده أياما والسماء تمطر وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار فى بيته وقلنا للمرأة اعتذرى الينا اليه وضيفنا فلما ارتفع النهار اذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام أعطيتمونا ثمن قرانا ثم انه لحقنا وقال خذوها والا طعنتكم برمحى هذا فأخذناها وانصرفنا وقال بعض الحكماء أصل المحاسن كلها الكرم وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام وجميع خصال الخير من فروعه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاوزوا عن ذنب السخى فان الله آخذ بيده كلما عثر وفاتح له كلما افتقر وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ قط فقال لا وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ولجاهل سخى أحب الى الله من عابد بخيل وقال بعض السلف منع الموجود سوء ظن بالمعبود وتلا قوله تعالى وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين وقال الفضيل ما كانوا يعدون القرض معروفا وقال اكثم بن صيفى صاحب المعروف لا يقع وان وقع وجد له متكأ وقيل للحسن بن سهل لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير فقلب اللفظ واستوفى المعنى ووجد مكتوبا على حجر انتهز الفرص عند امكانها ولا تحمل نفسك هما لم يأتك واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك فكم من جامع لبعل حليلته وقال على رضى الله عنه ما جمعت من المال فوق قوتك فانما أنت فيه خازن لغيرك وقال النعمان بن المنذر يوما لجلسائه من أفضل الناس عيشا وأنعمهم بالا وأكرمهم طباعا وأجلهم فى النفوس قدرا فسكت القوم فقام فتى فقال أبيت اللعن أفضل الناس من عاش الناس فى فضله فقال صدقت وكان أسماء بن خارجة يقول ما أحب ان أرد أحدا عن حاجة لانه ان كان كريما أصون عرضه أو لئيما أصون عنه عرضى وكان مورق العجلى يتلطف فى ادخال السرور والرفق على اخوانه فيضع عند أحدهم البدرة ويقول له امسكها حتى أعود اليك ثم يرسل يقول له أنت منها فى حل وقال الحسن رضى الله عنه باع طلحة بن عثمان رضى الله عنه أرضا بسبعمائة ألف درهم فلما جاءه المال قال ان رجلا بيت هذا عنده لا يدرى ما يطرقه لغرير بالله تعالى ثم قسمه فى المسلمين ولما دخل المنكدر على عائشة رضى الله عنها قال لها يا أم المؤمنين أصابنى فاقة فقالت ما عندى شئ فلو كان عندى عشرة آلاف درهم لبعثت بها اليك فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد فأرسلت بها اليه فى أثره فأخذها ودخل بها السوق فاشترى جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد فكانوا عباد المدينة وهم محمد وأبو بكر وعمر بنو المنكدر وأكرم العرب فى الاسلام طلحة بن عبد الله رضى الله عنه جاء اليه رجل فسأله برحم بينه وبينه فقال هذا حائطى بمكان كذا وكذا وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح الى بالمال العشية فان شئت فالمال وان شئت فالحائط وقال زياد بن جرير

رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس وانه ليخيط ازاره بيده وذكر الامام أبو علي القالي في كتاب الامالي أن رجلا جاء الى معاوية رضي الله عنه فقال له سألتك بالرحم التي بيني وبينك الا ما قضيت حاجتي فقال له معاوية أمن قريش أنت قال لا قال فأي رحم بيني وبينك قال رحم آدم عليه السلام قال رحم مجفوة والله لا كونن أول من وصلها ثم قضى حاجته (وروى) أن الاشعث بن قيس أرسل الى عدي بن حاتم يستعير منه قدورا كانت لابيه حاتم فلما ملأها مالا وبعث بها اليه وقال انا لا نعيرها فارغة وكان الاستاذ أبو سهل الصعلوكي من الاجواد لم يناول أحدا شيأ وانما كان يطرحه في الارض فيتناوله الآخذ من الارض وكان يقول الدنيا أقل خطرا من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهم عن الكرم فقال هو التبرع بالمعروف قبل السؤال والرأفة بالسائل مع البذل وقدم رجل من قريش من سفر فمر على رجل من الاعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض فقال له يا هذا أعنا على الدهر فقال الغلامه ما بقي معك من النفقة فادفعه اليه فصب في حجره أربعة آلاف درهم فهم ليقوم فلم يقدر من الضعف فبكى فقال له الرجل ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه اليك فقال لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الارض من كرمك فأبكاني وقال بعضهم قصد رجل الى صديق له فدق عليه الباب فخرج اليه وسأله عن حاجته فقال علي دين كذا وكذا فدخل الدار وأخرج اليه ما كان عليه ثم دخل الدار يبكي فقالت له زوجته هلا قللت حيث شقت عليك الاجابة فقال انما أبكي لاني لم أتفقد حاله حتى احتاج الى ان سألني ويروى أن عبد الله بن أبي بكر وكان من أجود الاجواد عطش يوما في طريقه فاستسقى من منزل امرأة فأخرجت له كوزا وقامت خلف الباب وقالت تنحوا عن الباب وليأخذه بعض غلمانكم فاني امرأة عزب مات زوجي منذ أيام فشرب عبد الله الماء وقال يا غلام احمل اليها عشرة آلاف درهم فقالت سبحان الله استخربي فقال يا غلام احمل اليها عشرين ألفا فقالت أسأل الله العافية فقال يا غلام احمل اليها ثلاثين ألفا فما أمست حتى كثر خطابها وكان رضي الله عنه ينفق على أربعين دارا من جيرانه عن يمينه وأربعين عن يساره وأربعين أمامه وأربعين خلفه ويبعث اليهم بالاضاحي والكسوة في الاعياد ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله عنه ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ اخوانه في العيادة فسأل عنهم فقيل له انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع عني الاخوان من الزيارة ثم أمر مناديا ينادي من كان لقيس عنده مال فهو منه في حل فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة فيفرقها في الناس ولا يرى الا وعليه دين ومر به رجل بهيمة ثم خرج بها ليبيعها فمر بعبد الله بن جعفر رضي الله عنه فقال يا صاحب البهيمة أتبيعها قال لا ولكنها هي لك هبة ثم تركها له وانصرف الى بيته فلم يلبث الا يسيرا واذا بالحالين على بابه عشرين نفرا عشرة منهم يحملون حنطة وخمسة لحما وكسوة وأربعة يحملون فاكهة ونقلا وواحد يحمل مالا فأعطاه جميع ذلك

واعتذر اليه رضي الله عنه ولما مات معاوية رضي الله عنه وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه فقال كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك فقال كان رحمه الله يعطيني ألف ألف فقال يزيد قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف فقال بأبي وأمي أنت فقال ولهذه ألف ألف فقال أما اني لا أقولها لاحد بعدك فقيل ليزيد أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد فقال والله ما أعطيته الا لجميع أهل المدينة ثم وكل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر ما يفعل فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر الى الدين وخرج رضي الله عنه هو والحسنان وأبو دحية الانصاري رضي الله عنهم من مكة الى المدينة فأصابتهم السماء بمطر فلجؤا الى خباء أعرابي فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء فذبح لهم الاعرابي شاة فلما ارتحلوا قال عبد الله للاعرابي ان قدمت المدينة فسل عنا فاحتاج الاعرابي بعد سنين فقالت له امرأته لو أتيت المدينة فلقيت أولئك الفتيان فقال قد نسيت أسماءهم فقالت سل عن ابن الطيار فأتى المدينة فلقي سيدنا الحسن رضي الله عنه فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها ثم أتى الحسين رضي الله عنه فقال كفانا أبو محمد مؤنة الابل فأمر له بالف شاة ثم أتى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه فقال كفاني اخواني الابل والشياه فأمر له بمائة ألف درهم ثم أتى أبا دحية رضي الله عنه فقال والله ما عندي مثل ما اعطوك ولكن ائتني بابلك فأوقرها لك تمرا فلم يزل اليسار في عقب الاعرابي من ذلك اليوم وقال الحسن والحسين يوما لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم انك قد أسرفت في بذل المال فقال بأبي انتما ان الله عز وجل عودني أن يتفضل علي وعودته أن أتفضل على عباده فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني المادة وامتدحه نصيب فأمر له بخيل وأثاث ودنانير ودراهم فقال له رجل مثل هذا الاسود تعطي له هذا المال فقال ان كان أسود فان ثناءه أبيض ولقد استحق بما قال أكثر مما نال وهل أعطيناه الا ثيابا تبلى ومالا يفنى وأعطانا مدحا يروى وثناء يبقى وخرج عبد الله رضي الله تعالى عنه يوما الى ضيعة له فنزل على حائط به نخيل لقوم وفيه غلام أسود يقوم عليه فأتى بقوته ثلاثة أقراص فدخل كلب فدنا من الغلام فرمى اليه بقرص فأكله ثم رمى اليه بالثاني والثالث فأكلهما وعبد الله ينظر اليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت هذا الكلب قال أرضنا ما هي بأرض كلاب وانه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت أن أرده قال فما أنت صانع اليوم قال أطوي يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء وان هذا لاسخى مني فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات واشترى الغلام ثم أعتقه ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات فقال الغلام ان كان ذلك لي فهو في سبيل الله تعالى فاستعظم عبد الله ذلك منه فقال يجود هذا وأبخل انا لا كان ذلك أبدا وكان عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما من الاجواد أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال يا ابن عباس ان لي عندك يدا وقد احتجت اليها فصعد فيه بصره فلم يعرفه فقال ما يدك قال رأيتك واقفا بفناء زمزم وغلامك يمتح لك من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بفضل كسائي حتى شربت فقال أجل اني لاذكر ذلك ثم قال لغلامه ما عندك قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم فقال ادفعها اليه وما أراها تفي بحق يده وقدم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على معاوية

مرة فاهدى اليه من هدايا النوروز حللا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها اليه مع حاجبه فلما وضعها بين يديه نظر الى الحاجب وهو ينظر اليها فقال له هل فى نفسك منها شئ قال نعم والله ان فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام فضحك عبد الله وقال خذها فهى لك قال جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيحقد على قال فاختمها بخاتمك وسلمها الى الخازن فاذا كان وقت خروجنا حملناها اليك ليلا فقال الحاجب والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم وحبس معاوية عن الحسين بن على رضى الله عنهما صلاته فقيل له لو وجهت الى ابن عمك عبد الله بن عباس فانه قدم بنحو ألف ألف فقال الحسين وانى تقع ألف ألف من عبد الله فو الله لهو اجود من الريح اذا عصفت وأسخى من البحر اذا زخر ثم وجه اليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه وضيق حاله وانه يحتاج الى مائة ألف درهم فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه وقال ويلك يا معاوية أصبحت ابن المهادر فيع العماد والحسين يشكو ضيق الحال وكثرة العيال ثم قال لوكيله احمل الى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب وأخبره انى شاطرته فان كفاه والا احمل اليه النصف الثانى فلما أتاه الرسول قال انا لله وانا اليه راجعون ثقلت والله على ابن عمى وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله رضوان الله عليهم أجمعين وجاء رجل من الانصار الى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فقال له يا ابن عم محمد صلى الله عليه وسلم انه ولد لى فى هذه الليلة مولود وانى سميته باسمك تبركا بك وان أمه ماتت فقال له بارك الله لك فى الهبة واجرك على المصيبة ثم دعا بوكيله وقال له انطلق الساعة فاشتر له مولود جارية تحضنه وادفع لابيه مائتى دينار لينفقها على تربيته ثم قال للانصارى عد الينا بعد أيام فانك جئتنا وفى العيش بؤس وفى المال قلة فقال الانصارى جعلت فداءك لو سبقت حاتما يوما ما ذكرته العرب وقال أبو وجهم بن حذيفة يوما لمعاوية أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال

بقينا ما نخاف وان ظعنا * به خيرا أراناه يقينا
نميل على جوانبه كأنا * اذا ملنا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه * فنخبر منهما كرما ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم وأنشده عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما

بلوت الناس قرنا بعد قرن * فلم أر غير ختال وقال
ولم أر فى الخطوب أشد وقعا * وامضى من معاداة الرجال
وذقت مرارة الاشياء طرا * فما شئ أمر من السؤال

فاعطاه مائة ألف درهم ودخل عليه الحسن يوما وهو مضطجع على سريره فسلم عليه وأقعده عند رجليه وقال له ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تزعم انى لست للخلافة أهلا ولا لها موضعا فقال له الحسن أو عجبا مما قالت قال كل العجب قال الحسن وأعجب من هذا كله جلوسى عند رجليك فاستحيا معاوية واستوى جالسا ثم قال أقسمت عليك يا أبا محمد الا ما أخبرتنى كم علىك دينا قال مائة ألف درهم فقال يا غلام أعط أبا محمد ثلثمائة ألف درهم مائة ألف يقضى بها دينه ومائة ألف ينفقها على موالى

ومائة ألف يستعين بها على نوائبه وسوغها اليه الساعة وكان معن بن زائدة من الاجواد وكان عاملا على العراق بالبصرة قيل انه أتى اليه بعض الشعراء فاقام ببابه مدة يريد الدخول عليه فلم يتهيأ له ذلك فقال يوما لبعض الخدم اذا دخل الامير البستان فعرفني فلما دخل أعلمه بذلك فكتب الشاعر بيتا ونقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان وكان معن جالسا على القناة فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فاذا فيها بيت مفرد

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي * فليس الى معن سوالك شفيع

فقال من الرجل صاحب هذه فاتي به اليه فقال كيف قلت فانشده البيت فامر له بعشر بدر فاخذها وانصرف ووضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان في اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها وقال علي بالرجل صاحب هذه فاتي به فقال له كيف قلت فانشده البيت فامر له بعشر بدر فاخذها وانصرف ووضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان في اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال علي بالرجل صاحب هذه فاتي به اليه فقال له كيف قلت فانشده البيت فامر له بعشر بدر فاخذها وتفكر في نفسه وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج من البلد بما معه فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده فقال معن لقد ساءه والله ظنه ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار وفيه يقول القائل

يقولون معن لا زكاة لماله * وكيف يزكي المال من هو باذله
اذا حال حول لم تجد في ديارة * من المال الا ذكره وجمائله
تراه اذا ما جئته فتهلا * كأنك تعطيه الذي أنت نائله
تعود بسط الكف حتى لوانه * أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو لم يكن في كفه غير نفسه * لجاد بها فليتق الله سائله

ومن قول معن

دعيني انهب الاموال حتى * أعف الاكرمين عن اللئام

وكان يزيد بن المهلب من الاجواد الاسخياء وله أخبار في الجود عجيبة من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه قال لما أراد يزيد بن المهلب الخروج الى واسط أتيته فقلت ايها الامير ان رأيت أن تاذن لي فاصحبك قال اذا قدمت واسطا فائتنا ان شاء الله تعالى فسافر وأقمت فقال لي بعض اخواني اذهب اليه فقلت كان جوابه فيه ضعف فالوا أتريد من يزيد جوابا اكثر مما قال فسرت حتى قدمت عليه فلما كان في الليل دعيت الى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجواري فالتفت الي يزيد وقال ايه ياعقيل فقلت

افاض القوم في ذكر الجواري * فاما الاعزبون فلن يقولوا

قال انك لم تبق عزبا فلما رجعت الى منزلي اذا انا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم وفي الليلة الثانية كذلك فمكثت عشرا بال وانا على هذه الحالة فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر فقلت ايها الامير قد والله اغنيت واقنيت فان رأيت ان تاذن لي في الرجوع فاكتب عدوي وامر صديقي فقال انما الخير لك بين

خلتين اما أن تقيم فنوليك أو ترحل فنغنيك فقلت أولم تغنني أيها الامير قال انما هذا أثاث المنزل ومصلحة القدوم فنالني من فضله مالا أقدر على وصفه وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقا يحلق رأسه فجاؤه بحلاق فحلق رأسه فأمر له بخمسة آلاف درهم فتحير الحلاق ودهش وقال آخذ هذه الخمسة الآلاف وأمضي الى أم فلان أخبرها أني قد استغنيت فقال أعطوه خمسة آلاف أخرى فقال امرأته طالق ان حلقت رأس أحد بعدك وقيل ان الحجاج حبسه على خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم فجمعت له وهو في السجن فجاءه الفرزدق يزوره فقال للحاجب استأذن لي عليه فقال انه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه فقال الفرزدق انما أتيت متوجعا لما هو فيه ولم آت ممتدحا فأذن له فلما أبصره قال

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم * وقال ذووا الحاجات أين يزيد
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة * ولا اخضر بالمروين بعدك عود
وما السرور بعد عزلك بهجة * وما الجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب ادفع اليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا ودع الحجاج ولحي يفعل فيه ما يشاء فقال الحاجب للفرزدق هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه ثم دفعها اليه فأخذها وانصرف ومر يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عنزا فقال لابنه ما معك من النفقة قال مائة دينار قال ادفعها اليها فقال هذه رضيها اليسير وهي لا تعرفك قال ان كان رضيها اليسير فأنا لا أرضى الا بالكثير وان كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي وقال مروان بن أبي الجنوب الشاعر أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفا وخمسين ثوبا وراحلة كثيرة فقلت أبيات أشكره فلما بلغت قولي

فأمسك ندى كفيك عني ولا تزد * فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

فقال والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي وأمر له بضياع تقوم بألف ألف وقال أبو العيناء تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية وعلى البرامكة في الدولة العباسية ثم اتفقوا على ان أحمد بن أبي دواد أسخى منهم جميعا وأفضل وسئل اسحق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال أما الفضل فيرضيك فعله وأما جعفر فيرضيك قوله وأما محمد فينعل بحسب ما يجد وفي يحيى يقول القائل

سألت الندى هل أنت حر فقال لا * ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة * توارثني من والد بعد والد

وفي الفضل يقول القائل

اذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة * رأيت بها غيث السماحة ينبت
فليس بسعدان اذا سيل حاجة * ولا بمكب في ثرى الارض ينكت

وفي محمد يقول القائل

سألت الندى والجود ما لي أراكما * تبدلتما عزا بذل مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدما * فقالا أصبنا بابن يحيى محمد

فقلت فهلا متما بعد موته * وقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقال أقمنا كي نعزي بفقده * مسافة يوم ثم تتلوه في غد

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه من كانت له الى حاجة فليرفعها الي في كتاب لاصون وجهه عن المسئلة وجاءه رضي الله عنه أعرابي فقال يا أمير المؤمنين ان لي اليك حاجة الحياء يمنعني أن أذكرها فقال خطها في الارض فكتب اني فقير فقال يا قنبر اكسه حلتي فقال الاعرابي

كسوتني حلة تبلى محاسنها * فسوف أكسو لمن حسن الثنا حللا
ان زانت حسن الثنا قد زانت مكرمة * وليس تبقى بما قد متعه بدلا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه * كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به * كل امرئ سوف يجزى بالذي فعلا

قال يا قنبر زده مائة دينار فقال يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لاصلحت بها من شأنهم فقال رضي الله عنه صه يا قنبر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اشكروا لمن أثنى عليكم واذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ولعبد الله بن جدعان

اني وان لم ينل مالي مداخلتي * وهاب ما ملكت كفي من المال
لأحبس المال الا حيث أنفقه * ولا يغيرني حال الى حال

وقال بعض العرب لولده يا بني لا تزهدن في معروف فان الدهر ذو صروف فكم راغب كان مرغوبا اليه وطالب كان مطلوبا ما لديه وكن كما قال القائل

وعد من الرحمن فضلا ونعمة * عليك اذا ما جاء للخير طالب
ولا تمنعن ذا حاجة جاء راغبا * فانك لا تدري متى أنت راغب

وقال بعضهم

أبيت خميص البطن عريان طاويا * وأوثر بالزاد الرفيق على نفسي
وامنحه فرشي وأفترش الثرى * وأجعل ستر الليل من دونه لبسي
حذار أحاديث المحافل في غد * اذا ضمني يوما الى صدره رمسي

وقال يحيى البرمكي أعط من الدنيا وهي مقبلة فان ذلك لا ينقصك منها شيأ وأعط منها وهي مدبرة فان منعك لا يبقي عليك منها شيأ فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول لله درة ما أطبعه على الكرم واعلمه بالدنيا وقد أمر يحيى من نظمه فقال

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف
فان تولت فاحرى أن تجود بها * فليس تبقى ولكن شكرها خلف

وقال يحيى لولده جعفر يا بني ما دام قلمك يرعد فأمطر معروفا وقال بعضهم

لا تكثرى في الجود لائمتي * واذا بخلت فاكثري لومي
كفي فلست بحامل أبدا * ما عشت هم غدا الى يومي

وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه لا تستحي من عطاء القليل فالحرمان أقل منه وسئل اسحق الموصلي عن المخارع فقال كان أمره كله عجبا كان لا يبالي اين يقعد مع جلسائه

وكان

وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر كان عنده سليمان بن أبي جعفر يوما فأراد الرجوع الى أهله فقال له سفر البر أحب اليك أم سفر البحر قال البحر ألين على فقال أوقروا له زورقه ذهبا وأمر له بألف ألف درهم وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان موتى شهوات الى سليمان بن عبد الملك وقال قد هجاني يا أمير المؤمنين فاستحضره سليمان وقال لا أم لك أتهجو سعيدا قال يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر عشقت جارية مدنية وأتيت سعيدا فقلت اني أحب هذه الجارية وان مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار وقد أتيتك فقال لي بورك فيك فقال سليمان ليس هذا موضع بورك فيك قال فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالي فقال يا جارية هاتي مطرفا فأتته بمطرف خز فصرت لي في كل زاوية مائتي دينار فخرجت وأنا أقول

أبا خالد أعني سعيد بن خالد * أخا العرف لا أعني ابن بنت سعيد
ولكنني أعني ابن عائشة الذي * أبو أبويه خالد بن أسيد *
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى * فان مات لم يرض الندى بعقيد
ذروه ذروه انكم قد رقدتمو * وما هو عن احسانكم برقود

فقال سليمان قل ما شئت وكتب كلثوم بن عمرو الى بعض الكرماء رقعة فيها

اذا تكرهت أن تعطي القليل ولم * تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا تمنعك قلته * فكل ما سد فقرا فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث اليه بنصف خاتمه وفردة نعله وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضا بثمانين ألفا فقيل له لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرا فقال بل اجعله ذخرا لي واجعل الله ذخر الولدي وقسمه بين ذوي الحاجات وكان ابن مالك القشيري من الاجواد قيل انه أنهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات فعاتبه خاله فقال

يا خال ذرني ومالي ما فعلت به * وخذ نصيبك منه انني مودي
فان أطعك الآن تخلدني * فانظر بكيدك هل تسطيع تخليدي
الحمد لا يشتري الا بمكرمة * ولن أعيش بمال غير محمود

وقال المهلب عجبت لمن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الاحرار بفعاله ونزل بأبي البختري وهب بن وهب القرشي ضيفا فسارع عبيده الى انزاله وخدموه أحسن خدمة وفعلوا به كل جميل فلما هم بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه فذكر ذلك عليهم فقالوا نحن انما نعين النازل على الاقامة ولا نعينه على الرحيل ووفدت ليلى الاخيلية على الحجاج فقالت فيه

اذا ورد الحجاج أرضا مريضة * تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها * غلام اذا هز القناة سقاها

فقال لا تقولي غلام ولكن قولي هماه يا غلام اعطها خمسمائة فقالت أيها الامير اجعلها نعما فجعلها ابلا اناثا وقال أبو الفياض الطبري

والعرض يف لا يراه بربعه * من لا يرى بذل الثلاث تلادا

والجود أعلى كعب كعب قبلنا * فمضى جوادا يوم مات جوادا

وقال آخر

أيقنت أن من السماح شجاعة * وعلمت أن من السماحة جودا

وقال أحمد بن حمدون النديم عملت أم المستعين بساطا على صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينهم يواقيت وجواهر أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار وسألته أن يقف عليه وينظر اليه فكسل ذلك اليوم عن رؤيته قال أحمد بن حمدون فقال لى ولا ترجة الهاشمى اذهبا فانظرا اليه وكان معنا الحاجب فمضينا ورأيناه فوالله ما رأينا فى الدنيا شيأ أحسن منه ولا شيأ حسنا الا وقد عمل فيه فمددت أنا يدى الى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان فوضعته فى كمى ثم جئناه فوصفنا له حسن ما رأيناه فقال اترجة يا أمير المؤمنين انه قد سرق منه شيأ وغمزه على كمى فأريته الغزال فقال بحياتى عليكما ارجعا فخذا ما أحببتما فمضينا فملأنا أكمامنا وأقبيتنا وأقبلنا نمشى كالحبالى فلما رآنا ضحك فقال بقية الجلساء ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين فقال قوموا فخذوا ما شئتم ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك ونظر يزيد المهلبى سطلا من ذهب مملوأ مسكا فأخذه بيده وخرج فقال له المستعين الى أين فقال الى الحمام يا أمير المؤمنين فضحك من قوله وأمر الفراشين والخدم أن ينتهبوا الباقى فانتهبوه فوجهت اليه أمه تقول سر الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه فانى أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار فقال يحمل اليها مثل ذلك حتى تعيد مثله ففعلت ومضى حتى رآه وفعل به كفعله بالاول ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوما فوافق فيه الفرزدق فقال يا أبا فراس اختر عشرا من الابل ففعل فقال ضم اليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة فقال هى لك فقال

يا طلح انت اخو الندى وعقيده * ان الندى ما مات طلحة ماتا

ان الندى ألقى اليك رحاله * فبحيث بت من المنازل باتا

وقدم زياد الاعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور فأكرمه وأنعم عليه وبعث اليه بألف دينار فقال

ان السماحة والمروأة والندى * فى قبة ضربت على ابن الحشرج

فقال زدنى فقال كل شئ وثمنه ووفد ابو عطاء السدى على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له فأنزله وأحسن اليه وقال ما عندك يا أبا عطاء فقال وما عسى أن أقول وأنت أشعر العرب غير انى قلت بيتين قال هات ما قلت فقال

يا طالب الجود اما كنت تطلبه * فاطلب على بابه نصر بن سيار

الواهب الخيل تغدو فى أعنتها * مع القيان وفيها الف دينار

فاعطاه ألف دينار ووصائف وكساه كسوة جميلة فقسم ذلك بين رفيقيه ولم يأخذ منه شيأ فبلغ ذلك نصرا فقال باله قاتله الله من سيد ما أضخم قدره ثم امر له بمثله وقال العتبى أشرف عمرو بن هبيرة يوما من قصره فاذا هو باعرابى يرقل قلوصه فقال عمرو لحاجبه ان ارادنى هذا

الاعرابي فأوصله الي فلما وصل الاعرابي سأله الحاجب فقال أردت الامير فدخل به اليه فلما مثل بين يديه قال له ما حاجتك فانشد الاعرابي يقول

أصلحك الله قل ما بيدي * ولا أطيق العيال اذ كثروا
اناخ دهري علي كلكله * فارسلوني اليك وانتظروا

فأخذت عمرا الاريحية فجعل يهتز في مجلسه ثم قال أرسلوك الي وانتظروا اذن والله لا تجلس حتى ترجع اليهم ثم أمر له بالف دينار * وقيل أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجرى القلم بخمسمائة ألف فراجعه الخازن في ذلك فقال أنفذه فما بقي الا نفاذه وان خروج المال أحب الي من الاعتذار فاستشرفه الخازن فقال اذا أراد الله بعبد خيرا صرف القلم عن مجرى ارادة كاتبه الى ارادته وأنا أردت شيأ وأراد الجواد الكريم أن يعطي عبده عشرة أضعافه فكانت ارادة الله الغالبة وأمره النافذ * ووقف أعرابي على ابن عامر فقال يا قمر البصرة وشمس الحجاز ويا ابن ذروة العرب وابن بطحاء مكة برحت بي الحاجة وأكدت بي الآمال الا بفنائك فامنحني بقدر الطاقة لا بقدر المجد والشرف والهمة فأمر له بمائتي ألف درهم وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل

أأترك ان قلت دراهم خالد * زيارته اني اذا للئيم

فقال أو قلت دراهم خالد احملوا اليه مائة ألف درهم فبعثها خالد بن يحيى الى عمارة بن عقيل وقال هذه قطرة من سحابك * ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى ثم قال والله ما بكائي جزعا من العزل ولا أسفا على الولاية ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلي أمرها من لا يعرف لها حقا * وأراد الرشيد أن يخرج الى بعض المتفرجات فقال يحيى بن خالد لرجاء ابن عبد العزيز وكان على نفقاته ما عند وكلائنا من الاموال قال سبعمائة ألف درهم قال فاقبضها اليك يا رجاء فلما كان من الغد دخل عليه رجاء فقبل يده وعنده منصور بن زياد فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور قد ظننت أن رجاء توهم انا قد وهبنا المال له وانما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا اليه في وجهنا هذا فقال منصور أنا أستخبر لك هذا فقال يحيى اذن يقول لك قل له يقبل يدي كما قبلت يده فلا تقل له شيأ فقد تركتها له * وقيل ان الرشيد وصل في يوم واحد بألف ألف وثلثمائة ألف وخمسين ألفا ووصل المنصور في يوم واحد لبني هاشم ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكر * وعن الاخفش الصغير قال كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدرا وأكثرهم أدبا وأفصحهم لسانا وأثبتهم جنانا فطال عمره ونكبه دهره فخرج عشية ينتقل لاهله فمر به عميلة الفزاري فسلم عليه وقال ما أصارك يا عم الى ما أرى فقال بخل مثلك بماله وصون وجهي عن مسئلة الناس فقال والله لئن بقيت الى غد لاغيرن ما أرى من حالك فرجع ابن عنقاء الى أهله فأخبرها بما قال له عميلة فقالت له لقد غرك كلام غلام في جنح ليل قال فكأنما ألقمت فاه حجرا وبات متململا بين رجاء ويأس فلما كان وقت السحر سمع رغاء الابل وصهيل الخيل تحت الاموال فقال ما هذا قالوا عميلة قد قسم ماله شطرين وبعث اليك بشطره فأنشأ يقول

رآنى على مابى عميلة فاشتكى * الى ماله حالى فواسى وماهجر *
ولما رآى الجد استعبرت ثيابه * ترقى رداء سابغ الذيل واتزر *
غلام حباه الله بالحسن يافعا * له سيماء لاتشق على البصر *
كأن الثريا علقت فى جبينه * وفى أنفه الشعرى وفى جيده القمر

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى من الاجواد قيل انه كان لرجل جارية يهواها فاحتاج الى بيعها فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل فلما قبض ثمنها أنشأت تقول

هنيأ لك المال الذى قد قبضته * ولم يبق فى كفى غير التحسر
ابوه بجزمن من فراقك موجع * أناجى به صدرا طويل التفكر

فأجابها يقول

ولولا قعود الدهر بى عنك لم يكن * يفرقنا شئ سوى الموت فاعذرى
عليك سلام لازيارة بيننا * ولا وصل الا أن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر قد شئت وقد وهبتك الجارية وثمنها فخذها وانصرف * ووفد أبو الشمقمق الى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه الى منزله فوجده فى دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع له فلما رآه محمد قال

ولقد قدمت على رجال طالما * قدم الرجال عليهم فتمولوا
أخنى الزمان عليهم فكأنما * كانوا بأرض اقفرت فتحولوا

فقال أبو الشمقمق

الجود أفلسهم وأذهب مالهم * فاليوم ان راموا السماحة يبخلوا

قال فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما اليه فكتب بذلك مستوفى الخراج الى الخليفة فوقع الى عامله باسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام فى تلك السنة واسقاط ماعليه من البقايا وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على مروأته * وقال أبو العيناء حصلت لى ضيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائى فدخلت يوما على يحيى بن أكثم القاضى فقال ان أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصص فهل لك فى الحضور قلت نعم فمضيت معه الى دار أمير المؤمنين فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسنى ثم قال يا أبا العيناء بالالفة والمحبة ما الذى جاء بك فى هذه الساعة فأنشدته

لقد رجوتك دون الناس كلهم * والرجاء حقوق كلها تجب
ان لم يكن لى أسباب أعيش بها * فنى العلا لك أخلاق هى السبب

فقال يا سلامة انظر أى شئ فى بيت مالنا دون مال المسلمين فقال بقية من مال قال فادفع له منها مائة ألف درهم وابعث له بمثلها فى كل شهر فلما كان بعد أحد عشر شهرا مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه فدخل عليه بعض أولاده فقال يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء فانشأ أبو العيناء يقول

شيآن لو بكت الدماء عليهما * عيناى حتى يؤذنا بذهاب

لم يبلغا المعشار من حقيهما * فقد الشباب وفرقة الاحباب

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة وكان راتبه منها في الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة وسوى ما يطبخ في دار الصدقة وكان الموكل بصدقته سليم الخادم فقال له سليم يوما ايها الامير اني اطوف القبائل وأدق الابواب لصدقاتك وان البدر تمتد الي وفيها الحناء وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب أفأعطي ام أرد قال فأطرق طويلا ثم قال كل يد امتدت الينا فلا نردها * وقال سلمة بن عياش في جعفر بن سليمان

وماشم أنفي ريح كف شممتها * من الناس الا ريح كفك أطيب

فامر له بالف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر * وكان عبد العزيز بن عبد الله جوادا مضيافا فتغدى عنده أعرابي يوما فلما كان من الغد مر على بابه فرأى الناس في الدخول على هيئتهم بالامس فقال أوكل يوم يطعم الامير الناس قالوا نعم فانشأ يقول

كل يوم كأنه عيد أضحى * عند عبد العزيز أو عيد فطر
وله ألف جفنة مترعات * كل قدر يمدها ألف قدر

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص فلما خرجوا بقي فتى من الشأم قاعدا فقال له سعيد ألك حاجة وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى فذكر أن أباه مات وخلف دينا وعيالا وسأله أن يكتب له كتابا الى أهل دمشق ليقوموا ببعض اصلاح حاله فدفع له عشرة آلاف دينار وقال له لا أدعك تقاسي الذل على أبوابهم * ودخل رجل على علي بن سليمان الوزير فقال له سألتك بالله العظيم وبنبيه الكريم الا ما أجرتني من خصمي فقال ومن خصمك حتى أجيرك منه فقال الفقر فأطرق الوزير ساعة وقال قد أمرت لك بمائة ألف درهم فأخذها وانصرف فبينما هو في الطريق اذ أمر الوزير برده اليه فلما رجع قال له سألتك بالله العظيم وبنبيه الكريم متى أتاك خصمك معنا فانا رجع الينا متظلما وقال الاعمش كانت عندي شاة فرضت وفقدت الصبيان لبنها فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها وكان تحتي لبد اجلس عليه فكان اذا خرج يقول خذ ما تحت اللبد حتى وصل الي من علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت ان الشاة لم تبرأ (وحكى) ابو قدامة القشيري قال كنا مع يزيد بن مزيد يوما فسمع صائحا يقول يا يزيد بن مزيد فطلبه فاتي به اليه فقال ما حملك على هذا الصياح قال فقدت دابتي ونفدت نفقتي وسمعت قول الشاعر

اذا قيل من للجود والمجد والندى * فنادى بصوت يا يزيد بن مزيد

فأمر له بفرس ابلق كان معجبا به وبمائة دينار وخلعة سنية فاخذها وانصرف (وحكى) ان قوما من العرب جاؤا الى قبر بعض احيائهم يزورونه فباتوا عند قبره فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام وهو يقول له هل لك ان تبيعني بعيرك بنجيبي وكان الميت قد خلف نجيبا وكان للرائي بعير سمين فقال نعم وباعه في النوم بعيره بنجيبه فلما وقع بينهما عقد البيع محمد صاحب القبر الى البعير فحمره في النوم فانتبه الرائي من نومه فوجد الدم يسيح من نحر بعيره فقام وأتم

نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوا ثم رحلوا وساروا فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق سائرون استقبلهم ركب فتقدم منهم شاب فنادى هل فيكم فلان بن فلان فقال صاحب البعير نعم ها أنا فلان بن فلان فقال هل بعت من فلان الميت شيأ قال نعم بعته بعيرى بنجيبه فى النوم فقال هذا نجيبه فخذه وأنا ولده وقد رأيته فى النوم وهو يقول ان كنت ولدى فادفع نجيبى الى فلان فانظر الى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته * وروى عن الهيثم بن عدى أنه قال تمارى ثلاثة نفر فى الاجواد فقال رجل آسخى الناس فى عصرنا هذا عبد الله بن جعفر فقال الآخر أسخى الناس قيس بن سعيد بن عبادة فقال الآخر بل أسخى الناس اليوم عرابة الاوسى فتناوعوا بفناء الكعبة فقال لهم رجل لقد أفرطتم فى الكلام فليمض كل واحد منكم الى صاحبه يسأله حتى تنظروا يعود فنحكم على العيان فقام صاحب ابن جعفر فوافاه وقد وضع رجله فى ركاب راحلته يريد ضيعة له فقال الرجل يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن سبيل ومنقطع به قال فأخرج رجله وقال ضع رجلك واستو على الناقة وخذ ما فى الحقيبة وكان فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار ومضى صاحب قيس فوجده نائما فقالت له جارية لقيس ما حاجتك فقال ابن سبيل ومنقطع به فقالت له الجارية حاجتك أهون من ايقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما فى دار قيس اليوم غيرها وامض الى معاطن الابل فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبدا وامض لشأنك قيل انه لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها ولولم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت تفعله فخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه قال بعض الشعراء

واذا ما اختبرت ود صديق * فاختبر ودّه من الغلمان

ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة فقال يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسرى وقال اواه اواه والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شئ ولا ترك له الحقوق مالا واحدا لكن خذ هذين العبدين فقال الرجل والله ما كنت بالذى يسلبك عبديك فقال ان أخذتهما والا فهما حران لوجه الله تعالى فان شئت فخذ وان شئت فأعتق فأخذ الرجل العبدين ومضى ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكموا لعرابة لانه أعطى على جهد * قيل ان شاعرا قصد خالد بن يزيد فأنشده شعرا يقول فيه

سألت الندى والجود حران أنتما * فقالا بقينا انتا العبيد

فقلت ومن مولاكما فتطاولا * الىّ وقالا خالد بن يزيد

فقال يا غلام أعطه مائة ألف درهم وقل له ان زدتنا زدناك فأنشد يقول

كريم كريم الامهات مهذب * تدفق كفاه الندى وشمائله

هو البحر من أى الجهات أتيته * فلجته المعروف والجود ساحله

جواد بسيط الكف حتى لو أنه * دعاها القبض لم تجبه أنامله

فقال يا غلام أعطه مائة ألف درهم وقل له ان زدتنا زدناك فأنشد يقول

تبرعت لى بالجود حتى نعشتنى * وأعطيتنى حتى حسبتك تلعب

وأنبت ريشا فى الجناحين بعدما * تساقط منى الريش أو كاد يذهب
فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى * حليف الندى ما للندى عنك مذهب

فقال ياغلام اعطه مائة ألف درهم وقل له ان زدتنا زدناك فقال حسب الامير ما سمع وحسبى ما أخذت وانصرف * وأما الذين انتهى اليهم الجود فى الجاهلية فهم حاتم بن عبد الله الطائى وهرم بن سنان وخالد بن عبيد الله وكعب بن مامة الايادى وضرب المثل بحاتم وكعب وحاتم أشهرهما فأما كعب فجاد بنفسه وآثر رفيقه بالماء فى المفازة ومات عطشا وليس له خبر مشهور وأما خالد بن عبيد الله فانه جاءه بعض الشعراء ورجله فى الركاب يريد الغزو فقال له انى قلت فيك بيتين من الشعر فقال فى مثل هذا الحال قال نعم فقال هاتهما فأنشده يقول

ياواحد العرب الذى * ما فى الانام له نظير
لو كان مثلك آخر * ما كان فى الدنيا فقير

فقال ياغلام أعطه عشرين ألف دينار فأخذها وانصرف وأما حاتم فأخباره كثيرة وآثاره فى الجود شهيرة ويكنى أبا سفانة وأبا عدى وكان يسير فى قومه بالمرباع والمرباع ربع الغنيمة وكان ولده عدى يعادى النبى صلى الله عليه وسلم فبعث النبى صلى الله عليه وسلم عليا الى طيئ فهرب عدى بأهله وولده ولحق بالشأم وخلف أخته سفانة فأسرتها خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أتى بها الى النبى صلى الله عليه وسلم قالت يا محمد هلك الوالد وغاب الرافد فان رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فان أبى كان سيد قومه يفك العانى ويقتل الجانى ويحفظ الجار ويحمى الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشى السلام ويحمل الكل ويعين على نوائب الدهر وما أتاه أحد فى حاجة فردته خائبا أنا بنت حاتم الطائى فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم ياجارية هذه صفات المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الاخلاق وقال فيها ارحموا عزيزا ذل وغنيا افتقر وعالما ضاع بين جهال فأطلقها ومن عليها فاستأذنته فى الدعاء له فاذن لها وقال لاصحابه اسمعوا وعوا فقالت أصاب الله ببرك مواقعه ولا جعل لك الى لئيم حاجة ولا سلب نعمة عن كريم قوم الا وجعلك سببا فى ردها عليه فلما أطلقها صلى الله عليه وسلم رجعت الى قومها فأتت أخاها عديا وهو بدومة الجندل فقالت له يا أخى ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله فانى قد رأيت هديا ورأيا يغلب أهل الغلبة رأيت خصالا تعجبنى رأيته يحب الفقير ويفك الاسير ويرحم الصغير ويعرف قدر الكبير وما رأيت أجود ولا أكرم منه صلى الله عليه وسلم وانى أرى أن تلحق به فان يك نبيا فللسابق فضله وان يك ملكا فلن تذل فى عز اليمن فقدم عدى الى النبى صلى الله عليه وسلم فألقى له وسادة محشوة ليفا وجلس النبى صلى الله عليه وسلم على الارض فاسلم عدى بن حاتم وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها وكانت من أجود نساء العرب وكان ابوها يعطيها الضريبة من ابله فتهبها وتعطيها الناس فقال لها ابوها يابنية ان الكريمين اذا اجتمعا فى المال أتلفاه فاما ان أعطى وتمسكى واما أن أمسك وتعطى فانه لا يبقى على هذا شئ فقالت له منك تعلمت مكارم

الاخلاق قال ابن الاعرابي كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية وكان جوادا يشبه جوده شعره ويصدق قوله فعله وكان حيثما نزل عرف منزله وكان مظفرا اذا قاتل غلب واذا سئل وهب واذا سابق سبق واذا أسر أطلق وكان اذا أهل رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشرا من الابل وأطعم الناس واجتمعوا اليه وكان قد تزوج ماوية بنت عفير وكانت تلومه على اتلاف المال فلا يلتفت لقولها وكان لها ابن عم يقال له مالك فقال لها يوما ما تصنعين بحاتم فوالله لئن وجد مالا ليتلفنه وان لم يجد ليتكففن ولئن مات ليتركن أولاده عالة على قومك فقالت ماوية صدقت انه كذلك وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية وكان طلاقهن أن يكن في بيوت من شعر فان كان باب البيت من قبل المشرق حولته الى المغرب وان كان من قبل المغرب حولته الى المشرق وان كان من قبل اليمن حولته الى الشام وان كان من قبل الشأم حولته الى اليمن فاذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته فلم يأتها ثم قال لها ابن عمها طلقي حاتما وأنا أتزوجك وأنا خير لك منه وأكثر مالا وأنا أمسك عليك وعلى ولدك فلم يزل بها حتى طلقته فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء فقال حاتم لولده يا عدي ما ترى ما فعلت أمك فقال قد رأيت ذلك قال فأخذ ابنه وهبط بطن واد فنزل فيه فجاء قوم فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون وكانت عدتهم خمسين فارسا فضاقت بهم ماوية ذرعا وقالت لجاريتها اذهبي الى ابن عمي مالك وقولي له ان أضيافا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلا فارسل الينا بشئ نقريهم وابن نسقيهم وقالت لها انظري الى جبينه وفمه فان شافهك بالمعروف فاقبلي منه وان ضرب بطيسته على زوره واطم رأسه فأقبلي وذعريه فلما أتته وجدته متوسدا وطبا من لبن فأيقظته وأبلغته الرسالة وقالت له انما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم فلطم رأسه بيده وضرب بطيسته وقال اقرئيها السلام وقولي لها هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتما لاجله وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم فرجعت الجارية فأخبرتها بما رات وبما قال لها فقالت لها اذهبي الى حاتم وقولي له ان أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ولم يعلموا مكانك فأرسل الينا بناقة نقريهم وابن نسقيهم فأتت الجارية حاتما فصاحت به فقال لبيك قريبا دعوت فأخبرته بما جاءت بسببه فقال لها حبا وكرامة ثم قام الى الابل فأطلق اثنتين من عقالهما وصاح بهما حتى أتيا الخباء ثم ضرب عراقيبهما فطفقت ماوية تصيح هذا الذي طلقتك بسببه تترك أولادنا وليس لهم شئ فقال لها ويحك يا ماوية الذي خلقهم وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم وكان اذا اشتد البرد وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقد ونها في بقاع الارض لينظر اليها من ضل عن الطريق ليلا فيقصدها ولم يكن حاتم يمسك شيأ ما عدا فرسه وسلاحه فانه كان لا يجود بهما ثم جاد بفرسه في سنة مجدبة (حكي) ان ملكان ابن أخي ماوية قال قلت لها يوما يا عمة حدثيني ببعض عجائب حاتم وبعض مكارم أخلاقه فقالت يا ابن أخي أعجب ما رأيت منه أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف وقد أخذني واياه الجوع وأسهرنا فأخذت سفانة وأخذ عديا وجعلنا نعللهما حتى ناما فأقبل علي يحدثني ويعللني بالحديث حتى أنام فرفقت به لما به من الجوع فأمسكت عن كلامه لينام فقال لي

أنمت فلم أجبه فسكت ونظر فى فناء الخباء فاذا شئ قد أقبل فرفع رأسه فاذا امرأة فقال ماهذا فقالت ياأباعدى أتيتك من عند صبية يتعاوون كالكلاب أو كالذئاب جوعا فقال لها أحضرى صبيانك فوالله لاشبعنهم فقامت سريعة لاولادها فرفعت رأسى وقلت له ياحاتم بماذا تشبع أطفالها فوالله ماناموا صبيانك من الجوع الا بالتعليل فقال والله لاشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها فلما جاءت المرأة نهض قائما وأخذ المدية بيده وعمد الى فرسه فذبحه ثم أجج نارا ودفع اليها شفرة وقال قطعى واشوى وكلى وأطعمى صبيانك فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها فأيقظت أولادى وأكلت وأطعمتهم فقال والله ان هذا لهو اللؤم تأكلون وأهل الحى حالهم مثل حالكم ثم أتى الحى بيتا بيتا يقول لهم انهضوا عليكم بالنار فاجتمعوا حول الفرس وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية فوالله ماأصبحوا وعلى وجه الارض منها قليل ولا كثير الا العظم والحافر ولا والله ماذاقها حاتم وانه لاشدهم جوعا وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره

أماوى ان المال غاد ورائح * ويبقى من المال الاحاديث والذكر

وقد علم الاقوام لو أن حاتما * أراد ثراء المال كان له وفر

وأغار قوم على طيئ فركب حاتم فرسه وأخذ رمحه ونادى فى جيشه وأهل عشيرته ولقى القوم فهزمهم وتبعهم فقال له كبيرهم ياحاتم هب لى رمحك فرمى به اليه فقيل لحاتم عرضت نفسك للهلاك ولو عطف عليك لقتلك فقال قد علمت ذلك ولكن ماجواب من يقول هب لى ولما مات عظم على طيئ موته فادعى أخوه أنه يخلفه فقالت له أمه هيهات شتان والله مابين خلقتيكما وضعته فبقى والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت احدى ثدىّ طفلا من الجيران وكنت أنت ترضع ثديا ويدك على الآخر فأتى للثذلك قال الشاعر

يعيش الندا ماعاش حاتم طيئ * وان مات قامت للسخاء مآتم

وكانت العرب تسمى الكلاب داعى الضيف ومقيم النعم ومشيد الذكر لما يجلب من الاضياف بنباحها والضيف الغريب وكانوا اذا اشتد البرد وهبت الرياح ولم تشب النيران فزقوا الكلاب حوالى الحى وربطوها الى العمد لتوحش فتنبح فتهتدى الضلال وتأتى الاضياف على نباحها والحكايات فى ذكر الاجواد والكرماء والاحياء وأهل المعروف وماكانوا عليه من السخاء والكرم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر فنى مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ولمثلها فليعمل العاملون فان فيها عز الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت وخلود جميل الذكر فانا لم نجد شيأ يبقى على مر الدهر الا الذكر حسنا كان أو قبيحا وقد قال الشاعر

ولاشئ يدوم فكن حديثا * جميل الذكر فالدنيا حديث

فانتهز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الامر وقدم لنفسك كما قدموا تذكر بالصالحات كما ذكروا وادخر لنفسك فى القيامة كما ادخروا واعلم أن المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو فاختر أى الثلاث شئت وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الرابع والثلاثون فى البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم)

قال الله تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم والشح فان الشح أهلك من كان قبلكم وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال البخل جامع لمساوى القلوب وهو زمام يقاد به الى كل سوء وقالت أم البنين آخت عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما ان البخل لو كان قميصا ما لبسته أو كان طريقا ما سلكته * وقيل بخلاء العرب أربعة الحطيئة وحميد الارقط وأبو الاسود الدؤلى وخالد ابن صفوان فاما الحطيئة فمر به انسان وهو على باب داره وبيده عصا فقال أنا ضيف فأشار الى العصا وقال لكعاب الضيفان أعددتها وأما حميد الارقط فكان هجاء للضيفان فحاشاعليهم نزل به مرة أضياف فأطعمهم تمرا وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه وأما أبو الاسود فتصدق على سائل بتمرة فقال له جعل الله نصيبك من الجنة مثلها وكان يقول لو أطعمنا المساكين فى أموالنا كنا أسوأ حالا منهم وأما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم اذا دخل عليه يا عيار كم تعير وكم تطوف وتطير لا طيلت حبسك ثم يطرحه فى الصندوق ويقفل عليه وقيل له لم لا تنفق ومالك عريض فقال الدهر أعرض منه وأنشد بعضهم

وهبنى جمعت المال ثم خزنته * وحانت وفاتى هل أزاد به عمرا
اذا خزن المال البخيل فانه * سيورثه غما ويعقبه وزرا

واستأذن حفظة على صديق له بخيل فقيل هو محموم فقال كلوا بين يديه حتى يعرق وكتب سهل ابن هرون كتابا فى مدح البخل وأهداه الى الحسن بن سهل فوقع على ظهره قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه وقال ابن أبى فنن

ذرينى واتلافى لمالى فانى * أحب من الاخلاق ما هو أجمل
وان أحق الناس باللوم شاعر * يلوم على البخل الرجال ويبخل

وكان عمر بن يزيد الاسدى بخيلا جدا أصابه القولنج فى بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما فى بطنه فى الطست فقال لغلامه اجمع الدهن الذى نزل من الحقنة وأسرج به وكان المنصور شديد البخل جدا مر به مسلم الحادى فى طريقه الى الحج فحداله يوما بقول الشاعر

أغر بين الحاجبين نوره * يزينه حياؤه وخيره
ومسكه يشوبه كافوره * اذا تغذى رفعت ستوره

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال يا ربيع أعطه نصف درهم فقال مسلم نصف درهم يا أمير المؤمنين والله لقد حدوت لهشام فأمر لى بثلاثين ألف درهم فقال تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم يا ربيع وكل به من يستخلص منه هذا المال قال الربيع فما زلت أمشى بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدوله فى ذهابه وايابه بغير مؤنة * وكان ابو العتاهية ومروان بن ابى حفصة بخيلين يضرب ببخلهما المثل قال مروان ما فرحت بشئ أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها الى المهدى فوزنتها فرجحت درهما فاشتريت به لحما واشتريت يوما لحما بدرهم فلما وضعه فى القدر دعاه صديقه فردا للحم على القصاب

ينقصان دانقين فجعل القصاب ينادي على اللحم ويقول هذا لحم مروان واجتاز يوما باعرابية فأضافته فقال ان وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهما فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دوانق ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو يقال ان من عادتهم اذا تزافقوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط ويجمعون اللحم كله في قدر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه فاذا استوى جز كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق وقيل لبخيل من أبخع الناس قال من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تشق مرارته وقيل لبعضهم أما يكسوك محمد بن يحيى فقال والله لو كان له بيت مملوء ابرا وجاء يعقوب ومعه الانبياء شفعاء والملائكة ضمناء يستعير منه ابرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر ما اعاره اياها فكيف يكسوني وقد نظم ذلك من قال

لو أن دارك أنبتت لك واحتشت * ابرا يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك ابرة * ليخيط قد قميصه لم تفعل

وكان المتنبي بخيلا جدا مدحه انسان بقصيدة فقال له كم أملت منا على مدحك قال عشرة دنانير قال له والله لو ندفت قطن الارض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك دانقا وقال دعبل كنا عند سهل بن هرون فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع فقال ويلك يا غلام آتنا غداء فاتى بقصعة فيها اديك مطبوخ تحته ثريدة قليل فتأمل الديك فرآه بغير رأس فقال لغلامه وأين الرأس فقال رميته فقال والله اني لاكره من يرمي برجله فكيف برأسه ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الاعضاء ومنه يصيح الديك ولولا صوته ما أريد وفيه فرقه الذي يتبرك به وعينه التي يضرب بها المثل فيقال شراب كعين الديك ودماغه عجيب لوجع الكلية ولم نر عظما أهش تحت الاسنان من عظم رأسه وهبك ظننت أني لا آكله أما قلت عنده من يأكله انظر في أي مكان رميته فأتني به فقال والله لا أدري أين رميته فقال لكني أنا أعرف أين رميته رميته في بطنك الله حسبك وقيل من الناس من يبخل بالطعام ويجود بالمال وبالعكس قال بعضهم في أبي دلف

أبو دلف يضيع ألف ألف * ويضرب بالحسام على الرغيف
أبو دلف لمطبخه قتار * ولكن دونه سل السيوف

واشتكى رجل مروزي صدره من سعال فوصفوا له السويق الاوز فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء فبينما هو يماطل الايام ويدافع الآلام اذ أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة وقال انه يجلو الصدر فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها فجلا صدره ووجده يعصم فلما حضر غداؤه أمر به فرفع الى العشاء وقال لامرأته اطبخي لاهل بيتنا النخالة فاني وجدت ماءها يعصم و يجلو الصدر فقالت لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دوائك وغذائك فالحمد لله على هذه النعمة وعن خاقان بن صبيح قال دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا فأتانا بسراج فيه فتيلة في غاية الرقة وقد علق فيها عودا بخيط فقلت له ما بال هذا العود مربوطا قال قد شرب الدهن واذا ضاع ولم نحفظه احتجنا الى غيره

فلا تجد الا عودا عطشانا ونخشى أن يشرب الدهن قال فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية اذ دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر الى العود فقال للرجل يا فلان لقد فررت من شئ ووقعت فيما هو شر منه أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الاشياء وينشفان هذا العود لما اتخذت مكان هذا العود ابرة من حديد فان الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف والعود أيضا ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها فقال له الرجل الخراساني أرشدك الله ونفع بك فلقد كنت في ذلك من المسرفين وقال الهيثم بن عدي نزل على أبي حفصة الشاعر رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج اليه ثم رجع وكتب اليه

يا أيها الخارج من بيته * وهارب من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاده له * فارجع وكن ضيفا على الضيف

واشترى رجل من البقلاء دارا وانتقل اليها فوقف ببابه سائل فقال له فتح الله عليك ثم وقف ثان فقال له مثل ذلك ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك ثم التفت الى ابنته فقال لها ما أكثر السؤال في هذا المكان قالت يا أبت ما دمت مسقسكالهم بهذه الكلمة فانها تكثروا أم قلوا وألأم اللئام وأبخلهم حميد الارقط الذي يقال له هجاء الاضياف وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له

ما بين لقمته الاولى اذا انحدرت * وبين أخرى تليها قيد أظفور

وقال فيه أيضا

تجهز كفاه ويحدر حلقه * الى الزور ما ضمت عليه الانامل

وأكل أعرابي مع أبي الاسود رطبا فأكثر ومد أبو الاسود يده الى رطبة ليأخذها فسبقه الاعرابي اليها فسقطت منه في التراب فأخذها أبو الاسود وقال لا أدعها للشيطان يأكلها فقال الاعرابي والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزلا من السماء ما تركتها وقال أعرابي لئن زال نزل به نزلت بوادغير ممطور ورجل بك غير مسرور فأقم بعدم أو ارحل بندم وللمعدوني

رأيت أبا زرارة قال يوما * لحاجبه وفي يده الحسام
لئن وضع الخوان ولاح شخص * لأختطفن رأسك والسلام
فقال سوى أبيك فذا الشيخ * بغيض ليس يردعه الكلام
فقام وقال من حنق اليه * ببيت لم يرد فيه القيام
أبي وابنا أبي والكلب عندي * بمنزلة اذا حضر الطعام
وقال له أبن لي يا ابن كلب * على خبزي أصادر أو أضام
اذا حضر الطعام فلا حقوق * علي لوالدي ولا ذمام
فما في الارض أقبح من خوان * عليه الخبز يحضره الزحام

فاين هذا من القائل

بخيل يرى في الجود عارا وانما * يرى المرء عارا أن يضن ويبخلا

اذا المرء أثرى ثم لم يرج نفعه * صديق فلاقته المنية أولا

وقال آخر

وآمرة بالبخل قالت لها اقصري * فليس اليه ما حييت سبيل
أرى الناس اخوان الكريم وما أرى * بخيلا له في العالمين خليل

وقالوا اذا سألت لئيما شيأ فعاجله ولا تدعه يفكر فانه كلما فكر ازداد بعدا وقال ربي الهمداني

جمعت صنوف المال من كل وجهة * وما نلتها الا بكف كريم
واني لارجو أن أموت وتنقضي * حياتي وما عندي يد للئيم

وأنشد الجاحظ لابي الشمقمق

ممن تعلمت هذا * أن لا تجود بشيء
أما مررت بعبد * لعبد حاتم طيء

ومما قالته الشعراء في البخلاء وطعامهم فمن أهجى ما قيل فيهم بيت جرير في بني تغلب والتغلبي اذا تنحنح للقرى * حك استه وتمثل الامثالا

وله أيضا فيهم

قوم اذا أكلوا أخفوا كلامهم * واستوثقوا من رتاج الباب والدار
قوم اذا استنبح الضيفان كلبهم * قالوا لامهم بولي على النار
فتمنع البول خبثا أن تجود به * وما تبول لهم الا بمقدار
والخبز كالعنبر الهندي عندهم * والقمح خمسون اردبا بدينار

فأين هؤلاء من الذي قال فيه الشاعر

أبلج بين حاجبيه نوره * اذا تغدى رفعت ستوره

وقال بعضهم في بخيل

أتانا بخيل بخبزله * كمثل الدراهم في رقته
اذا ما تنفس حول الخوان * تطاير في البيت من خفته

وقال آخر

تراهم خشية الاضياف خرسا * يقيمون الصلاة بلا أذان

وقال آخر وقد بات عند بخيل

فبتنا كأنا بينهم أهل مأتم * على ميت مستودع بطن ملحد
يحدث بعضنا بعضا بصابه * ويأمر بعضنا بعضنا بالتجلد

وقال آخر

وحيرة لا نرى في الناس مثلهم * اذا يكون لهم عيد وافطار
ان يوقدوا يوسعونا من دخانهم * وليس يلغنا ما تطبخ النار

وقال آخر وأجاد

فصدق ايمانه ان قال مجتهدا * لاوالرغيف فذاك البر من قسمه
فان هممت به فاعبث بخبزته * فان موقعها من لحمه ودمه
فدكان يعجبني لوأن غيرته * على جرادقه كانت على حرمه

وقال آخر

ذهب الكرام فلا كرام * وبقي العضاريط اللئام
من لا يقيل ولا ينيـ * ـل ولا يشم له طعام

وقال آخر

خليلي من كعب أعينا أخاكما * على دهره ان الكريم معين
ولا تبخلا بخل ابن قزعة انه * مخافة أن يرجى نداه حزين
اذا جئته في حاجة سد بابه * فلم تلقه الا وأنت كمين

وقال آخر

له يومان يوم ندى ويوم * يسل السيف فيه من القراب
فأما جوده فعلى قحاب * وأما سيفه فعلى الكلاب

وقال آخر

زففت الى نبهان من صفو فكرتي * عروسا غدا بطن الكتاب لها صدرا
فقبلها عشـ * ـرا وعام بحبها * فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

وقال آخر

لو عبر البحر بأمواجه * في ليـ * ـلة مظلمة باردة
وكفه مملوأة خردلا * ما سقطت من كفه واحدة

وقال آخر

يا قائما في داره قاعـ * ـدا * من غير معنى لا ولا فائده
قدمات أضيافك من جوعهم * فاقرأ عليهم سورة المائده

وقال آخر

نوالك دونه شول القتاد * وخبزك كالثريا في البعاد
فلو أبصرت ضيفا في منام * لحرمت الرقاد الى المعاد

وقال آخر

لا تعجبن من خبز زل من يده * فالكوكب الغض يبقى الارض أحيانا

وقال ابن أبي حازم

وقالوا قد مدحت فتى كريما * فقلت وكيف لي بفتى كريم
بلوت وجربي خمسون حولا * وحسبك بالمجرب من عليم
فلا أحمد يعد ليوم خير * ولا أحمد يجود على عديم

ومن رؤساء أهل الجهل محمد بن الجهم وهو الذي قال وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة

من الخطباء وعشرة من الشعراء وعشرة من الادباء تواطؤا على ذمي واستسمحوا شتمي حتى يتشهر ذلك في الآفاق فلا يمتد الى أمل آمل ولا يبسط نحوي رجاء راج وقال له أصحابه يوما انا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار مئونتك فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استئذاننا لجاز لنا فقال علامة ذلك أن أقول ياغلام هات الغداء * وقال عمر بن ميمون مررت ببعض طرق الكوفة فاذا أنا برجل يخاصم جارا له فقلت ما بالكما فقال أحدهما ان صديقا لي زارني فاشتهى رأسا فاشتريته وتغديناه وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتحمل بها الجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس انه هو الذي اشترى الرأس * وقال رجل من البخلاء لأولاده اشتروا لي لحما فاشتروه فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده الا عظمة وعمون أولاده ترمقه فقال ما أعطى أحدا منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها فقال ولده الاكبر أمششها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر فيها مقيلا قال لست بصاحبها فقال الاوسط ألوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدري أحد لعاب هي أم لعابين قال لست بصاحبها فقال الاصغر يا أبت أمصها ثم أدقها وأسفها سفا قال أنت صاحبها وهي لك زادك الله معرفة وحزما * ووقف أعرابي على أبي الاسود وهو يتغدى فسلم فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه فقال له الاعرابي أما اني قد مررت بأهلك قال كذلك كان طريقك قال وامرأتك حبلى قال كذلك كان عهدي بها قال قد ولدت قال كان لابد لها أن تلد قال ولدت غلامين قال كذلك كانت أمنيتها قال مات أحدهما قال ما كانت تقوى على ارضاع اثنين قال ثم مات الآخر قال ما كان ليبقى بعد موت أخيه قال وماتت الام قال حزنا على ولديها قال ما أطيب طعامك قال لاجل ذلك أكلته وحدي ووالله لاذقته يا اعرابي * وقيل خرج أعرابي قد ولاه الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة فلما كان في بعض الايام ورد عليه أعرابي من حيه فقدم اليه الطعام وكان اذ ذاك جائعا فسأله عن أهله وقال ما حال ابني عمير قال على ما تحب قد ملأ الارض والحي رجالا ونساء قال فما فعلت أم عمير قال صالحة أيضا قال فما حال الدار قال عامرة بأهلها قال وكلبنا اليقاع قال قد ملأ الحي نباحا قال فما حال جملي زريق قال على ما يسرك فقال فالتفت الى خادمه وقال ارفع الطعام فرفعه ولم يشبع الاعرابي ثم أقبل عليه يسأله وقال يا مبارك الناصية أعد علي ما ذكرت قال سل عما بدا لك قال فما حال كلبي اليفاع قال مات قال وما الذي أماته قال اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات قال أو مات جملي زريق قال نعم قال وما الذي أماته قال كثرة نقل الماء الى قبر أم عمير قال أو ماتت أم عمير قال نعم قال وما الذي أماتها قال كثرة بكائها على عمير قال أو مات عمير قال نعم قال وما الذي أماته قال سقطت عليه الدار قال أو سقطت الدار قال نعم قال فقام له بالعصا ضاربا فولى من بين يديه هاربا (وحكى) بعضهم قال كنت في سفر فضللت عن الطريق فرأيت بيتا في الفلاة فأتيته فاذا به اعرابية فلما رأتني قالت من تكون قلت ضيف قالت أهلا ومرحبا بالضيف انزل على الرحب والسعة قال فنزلت فقدمت لي طعاما فأكلت وماء فشربت فبينما أنا على ذلك اذ أقبل صاحب البيت فقال

من هذا فقالت ضيف فقال لا أهلا ولا مرحبا مالنا وللضيف فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتي وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتا في الفلاة فقصدته فاذا فيه أعرابية فلما رأتني قالت من تكون قلت ضيف قالت لا أهلا ولا مرحبا بالضيف مالنا وللضيف فبينما هي تكلمني اذ أقبل صاحب البيت فلما رآني قال من هذا قالت ضيف قال مرحبا وأهلا بالضيف ثم أتى بطعام حسن فأكلت وما فشربت فتذكرت ما مر بي بالامس فتبسمت فقال مم تبسمك فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الاعرابية وبعلها وما سمعت منه ومن زوجته فقال لا تعجب ان تلك الاعرابية التي رأيتها هي أختي وان بعلها أخو امرأتي هذه تغلب على كل طبع أهله وحكايات هؤلاء وأمثالهم كثيرة وأخبارهم ونوادرهم شهيرة وفيما ذكرته كفاية وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الخامس والثلاثون في الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والضيف وأخبار الاكلة وما جاء عنهم وغير ذلك

(أما اباحة الطيب من المطاعم) فقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون وقال تعالى يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين وقال تعالى قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم محرم الحلال كمحلل الحرام وقال عليه الصلاة والسلام ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه وكان الحسن يقول ليس في اتخاذ الطعام سرف وسئل الفضل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص للزهد فقال ما للزهد وأكل الخبيص لينك تأكل وتتقي الله ان الله لا يكره أن تأكل الحلال اذا اتقيت الحرام انظر كيف برك بوالديك وصلتك للرحم وكيف عطفك على الجار وكيف رحمتك للمسلمين وكيف كظمك للغيظ وكيف عفوك عمن ظلمك وكيف احسانك الى من أساء اليك وكيف صبرك واحتمالك للاذى أنت الى احكام هذا أحوج من تركك الخبيص *(وأما نعوت الاطعمة وما جاء فيها)* فقد نقل عن الرشيد أنه سأل ابا الحرث عن الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فقال يا أمير المؤمنين لا أقضي على غائب فأحضرهما اليه فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ثم قال يا أمير المؤمنين كلما أردت أن أقضي لأحدهما أتى الآخر بحجته واختلف الرشيد وأم جعفر في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى فقال له الرشيد احكم قال قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار الا دينارا وسمع الحسن البصري رجلا يعيب الفالوذج فقال لباب البر يلعاب النحل بخالص السمن ما أظن عاقلا يعيبه وقال الاصمعي أول من صنع الفالوذج عبد الله بن جدعان وأتى أعرابي بفالوذج فأكل منه لقمة فقيل له هل تعرف هذا فقال هذا وحياتك الصراط المستقيم وكان

أحب الطعام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللحم وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم وكان صلى الله عليه وسلم يقول هو سيد الطعام في الدنيا والآخرة وهو يزيد في السمع ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل وكان صلى الله عليه وسلم يحب الدباء ويقول يا عائشة اذا طبختم قدرا فأكثروا فيها من الدباء فانها تشد القلب الحزين وهي شجرة أخي يونس وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالقرع فانه يشد الفؤاد ويزيد في الدماغ وعليكم بالعدس فانه يرق القلب ويغزر الدمعة وعن أبي رافع قال كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول أكل التمر أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج وأكل السفرجل يحسن الولد وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب بالنصب والوصب والكرفس يقوي المعدة ويطيب النكهة وأطيب اللحم الكتف وكان يديم أكل الهريسة وكان يأكل على سماط معاوية ويصلي خلف علي ويجلس وحده فسئل عن ذلك فقال طعام معاوية أدسم والصلاة خلف علي أفضل وهو أعلم والجلوس وحدي لي أسلم وسميت المتوكلية بالمتوكل والمأمونية بالمأمون وقال الحسن بن سهل يوما على مائدة المأمون الارز يزيد في العمر فسأله المأمون عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين ان طب الهند صحيح وهم يقولون ان الارز يرى مناما حسنة ومن رأى مناما حسنا كان في نهارين فاستحسن قوله ووصله وقال أبو صفوان الارز الابيض بالسمن والكراليس من طعام أهل الدنيا وقيل لابي الحرث ما تقول في الفالوذجة قال وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا في صدري والله لو أن موسى لقي فرعون بالفالوذجة لآمن ولكنه لقيه بعصا وكانت العرب لا تعرف الالوان انما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح حتى كان زمن معاوية رضي الله عنه فاتخذ الالوان ويقال للمرقة المسخنة بنت نارين وكان بعض المترفهين يقول جنبوا مائدتي بنت نارين وقالوا كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فالسد وقيل اذا ألقي اللحم في العسل ثم أخرج بعد شهر طريا فانه لا يتغير ويقال للسكباج سيد المرق وشيخ الاطعمة وزين الموائد ويقال اذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة ويقال للخبز ابن حبة قال بعضهم

في حبة القلب مني * زرعت حب ابن حبه

وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه أكرموا الخبز قالوا وما كرامته يا رسول الله قال لا ينتظر به الادام اذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره وفي الحديث من داوم على اللحم أربعين يوما قسا قلبه ومن تركه أربعين يوما ساء خلقه وقيل المائدة التي أنزلت على بني اسرائيل كان عليها كل البقول الا الكزبرة وسمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان ودخل ابن قزعة يوما على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه فقال ما بال مولانا ليس يدعوني الى الفوز بأكل الموز فقال صفه حتى أطعمك منه فقال ما الذي أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنها حشيت زبدا وعسلا أطيب الثمر كأنه مخ الشحم سهل المقشر ابن المكسر عذب

المطعم بين الطعوم سلس في الحلقوم ثم مد يده وأكل وسمع رجلا يذم الزبد فقال له ما الذي ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أم خشونة ملمسه وقيل له ما تقول في الباذنجان قال أذناب المحاجم وبطون العقارب وبزور الزقوم قيل له انه يحشى باللحم فيكون طيبا فقال لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح * وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لوزان هل عمل كسرى مثلها فاستعفاه فأقسم عليه فقال أولم عبد عند كسرى فأقام على رؤس الناس ألف وصيفة في يد كل واحدة ابريق من ذهب فقال الحجاج اف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفا * وأهدى رجل الى آخر فالوذجة زنخة وكتب اليه اني اخترت لعملها السكر السوسي والعسل المارداني والزعفران الاصبهاني فأجابه والله العظيم ما عملت الا قبل أن توجد أصبهان وقبل أن تفتح السوس وقبل أن يوحي ربك الى النحل وقيل ان أباجهم ابن عطية كان عينا لابي مسلم الخولاني على المنصور فأحس المنصور بذلك فطاوله الحديث يوما حتى عطش فاستسقى فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم فناوله اياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل في ذلك

تجنب سويق اللوز لا تقربنه * فشرب سويق اللوز أردى أباجهم

وقال أبو طالب المأموني

فما حملت كف امرئ متطعما * ألذ وأشهى من أصابع زينب

وأصابع زينب ضرب من الحلوى يعمل ببغداد يشبه أصابع النساء المنقوشة * ودخل السائب على علي رضي الله عنه في يوم شات فناوله قدحا فيه عسل وسمن وابن فأباه فقال أما انك لو شربته لم تزل دفئا شهرا عن سائر يومك * وعن ناقع بن أبي نعيم قال كان أبو طالب يعطي عليا قدحا من اللبن يصبه على اللات فكان علي يشرب اللبن ويبول على اللات

*(وأما الزهد في المأكل) فقد زهد فيه كثير من الاخيار مع القدرة عليه ومنهم من لا يقدر عليه قالت عائشة رضي الله عنها والذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ما كان لنا منخل ولا أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزا منخولا منذ بعثه الله تعالى الى أن قبض قيل فكيف كنتم تأكلون الشعير قالت كنا نقول اف اف وعن جابر رضي الله تعالى عنه رفعه نعم الادم الخل وكفى بالمرء سرفا أن يتسخط ما قرب اليه وقال عمر رضي الله عنه ما اجتمع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ادمان الا أكل أحدهما ونصدق بالآخر وقالت عائشة رضي الله عنها ما كان يجتمع لونان في لقمة في فم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كان لحما لم يكن خبزا وان كان خبزا لم يكن لحما وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يا علي ابدأ بالملح واختم به فان فيه شفاء من سبعين داء وروي أن نبيا من الانبياء عليهم السلام شكا الى الله الضعف فأمره أن يطبخ اللحم باللبن فان القوة فيهما وسنذكر فضل الزهد في المأكل والمشارب في باب مدح الفقراء ان شاء الله تعالى

*(وأما ما جاء في آداب الاكل) * فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال عند مطعمه ومشربه بسم الله خير الاسماء بسم الله رب الارض والسماء لم يضره ما أكل وما شرب وكان صلى الله عليه وسلم اذا وضع بين يديه الطعام قال بسم الله اللهم بارك لنا فيما

رزقنا وعليك خلقه وقال صلى الله عليه وسلم من أكل طعاما فقال الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ومن لبس ثوبا فقال الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله فان نسى فى أوله فليقل بسم الله أوله وآخره وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه واذا شرب فليشرب بيمينه فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله وقال صلى الله عليه وسلم لا تأكل فى السوق دناءة وعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم زجر عن الشرب قائما قال فسألناه عن الأكل قائما فقال هو شر من الشرب وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال اذا أكلت فضم شفتيك ولا تلتفتن يمينا ولا شمالا ولا تقعدن بسكين ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة ولا تبصق فى الاماكن النظيفة ومن هذا ما رواه الزهرى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن النفخ فى الطعام والشراب وقال على رضى الله عنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤكل الطعام حارا وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ما عاب النبى صلى الله عليه وسلم طعاما قط ان اشتهاه أكله والا تركه وقال عمرو بن هبيرة عليكم بمباكرة الغداء فان مباكرته تطيب النكهة وتعين على المروأة قبل وما اعانته على المروأة قال أن لا تتوق نفسك الى طعام غيرك وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أكل من سفط المائدة عاش فى سعة وعوفى فى ولده وولد ولده من الحق وعنه صلى الله عليه وسلم من لقط شيأ من الطعام فأكله حرم الله جلده على النار وكان الحرث ابن كلدة يقول اذا تغدى أحدكم فليمش على غدائه واذا تعشى فليخط أربعين خطوة وقيل خير الغداء ابواكره وخير العشاء سوافره وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتبع الرجل بصره لقمة اخيه وقال الحجاج لاعرابى يوما على سماطه ارفق بنفسك فقال وأنت يا حجاج اغضض من بصرك وقال معاوية لرجل على مائدته خذ الشعرة من لقمتك فقال وانك تراعينى مراعاة من يرى الشعرة فى لقمتى لا أكلت لك طعاما أبدا ووضع معاوية بين يدى الحسن بن على رضى الله عنهما دجاجة ففككها فقال معاوية هل بينك وبين أمتها عداوة فقال الحسن فهل بينك وبين أمتها قرابة أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما يوقر مجالس الملوك والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة رضى الله عنهما وحضر أعرابى على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدى مشوى فجعل الاعرابى يسرع فى أكله منه فقال له الخليفة أراك تأكله بحرد كأن أمه نطحتك فقال أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك * (وأما ما جاء فى كثرة الاكل) * فقد روى عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم من قل طعامه صح بطنه وصفا قلبه ومن كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه وعنه صلى الله عليه وسلم لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزرع اذا كثر عليه الماء مات وقال صلى الله عليه وسلم ما زين الله رجلا بزينة أفضل من عفاف بطنه وقال عمرو بن عبيد ما رأيت الحسن ضاحكا الا مرة واحدة قال رجل

من جلسائه ما آذانى طعام قط فقال له آخر أنت لو كانت فى معدتك الحجارة لطحنتها وقال على كرم الله وجهه البطنة تذهب الفطنة وقال ابن المقفع كانت ملوك الاعاجم اذا رأت الرجل نهما شرهها أخرجوه من طبقة الجد الى باب الهزل ومن باب التعظيم الى باب الاحتقار وتقول العرب أقل طعاما تجده مناما وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا

لست بأكال كأكل العبد * ولا بنوام كنوم الفهد

وأنشد الاصمعى لرجل من بنى فهد

ادام أزر الاكل أكلة * فلا رفعت كفى الى طعام

فما أكلة ان نلتها بغنيمة * ولا جوعة ان جعتها بغرام

وقالت عائشة رضى الله عنها أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشترى غلاما فألقى بين يديه تمرا فأكل فأكثر فقال صلى الله عليه وسلم ان كثرة الاكل شؤم وقالوا الوحدة خير من الجليس السوء والجليس السوء خير من الأكيل السوء وشكا أبو العيناء الى صديق له سوء الحال فقال اشكر فان الله قد رزقك الاسلام والعافية قال أجل ولكن بهما جوع يقلقل الكبد ودعت أبا الحرث حبيبة له فحادثته ساعة فجاع فطلب الاكل فقالت له أما فى وجهى ما يشغلك عن الأكل قال جعلت فداك لو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما فى وجه صاحبه وافترقا

(وأما أخبار الاكلة) فقد قيل ان وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل فقال أكلت مائة رغيف بمكوك بلى * ومر ميسرة المذكور يوما بقوم وهو راكب حمارا فدعوه للضيافة فذبحوا له حماره وطبخوه وقدموه له فأكله كله فلما أصبح طلب حماره ليركبه فقيل له هو فى بطنك * وقال المعتمر بن سليمان قلت لهلال المازنى ما أكلة بلغتنى عنك قال جعت مرة ومعى بعير لى فنحرته وشويته وأكلته ولم أبق منه الا شيأ يسيرا حملته على ظهرى فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لى فلم أقدر أصل اليها فقالت كيف تصل الى وبيننا جمل فقلت له كم تكفيك هذه الاكلة فقال أربعة أيام وقال الاصمعى ان سليمان بن عبد الله كان شرههما وكان من شرهه أنه اذا أتى بالسفود وعليه الدجاج السمين المتوى لا يصبر الى أن يبرد ولا أن يؤتى بنديل فيأخذ بكمه فيأكل واحدة واحدة حتى يأتى عليها فقال الرشيد ويحك يا أصمعى ما أعلمك بأخبار الناس انى عرضت على جباب سليمان فرأيت فيها آثار الدهن فظننته طيبا حتى حدثتنى ثم أمر لى بجبة منها فكنت اذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك * وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز الى وقال يا شمردل ما عندك ما تطعمنى قلت عندى جدى كأعظم ما يكون سمنا قال عجل به فأتيته به كأنه عكة سمن فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى اذا لم يبق منه الا نخذ قال هلم يا أبا جعفر فقال انى صائم فأكله ثم قال يا شمردل ويلك أما عندك شئ قلت ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام فأتيته بهن فأتى عليهن ثم قال يا شمردل أما عندك شئ قلت

سويق كأنه قراضة الذهب فأتيته به فعبه حتى أتى عليه ثم قال يا غلام أفرغت من غدائنا قال نعم قال ماهو قال سيف وثلاثون قدرا قال ائتني بقدر قدر فأتاه بها ومعه الرفاق فأكل من كل قدر ثلثه ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا وصف الخوان فقعد وأكل مع الناس وكان هلال بن الاسعر يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النبيذ وكان غليظا عتلا * وقال أعرابي لرجل رآه سمينا أرى عليك قطيفة من نسيج أضراسك * وقال أبو المحسر الاعرابي كانت لي بنت تجلس معي على المائدة فتبرز كفا كأنها صلفة في ذراع كأنه جمارة فلا تقع عينها على لقمة نفيسة الا خصتني بها فكبرت وزوجتها وصرت أجلس على المائدة مع ابن لي فيبرز كفا كأنها كرنافة فوالله ان تسبق عيني الى لقمة طيبة الا سبقت يده اليها * وقال مسلم بن قتيبة عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفا مع كل رغيف سمكة * ويقال فلان يحاكي حوت يونس في جودة الالتقام وعصا موسى في سرعة الالتهام * وقيل لابي مرة أي الطعام أحب اليك قال لحم سمين وخبز سميذ أضرب فيه ضرب ولي السوء في مال اليتيم * وقال صدقة بن عبيد المازني أولم لي أبي لما تزوجت فعمل عشر جفان ثريد من جزور فكان أول من جاءنا هلال المازني فقدمنا له جفنة مترعة فأكلها ثم أخرى فأكلها حتى أتى على الجميع ثم أتي بقربة مملوأة من النبيذ فوضع طرفها في شدقه وزرعها في جوفه ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام * وكان عبيد الله بن زياد يأكل في كل يوم خمس أكلات فخرج يوما يريد الكوفة فقال له رجل من بني شيبان العداء أصلح الله الامير فنزل فذبح له عشرين طائرا من الاوز فأكلها ثم قدم الطعام فأكل ثم أتي بتيلين في أحدهما تين وفي الآخر بيض فجعل يأكل من هذا تينة ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه ثم رجع وهو جائع وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ومائة رغيف فذكر ذلك للمهدي فقال دعوت يوما بالفيل وأمرت فألقي اليه رغيف رغيف فأكل تسعة وتسعين وألقي اليه تمام المائة فلم يأكله * وحدث الشيخ بهيه الدين الجوهري أنه سمع الشيخ الامام عز الدين بن عبد السلام يقول ان معاوية بن أبي سفيان كان يأكل في كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولا يشبع * ونزل رجل بصومعة راهب فقدم اليه الراهب أربعة أرغفة وذهب ليحضر اليه العدس فحمله وجاء فوجده قد أكل الخبز فذهب فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس ففعل معه ذلك عشر مرات فسأله الراهب أين مقصده قال الى الاردن قال لماذا قال بلغني أن بها طبيبا حاذقا أسأله عما يصلح معدتي فاني قليل الشهوة للطعام فقال له الراهب ان لي اليك حاجة قال وما هي قال اذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك علي

* (وأما المهازلة على الطعام) * فقد روى عن يحيى بن عبد الرحمن رضي الله عنه قال قالت عائشة رضي الله عنها كان عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة فصنعت حريرة فجئت به فقلت لسودة كلي فقالت لا أحبه فقلت والله لتأكلين أو لألطخن وجهك فقالت ما أنا بذائقته فأخذت من الصحفة شيأ فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها فتناولت من الصحفة شيأ فلطخت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك * واشترى غندر يوما سمكا وقال لاهله أصلحوه ونام فأكل عياله السمك ولطخوا

يده فلما انتبه قال قدموا الى السماك فقالوا قد أكلت قال لا قالوا ثم يدك فقال صدقتم ولكن ماشبعت * ودخل الحدوني على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولا يمدون أيديهم فقال لقد ذكرتموني ضيف ابراهيم وقول الله تعالى فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ثم قال كلوا رحمكم الله فضحكوا وأكلوا والحكايات في ذلك كثيرة

(وأما الضيافة واطعام الطعام) فقد قال الله تعالى هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ولا يؤذ جاره وقال صلى الله عليه وسلم من أكل وذو عينين ينظر اليه ولم يواسه ابتلى بداء لا دواء له وقال الحسن كان نسمع أن احدى مراجب الرحمة اطعام الاخ المسلم الجائع وقيل لابراهيم الخليل عليه السلام بم اتخذك الله خليلا قال بثلاث ماخيرت بين شيئين الا اخترت الذي لله على غيره ولا اهتممت بما تكفل لي به ولا تغديت ولا تعشيت الا مع ضيف ويقولون ماخلا مضيف الخليل عليه السلام الى يومنا هذا الا واحدة من ضيف وكان الزهري اذا الى كل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام * وقالوا المائدة مرزوقة أي من كان مضيافا وسع الله عليه * وقالوا أول من سن القرى ابراهيم الخليل عليه السلام وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم وأول من أفطر جيرانه على طعامه في الاسلام عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما وهو أول من وضع موائده على الطريق وكان اذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شئ فان لم يجد من يأكله تركه على الطريق * وقيل لبعض الكرماء كيف اكتسبت مكارم الاخلاق والتأدب مع الاضياف فقال كانت الاسفار تحوجني الى أن أفد على الناس فما استحسنته من أخلاقهم اتبعته وما استقبحته اجتنبته

(وأما آداب المضيف) فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه فقد قيل البشاشة في الوجه خير من القرى قالوا فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوي رحمه الله هذا الكلام بأبيات فقال

اذا المرء وافى منزلا منك قاصدا * قراك وأرمته لديك المسالك
فكن باسما في وجهه متهللا * وقل مرحبا أهلا ويوم مبارك
وقدم له ماتستطيع من القرى * عجولا ولا تبخل بما هو هالك
فقد قيل بيت سالف متقدم * تدا وله زيد وعمرو ومالك
بشاشة وجه المرء خير من القرى * فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك

وقالت العرب تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة واطالة الحديث عند المؤاكلة وقال حاتم الطائي

سلي الطارق المعتر يا أم مالك * اذا ما أتاني بين ناري ومجزري
أأبسط وجهي انه أول القرى * وأبذل معروفي له دون منكر

وقال آخر في عبد الله بن جعفر

انك يا ابن جعفر خير فتى * وخيرهم لطارق اذا أتى

ولله در القائل

الله يعلم انه ما مرّ لي * شئ كطارقة الضيوف النزل
مازلت بالترحيب حتى خلتني * ضيفا له والضيف رب المنزل

أخذه من قول الشاعر

ياضيفنا لو زرتنا لوجدتنا * نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان

منزلي رحب لمن زاره * نحن سواء فيه والطارق
وكل ما فيه حلال له * الا الذي حرّمه الخالق

وقال الاصمعي سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الاخلاق فقال أو ما سمعت قول عاصم بن وائل

وانا لفقري الضيف قبل نزوله * ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

وقال بعض الكرام

اضاحك ضيفي قبل أنزل رحله * ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للاضياف أن تكثر القرى * ولكنما وجه الكريم خصيب

وقال آخر

عوّدت نفسي اذا ما الضيف نبهني * عقر العشار على عسر ويسار

ومن آداب المضيف أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل اكرام الضيف قال الشاعر

مطية الضيف عندي تلو صاحبها * لن يأمن الضيف حتى تكرم الفرسا

وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله أما سمعت قول الله عز وجل وامرأته قائمة ومن آداب المضيف ان يحدث أضيافه بما يميل اليه نفوسهم ولا يتمام قبلهم ولا يشكو الزمان بحضورهم ويبش عند قدومهم ويتألم عند دعائهم وأن لا يحدث بما يروعهم به كما حكي بعضهم قال استدعاني اسحق بن ابراهيم الظاهري الى أكل هريسة في بكرة نهار فدخلت فأحضرت انا الهريسة فأكلنا فاذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طباخه فاستدعى خادمه فأسر اليه شيأ لم نعلمه فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة فكشف عن الصينية فاذا يد الطباخ مقطوعة تختلج فتكدر علينا عيشنا وقمنا من عنده ونحن لا نعقل فيجب على المضيف أن يراعي خواطر أضيافه كيف ما أمكن ولا يغضب على أحد بحضورهم ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه ولا يعبس بوجهه ولا يظهر نكدا ولا ينهر أحدا ولا يشتمه بحضرتهم بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن كما حكي عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه الى بستانه وعمل لهم سماطا وكان له ولد جميل الطلعة فكان الولد في أول النهار يخدم القوم ويأنسون به فلما آخر النهار صعد الى السطح فسقط فمات لوقته فغلب أبوه على امه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ولا تبكي الى أن تصبح فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده فقال هو نائم فلما اصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم ان رأيتم ان تصلوا

على ولدى فانه بالامس سقط من على السطح فمات لما عنه فقالوا له لم لا أخبرتنا حين سألناك فقال ما ينبغى لعاقل ان ينغص على أضيافه فى التذاذهم ولا يكدر عليهم فى عيشهم فتعجبوا من صبره وتجلده ومكارم أخلاقه ثم صلوا على الغلام وحضروا دفنه وبكوا عليه وانصرفوا وعلى المضيف ان يأمر غلمانه بحفظ نعال اضيافه وتفقد غلمانهم بما يكفيهم ويسهل حجابه وقت الطعام ولا يمنع واردا وقيل لبعض الامراء الكرام لا بأس بالحجاب لئلا يدخل من لا يعرفه الامير ويحترز عن العدو فقال ان عدو يأكل طعامنا ولا يخدع لا يمكنه الله منا والليق بالكريم الرئيس ان يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام فان ذلك أول الشناعة عليه وعليه ان يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وغريب الحكايات وان يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطرف ان كان من أهل ذلك وان يرى أضيافه مكان الخلاء فقد قيل عن ملك الهند أنه قال اذا ضافك أحد فأره الكنيف فانى ابتليت به مرة فوضعته فى قلبى وقالوا لا بأس ان يدخل الرجل دار أخيه يستطعم للصداقة الوكيدة وقد قصد النبى صلى الله عليه وسلم والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبى أيوب الانصارى وكذلك كانت عادة السلف رضى الله تعالى عنهم وكان اعون بن عبد الله المسعودى ثلثمائة وستون صديقا فكان يدور عليهم فى السنة ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه فيأكل وهو غائب فقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة رضى الله عنها فأكل طعامها وهى غائبة وكان الحسن رضى الله عنه يوما عند بقال فجعل يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه فستقة فيأكلها فقال له هشام مابذا لك يا أبا سعيد فى الورع فقال له يا كع اتل على آية الاكل قتلا ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم الى قوله أو صديقكم فقال الصديق من استروحت اليه النفس واطمأن اليه القلب وعلى المضيف الكريم أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما فى يده بل يحضر اليهم ما وجد فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يقتحمون الكسرة اليابسة وحشف التمر ويقولون ما ندرى أيهما أعظم وزرا الذى يحتقر ما قدم اليه أو الذى يحتقر ما عنده ان يقدمه وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من لقم اخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف * (وحكى) عن الامام الشافعى رضى الله عنه أنه كان نازلا عند الزعفرانى ببغداد فكان الزعفرانى يكتب فى كل يوم رقعة بما يطبخ من الالوان ويدفعها الى الجارية فأخذها الشافعى منها يوما وألحق فيها لونا آخر فعرف الزعفرانى ذلك فأعتق الجارية سرورا بذلك وكانت سنة السلف رضى الله عنهم أن يقدموا جملة الالوان دفعة لياكل كل شخص ما يشتهى ومن السنة ان يشيع المضيف الضيف الى باب الدار وعلى المضيف اذا قدم الطعام الى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته فقد قيل ثلاثة تضئ سراج لا يضئ ورسول بطئ ومائدة ينتظر لها من يجئ ونزل الامام الشافعى رضى الله عنه بالامام مالك رضى الله عنه فصب بنفسه الماء على يديه وقال له لا ير عك ما رأيت منى لخدمة الضيف على المضيف فرض

اعرض طعامك وابذله لمن أكلا * واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا

ولا تكن سابري العرض محتشما * من القليل فلست الدهر محتفلا

ومن البخلاء من يعزم على الضيف فيعتذر له فيمسك عنه بمجرد الاعتذار كانه تخلص من ورطة وقيل لبعض البخلاء ما الفرج بعد الشدة قال أن يعتذر الضيف بالصوم ومن البخلاء من يعجبه طعامه ويصف زياديه ويشتهي أن تبقى على حالها ومنهم من يحضر طعامه فاذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها واشهاها الى النفوس ويعتذر ان فى أصحابه من يحضر بالغداة عنده *(وحكى) عن بعض البخلاء انه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل فحول فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل فدخل الضيف من قبل ان يرفعه فظن البخيل ان ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز فقال له ترى ان تأكل عسلا بلا خبز قال نعم وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة فقال له البخيل مهلا يا أخي والله انه يحرق القلب قال نعم صدقت ولكنه قلبك *(وحكى) عن بعضهم انه قال غلب علي الجوع مرة فقلت أمضي الى دار فلان لاتغدى عنده فجئت الى باب بيته فوجدت غلامه فقلت له أين سيدك فقال والله لاقلت لك عليه الا ان أعطيتني كسرة قال فرجعت هاربا من البخل تقديم الشئ اليسير وتفخيمه *(حكى) عن بعض البخلاء أنه حلف يوما على صديقه وأحضر له خبزا وجبنا وقال له لا تستقل الجبن فان الرطل منه بثلاثة دراهم فقال له ضيقه أنا اجعله بدرهم ونصف قال وكيف ذلك قال آكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن فأين هؤلاء من الذى يقول

قالت أما ترحل تبغي الغنى * قلت فمن للطارق المعتم
قالت فهل عندك شئ له * قلت نعم جهد الفتى المعدم
فكم وحق الله من ليلة * قد أطعم الضيف ولم أطعم
ان الغنى بالنفس يا هذه * ليس الغنى بالمال والدرهم

وقال بعض البخلاء

سرى نحونا يبغي القرى طاوى الحشى * لقد عملت فيه الظنون الكواذب
فبات له منا الى الصبح شاتم * يعدد تطفيل الضيوف وضارب

فشتان ما بين القائلين

(وأما آداب الضيف) فهو أن يبادر الى موافقة المضيف فى أموره منها أكل الطعام ولا يعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن * فقد حكى انه ورد على بعض الاعراب ضيف فدخل به الى بيته وقدم له الطعام فقال الضيف لست بجائع وانما احتاج الى مكان ابيت فيه فقال الاعرابي اذا كان هذا عزمك فكن ضيف غيري فانى لا أرى ان تمدحني فى البلاد وتهجوني فيما بيني وبينك *(وحكى) عن بعض التجار قال استدعاني أبو حفص محمد بن القاسم الكرخي لاعرض عليه قماشا من تجارتي فبينما أنا بين يديه واذا بأطباق الفاكهة قد حضرت فقمت من مجلسه فقال يا فلان ما هذا الخلق العامي اجلس فجلست وتحققت كرمه وجعلت آكل الكمثراة فى لقمة والتفاحة فى لقمة ثم قدم الطعام وكنت جائعا فأكلت أكلا جيدا ثم انصرفت فلم أشعر فى اليوم الثانى الا وقد جاء فى غلامه

بغلته فاستدعانى اليه فقال لى يافلان انى قليل الاكل بطىء الهضم ولقد طابت لى مؤاكلتك بالامس فأريد أن لاتنقطع بعدها عنى قال فكنت متى انقطعت حضر غلامه فى طابى فحصل لى بقربى منه مال كثير وجاه عريض ومن آداب الضيف أيضا أن لايسأل صاحب المنزل عن شىء من داره سوى القبلة وموضع قضاء الحاجة وأن لايتطلع الى ناحية الحريم وأن لا يخالفه اذا أجلسه فى مكان واكرمه به وأن لايمتنع من غسل يديه واذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها فقد نقل فى بعض المجاميع ان بعض الكرماء كان عريدا على اضيافه سيىء الخلق بهم فبلغ ذلك بعض الاذكياء فقال الذى يظهر لى من هذا الرجل أنه كريم الاخلاق وما أظن سوء اخلاقه الا لسوء أدب الاضياف ولابد ان اتطفل عليه لارى حقيقة امره قال فقصدته وسلمت عليه فقال هل لك أن تكون ضيفى قلت نعم فسار بين يدى الى ان جاء الى باب داره فأذن لى فدخلت فأجلسنى فى صدر مجلسه بحيث جلست واعطانى مسندا فاستندت اليه فاخرج لى شطرنجا وقال أتتقن شيأ قلت نعم فلعبت معه فلما حضر الطعام جعل يقدم لى ما استطابه وأنا آكل فلما فرغنا قدم طستا وابريقا وأراد ان يسكب الماء على يدى فلم امنعه من ذلك وأراد الخروج بين يدى بعد ان قدم نعلى فلم أرده عن ذلك فلما أراد الرجوع قلت ياسيدى انشدك الله الا فرجت عنى كربة قال وماهى فأخبرته الخبر فقال والله ما يحوجنى لذلك الا سوء أدبهم يصل الضيف الى دارى فاجلسه فى الصدر فيأبى ذلك ثم اقدم اليه الطعام فلا اتحفه بشىء مستظرف الا رده على ثم اريد ان اصب الماء على يديه عند الغسل فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل ثم أريد ان أشيعه فلا يمكننى من ذلك فاقول فى نفسى لايحكم الانسان على نفسه حتى فى بيته فعند ذلك أشتمه والعنه بل وأضربه وفى معنى ذلك يقول بعضهم

لاينبغى للضيف ان يتعرض * ان كان ذا حزم وطبع لطيف
فالامر للانسان فى بيته * ان شاء ان ينصف أو أن يحيف

ومما يعاب على الضيف أمور منها كثرة الاكل المفرط الا أن يكون بدويا فانها اعادته ومنها ان يتتبع طريق الشره بحيث يتخذ معه خريطة مشمعة يقلب فيها الزبادى والاسراق والحلوى وغير ذلك ومنها ان يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه ان يبكى وقت الانصراف من الطعام ليعطى على اسم ولده الصغير ومنها قبح المؤاكلة وقد عد فيها عيوب كثيرة فمنها المتشاوف والعقاد والجراف والرشاف والنفاض والقراض والبهات واللتات والعوام والقسام والمخلل والمزبد والمرنخ والمرشش والمقتش والمقشف والملبب والصباغ والنقاخ والحامى والمجخ والشطرنجى والمهندس والمتمنى والفضولى فاما المتشاوف فهو الذى يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام فلا تراه الا متطلعا الناحية الباب يظن ان كل ما دخل هو الطعام وأما العقاد فهو الذى يستغرق فى عد الزبادى وبعد على أصابعه ويشير اليها وبنسى نفسه والجراف هو الذى يجعل اللقم فى جانب الزبدية ويجرف بها الى الجانب الآخر والرشاف هو الذى يجعل اللقمة فى فيه ويرتشفها فيسمع لها حين البلع حس لايخفى على جلسائه وهو يلتذ بذلك والنفاض هو الذى يجعل اللقمة فى فيه وينفض أصابعه فى

الزبدية والقراض هو الذى يقرض اللقمة بأطراف اسنانه حتى يهذبها ويضعها فى الطعام بعد ذلك والبهات هو الذى يبهت فى وجوه الآكلين حتى يبهتهم ويأخذ اللحم من بين أيديهم واللتات هو الذى يلت اللقمة باطراف أصابعه قبل وضعها فى الطعام والعوام هو الذى يميل ذراعه يمنة ويسرة لاخذ الزبادى والقسام هو الذى يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها فى الطعام من فيه والمخلل هو الذى يخلل اسنانه باظفاره والمزبد هو الذى يحمل معه الطعام والمرنخ هو الذى يرنخ اللقمة فى الاماق فلا يبلع الاولى حتى تلين الثانية والمرشش هو الذى يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكليه والمفتش هو الذى يفتش على اللحم باصابعه والمنشف هو الذى ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها والملبب هو الذى يملأ الطعام لبابا والصباغ هو الذى ينقل الطعام من زبدية الى زبدية ليبرده والنفاخ هو الذى ينفخ فى الطعام والحامى هو الذى يجعل اللحم بين يديه فيحميه عن مؤاكليه والمجخ هو الذى يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له فى المجلس فلا يشق عليه الاكل والشطرنجى هو الذى يرفع زبدية ويضع زبدية أخرى مكانها والمهندس هو الذى يقول لمن يضع الزبادى ضع هذه هنا وهذه ههنا حتى يأتى قدامه مايحب والمتمنى هو الذى يقول ليتنى لم يكن معى من يأكل والفضولى هو الذى يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام ان كان قد بقى عندك فى القدور شئ فأطعم الناس فان فيهم من لم يأكل * ومن الاضياف من لا يلذله حديث الا وقت غسل يديه فيبقى الغلام واقفا والابريق فى يده والناس ينتظرونه ومنهم من يغسل يديه بالاشنان مرة واحدة فاذا اجتمع الوسخ والزفر تسولك بهما ومنهم من يدخل الدار فيبتدئ بالهندسة أولا فيقول كان ينبغى أن يكون باب المجلس من ههنا والايوان كان ينبغى أن يكون ههنا وينتقل من الهندسة الى ترتيب المجلس فينقل الفاكهة من موضعها الى موضع آخر وان كان ما استحكم جوعه استغنى من الطعام وذهل عن بقية الاضياف وشدة جوعهم ومنهم من يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة فيتألم من انقطاعهم ويستوحش من غيبتهم ويساطهم على عرض صاحبهم * ولقد حكى عن مغفل غير مجيد انه لم يبطل ولا ليلة واحدة وماذاك الا أنه كان اذا سئل أين كنت قال كنت عند الناس واذا قيل له أين أكلت قال أكلت فى بطنى واذا قيل له أين شربت قال شربت فى فى ومنهم من يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه اشتر كذا فيقول والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه مايشترى شيأ أو ذوقه فيعجز صاحب المنزل ويخجله اذا لم يكن فى بيته شئ موجود وليت شعرى اذا كان لا يأكل فلاى شئ حضر ومنهم من يرى صاحب البيت قد أسر الى صديقه شيأ فيقول ما الذى قال المولى لصاحبنا وهو لا يريد ان يعلمه ومنهم من يستعجل صاحب المنزل بالاكل ويشكو الجوع ويظن أن ذلك بسط ومكارم اخلاق وانما ذلك يكون فى بيته لا فى بيوت الناس ومنهم من يقول لصاحب الدعوة من يغنى لنا فيقول فلان فيقول له غلطت لم لا دعوت فلانا ومنهم من يسأل صاحب البيت كيف قوته فى النكاح فيقول له أنا رجل كبير قد ضعفت قوتى وشهوتى أو يقول مالى قوة طائلة فى ذلك فيقول انا والله كلما مر على عام تزايدت شهوتى

وكثر لهذا الفن تشوقي و يعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت ومنهم من يشكو حاله مع أهل بيته ويذكر تفقته عليهن وكسوته لهن وكثرة انعامه واحسانه اليهن وما عليه زوجته من سوء الاخلاق وكبر النفس لتستقل زوجة صاحب البيت ما هي فيه مع زوجها وربما كان ذلك سببا لفراقها منه ومنهم من تعجبه نفسه و يستحسن لباسه و يستطيب رائحته واذا سمع الغناء تواجد وأظهر الطرب وحرك رأسه ويقوم قائما يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل بديع الحركات ويظن في نفسه انه يعشق وان رسول صاحبة البيت لا يبطئ عنه ومنهم من يقال له العب الشطرنج فيأباه و يشتغل بالدندنة فيقع في الفضول ومنهم من يتأمر على غلمان صاحب البيت و بين أولاده ويظن انه يدل عليهم ومنهم من يقول لصاحب البيت كل فيقول ما آكل الا أنا ورفيقي ومنهم من يسمع السائل على الباب فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير اذنه أو يقول للسائل فتح الله عليك ومنهم من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير اذنه و يقلده بذلك المنن وأكثر الناس واقع في ذلك نسأل الله تعالى ان يلهمنا رشدنا وان يعيذنا من شرور انفسنا بمنه وكرمه انه جواد كريم رؤف رحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب السادس والثلاثون في العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك

قد ندب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم الى الصفح والعفو بقوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قيل هو الرضا بلا عتب وقال تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال تعالى والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين وقال تعالى وان صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت ياجبريل لمن هذه قال للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن قال ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالعفو فلولا علمي بالله لظننت انه يوصيني بترك الحدود وقال الحسن بن أبي الحسن اذا كان يوم القيامة نادى منادمن كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم الا العافون عن الناس وتلا قوله تعالى فمن عفا وأصلح فأجره على الله وقال علي كرم الله وجهه أولى الناس بالعفو اقدرهم على العقوبة وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره ويقول لقد حبب الي العفو حتى اني اخاف أن لا اثاب عليه وكان يقول لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو لارتكبوها وقال لو علم الناس حبي للعفو لما تقربوا الي الا بالجنايات وقال علي كرم الله وجهه اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه وقال رضي الله تعالى عنه أقيلوا ذوي المروآت عثراتهم فما يعثر منهم عاثر الا ويده بيد الله يرفعه وقال رضي الله عنه ان أفضل عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل وقال المنتصر لذة العفو يلحقها حد العاقبة ولذة التشفي يلحقها ذم الندم وقال ابن المعتز لا تشن وجه العفو بالتقريع وقيل ما عفا عن الذنب من قرع به وقال رجل لرجل سبه اياك أعني فقال له وعنك اعرض وكان الاحنف

رحمه الله تعالى كثير العفو والحلم وكان يقول ما اذانى أحد الا أخذت فى أمره باحدى ثلاث ان كان فوقى عرفت له فضله وان كان مثلى تفضلت عليه وان كان دونى أكرمت نفسى عنه وكان مشهورا بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته وكان يقول وجدت الاحتمال انصر لى من الرجال وقيل له ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم كنا نختلف اليه فى الحلم كما نختلف الى الفقهاء فى الفقه ولقد حضرت عنده يوما وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه فجاؤا به مكتوفا فقال ذعرتم أخى أطلقوه واحملوا الى أم ولدى ديته فانها ليست من قومنا ثم أنشأ يقول

أقول للنفس تصبيرا وتعزية * احدى يدى أصابتنى ولم ترد

كلاهما خلف من فقد صاحبه * هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

وقيل من عادة الكريم اذا قدر غفر واذا رأى زلة ستر وقالوا ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام وقيل من انتقم فقد شفى غيظه وأخذ حقه فلم يجب شكره ولم يحمد فى العالمين ذكره والعرب تقول لاسود دمع الانتقام والذى يجب على العاقل اذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته وان كان ولابد من الانتقام فليرفق فى انتقامه الا أن يكون حدا من حدود الله تعالى وقال المنصور لجان عجز عن العذر ما هذا الوجوم وعهدى بك خطيبا السنا فقال يا أمير المؤمنين ليس هذا موقف مباهاة ولكنه موقف توبة والتوبة بالاستكانة والخضوع فرق له وعفا عنه وسعى الى المنصور برجل من ولد الاشتر النخعى فذكر له عنه أنه يميل الى بنى على والتعصب لهم فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه قال يا أمير المؤمنين ذنبى أعظم من نقمتك وعفوك أعظم من ذنبى ثم قال

فهبنى مسيئا كالذى قلت ظالما * فعفوا جميلا كى يكون لك الفضل

فان لم أكن للعفو منك لسوءما * أتيت به أهلا فأنت له أهل

فعفا عنه وأمر له بصلة وأحضر الى المأمون رجل قد أذنب ذنبا فقال له أنت الذى فعلت كذا وكذا قال نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذى أشرف على نفسه واتكل على عفوك فعفا عنه وخلى سبيله وأحضر الى الهادى رجل من أصحاب عبد الله بن مالك فوبخه على ذنب فقال يا أمير المؤمنين ان اقرارى يلزمنى ذنبا لم أفعله ويلحق بى جرما لم أقف عليه وانكارى رد عليك ومعارضة لك ولكنى أقول

فان كنت تبغى بالعقاب تشفيا * فلا تزهدن عند التجاوز فى الاجر

فقال لله درك من معتذر بحق أو باطل ما مضى لسانك وأثبت جنانك وعفا عنه وخلى سبيله وركب يوما عمرو بن العاص رضى الله عنه بغلة له شهباء ومر على قوم فقال بعضهم من يقوم للامير فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف فقال واحد منهم انا فقام وأخذ بعنان بغلته وقال اصلح الله الامير انت أكرم الناس خيلا فلم ركبت دابة اشهاب توجهها فقال انى لا أمل دابتى حتى تملنى ولا امل رفيقى حتى يملنى فقال اصلح الله الامير ما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه فمن الام قال على الخبير سقطت امى النابغة بنت حرملة بن عزة سبتها رماح العرب فأتى بها سوق عكاظ فبيعت فاشتراها عبد الله بن جدعان ووهبها للعاص بن وائل فولدت وأنجبت فان كان قد جعل لك جعل فارجع وخذه وأرسل عنان الدابة وقيل ان أمه كانت

بفناء عند عبد الله بن جدعان فوطئها فى طهر واحد أبو لهب وامية بن خلف وابو سفيان بن حرب والعاص بن وائل فولدت عمرا فادّعاه كلهم فحكمت فيه أمه فقالت هو للعاص لان العاص هو الذى كان يتفق عليها وقالوا كان أشبه بأبى سفيان وكان الواثق يشبهه بالمأمون فى اخلاقه وحلمه وكان يقال له المأمون الصغير نقل عنه انه دخلت عليه ابنة مروان ابن محمد فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال لست به فقالت السلام عليك أيها الامير فقال لها وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فقالت ليس عنا عد لكم فقال اذا لا يبقى على وجه الارض منكم أحد لانكم حاربتم على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرّم وجهه ومنعتم حقه وسممتم الحسن رضى الله عنه ونقضتم شرطه وقتلتم الحسين رضى الله عنه وسبيتم أهله ولعنتم على بن أبى طالب رضى الله عنه على منابركم وضربتم على بن عبد الله ظلما بسياطكم فعدنا لا يبقى منكم أحدا فقالت فليس عنا عفوكم قال أما هذا فنعم وأمر برد أموالها عليها وبالغ فى الاحسان اليها وكان معاوية رضى الله عنه يعرف بالحلم وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة وكان يقول انى لآنف أن يكون فى الارض جهل لا يسعه حلمى وذنب لا يسعه عفوى وحاجة لا يسعها جودى وهذه مرأة عالية المرتبة وقال له رجل يوما ما أشبهه استك باست أمك فقال ذا الذى أعجب أبا سفيان منها وكتب معاوية الى عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه يعتذر اليه من شئ جرى بينهما يقول من معاوية بن أبى سفيان الى عقيل بن أبى طالب أما بعد يا بنى عبد المطلب فأنتم والله فروع قصى ولباب عبد مناف وصفوة هاشم فاين اخلاقكم الراسية وعقولكم الكاسية وقد والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى وان يعود لمثله الى أن يغيب فى الثرى فكتب اليه عقيل يقول

صدقت وقلت حقا غير أنى * أرى أن لا أرالك ولا ترانى

ولست اقول سوأى فى صديقى * ولكنى أصد اذا جفانى

فركب اليه معاوية رضى الله عنه وناشده فى الصفح عنه واستعطفه حتى رجع (وحكى) عنه رضى الله عنه انه لما ولى الخلافة وانتظمت اليه الامور وامتلأت منه الصدور وأذعن لامره الجمهور وساعده فى مراده القدر المقدور استحضر ليلة خواص أصحابه وذاكرهم وقائع أيام صفين ومن كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين فانهمكوا فى القول الصحيح والمريض وآل حديثهم الى من كان يجتهد فى ايقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض فقالوا امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدى كانت تعقد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة يا أصحاب على تسمعهم كلاما كالصوارم مستحثة لهم يقول لو سمعه الجبان لقاتل والمدبر لاقبل والمسالم لحارب والفار لكر والمتزلزل لاستقر فقال لهم معاوية رضى الله عنه أيكم يحفظ كلامها فقالوا كلنا نحفظه قال فما تشيرون على فيها قالوا نشير بقتلها فانها أهل لذلك فقال لهم معاوية رضى الله عنه بئسما أشرتم به وقبحا لما قلتم أيحسن ان يشتهر عنى أننى بعد ما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وقفت لصاحبها انى اذا للئيم لا والله لا فعلت ذلك أبدا ثم دعا بكاتبه فكتب كتابا الى واليه بالكوفة ان أنفذ الى الزرقاء بنت عدى مع نفر من عشيرتها

وفرسان من قومها ومهد لها وطاء لينا ومركبا ذلولا فلما ورد عليه الكتاب ركب اليها وقرأه عليها فقالت بعد قراءة الكتاب ما أنا بزائغة عن الطاعة فحملها فى هودج وجعل غشاءه خزا مبطنا ثم أحسن صحبتها فلما قدمت على معاوية قال لها مرحبا وأهلا خير مقدم قدمه وافد كيف حالك يا خالة وكيف رأيت سيرك قالت خير مسير فقال هل تعلمين لم بعثت اليك قالت لا يعلم الغيب الا الله سبحانه وتعالى قال ألست راكبة الجمل الاحمر يوم صفين وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب وتحرضين على القتال قالت نعم قال فما حملك على ذلك قالت يا أمير المؤمنين انه قد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر والامر يحدث بعده الامر فقال صدقت فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت قالت لا والله قال لله أبوك فلقد سمعتك تقولين أيها الناس ان المصباح لا يضىء فى الشمس وان الكواكب لا تضىء مع القمر وان البغل لا يسبق الفرس ولا يقطع الحديد الا بالحديد ألا من استرشدنا أرشدناه ومن سألنا أخبرناه ان الحق كان يطلب ضالة فأصابها فصبرا يا معشر المهاجرين والانصار فكأنكم وقد التأم شمل الشتات وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله فانه لا يستوى المحق والمبطل أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون فالنزال النزال والصبر الصبر ألا وان خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء والصبر خير الامور عاقبة ائتوا الحرب غير ناكصين فهذا يوم له ما بعده يا زرقاء أليس هذا قولك وتحريضك قالت لقد كان ذلك قال لقد شاركت عليا فى كل دم سفكه فقالت احسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك مثلك من يبشر بخير ويسر جليسه فقال معاوية أوقد سرك ذلك قالت نعم والله لقد سرنى قولك وأنى لى بتصديقه فقال لها معاوية والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب الى من حبكم له فى حياته فاذكرى حوائجك تقض فقالت يا أمير المؤمنين انى آليت على نفسى أن لا أسأل أحدا بعد على حاجة فقال قد أشار على بعض من عرفك بقتلك فقالت لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته قال كلا بل نعفو عنك ونحسن اليك ونرعاك فقالت يا أمير المؤمنين كرم منك ومثلك من قدر فعفا وتجاوز عمن أساء وأعطى من غير مسئلة قال فأعطاها كسوة ودراهم وأقطعها ضيعة تغل لها فى كل سنة عشرة آلاف درهم وأعادها الى وطنها سالمة وكتب الى والى الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها * وقيل كان لعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها والى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضا عبيد يعملون فيها فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير فكتب عبد الله كتابا الى معاوية يقول له فيه أما بعد يا معاوية ان عبيدك قد دخلوا فى أرضى فانههم عن ذلك والا كان لى ولك شان والسلام فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه دفعه الى ولده يزيد فلما قرأه قال له معاوية يا بنى ما ترى قال أرى أن تبعث اليه جيشا يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه فقال بل غير ذلك خير منه يا بنى ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءنى ما ساءه والدنيا بأسرها هينة عندى فى جنب رضاه نزلت عن أرضى لك فاضفها الى أرضك بما فيها من العبيد والاموال والسلام فلما وقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما على كتاب معاوية رضى الله عنه

كتب اليه قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ولا أعدمه الرأى الذى احله من قريش هذا المحل والسلام فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به الى ابنه يزيد فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر فقال له أبوه يا بنى من عفا ساد ومن حلم عظم ومن تجاوز استمال اليه القلوب فاذا اتتك بشئ من هذه الادواء فداوه بمثل هذا الدواء * ولما دخل الفضيل دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية فى مكان مرتفع ينظر اليه فبينما هو كذلك اذ نظر فى بعض الحجر من قصره رجلا مع بعض حرمه فأتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من فتحه بد فوقعت عينه على الرجل فقال له ياهذا فى قصرى وتحت جناحى تهتك حرمتى وأنت فى قبضتى ما حملك على هذا قال فبهت الرجل وقال حلمك أوقعنى فقال له معاوية فان عفوت عنك تسترها على قال نعم فعفا عنه وخلى سبيله وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجانى وهو عروض قول الشاعر

اذا مرضنا أتيناكم نعودكم * وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

(وحكى) عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال ما رأيت رجلا أربط جاشا وأثبت جنانا من رجل سعى به الى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبنى امية فأمرنى باحضاره فأحضرته اليه فقال له المنصور قد رفع الينا خبر الودائع والاموال التى عندك لبنى امية فاخرج لنا منها وأحضرها ولا تكتم منها شيأ فقال يا أمير المؤمنين أنت وارث بنى أمية قال لا قال فوصى لهم فى أموالهم ورباعهم قال لا قال فما مسئلتك عما فى يدى من ذلك قال فاطرق المنصور وتفكر ساعة ثم رفع رأسه وقال ان بنى أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين فى حقوقهم وأريد ان آخذ ما ظلموا المسلمين فيه فاجعله فى بيت أموالهم فقال يا أمير المؤمنين فتحتاج الى اقامة بينة عادلة أن ما فى يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه فان بنى أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين قال فاطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال يا ربيع ما أرى الشيخ الا قد صدق وما يجب عليه شئ وما يسعنا الا أن نعفو عما قيل عنه ثم قال هل للك من حاجة قال نعم حاجتى يا أمير المؤمنين ان تجمع بينى وبين من سعى فى الى فوالله الذى لا اله الا هو ما فى يدى لبنى امية مال ولا وديعة ولكننى لما مثلت بين يديك وسألتنى عما سألتنى عنه قابلت بين هذا القول الذى ذكرته الآن وبين ذلك القول الذى ذكرته أولا فرأيت ذلك أقرب الى الخلاص والنجاة فقال يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعت بينهما فلما رآه قال هذا غلامى اختلس لى ثلاثة آلاف دينار من مالى وأبق منى وخاف من طلبى له فسعى بى عند امير المؤمنين قال فشدد المنصور على الغلام وخوفه فاقر بأنه غلامه وانه أخذ المال الذى ذكره وسعى به كذبا عليه وخوفا من أن يقع فى يده فقال له المنصور سألتك أيها الشيخ ان تعفو عنه فقال قد عفوت عنه وأعتقته ووهبته ثلاثة الآلاف التى أخذها وثلاثة آلاف اخرى ادفعها اليه فقال له المنصور ما على ما فعلت من مزيد قال بلى يا أمير المؤمنين ان هذا كله لقليل فى مقابلة كلامك لى وعفوك عنى ثم انصرف قال الربيع فكان المنصور يتعجب منه وكلما ذكره يقول ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع * وغضب الرشيد على حميد الطوسى فدعا له بالنطع والسيف فبكى فقال له ما يبكيك فقال والله يا أمير المؤمنين ما افزع من الموت

لانه لابد منه وانما بكيت أسفا على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط علي فضحك وعفا عنه وقال ان الكريم اذا خادعته انخدع * وأمر زياد بضرب عنق رجل فقال أيها الامير ان لي بك حرمة قال وما هي قال ان أبي جارك بالبصرة قال ومن أبوك قال يا مولاي اني نسيت اسم نفسي فكيف لا أنسى اسم أبي فرد زياد كيده على فمه وضحك وعفا عنه * وأمر الحجاج بقتل رجل فقال أسألك بالذي أنت غدا بين يديه اذل موقفا مني بين يديك الا عفوت عني فعفا عنه * ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الاشعث أتى رجل من بني تميم فقال والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب احسنت في العفو فقال الحجاج أف لهذه الجيف أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا وعفا عنه وخلى سبيله * وكان ابراهيم بن المهدي يقول والله ما عفا عني المأمون تقربا الى الله تعالى ولا صلة للرحم ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي * وسئل الفضل عن القدرة فقال الصفح عن عثرات الاخوان * وفي بعض الكتب المنزلة ان كثرة العفو زيادة في العمر وأصله قوله تعالى وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض * وقال يزيد بن مزيد أرسل الي الرشيد ليلا يدعوني فأوجست منه خيفة فقال له أنت القائل أنا ركن الدولة والثائر لها والضارب اعناق بغاتها الا أم لك أي ركن وأي ثائر أنت قلت يا أمير المؤمنين ما قلت هذا انما قلت انا عبد الدولة والثائر لها فاطرق وجعل يحل غضبه عن وجهه ثم ضحك فقلت احسن من هذا قولي

خلافة الله في هرون ثابتة * وفي بنيه الى ان ينفخ الصور

فقال يا فضل اعطه مائتي ألف درهم قبل ان يصيح * وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل فقال ما أقبح بي ان اقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة ووجهك هذا الذي يستضاء به فاتعلق بأطواقك وأقول اي رب سل مصعبا لم قتلني فقال اطلقوه فلما اطلقوه قال ايها الامير اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض عيش قال قد أمرت لك بمائة الف درهم فقال

انا المذنب الخطاء والعفو واسع * ولولم يكن ذنب لما عرف العفو

* وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل فقال والله لان امكنني الله منه لافعلن به كذا وكذا فلما صار بين يديه قال له رجاء بن حيوة يا امير المؤمنين قد صنع الله ما احببت فاصنع ما احب الله فعفا عنه وامر له بصلة * وقال الحسن ان افضل رداء ترتدي به الانسان الحلم وهو والله عليك أحسن من برد الحبر وفيه قال ابو تمام

رقيق حواشي الحلم لو ان حلمه * بكفيك ما ماريت في انه برد

ويقال الحليم سليم والسفيه كليم وقال محمد بن عجلان ما شئ اشد على الشيطان من عالم معه حلم ان تكلم تكلم بعلم وان سكت سكت بحلم يقول الشيطان سكوته اشد علي من كلامه (شعر)

اذا كنت تبغي شيمة غير شيمة * طبعت عليها لم تطعك الضرائب

وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما أقرب ما يكون العبد من غضب الله اذا غضب * وفي التوراة اذكرني اذا غضبت اذكرك اذا غضبت فلا امحقك فيما امحق واذا ظلمت فاصبر وارض

بنصرتي فان نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك * وكان ابن عون اذا غضب على انسان قال له بارك الله فيك وكانت له ناقة كريمة فضربها الغلام فأندرعنها فقالوا ان غضب ابن عون فانه يغضب اليوم فقال للغلام غفر الله لك وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي شئ أشد قال غضب الله قال فما يباعدني من غضب الله قال أن لا تغضب ويقال من أطاع الغضب اضاع الادب قال ابو العتاهية

ولم ار في الاعداء حين اختبرتهم * عدوا لعقل المرء اعدى من الغضب

وقال ابو هريرة رضي الله عنه ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب وقال ابن مسعود رضي الله عنه كفى بالمرء اثما ان يقال له اتق الله فيغضب ويقول عليك نفسك * وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى عامل من عماله ان لا تعاقب عند غضبك واذا غضبت على رجل فاحبسه فاذا سكن غضبك فاخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا * وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة قال ترك الغضب * وقال المعتمر بن سليمان كان رجل ممن كان قبلكم يغضب ويشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف فاعطى كل صحيفة رجلا وقال للاول اذا اشتد غضبي فقم الي بهذه الصحيفة وناولنيها وقال للثاني اذا سكن بعض غضبي فناولنيها وقال للثالث اذا ذهب غضبي فناولنيها وكان في الاولى أقصر فيها أنت وهذا الغضب انك لست بالله انما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا وفي الثانية ارحم من في الارض يرحمك من في السماء وفي الثالثة اجعل عباد الله على كتاب الله فانه لا يصلحهم الا ذاك روى أنه انوشروان وكان الشعبي أولع شئ بهذا البيت

ليست الاحلام في حال الرضا * انما الاحلام في حال الغضب

وعن معاذ بن جبل عن أنس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء وروى ملأه الله امنا وايمانا * وقال ابن السماك أذنب غلام لامرأة من قريش فأخذت السوط ومضت خلفه حتى اذا قاربته رمت بالسوط وقالت ما تركت التقوى أحدا يشفي غيظه * وقال أبو ذر لغلامه لم أرسلت الشاة على عمائف الفرس قال أردت أن أغيظك قال لاجمعن مع الغيظ أجرا أنت حر لوجه الله تعالى * واستأذن رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لهم فقالوا السام عليك يا محمد فقالت عائشة رضي الله عنها بل السام عليكم واللعنة فقال يا عائشة ان الله يحب الرفق في الامر كله فقالت ألم تسمع ما قالوا قال قد قلت وعليكم * ورفع الى عبد الملك ابن مروان أعرابي يقال له حزة سرق وقامت عليه البينة فهم عبد الملك بقطع يده فكتب اليه حزة من السجن يقول (شعر)

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها * بعفوك أن تلقى مقاما يشينها
فلا خير في الدنيا وكانت خبيثة * اذا ما شمال فارقتها يمينها

قال فابى عبد الملك الا قطعه فدخلت عليه أم حزة وقالت يا امير المؤمنين بني وكاسبي وواحدي فقال لها عبد الملك بئس الكاسب لك هذا احد من حدود الله تعالى فقالت يا أمير

المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها فقال عبد الملك ادفعوه اليها وخلى سبيله

(شعر)

اذا ماطاش حلمك عن عدو * وهان عليك هجران الصديق
فلست اذا الخا عفو وصفح * ولا لأخ على عهد وثيق
اذا زل الرفيق وأنت ممن * بلا رفق بقيت بلا رفيق
اذا انت اتخذت اخا جديدا * فأنكرت من خلق عتيق
فما تدرى لعلك مستجير * من الرمضاء فرا الى الحريق
فكم من سالك لطريق أمن * أتاه مايحاذر فى الطريق

وشتم رجل رجلا فقال له ياهذا لا تغرق فى شتمنا ودع للصلح موضعا فانى ابيت مشاتمة الرجال صغيرا فلن أجيئها كبيرا وانى لأكافئ من عصى الله فى با كثر من ان أطيع الله فيه (وحكى) عن جعفر الصادق رضى الله عنه أن غلاما له وقف يصب الماء على يديه فوقع الابريق من يد الغلام فى الطست فطار الرشاش فى وجهه فنظر جعفر اليه نظر مغضب فقال يامولاى والكاظمين الغيظ قال قد كظمت غيظى قال والعافين عن الناس قال قد عفوت عنك قال والله يحب المحسنين قال اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى * وقيل لما قدم نصر بن منبع بين يدى الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه قال يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمات أقولها قال قل فانشأ يقول

زعموا بأن الصقر صادف مرة * عصفور برّ ساقه التقدير
فتكلم العصفور تحت جناحه * والصقر منقض عليه يطير
انى لمثلك لاتمم لقمة * ولئن شويت فانني لحقير
فتهاون الصقر المدل بصيده * كرما وأفلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلى سبيله قال الشاعر

أقر بذنبك ثم اطلب تجاوزهم * عنه فان جحود الذنب ذنبان

قال بعضهم

يستوجب العفو الفتى اذا اعترف * وتاب عما قد جناه واقترف

لقوله قل للذين كفروا * ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف

وقال آخر

اذا ذكرت أياديك التى سلفت * مع قبح فعلى وزلاتى ومجترمى
أكاد اقتل نفسى ثم يدركنى * علمى بانك مجبول على الكرم

وروى ان عمر رضى الله عنه رأى سكران فاراد ان يأخذه ليعزره فشتمه السكران فرجع عنه فقيل له يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته قال انما تركته لانه أغضبنى فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسى فلا احب ان اضرب مسلما لحمية نفسى * وغضب المنصور على رجل من الكتاب فامر بضرب عنقه فانشأ يقول

وانا الكاتبون وان أسأنا * فهبنا للكرام الكاتبينا

فعفا عنه وخلى سبيله واكرمه * وقال الرشيد لاعرابي بم بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة قال بحلمه عن سفيهنا وعفوه عن مسيئنا وحمله عن ضعيفنا الامتان اذا وهب ولا حقود اذا غضب رحب الجنبان سمح البنان ماضي اللسان قال فأومأ الرشيد الى كاتب عبيد كان بين يديه وقال والله لو كانت هذه في هذا الكلب لاستحق بها السودد * وقيل لمعن بن زائدة المؤاخذة بالذنب من السودد قال لا ولكن أحسن ما يكون الصفح عن عظم جرمه وقل شفعاؤه ولم يجد ناصرا * وقال محمود الوراق

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب * وان عظمت منه على الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذي فوقي فاعرف قدره * واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فان قال صنت عن * اجابته نفسي وان لام لائم
وأما الذي مثلي فان زل أو هفا * تفضلت ان الحر بالفضل حاكم

وقال الاحنف بن قيس لابنه يا بني اذا أردت ان تؤاخي رجلا فاغضبه فان انصفك والا فاحذره قال الشاعر

اذا كنت مختص النفس صاحبا * فمن قبل ان تلقاه بالود اغضبه
فان كان في حال الطبيعة منصفا * والا فقد جربته فتجنبه

ومن أمثال العرب احلم تسد قال الشاعر

لن يبلغ المجد أقوام وان شرفوا * حتى يذلوا وان عزوا لاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لاصفح ذل ولكن صفح اكرام

وقال آخر

وجهل رددناه بفضل حلومنا * ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

وقال الاحنف اياكم ورأي الاوغاد قالوا وما رأي الاوغاد قال الذين يرون الصفح والعفو عارا * وقال رجل لابي بكر الصديق رضي الله عنه لاسبنك سبا يدخل معك قبرك فقال معك والله يدخل لاسعى * وقيل ان الاحنف سبه رجل وهو يماشيه في الطريق فلما قرب من المنزل وقف الاحنف وقال له يا هذا ان كان قد بقي معك شئ فهات وقله ههنا فاني اخاف ان يسمعك فتيان الحي فيؤذوك ونحن لا نحب الانتصار لانفسنا وقال لقمان لابنه يا بني ثلاثة لا يعرفون الا عند ثلاثة لا يعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا أخوك الا عند الحاجة اليه ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير

اذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا * أصبت حليما أو أصابك جاهل

وقال آخر

واذا بغى باغ عليك بجهله * فاقابله بالعرف لا بالمنكر

وقال آخر

قل ما بدا لك من صدق ومن كذب * حلمي اصم واذني غير صماء

ويروى في بعض الاخبار ان ملكا من الملوك أمر ان يصنع له طعام واحضر قوما من

خاصته فلما مد البساط اقبل الخادم وعلى كفه صحن فيه طعام فلما قرب من الملك أدركته الهيبة فعثر فوقع من مرفق الصحن شئ يسير على طرف ثوب الملك فأمر بضرب عنقه فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك فقال له ويحك ماهذا فقال ايها الملك انما صنعت هذا اشحاعا على عرضك وغيرة عليك لئلا يقول الناس اذا سمعوا ذنبي الذي به تقتلني قتله في ذنب خفيف لم يضره واخطأ فيه العبد ولم يقصده فتنسب الى الظلم والجور فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذرني قتلي وترفع عنك الملامة قال فاطرق الملك مليا ثم رفع رأسه اليه وقال ياقبيح الفعل ياحسن الاعتذار قد وهبنا قبيح فعلك وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى (وحكى) عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهور له بالاتفاق على علمه والمشهور في الآفاق بعفوه وحلمه انه لما خرج عمه ابراهيم بن المهدي عليه وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون وكان المأمون اذذاك بخراسان فلما بلغه الخبر قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى ابراهيم بن المهدي وعاد العباسيون وغيرهم الى طاعة المأمون ولم يزل المأمون متطلبا لابراهيم حتى أخذه وهو متنقب مع نسوة فحبس ثم احضر حتى وقف بين يدي المأمون فقال السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال المأمون لاسلم الله عليك ولاقرب دارك استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الاوهام فقال له ابراهيم مهلا ياأمير المؤمنين فان ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم شرف القرابة وعدل السياسة وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك فان أخذت فبحقك وان عفوت فبفضلك والفضل أولى بك ياأمير المؤمنين ثم قال هذه الابيات

ذنبي اليك عظيم * وانت أعظم منه
فخذ بحقك أولا * فاصفح بعفوك عنه
ان لم اكن في فعالي * من الكرام فكنه

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال يا ابراهيم الندم توبة وعفو الله تعالى اعظم مما تحاول وأكثر مما تأمل ولقد حبب الي العفو حتى خفت ان لا أوجر عليه لا تثريب عليك اليوم ثم أمر بفك قيوده وادخاله الحمام وازالة شعثه وخلع عليه ورد أمواله جميعها اليه فقال فيه مخاطبا

رددت مالي ولم تبخل علي به * وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
فان جحدتك ما اوليت من كرم * اني لبالؤم أولى منك بالكرم

*وكتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج يأمره ان يبعث اليه برأس عباد بن أسلم البكري فقال له عباد أيها الامير أنشدك الله لا تقتلني فوالله اني لاعول أربعا وعشرين امرأة لهن كاسب غيري فرق لهن واستحضرهن واذا واحدة منهن كالبدر فقال لها الحجاج ما أنت منه قالت أنا بنته فاسمع يا حجاج مني ما أقول ثم قالت

أحجاج اما أن غن بتركه * علينا واما أن تقتلنا معا

احجاج لاتفجعن به ان قتلته * ثمانا وعشرا واثنتين واربعا
احجاج لاتترك عليه بنانه * وخالانه يندبنه الدهر أجمعا

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة * ولما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضى الله عنه وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن اخيه يا ابن أخي لك وجه عند هذا الامير فاستأذن لي عليه فاستأذن فاذن له عمر فلما دخل قال هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل فغضب عمر حتى هم ان يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين ان الله سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين وان هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضى الله عنه حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله تعالى (وحكى) أن رجلا زور ورقة عن خط الفضل ابن الربيع تتضمن انه اطلق له ألف دينار ثم جاء بها الى وكيل الفضل فلما وقف الوكيل عليها لم يشك انها خط الفضل فشرع في ان يزن له الالف دينار واذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل فاطرق الفضل برأسه ثم قال للوكيل اتدري لم أتيتك في هذا الوقت قال لا قال جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل اعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة فامرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيرا في أمره فالتفت اليه الفضل وقال له طب نفسا وامض الى سبيلك آمنا على نفسك فقبل الرجل يده وقال له سترتني ستر الله في الدنيا والآخرة ثم أخذ المال ومضى فيجب على الانسان ان يتأسى بهذه الاخلاق الجميلة والافعال الجليلة ويقتفي سنة نبيه عليه الصلاة والسلام فقد كان أكثر الناس حلما وأحسنهم خلقا وأكرمهم خلقا وأكثرهم تجاوزا وصفحا وأبرهم للمعتر عليه نجعا صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين

وأما ما جاء في العتاب فقد قيل العتاب خير من الحقد ولا يكون العتاب الا على زلة وقد مدحه قوم فقالوا العتاب حدائق المتحابين ودليل على بقاء المودة وقد قال أبو الحسن بن منقذ (شعر)

اسطو عليه وقلبي لو تمكن من * يدي غلهما غيظا الى عنقي
واستعير له من سطوتي حنقا * وأين ذل الهوى من عزة الحنق

وذمه بعضهم قال اياس بن معاوية خرجت في سفر ومعي رجل من الاعراب فلما كان في بعض المناهل لقيه ابن عم له فتعانقا وتعاتبا والى جانبهما شيخ من الحي فقال لهما انعما عيشا ان المعاتبة تبعث التجني والتجني يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العداوة ولا خير في شيء يثمر له العداوة قال الشاعر

فدع ذكر العتاب فرب شر * طويل هاج اوله العتاب

وقيل العتاب من حركات الشوق وانما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر

علامة ما بين المحبين في الهوى * عتابهم في كل حق وباطل

وكتب

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغير حاله معه يقول

عرضا أنفسا عزت علينا * عليكم فاستخف بها الهوان
ولو انا رفعناها لعزت * ولكن كل معروض مهان

وقال آخر يعاتب صديقه

وكنت اذا ما جئت أدنيت مجلسي * ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لي بالعين التي كنت مرة * الي بها في سالف الدهر تنظر

وقال أبو الحسن بن منقذ

أخلاق الغر السجايا مالها * حملت قذى الواشين وهي سلاف
ومرآة رأيك في عبيد لك مالها * صدئت وأنت الجوهر الشفاف

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله اليه وفيه خطأ عليه

اقرأ كتابك واعتبره قريبا * فكفى بنفسك لي عليك حسيبا
اكذا يكون خطاب اخوان الصفا * ان ارسلوا جعلوا الخطاب خطوبا
ما كان عذري ان اجبت بمثله * أو كنت بالعتب العنيف مجيبا
لكنني خفت انتقاص مودتي * فبعثت احساني اليك ذنوبا

وقال آخر

اراك اذا ما قلت قولا قبلته * وليس لاقوالي لديك قبول
وما ذاك الا ان ظنك سيئ * بأهل الوفا والظن فيك جميل
فكن قائلا قول الحماسي تائها * بنفسك عجبا وهو منك قليل
وتنكر ان شئنا على الناس قولهم * ولا ينكرون القول حين نقول

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته اضاقة ثم ولي عملا فأثرى فقصده محمد مسلما فرأى منه تغيرا فكتب اليه

لئن كانت الدنيا اتالتك ثروة * فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقد كشف الايام منك خلائقا * من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وقال آخر في المعنى

دعوت الله ان تسمو وتعلو * علو النجم في أفق السماء
فلما أن سموت بعدت عني * فكان اذا على نفسي دعاءي

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرما وابن عرادة يتجنى عليه ففارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع اليه وقال

عتبت على سلم فلما فقدته * وصاحبت اقواما بكيت على سلم
رجعت اليه بعد تجريب غيره * فكان كبرء بعد طول من السقم

وقال مسلم بن الوليد

ويرجعني اليك اذا أتت بي * ديار عنك تجربة الرجال

وقال أبو الحسن القابسي

اذا أنا عاتبت الملول فانما * أخط بأقلامي على الماء احرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن * مودته طبعا فصارت تكلفا

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه معاتبة الصديق اهون من فقده وما أحسن ما قيل في العتاب

وفي العتاب حياة بين اقوام * وهو المحك لدى لبس وابهام

فما ثم شئ أحسن من معاتبة الاحباب ولا ألذ من مخاطبة ذوي الالباب والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب السابع والثلاثون في الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم)

ارجح دليل يتمسك به الانسان كتاب الله تعالى الذي من تمسك به هداه ومن استدل به ارشده هداه قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود وقال جل ذكره وتقدس اسمه الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق وقال جل وعلا وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقال تعالى وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا والآيات في ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون * وروى في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والاخلاق الكريمة والخلال الحميدة يعظم صاحبه في العيون وتصدق فيه خطرات الظنون ويقال الوعد وجه والانجاز محاسنه والوعد سحابة والانجاز مطره وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكل شئ رأس ورأس المعروف تعجيله وأنشدوا

اذا قلت في شئ نعم فاتمه * فان نعم دين على الحر واجب
والا فقل لا تسترح وترح بها * لئلا يقول الناس انك كاذب

وقال آخر

لا كلف الله نفسا فوق طاقتها * ولا تجود يد الا بما تجد
فلا تعد عدة الا وفيت بها * واحذر خلاف مقال للذي تعد

وقال اعرابي وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتعليل وقال اعرابي أيضا العذر الجميل خير من المطل الطويل ومدح بشار خالد بن برمك فامر له بعشرين ألفا فأبطأت عليه فقال لقائده أقمني حيث يمر فأقامه فمر فاخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول

اظلت علينا منك يوما سحابة * أضاء لها برق وابطا رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع * ولا غيثها يأتي فتروى عطاشها

فقال لا تبرح حتى تؤتى بها وقال صالح اللخمي

لئن جمع الآفات فالبخل شرها * وشر من البخل المواعيد والمطل
ولا خير في وعد اذا كان كاذبا * ولا خير في قول اذا لم يكن فعل

وقيل ماتت للهذلي أم ولد فامر المنصور الربيع ان يعزيه ويقول له ان أمير المؤمنين موجه اليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة فلم يزل

الهذلى يتوقع وعد أمير المؤمنين ونسيه المنصور ومعه الهذلى فقال المنصور وهو بالمدينة انى أحب ان اطوف الليلة المدينة فاطلب لى من يطوف بى فقال الهذلى أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة فقال يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الاخوص

يا بيت عاتكة الذى اتغزل * حذر العدا وبه الفؤاد موكل
انى لامنحك الصدود وانني * قسما اليك مع الصدود لاميل

فذكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير ان يسأله عنه فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فاذا فيها

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم * مذق اللسان يقول مالا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذى كان وعده به الهذلى فأنجزه له واعتذر اليه وقال الشاعر

تعجيل وعد المرء اكرومة * تنشر عنه أطيب الذكر
* والحر لا يطل معروفه * ولا يليق المطل بالحر *

وقال آخر

ولقد وعدت وأنت اكرم واعد * لا خير فى وعد بغير تمام
انعم على بما وعدت تكرما * فالمطل يذهب بهجة الانعام

وقال آخر

* لعبدك وعد قد تقدم ذكره * فأوله حمد وآخره شكر *
وقد جمعت فيك المكارم كلها * فما لك عن تأخيره مكرمة عذر

وقال آخر

وميعاد الكريم عليه دين * فلا تزدد الكريم على السلام
يذكره سلامك ما عليه * ويغنيك السلام عن الكلام

وقال آخر

شكا لسانى ثم امسكت نصفه * فنصف لسانى بامتداحك ينطق
* فان لم تنجز ما وعدت تركتنى * وباقى لسانى بالمذمة مطلق *

وقال آخر

بانت لوعدك عينى غير راقدة * والليل حى الدياجى منبت السهر
هذا وقد بت من وعد على ثقة * فكيف لو بت من يعرى على حذر

وقال آخر

نذكر بالرفاع اذا نسينا * ويأبى الله ان تنسى الكرام

وأما الوفاء بالعهد ورعاية الذمم فقد نقل فيه من عجائب الوقائع وغرائب البدائع ما يطرب السامع ويشنف المسامع كقضية الطائى وشريك نديم النعمان بن المنذر وتلخيص معناها ان النعمان كان قد جعل له يومين يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن اليه واغناه وكان هذا الطائى قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره فاخرجته

الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيأ لصبيته وصغاره فبينما هو كذلك اذ صادفه النعمان فى يوم بؤسه فلما رآه الطائى علم انه مقتول وان دمه مطلول فقال حيى الله الملك ان لى صبية صغارا وأهلا جياعا وقد أرقت ماء وجهى فى حصول شئ من البلغة لهم وقد اقدمنى سوء الحظ على الملك فى هذا اليوم العبوس وقد قربت من مقر الصبية والاهل وهم على شفا تلف من الطوى ولن يتفاوت الحال فى قتلى بين أول النهار وآخره فان رأى الملك ان يأذن لى فى أن أوصل اليهم هذا القوت وأوصى بهم أهل المروأة من الحى لئلا يهلكوا ضياعا ثم أعود الى الملك وأسلم نفسى لنفاذ أمره فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه على ضياع أطفاله رق له ورثى لحاله غير أنه قال له لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا فان لم ترجع قتلناه وكان شريك بن عدى بن شرحبيل نديم النعمان معه فالتفت الطائى الى شريك وقال له

يا شريك بن عدى * ما من الموت انهزام
من لاطفال ضعاف * عدموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار * وافتقار وسقام
يا أخا كل كريم * أنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جد لى * بضمان والتزام
ولك الله بأنى * راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدى أصلح الله الملك على ضمانه فمر الطائى مسرعا وصار النعمان يقول لشريك ان صدر النهار قد ولى ولم يرجع وشريك يقول ليس للملك على سبيل حتى يأتى المساء فلما قرب المساء قال النعمان لشريك قد جاء وقتك قم فتأهب للقتل فقال شريك هذا شخص قد لاح مقبلا وأرجو أن يكون الطائى فان لم يكن فامر الملك ممتثل قال فبينما هم كذلك واذا بالطائى قد اشتد عدوه فى سيره مسرعا حتى وصل فقال خشيت ان ينقضى النهار قبل وصولى ثم وقف قائما وقال أيها الملك مر بامرك فاطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال والله ما رأيت أعجب منكما أما أنت يا طائى فما تركت لاحد فى الوفاء مقاما يقوم فيه ولا ذكرا يفتخر به وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى الكرماء فلا أكون أنا الام الثلاثة ألا وانى قد رفعت يوم بؤسى عن الناس ونقضت عادتى كرامة لوفاء الطائى وكرم شريك فقال الطائى

ولقد دعتنى للخلاف عشيرتى * فعددت قولهم من الاضلال
انى امرؤ منى الوفاء سجية * وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان ما حملك على الوفاء وفيه اتلاف نفسك فقال دينى فمن لا وفاء فيه لا دين له فاحسن اليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده مكرما الى أهله وأناله ما تمناه * ومن ذلك ما حكى أن الخليفة المأمون لما ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه دخل على المأمون بعض اخوانه يوما فقال يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أبى طالب وهواه مع العلويين وكذلك كان أبوه قبله فحصل عند المأمون شئ من كلام أخيه

من جهة عبد الله بن طاهر فتشوش فكره وضاق صدره فاستحضر شخصا وجعله في زي الزهاد والنساك الغزاة ودسه الى عبد الله بن طاهر وقال له امض الى مصر وخالط اهلها وادخل كبراءها واستمالهم الى القاسم بن محمد العلوي واذكر مناقبه ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعه الى القاسم بن محمد العلوي واكشف باطنه وابحث عن دفين نيته واتني بما تسمع ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه الى مصر ودعا جماعة من أهلها ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها الى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه فلما نزل من الركوب وجلس في مجلسه خرج الحاجب اليه وأدخله على عبد الله ابن طاهر وهو جالس وحده فقال له لقد فهمت ما قصدته فهات ما عندك فقال ولي الامان قال نعم فاظهر له ما أراده ودعاه الى القاسم بن محمد فقال له عبد الله أوتنصفني فيما أقوله لك قال نعم قال فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الاحسان والمنة قال نعم قال فيجب علي وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة والولاية ولي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب وأمري فيما بينهما مطاع وقولي مقبول ثم اني التفت يمينا وشمالا فأرى نعمة هذا الرجل غامرة واحسانه فائضا علي أفتدعوني الى الكفر بهذه النعمة وتقول اغدر وجانب الوفاء والله لو دعوتني الى الجنة عيانا لما غدرت ولما نكثت بيعته وتركت الوفاء له فسكت الرجل فقال له عبد الله والله ما أخاف الا على نفسك فارحل من هذا البلد فلما يئس الرجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع الى المأمون فاخبره بصورة الحال فسره ذلك وزاد في احسانه اليه وضاعف انعامه عليه ومما يعد من محاسن الشيم ومكارم اخلاق أهل الكرم ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية الذمم ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه قال قال لي أبو الفتح المنطيشي كنا جلوسا عند كافور الاخشيدي وهو يومئذ صاحب مصر والشام وله من البسطة والمكنة ونفوذ الامر وعلو القدر وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر فحضرت المائدة والطعام فلما أكلنا نام وانصرفنا فلما التقينا من نوبه طلب جماعة منا وقال امضوا الساعة الى عقبة النجارين وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك فان كان حيا فاحضروه وان كان قد توفي فسلوا عن أولاده واكشفوا أمرهم قال فمضينا الى هناك وسألنا عنه فوجدناه قد مات وترك بنتين احداهما متزوجة والاخرى عاتق فرجعنا الى كافور وأخبرناه بذلك فسير في الحال واشترى لكل واحدة منهما دارا وأعطاهما مالا جزيلا وكسوة فاخرة وزوج العاتق وأجرى على كل واحدة منهما رزقا وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك وقال أتعلون سبب هذا قلنا لا فقال اعلموا اني مررت يوما بوالدهما المنجم وأنا في ملك ابن عباس الكاتب وأنا بحالة رثة فوقفت عليه فنظر الي واستجلبني وقال أنت تصير الى رجل جليل القدر وتبلغ منه مبلغا كبيرا وتنال خيرا كثيرا ثم طلب مني شيأ فأعطيته درهمين كانا معي ولم يكن معي غيرهما فرمى بهما الى وقال أبشر لك بهذه البشارة وتعطيني درهمين ثم قال وأزيدك أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه فاذكرني اذا صرت الى الذي وعدتك به ولا تنس فقلت له نعم فقال عاهدني انك تفي لي ولا يشغلك ذلك عن افتقادي فعاهدته ولم يأخذ مني الدرهمين ثم اني شغلت عنه بما

تجدد لى من الامور والاحوال وصرت الى هذه المنزلة ونسيت ذلك فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته فى المنام قد دخل على وقال لى أين الوفاء بالعهد الذى بينى وبينك واتمام وعدك لا تغدر فيغدر بك فاستيقظت وفعلت ما رأيتم ثم زاد فى احسانه الى بنات النجم وفاء لوالدهما بما وعده والله أعلم ومما اسفرت عنه وجوه الاوراق وأخبرت به الثقات فى الآفاق وظهرت روايته بالشام والعراق وضرب به الامثال فى الوفاء بالاتفاق حديث السموأل بن عادياء التخيص معناه ان امرأ القيس الكندى لما أراد المضى الى قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دروعا وسلاحا وأمتعة تساوى من المال جملة كثيرة فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والاسلحة المودعة عند السموأل فقال السموأل لا أدفعها الا لمستحقها والى ان يدفع اليه منها شيأ فعاوده فابى وقال لا أغدر بذمتى ولا أخون أمانتى ولا اترك الوفاء الواجب على تقصده ذلك الملك من كندة بعسكره فدخل السموأل فى حصنه وامتنع به فحاصره ذلك الملك وكان ولد السموأل خارج الحصن فظفر به ذلك الملك فأخذه أسيرا ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل فأشرف عليه من اعلى الحصن فلما رآه قال له ان ولدك قد أسرته وها هو معى فان سلمت الى الدروع والسلاح التى لامرئ القيس عندك رحلت عنك وسلمت اليك ولدك وان امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر فاختر أيهما شئت فقال له السموأل ما كنت لاخفر ذمامى وابطل وفائى فاصنع ما شئت فذبح ولده وهو ينظر ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبا واحتسب السموأل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلم اليهم الدروع والسلاح ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب اليه من حياة ولده وبقائه فصارت الامثال فى الوفاء تضرب بالسموأل واذا مدحوا أهل الوفاء فى الانام ذكروا السموأل فى الاول وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتلقه بيديه وأغلى قيمة من جعله نصب عينيه واستنطق الافواه لفاعله بالثناء عليه واستطلق الايدى المقبوضة عنه بالاحسان اليه ومما وضع فى بطون الدفاتر واستحسنته عيون البصائر ونقلته الاصاغر عن الاكابر وتداولته الالسنة من الاوائل والاواخر ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال طلبنى أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لى خذ معك فلانا وفلانا وسماهما أحدهما على بن محمد والآخر دينارا الخادم واذهب مسرعا لما أقوله لك فانه قد بلغنى ان شيخا يحضر ليلا الى دور الحرامكة وينشد شعرا ويذكرهم ذكرا كثيرا ويندبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف فامض الآن أنت وعلى ودينار حتى تروا هذه الخرابات فاستتروا خلف بعض الجدران فاذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيأ فأتونى به قال فاخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات واذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسى حديد واذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد اقبل فجلس على الكرسى وجعل يبكى وينتحب ويقول

ولما رأيت السيف جندل جعفرا * ونادى منادى للخليفة فى يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفى * عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها ورددها فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له أجب أمير المؤمنين ففزع فزعا شديدا وقال دعونى حتى أوصى وصية فانى لا أوقن بعدها بحياة ثم تقدم الى بعض الدكاكين فاستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها الى غلامه ثم سرنا به فلما مثل بين يدى أمير

المؤمنين زجره وقال له من أنت وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها قال الخادم ونحن وقوف نسمع فقال يا أمير المؤمنين ان للبرامكة عندي ايادي خطيرة أفتأذن لي ان أحدثك حديثي معهم قال قل قال يا أمير المؤمنين انا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال فلما ركبني الدين واحتجت الى بيع مسقط رأسي ورؤس اهلي اشاروا علي بالخروج الى البرامكة فخرجت من دمشق ومعي ألف وثلاثون امرأة وصبيا وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد فدعوت بثوبيات لي كنت قد أعددتها للاستمتاع بها الناس فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شيء عندهم ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة فاذا أنا بمسجد من خزف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلى الباب خادمان فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وانا أقدم وأوخر والعرق يسيل مني لانهم لم تكن صناعتي واذا بخادم قد اقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم واذا بيحيى جالس على دكة له في وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده واذا غلام أمرد عذر خداه قد اقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام وجلس الغلام الى جنب يحيى ثم قال يحيى للقاضي تكلم وزوج يا بني عائشة من ابن عمي هذا فخطب القاضي وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار بنادق المسك والعنبر فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت فاذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلا فخرج الينا مائة واثنا عشر خادما مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في اكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ويقوم الاول فالاول حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على أخذ الصينية فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي وأخذت الصينية في يدي وقمت وجعلت ألتفت الى ورائي مخافة ان أمنع من الذهاب بها فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظني اذ قال للخادم ائتني بذلك الرجل فرددت اليه فامر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي ثم أمرني بالجلوس فجلست فقال لي عمن الرجل فقصصت عليه قصتي فقال للخادم ائتني بولدي موسى فاتى به فقال له يا بني هذا رجل غريب خذه اليك واحفظه بنفسك ونعمتك فقبض موسى علي يدي وأدخلني الى دار من دوره فاكرمني غاية الاكرام وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش وأتم سرور فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال ان الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه اليك وأكرمه ففعل ذلك واكرمني غاية الاكرام فلما كان من الغد تسلمني أخوه احمد ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولونني عشرة أيام لا اعرف خبر عيالي وصبياني أفي الاموات هم ام في الاحياء فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا لي قم فاخرج الى عيالك بسلام فقلت واويلاه

سلبت الدنانير والصينية وأخرج الى عيالى على هذه الحالة انا لله وانا اليه راجعون فرفع الستر الاول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع فلما رفع الخادم الستر الاخير قال لى مهما كان لك من الحوائج فارفعها الى فانى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا واستقبلنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك واذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج وحمل الى ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا ام رجل غريب اصطنعونى فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل أخفانى عمرو بن مسعدة والزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفى دخلهما به فلما تحامل على الدهر كنت فى أواخر الليل اقصد خرابات القوم فأندبهم واذكر حسن صنيعهم الى واشكرهم على احسانهم فقال المأمون على بعمرو بن مسعدة فلما أتى به قال له يا عمرو أتعرف هذا الرجل قال نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة قال كم ألزمته فى ضيعته قال كذا وكذا قال ردّ له كل ما استأديته منه فى مدته ووقع له بهما اليكونا له ولعقبه من بعده قال فعلا نجيب الرجل وبكاؤه فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له يا هذا قد أحسنا اليك فلم تبك قال يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة اذ لولم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبرى بامير المؤمنين فنعل بى ما فعل فمن أين كنت أصل الى أمير المؤمنين قال ابراهيم بن ميمون فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك واياهم فاشكر والهم فأوف ولاحسانهم فاذكر وقيل اذا أردت ان تعرف وفاء الرجل ودوام عهده فانظر الى حنينه الى أوطانه وتشوقه الى اخوانه وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه قال الشاعر

سقى الله اطلال الوفاء بكفه * فقد درست اعلامه ومنازله

وقال آخر

اشد يديك بمن بلوت وفاءه * ان الوفاء من الرجال عزيز

وقال مالك بن عمارة اللخمى كنت جالسا فى ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير وكنا نخوض فى الفقه مرة وفى المذاكرة مرة وفى اشعار العرب وامثال الناس مرة فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع فى المعرفة والتصرف فى فنون العلم وحسن استماعه اذا حدث وحلاوة لفظه اذا حدث فخلوت معه ليلة فقلت له والله انى لمسرور بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك واقبالك على جليسك فقال ان تعش قليلا فسترى العيون طامحة الى والاعناق نحوى متطاولة فاذا صار الأمر الى فلعلك ان تنقل الى ركابك فلا أملأ ن يديك فلما أفضت اليه الخلافة توجهت اليه فوافيته يوم الجمعة وهو يخطب على المنبر فلما رآنى اعرض عنى فقلت لعله لم يعرفنى أو عرفنى وأظهر لى نكره فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث ان خرج الحاجب فقال أين مالك بن عمارة فقمت فأخذ بيدى وادخلنى عليه فمد الى يده وقال انك

تراءيت لى فى موضع لايجوز فيه الا ما رأيت فاما الآن فمرحبا وأهلا كيف كنت بعدى فاخبرته فقال لى أتذكر ما كنت قلت لك قلت نعم فقال والله ما هو بميراث وعيناه ولا أثر رويناه ولكنى أخبرك بخصال منى سمت بها نفسى الى الموضع الذى ترى ما خنت ذا ودّ قط ولا شمت بمصيبة عدو قط ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهى حديثه ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذا بها فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتى وقد فعل ثم دعا بغلام فقال له يا غلام بوّئه منزلا فى الدار فأخذ الغلام بيدى وأفرد لى منزلا حسنا فكنت فى أنعم حال وأتم بال وكان يسمع كلامى وأسمع كلامه ثم أدخل عليه فى وقت عشائه وغدائه فيرفع منزلتى ويقبل علىّ ويحادثنى ويسألنى مرّة عن العراق ومرّة عن الحجاز حتى مضت لى عشرون ليلة فتغدّيت يوما عنده فلما تفرّق الناس نهضت قائما فقال على رسلك فقعدت فقال أى الامرين أحب اليك المقام عندنا مع النصفة لك فى المعاشرة أو الرجوع الى اهلك ولك الكرامة فقلت يا أمير المؤمنين فارقت أهلى وولدى على أنى أزور أمير المؤمنين واعود اليهم فان أمرنى أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الاهل والولد فقال لابل أرى لك الرجوع اليهم والخيار لك بعد فى زيارتنا وقد أمر لك بعشرين ألف دينار وكسوة لك ولعيالك اترانى قد ملأت يديك فلا خير فيمن ينسى اذا وعد وعد اذا أثبت صحبتك السلامة ومن ذلك ما روى عن أبى بكار الاعمى وكان قد انقطع الى آل برمك قال مسرور الكبير لما أمرنى الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه فوجدت عنده أبا بكار الاعمى يغنيه ويقول

فلا تحزن فكل فتى سيأتى * عليه الموت يطرق أو يغادى

فقلت فى هذا والله قد أتيتك ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته وضربت عنقه فقال أبو بكار ناشدتك الله الا ألحقتنى به فقلت له ما الذى حملك على هذا فقال أغنانى عن الناس فقلت حتى استأمر الرشيد ثم أحضرت الرأس الى الرشيد وأخبرته بخبر أبى بكار فقال هذا رجل فيه مصطنع اضمه اليك وانظر ما كان يجرى عليه جعفر فادفعه اليه وكان يحيى بن خالد اذا أكد فى يمينه قال لا والذى جعل الوفاء أعز مايرى قال أبو فراس بن حمدان الشاعر

بمن يتقى الانسان فيما ينوبه * ومن أين للحرّ الكريم صحاب

وقد صار هذا الناس الا أقلهم * ذئابا على اجسادهن ثياب

وسال المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره فى الحروب فقال كان رحمه الله يفعل كذا وكذا فقال المنصور عليك لعنة الله نطأ بساطى وتترحم على عدوى فقال ان نعمة عدوك لقلادة فى عنقى لاينزعها الا غاسلى فقال له المنصور ارجع ياشيخ فانى أشهد انك لوفى حافظ للخير ثم امر له بمال فأخذه ثم قال والله لولا جلالة امير المؤمنين وامضاء طاعته ما لبست لاحد بعد هشام نعمة فقال له المنصور لله درك فلو لم يكن فى قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجدا مخلدا وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب فى بعض جبابين الشام فاذا امرأة جالسة على قبر تبكى قال سليمان فرفعت البرقع عن وجهها فحكت شمعا عن متون غمامة فوقفنا متحيرين ننظر اليها فقال لها يزيد بن المهلب يا امة الله هل لك فى امير المؤمنين بعلا فنظرت الينا

ثم انشأت تقول

فان تسالانى عن هواى فانه * يجول بهذا القبر يا فتيان

وانى لاستحييه والترب بيننا * كما كنت أستحييه وهو يرانى

ومن ذلك ماروى عن نائلة بنت الفرافصة بن الاخوص الكلبية زوج عثمان رضى الله عنهما أن عثمان لما قتل اصابتها ضربة على يدها وخطبها معاوية فردته وقالت مايعجب الرجل منى فالوا ثنايا له فكسرت ثناياها وبعثت بها الى معاوية فكان ذلك مما رغب قريشا فى نكاح نساء بنى كلب ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع الى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف وقال له ايج بهذا فاخذه زياد ودقه بين حجرين وقال والله لاينتفع به أحد بعدك ولما قدم هدبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم قالت زوجته ان لهدبة عندى وديعة فأمهله حتى آتيك بها فقال أسرعى فان الناس قد كثروا وكان مروان قد جلس لهم بارزا عن داره فمضت الى السوق وأتت الى قصاب فقالت أعطنى شفرتك وخذ هذين الدرهمين وأنا أردها عليك فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفتها على وجهها ثم جدعت أنفها من أصله وقطعت شفتيها وردت الشفرة الى القصاب ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس فقالت أترانى ياهدبة متزوجة بعد ماترى فقال الآن طابت نفسى بالموت فجزاك الله من حليلة وفية خيرا ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختاما هو أوجزها كلاما وأحسنها انظاما وأبينها حكما واحكاما وهى قضية جمعت الامرين وفاء وغدرا وعرفا ونكرا وخيرا وشرا ونفعا وضرا واشتملت على حال شخصين أحدهما وفى بعهده فنال وفجا وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا وغدر الآخر فلم يجد له من جزاء غدره الى النجاة فرجا ولم يلق له من ضيق الغدر مخرجا وهو ماذكره عبد الله بن عبد الكريم وكان مطلعا على أحوال احمد بن طولون عارفا بامور عالمابورود وصدوره فقال مامعناه ان احمد بن طولون وجد عند سقايته طفلا مطروحا فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم فلما كبر ونشأ كان اكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به فاخذه اليه فلما مات احمد بن طولون أحضره الامير أبو الجيش اليه وقال له انت عندى بمكانة أرعاك بها ولكن عادتى أنى آخذ العهد على كل من أصرفه فى شئ انه لايخونى فعاهده ثم حكمه فى امواله وقدمه فى أشغاله فصار احمد اليتيم مستحوذا على المقام حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام والامير أبو الجيش بن طولون يحسن اليه فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن اليه واعتمد فى امور بيوته عليه فقال له يوما ياأحمد امض الى الحجرة الفلانية ففى المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فائتنى بها فمضى احمد فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الامير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الامير بمحل قريب فلما رأياه خرج الفتى وجاءت الجارية الى احمد وعرضت نفسها عليه ودعته الى قضاء وطره فقال لها معاذ الله أن اخون الامير وقد أحسن الى وأخذ العهد على ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف الى الامير وسلمها اليه وبقيت الجارية شديدة الخوف من احمد بعد ما أخذ السبحة وخرج من الحجرة تلاذكر حالها للامير فاقامت أياما

لم تجد من الامير ما غيره عليها ثم اتفق أن الامير اشترى جارية وقدمها على حظاياه وغمرها بعطاياه واشتغل بها عمن سواها وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ولا يراها وكان أولا مشغولا بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الخائبة الغادرة العائبة العاهرة الفاسقة الفاجرة فلما أعرض عنها اشتغل بالجارية الجديدة المجدة السعيدة المسعدة الحامدة المحمودة الموصوفة الاليفة المألوفة العارفة المعروفة وصرف لهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه عن ملاعبة أترابها وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف ضرب أضرابها وكانت تلك الجارية الاولى لحسنها متأثرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره فكبر عليها اعراضه عنها ونسبت ذلك الى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها فدخلت على الامير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها وأعلنت بالبكاء بين يديه لاتمام كيدها ومكرها وقالت ان أحمد اليتيم راودني عن نفسي فلما سمع الامير ذلك استشاط غيظا وغضبا وهم في الحال بقتله ثم عاوده حاكم عقله فتأنى في فعله واستحضر خادما يعتمد عليه وقال له اذا أرسلت اليك انسانا ومعه طبق من ذهب وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكا فاقتل ذلك الانسان واجعل رأسه في الطبق وأحضره مغطى ثم ان الامير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماءه الخواص وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء ولا هجس هاجس في قلبه فلما مثل بين يدي الامير وأخذ منه الشراب شرع في التدبير فقال يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به الى فلان الخادم وقل له يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكا فأخذه أحمد اليتيم ومضى فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء والخواص فقاموا اليه وسألوه الجلوس معهم فقال أنا ماض في حاجة للامير أمرني باحضارها في هذا الطبق فقالوا له أرسل من ينوب عنك في احضارها وخذها أنت وادخل بها على الامير فأداره بعينيه فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال له امض الى فلان الخادم وقل له يقول لك الامير املأ هذا الطبق مسكا فمضى ذلك الفراش الى الخادم فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق وأقبل به فتناوله لاحمد اليتيم فأخذه وليس عنده علم من باطن الامر فلما دخل به على الامير كشفه وتأمله وقال ما هذا فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من انفاذ الطبق وارساله مع الفراش وأنه لا علم عنده غير ما ذكره قال اعرف لهذا الفراش خبرا يستوجب به ما جرى عليه فقال أيها الامير ان الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة وقد كنت رأيت الاعراض عن اعلام الامير بذلك وأخذا حد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله الى آخره لما أنفذه لاحضار السبحة الجوهر فدعا الامير أبو الجيش بتلك الجارية واستقرها فأقرت بصحة ما ذكره أحمد فأعطاه اياها وأمره بقتلها ففعل وازدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته لديه وضاعف احسانه اليه وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه فانظر رحمك الله الى آثار الوفاء كيف تحمي من المعاطب وتنجي من قبضة التلف بعد امضاء القواضب ويفضي بصاحبه الى ارتقاء غوارب المراتب فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعهده وهو بشر مثله وليس في الحقيقة بعبده واطلع الله عز وجل على صدق

نيته وقصده دفع عنه هذه القلة الشنيعة بلطف من عنده فاذا كان العبد مع خالقه وراز قه وافيا في طاعته بعقده كيف لا يفيض عليه من ألطاف مواهب بره ورفده ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته مالا يمسك له من بعده وقالوا ليس شئ أوفى من القمرية اذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ولا تزال تنوح عليه الى أن تموت والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

(الباب الثامن والثلاثون في كتمان السر وتحصينه وذم افشائه)

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك الآية فلما أفشى يوسف عليه السلام رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت اخوته فحل به ما حل ومن شواهد الكتاب العزيز في السر قوله تعالى فأوحى الى عبده ما أوحى وقوله تعالى وما هو على الغيب بظنين اى بمتهم وفي الحديث استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه سرك أسيرك فاذا تكلمت به صرت أسيره واعلم أن أمناء الاسرار أقل وجودا من أمناء الاموال وحفظ الاموال أيسر من كتمان الاسرار لان احراز الاموال منيعة بالابواب والاقفال واحراز الاسرار بارزة يذيعها اللسان ناطق ويشيعها كلام سابق وحمل الاسرار أثقل من حمل الاموال فان الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به ولا يستطيع كتم السر وان الرجل يكون سره في قلبه فيطلقه من الضيق والكرب ما لا يطلقه من حمل الاثقال فاذا أذاعه استراح قلبه وسكن خاطره وكأنما ألقى عن نفسه حملا ثقيلا وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه القلوب أوعية والشفاه أقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل انسان مفتاح سره ومن عجائب الامور أن الاموال كلما كثرت خزانها كان أوثق لها وأما الاسرار فانها كلما كثرت خزانها كان أضيع لها وكم من اظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ ما آربه ولو كتمه أمن من سطواته وقال انوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات وقيل كلما كثرت خزان الاسرار زادت ضياعا وقيل انفرد بسرك لا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون وقال كعب بن سعد الغنوي

ولست بمبد للرجال سريرتي * ولا أنا عن أسرارهم بسؤل

وقال أبو مسلم صاحب الدولة

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت * عنه ملوك بني مروان اذ جهدوا
ما زالت أسعى عليهم في ديارهم * والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا * من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما في أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

وأسر رجل الى صديقه حديثا ثم قال له أفهمت قال بل جهلت ثم قال له أحفظت قال بل

نسيت وقيل لبعضهم كيف كتمانك للسر قال أجد المخبر وأحلف للمستخبر وقال المهلب أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر اليه ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر

ولها سرائر في الضمير طويتها * نسي الضمير بأنها في طيه

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوي فقال

انى كتمت حديث ليلى لم أبح * يوما بظاهره ولا بخفيه
وحفظت عهد ودادها متمسكا * في حبها برشاده أو غيه
ولها سرائر في الضمير طويتها * نسي الضمير بأنها في طيه

وقيل كتمان الاسرار يدل على جواهر الرجال وكأنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها فكذلك لا خير في انسان لا يمسك سره قال الشاعر

ومستودعي سرا كتمت مكانه * عن الحس خوفا أن ينم به الحس
وخفت عليه من هوى النفس شهوة * فأودعته من حيث لا يبلغ الحس

وقال قيس بن الخطيم

أجود بمكنون التلاد وانني * بسرى عمن سالني لضنين
وان ضيع الاقوام سرى فانني * كتوم لاسرار العشير أمين

وقال جعفر بن عثمان

ياذا الذي أودعني سره * لاترج أن تسمعه مني
لم أجره قط على فكرتي * كأنه لم يجر في أذني

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ما افشيت سرى الى أحد قط فأفشاه فلمته اذ كان صدري به أضيق وقال الاحنف بن قيس يضيق صدر الرجل بسره فاذا حدث به أحدا قال اكتمه علي قال الشاعر

* اذا المرء أفشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو أحمق *
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذي يستودع السر أضيق

وقال آخر

اذا ما ضاق صدرك عن حديث * وأفشته الرجال فمن تلوم
وان عاتبت من أفشى حديثي * وسري عنده فأنا الملوم

وقال صالح بن عبد القدوس لا تودع سرك الى طالبه فالطالب للسر مذيع ولا تودع مالك عند من يستدعيه فالطالب للوديعة خائن * وقيل لاعرابي ما بلغ من حفظك للسر قال افرقه تحت شغاف قلبي ثم أجمعه وأنساه كأني لم أسمعه * وكان يقال أحزم الناس من لا يفشي سره الى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه عليه وقال حكيم قلوب الاحرار قبور الاسرار وقيل الطمأنينة الى كل أحد قبل الاختبار حمق وقال بعضهم

اذا ما غفرت الذنب يوما لصاحب * فلست معيدا ما حييت له ذكرا
واست اذا ما صاحب خان عهده * وعندي له سر مذيعا له سرا

وأين هذا من القائل

ولا تودع الاسرار اذنى فانما * تصبّ ماء فى اناء مثلم

أو القائل

ولا أكتم الاسرار لكن أذيعها * ولا أدع الاسرار تعلو على قلبى

وان قليل العقل من بات ليلة * تقلبه الاسرار جنبا الى جنب

وقال آخر

وانك كلما استودعت سرّا * أنمّ من النسيم على الرياض

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلىّ

اناس أمناهم فنموا حديثنا * فلما كتمنا السرّ عنهم تقوّلوا

ولله درّ المتنبى حيث قال

وللسر منى موضع لا يناله * نديم ولا يفضى اليه شراب

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

الباب التاسع والثلاثون فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول

(الفصل الاوّل فى الغدر والخيانة) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعجل الاشياء عقوبة البغى وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المكر والخديعة والخيانة فى النار وقال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه البغى والنكث والمكر قال الله تعالى انما بغيكم على أنفسكم وقال تعالى فمن نكث فانما ينكث على نفسه وقال تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله وكم أوقع الغدر فى المهالك من غادر وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر وطوّقه غدره طوق خزى فهو على فكه غير قادر وأوقعه فى خطة خسف وورطة حتف فماله من قوّة ولا ناصر ويشهد لصحة هذه الاسباب ما احاطت به علوم ذوى الالباب من قصة ثعلبة بن حاطب الانصارىّ وتلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبىّ صلى الله عليه وسلم فجاءه يوما وقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك يا ثعلبة قليل تؤدّى شكره خير من كثير لا تطيقه ثم أتاه بعد ذلك مرّة أخرى فقال يا رسول الله ادع الله ان يرزقنى مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ثعلبة أما لك فى رسول الله اسوة حسنة والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك مرّة ثالثة فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا والذى بعثك بالحق نبيا لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه وعاهد الله تعالى على ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا قال فاتخذ ثعلبة غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من اوديتها وهى تنمو كما ينمو الدود وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد فلما كثرت الغنم وتنحى صار يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

الظهر والعصر ويصلي بقية الصلوات في غنمه فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة فصار لا يشهد الا الجمعة ثم كثرت ونمت فتباعد أيضا عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان اذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الاخبار فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال ما فعل ثعلبة قالوا يا رسول الله اتخذ غنما ما يسعها وادفقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ويح ثعلبة فأنزل الله تعالى آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين رجل من بني سليم ورجل من جهينة وكتب لهما أنصاب الصدقة وكيف يأخذانها وقال لهما مرا بثعلبة بن حاطب وبرجل آخر من بني سليم فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الا جزية أو ما هذه الا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الي فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر الى خيار ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رآياه قالا ما هذا فقال خذاه فان نفسي به طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا الى ثعلبة فقال ارونى كتابكما فقرأه ثم قال ما هذه الا جزية أو ما هذه الا اخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيا فذهبا من عنده وأقبلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال قبل أن يتكلما يا ويح ثعلبة فأنزل الله تعالى ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل صدقته فقال ان الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجهه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل صدقته رجع الى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبل منه شيأ ثم أتى الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعي من الانصار فاقبل صدقتي فقال أبو بكر رضي الله عنه لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم منك فلا أقبلها أنا فقبض أبو بكر رضي الله عنه ولم يقبلها فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه فقال يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي فلم يقبلها منه وقال لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر رضي الله عنه فأنا لا أقبلها وقبض عمر رضي الله عنه ولم يقبلها ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه فسأله أن يقبل صدقته فقال له لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما فأنا لا أقبلها ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه فانظر الى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسره وأعقبه نفاقا يخزيه يوم فاقته ونفره فأي خزي أرجح من ترك الوفاء بالميثاق وأي سوء أقبح من غدر يسوق الى النفاق وأي عار أفضح من نقض العهد اذا عدت مساوي الاخلاق وكان يقال لم يغدر غادر قط الا لصغر همته عن الوفاء وانضاع قدره عن احتمال المكاره

في جنب نيل المكارم قال الشاعر

غدرت بأمر كنت أنت جذبتنا * اليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد

ولما حلف محمد الأمين المأمون في بيت الله الحرام وهما وليا عهد طالبه جعفر بن يحيى أن يقول خذاني الله ان خذلته فقال ذلك ثلاث مرات فقال الفضل بن الربيع قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله يا أبا العباس أجد في نفسي أن أمري لا يتم فقلت له ولم ذلك أعز الله الأمير قال لاني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر وكان كذلك لم يتم أمره * وورد في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة كان ملكا بين دجلة والفرات وكان له هنالك قصر مشيد يعرف بالجوسق وبلغ ملكه الشام فأغار على مدينة سابور ذي الاكتاف فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقا كثيرا ثم ان سابور جمع جيوشا وصار الى الضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه الى شئ ثم ان النضيرة بنت الضيزن عركت أي حاضت فخرجت من الربض وكانت من أجمل أهل دهرها وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم اذا حضن وكان سابور من أجمل أهل زمانه فرآها وأنه فعشقها وعشقته وأرسلت اليه تقول ما تجعل لي ان دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبي فقال أحكمك فقالت عليك بجماعة مطوقة ورقا فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فانها تقعد على حائطة المدينة فتتداعى المدينة كلها وكان ذلك طلسما لا يهدمها الا هو ففعل ذلك فقالت له وأنا أسبي الحرس الخمر فاذا صرعوا فاقتلهم ففعل ذلك فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضمر وتتململ في فراشها وهو من حرير محشو بريش النعام فالتمس ما كان يؤذيها فاذا هو ورقة آس التصقت بعكنتها وأثرت فيها وقيل كان ينظر الى مخ عظمها من صفاء بشرتها ثم ان سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها وقيل انه أمر رجلا فركب فرسا جموحا وضفر غدائرها بذنبه ثم استركضه فقطعها قطعا قطعه الله ما أغدره * وتقول العرب جزاني جزاء سنمار وهو أن أزدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مرئ فدل على ظهر الجزيرة فدفع ابنه بهرام الى النعمان وهو عامله على ارض العرب وأمره أن يبني له جوسقا فامتثل امره وبنى له جوسقا كأحسن ما يكون وكان الذي بنى الجوسق رجلا يقال له سنمار فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه فقال لو علمت أنكم توفوني اجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت فقالوا وانك لتبني احسن من هذا ولم تبنه ثم امر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع فكانت العرب تقول جزاني جزاء سنمار * وممن غدر عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله غدر بعلي رضي الله عنه وقتله * وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله * وابو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتله * وجعل المنصور العهد الى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره وقدم المهدي عليه فقال عيسى

أ ينسى بنو العباس ذبي عنهم * بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها
فقمت لهم شرق البلاد وغربها * فذل معاديها وعز نصيرها

أقطع أرحاما على عزيزة * وأبدى مكيدات لها وأثيرها
فلما وضعت الامر في مستقره * ولاحت له شمس تلألأ نورها
دنعت عن الامر الذي أستحقه * واوسق أوساقا من الغدر غيرها

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجؤها الى خباء أعرابي فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها فبينما هو نائم ذات يوم اذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول

ومن يصنع المعروف مع غير أهله * يلاق كما لاقى مجير ام عامر
أعدلها لما استجارت ببيته * احاليب ألبان اللقاح الدرائر
وأسمنها حتى اذا ما تمكنت * فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوى المعروف هذا جزاء من * يجود بمعروف على غير شاكر

(وحكى بعضهم) قال دخلت البادية فاذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة والى جانبها جرو ذئب فقلت أتدرى ما هذا فقلت لا قالت هذا جرو ذئب اخذناه صغيرا وأدخلناه بيتنا وربيناه فلما كبر فعل بشاتى ماترى وأنشدت

بقرت شويهتى وجمعت قومى * وأنت لشاتنا إبن ربيب
غذيت بدرها ونشأت معها * فمن أنبا لشاة اباك الذيب
اذا كان الطباع طباع سوء * فلا أدب يفيد ولا أديب

اللهم انا نعوذ بك من البغى وأهله ومن الغدر وفعله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الفصل الثانى فى السرقة والسراق) قيل مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال ما هذا قيل السلطان يقطع سارقا فقال لا اله الا الله سارق العلانية يقطع سارق السر وأمر الاسكندر بصلب سارق فقال أيها الملك انى فعلت ما فعلت وأنا كاره فقال وتصلب أيضا وأنت كاره وسرق مدنى قميصا فأعطاه لابنه يبيعه فسرق منه فجاءه فقال بكم بعته قال برأس المال وقال اكتل السلمى وكان لصا فاتكا

وانى لأستحيى من الله أن أرى * اجر جر حبلى ليس فيه بعير
وأن أسأل المرء الدنيء بعيره * وأجمال ربى فى البلاد كثير

وقال الفرزدق

وان أبا الكرشاء ليس بسارق * ولكن متى ما يسرق القوم يأكل

وكان لعمرو بن دويرة الجهنى أخ قد كلف بنت عم له فتسور عليها الدار ذات ليلة فأخذه اخوتها وأتوا به خالد بن عبد الله القسرى وجعلوه سارقا فسأله خالد فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية فهم خالد بقطعه فقال عمرو لأخوه

اخالد قد والله أوطئت عشوة * وما العاشق المظلوم فينا بسارق
أقر بما لم يأته المرء انه * رأى القطع خيرا من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد وزوجه الجارية

(الفصل الثالث فيما جاء فى العداوة والبغضاء) قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء فى كتابه العزيز فقال تعالى وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وقال تعالى ان الشيطان للانسان عدو مبين وقال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وقال تعالى ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه العداوة تتوارث وقال زياد بن عبد الله

فلو أنى بليت بهاشمى * خؤلته بنو عبد المدان
صبرت على عداوته ولكن * تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

ونظر رجل فى وجه أبى عبيدة مكروها فأنشأ يقول

فلو أن لحمى اذ وهى لعبت به * سباع كرام أو ضباع وأذؤب
لهون وجدى أو لسلى مصيبتى * ولكننى أودى بلحمى أكاب

وقيل لكسرى أى الناس أحب الملك أن يكون عاقلا قال عدوى قيل وكيف ذلك قال لانه اذا كان عاقلا كنت منه فى عافية وأمن وقيل كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن فان مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ماخفى وبطن وقالوا ايالك أن تعادى من اذا شاء طرح ثيابه ودخل مع الملك فى لحافه وقال أبو العتاهية

تنح عن القبيح ولا ترده * ومن أوليته حسنا فزده
ستلقى من عدولك كل كيد * اذا كاد العدو ولم تكده

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب فقتل أخوها زوجها وهى حبلى بهجرس ابن كليب فلما كبر وشب قال

أصاب أبى خالى وما انا بالذى * أميل وأمرى بين خالى ووالدى
وأورث جساس بن مرة غصة * اذا ما اعترتنى حرها غير بارد

ثم قال بعد ذلك

يا للرجال لقاب ماله جلد * كيف العزاء وثارى عند جساس

ثم حمل على خاله فقتله وقال

ألم ترنى ثأرت أبى كليبا * وقد يرجى المرشح للدخول
غسلت العار عن جسم ابن بكر * بجساس بن مرة ذى البتول

(بيت)

سن العداوة آباء لناسلفوا * فلن تبيد ولا آباءنا بناء

ويقال دار عدوك لاحد أمرين اما الصداقة تؤمنك أو لفرصة تمكنك وكتب سويد الى مصعب

فبلغ مصعبا عنى رسولى * وهل تلقى النصيح بكل وادى

تعلم أن اكثر من تناجى * وان ضحكوا اليك هم الاعادى

ويقال فلان كثير المراق مزّ المذاق وقال الحجاج للخارجى والله انى لأبغضك قال أدخل الله الجنة أشدّ تابغضا لصاحبه ولما أراد أنوشروان أن يتقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته فأنكروا عليه وقال بعضهم ان أمه تركية وقد علمت فى أخلاقهم ما علمت فقال ان الأبناء ينسبون الى الآباء لا الى الأمهات وكانت أم قباذ تركية وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم فقيل هو قصير وذلك يذهب بهاء الملك فقال ان قصره من رجليه ولا يكاد يرى الا جالسا أو راكبا فلا يستبين ذلك فيه فقيل هو بغيض فى الناس فقال أو اه هلك ابنى هرمز فقد قيل اذا كان فى الانسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة فى الناس فلا خير فيه واذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب البغض فى الناس فلا عيب فيه

ولست براء عيب ذى الود كله * ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة * كما أن عين السخط تبدى المساويا

وفى المعنى قيل

وعين البغض تبرز كل عيب * وعين الحب لا تجد العيوبا

وعن أبى حيان قال قال لقمان نقلت الصخور وحملت الحديد فلم أر شيأ أثقل من الدين وأكلت الطيبات وعانقت الحسان فلم أر شيأ ألذ من العافية وأنا أقول لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الاعداء خصوصا اذا كانوا مساهمين فى نسب أو مجاورين فى بلد اللهم انا نعوذ بك من تتابع الاثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم وقيل لأيوب عليه السلام أى شئ كان عليك فى بلائك أشدّ قال شماتة الاعداء وأنشد الجاحظ

تقول العاذلات تسلّ عنها * وداوعليل قلبك بالسلو
وكيف ونظرة منها اختلاسا * ألذ من الشماتة بالعدو

وقال ابن ابى جهينة المهلبى

كل المصائب قد تمرّ على الفتى * فتهون غير شماتة الاعداء

وقال الجاحظ ما رأيت سنانا أنفذ من شماتة الاعداء وقيل لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع عونة نساء من كندة وحضرموت تخضبن أيديهنّ وضربن بالدفوف فقال رجل منهم

أبلغ أبا بكر اذا ما جئته * ان البغايا من بنى مرّام
اظهرن فى موت النبى شماتة * وخضبن أيديهنّ بالعلام
فاقطع هديت اكفهنّ بصارم * كالبرق أو مض فى متون غمام

فكتب ابو بكر الصديق رضى الله عنه الى المهاجر عامله فأخذهنّ وقطع أيديهنّ ويقال فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل ولا يؤمل صلاحا الا فى فسادك ولا رفعة الا فى سقوط

حالك وقال حكيم لا تأمن عدوك وان كان ضعيفا فان القناة قد تقتل وان عدمت السنان قال الشاعر

فلا تأمن عدوك لو تراه * اقل اذا نظرت من القراد
فان الحرب ينشأ من جبان * وان النار تضرم من رماد

*(بيت مفرد)

فمن لم يكن منكم مسيئا فانه * يشد على كف المسيء فيجلب

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب

كفاية الله خير من توقينا * وعادة الله في الماضين تكفينا
كاد الاعادي فلا والله ما تركوا * قولا وفعلا وتلقينا وتهجينا
ولم نزد نحن في سر وفي علن * على مقالتنا يا ربنا اكفينا
فكان ذاك ورد الله حاسدنا * بغيظه لم ينل تقديره فينا

(الفصل الرابع في الحسد) قال الله تعالى أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود وقال علي رضي الله عنه الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له وقيل الحسود غضبان على القدر ويقال ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش الحقد والحسد وسوء الخلق وقيل بئس الشعار الحسد وقيل لبعضهم ما بال فلان يبغضك قال لانه شقيقي في النسب وجاري في البلد وشريكي في الصناعة فذكر جميع دواعي الحسد وقال أعرابي الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود وهو مأخوذ من الحديث قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى يصل الى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده الى المحسود أولاها غم لا ينقطع الثانية مصيبة لا يؤجر عليها الثالثة مذمة لا يحمد عليها الرابعة سخط الرب الخامسة يغلق عنه باب التوفيق (ومن ذلك ما حكي) أن رجلا من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه وصار يدخل على حريمه من غير استئذان وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه ان لم أحتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني منه فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به الى منزله فطبخ له طعاما وأكثر فيه من الثوم فلما أكل البدوي منه قال له احذر أن تقرب من أمير المؤمنين فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك فانه يكره رائحته ثم ذهب الوزير الى امير المؤمنين فخلا به وقال يا امير المؤمنين ان البدوي يقول عنك للناس ان أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال ان الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح فكتب امير المؤمنين كتابا الى بعض عماله يقول له فيه اذا وصل اليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوي ودفع اليه الكتاب وقال له امض به الى فلان وائتني بالجواب فامتثل البدوي ما رسم به امير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده فبينما هو بالباب اذ لقيه الوزير

فقال

فقال اين تريد قال أتوجه بكتاب أمير المؤمنين الى عامله فلان فقال الوزير في نفسه ان هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل فقال له يا بدوي ما تقول فمن يربح من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار فقال أنت الكبير وأنت الحاكم ومهما رأيته من الرأي افعل قال أعطني الكتاب فدفعه اليه فأعطاه الوزير ألفي دينار وسار بالكتاب الى المكان الذي هو قاصده فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أياما ما ظهر وأن البدوي بالمدينة مقيم فتعجب من ذلك وأمر باحضار البدوي فحضر فسأله عن حاله فاخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها الى آخرها فقال له أنت قلت عني للناس اني أبحر فقال معاذ الله يا أمير المؤمنين أن اتحدث بما ليس لي به علم وانما كان ذلك مكر امنه وحسدا وأعلمه كيف دخل به الى بيته وأطعمه النوم وما جرى له معه فقال أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله ثم خلع على البدوي واتخذه وزيرا وراح الوزير بحسده وقال المغيرة شاعر آل المهلب

آل المهلب قوم ان مدحتهم * كانوا الاكارم آباء وأجدادا
ان العرانين تلقاها محسدة * ولا ترى للئام الناس حسادا

وقال عمر رضي الله عنه يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك وقال مالك بن دينار شهادة القراء مقبولة في كل شيء الا شهادة بعضهم على بعض فانهم أشد تحاسدا من التيوس وعن أنس رضي الله عنه رفعه ان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال منصور الفقيه

منافسة الفتى فيما يزول * على نقصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه * وكل فوائد الدنيا قليل

يقول الله عز وجل الحاسد عدو نعمتي متسخط لفعلي غير راض بقسمتي التي قسمت لعبادي قال الشاعر

أيا حاسدا الى على نعمتي * أتدري على من أسأت الادب
أسأت على الله في حكمه * لانك لم ترض لي ما وهب
فاخزاك ربي بان زادني * وسد عليك وجوه الطلب

وقال الاصمعي رأيت أعرابيا قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة فقلت له ما أطول عمرك فقال تركت الحسد فبقيت وقالوا لا يخلو السيد من ود ومديح وحسود يقدح وقال ابن مسعود رضي الله عنه ألا لا تعادوا نعم الله قيل ومن يعادي نعم الله قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقيل لعبد الله بن عروة لم لزمت البدو وتركت قومك فقال وهل بقي الا حاسد على نعمة أو شامت على نكبة وقال الشاعر

يا طالب العيش في أمن وفي دعة * ورغدا بلا قترصفوا بلا رنق
خلص فؤادك من غل ومن حسد * فالغل في القلب مثل الغل في العنق

وقال آخر

اصبر على حسد الحسو * دفان صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها * ان لم تجد ما تأكله

وفي نوابغ الحكم الحسد حسك من تعلق به هلك ولبعضهم

انى حسدت فزاد الله فى حسدى * لاعاش من عاش يوما غير محسود

وقال نصر بن سيار

انى نشأت وحسادى ذو وعدد * ياذا المعارج لاتنقص لهم عددا
ان يحسدونى على مالى لما بهم * فقل مالى مما يجلب الحسدا

وكان عمر رضى الله عنه يقول نعوذ بالله من كل قدر وافق ارادة حاسد وقيل لارسطاطاليس مابال الحسود أشد غما قال لانه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا ويضاف الى ذلك غمه لسرور الناس والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الاربعون فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال وفيه فصلان

(الفصل الاول فى فضل الجهاد فى سبيل الله وشدة البأس) قد أثنى الله تعالى على الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ووصف المجاهدين فقال تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وندب الى جهاد الاعداء ووعد عليه أفضل الجزاء والرأى فى الحرب امام الشجاعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة وقال صلى الله عليه وسلم ما من قطرة أحب الى الله تعالى من قطرة دم فى سبيله أو قطرة دمع فى جوف ليل من خشيته وسمع رجل عبد الله بن قيس رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الجنة تحت ظلال السيوف فقال يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله قال نعم فرجع الى أصحابه فقال أقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه الى العدو فضرب به حتى قتل وكتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه الى خالد بن الوليد اعلم أن عليك عيونا من الله تعالى وتراك فاذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة ولا تغسل الشهداء من دمائهم فان دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انتهينا الى خيبر الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين وعنه رفعه لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها وعن ابن مسعود رفعه ان أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل وقيل ان أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنه لم يشهد بدرا فلم يزل متحسرا يقول أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غيبت عنه فلما كان يوم أحد قال واها لريح الجنة دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى بدنه بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية فضالت أخته الربيع بنت النضر فما عرفت أخى الا ببنانه وعن فضالة بن عبيد رفعه كل ميت يختم على عمله الا المرابط فانه ينمى له عمله الى يوم القيامة

ويؤمن من فتنة القبر وعن سهل بن حنيف رفعه من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وان مات على فراشه فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة

(الفصل الثاني في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها) اعلم ان الشجاعة عماد الفضائل ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس قال الحكماء وأصل الخير كله في ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة اوجه الوجه الاول اذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران وتكالحت الاحداق بالاحداق برز من الصف الى وسط المعترك يحمل ويكر وينادي هل من مبارز والثاني اذا انشب القوم واختاطوا ولم ير أحدهم من أين يأتيه الموت يكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة فيتقلب تقلب المالك لأموره القائم على نفسه والثالث اذا انهزم اصحابه يلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوي قلوب اصحابه ويربي الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل ويشجع نفوسهم فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كابه فرسه حماه حتى يياس العدو منهم وهذا أحمدهم شجاعة وعن هذا قالوا ان المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ومن اكرم الكرم الدفاع عن الحريم (وحكى) سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمه الله تعالى عليه في كتابه سراج الملوك قال كان شيوخ الجند يحكون لنا في بلادنا قالوا دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افترقوا فوجدوا في المعترك قطعة خودة قدر الثلث بما حوته الرأس فقالوا انه لم يرقط ضربة أقوى منها ولم يسمع بمثلها في جاهلية ولا اسلام فحملتها الروم وعلقتها في كنيسة لهم فكانوا اذا عيروا بانهزامهم يقولون لقينا أقواما هذا ضربهم فيرحل أبطال الروم اليها ليروها قالوا ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وان كان ذليلا ولا يغفل عنه وان كان حقيرا فكم برغوث أسهر فيلا ومنع الرقاد ملكا جليلا قال الشاعر

فلا تحقرن عدوا رمالك * وان كان في ساعديه قصر
فان السيوف تحز الرقاب * وتعجز عما تنال الابر

واعلموا أن الناس قد وضعوا في تدبير الحروب كتبا ورتبوا فيها ترتيبا ولنصف منها اشياء نبدأ منها أولا بما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم فقوله تعالى ما استطعتم مشتمل على كل ما هو في مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة وفسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة حين مر على أناس يرمون فقال الا ان القوة الرمي ألا ان القوة الرمي ألا ان القوة الرمي وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملا صالحا من صدقة وصيام ورد المظالم وصلة الرحم ودعاء مخلص وأمر بمعروف ونهي عن منكر وأمثال ذلك والشان كل الشان في استجادة القواد وانتخاب الامراء واصحاب الآلوية فقد قالت حكماء العجم أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد فلا ينبغي أن يقدم الجيش الا الرجل ذو البسالة والنجدة والشجاعة والجراءة ثابت الجأش صارم القلب صادق البأس ممن قد توسط الحروب ومارس

الرجال ومارسوه ونازل الاقران وفارع الابطال عارفا بمواضع الفرص خبيرا بمواقع القلب والميمنة والميسرة من الحروب فانه اذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعا كأنهم مثله فانه ان رأى لقراع الكتائب وجها والا رد الغنم الى الزريبة واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء وكان عظماء الترك يقولون ينبغي للعاقل العظيم القياد أن يكون فيه عدة أخلاق من أخلاق البهائم نجباعة الديك وبحث الدجاجة وقلب الاسد وحملة الخنزير وروغان الثعلب وصبر الكلب على الجراح وحراسة الكركي وغارة الذئب وممن نغير وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء * وكان يقال أشد خلق الله تعالى عشرة الجبال والحديد ينحت الجبال والنار تأكل الحديد والماء يطفئ النار والسحاب يحمل الماء والريح تصرف السحاب والانسان يتقي الريح بجناحيه والسكر يصرع الانسان والنوم يذهب السكر والهم يمنع النوم فأشد خلق ربك الهم اللهم انا نعوذ بك من الهم والحزن * ومن الحيل في الحرب أن يبث جواسيسه في عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم ويستميل قلوب رؤسائهم وذوي الشجاعة منهم فيدس اليهم ويعدهم وعدا جميلا ويقوي أطماعهم في نيل ما عنده من الهبات الفخيمة والولايات السنية وان رأى وجها عاجلهم بالهدايا وساومهم اما الغدر بصاحبهم واما الاعتزال وقت اللقاء ويكتب على السهام أخبارا مزورة ويرميها في جيوشهم واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر وأن الدول اذا زالت صارت حيلتها وبالا عليها واذا اذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة وقال الحكماء اذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة ويغلب الضعيف باقبال دولته كما يغلب القوي بيقاء مدته فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال وكماة الابطال في القلب فانه اذا انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة الى القلب فاذا كانت رايته تخفق وطبوله تضرب كان حصنا للجناحين يأوي اليه كل منهزم واذا انكسر القلب تمزق الجناحان مثال ذلك أن الطائر اذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين واذا انكسر الرأس ذهب الجناحان وقل عسكر انكسر قلبه فافلح أو تراجع اللهم الا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش فيخلي القلب قصدا وتعمدا حتى اذا توسطه العدو واشتغل بنهبه انطبق عليه الجناحان فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب ويقال حبب الى عدوك الفرار بان لا تنبعهم اذا انهزموا ويقال الشجاع محبب حتى الى عدوه والجبان مبغض حتى الى أمه * ولما أقبل كسرى بن هرمز الى محاربة بهرام قال له صاحبه أما تستعد قال عدتي ثبات قلبي واصابة رأيي ونصل سيفي ونصرة خالقي * وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب فأنشده مسلمة قول الحطيئة

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت باطهار

فقال يزيد انما ذاك اذا حاربنا أكفاءنا وأما مثل هذا وتطرائه فلا فقام اليه مسلمة فقبل بين عينيه * وقيل لملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلا من آل ساسان فوفد

عليهم بهرام جور فقال اعمدوا الى أسدين جائعين فاطرحوا بينهما التاج فمن أخذه فهو الملك ففعلوا فدنا منهما فاهويا نحوه فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به فقتلهما جميعا وشدّ على التاج فأخذه ووضعه على رأسه وملكته الفرس عليهم * وقيل لم يكن في العجم أرمى من الملك بهرام خرج يتصيد يوما وهو مردف حظية له كان يعشقها فعرضت له ظباء فقال في أيّ موضع تريدين أن أضع هذا السهم فقالت أريد أن تشبه ذكرانها بالاناث واناثها بالذكران فرمى ظبيا ذكرا بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه ورمى ظبية بنشابتين اثبتهما في موضع القرنين ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة فرمى أصل الاذن ببندقة ثم أهوى الظبي برجله الى أذنه ليحتك فرماه بنشابة فوصل اذنه بظلفه * ويقال ان من اعظم المكايد في الحرب الكمين وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع وحمى الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بندا منشورا ويسمع صوت الطبل فحينئذ يكون همه خلاص نفسه وعليك بانتخاب الفرسان واختيار الابطال ولا تنس قول الشاعر

والناس ألف منهم كواحد * وواحد كالألف ان أمر عنى

بل قد جرّب ذلك فوجد الواحد خيرا من عشرة آلاف وسأحكي لك من ذلك ما ترى فيه العجب فمن ذلك لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصرانيّ على مدينة وشقة من ثغور بلاد الاندلس وكان العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خيل ورجل فحدّث من حضر الوقعة من الاجناد قال لما دنا اللقاء قال الطاغية بن روميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله استعلم لي من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومن غاب منهم ومن حضر فذهب ثم رجع فقال فيهم فلان وفلان فعدّ سبعة رجال فقال له انظر من في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة ومن غاب منهم فعدّهم فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون فقام الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول ما أبيضك من يوم ثم ثارت الحرب بينهم فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره ولا تزحزح عن مقامه حتى فنى أكثر العسكرين ولم يفرّ واحد منهم قال فلما كان وقت العصر نظروا الينا ساعة ثم حملوا علينا جملة وداخلونا مداخلة ففرّقوا بيننا وصرنا شطرين وحالوا بيننا وبين أصحابنا فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ولم تقم الحرب الا ساعة ونحن في خسارة معهم فاشار مقدّم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه وانكسر عسكر المسلمين وتفرّق جمعهم وملك العدوّ مدينة وشقة فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوي على أربعين ألف مقاتل ولم يحضره من الشجعان المعدودين الا خمسة عشر نفرا وليعتبر بضمان العلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد * (وحكى) سيدي أبو بكر الطرطوشيّ رحمة الله تعالى عليه قال سمعت استاذنا القاضي أبا الوليد يحيى قال بينما المنصور بن أبي عامر في بعض غزواته اذ وقف على نشز من الارض مرتفع فرأى جيوش المسلمين من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملؤا السهل والجبل فالتفت الى مقدّم العسكر وهو رجل يعرف بابن المضجعيّ فقال له كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير قال أرى جمعا كثيرا وجيشا واسعا كبيرا فقال له المنصور ما ترى هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة

والنجدة والبسالة فسكت ابن المضجعي فقال له المنصور ماسكوتك أليس في هذا الجيش ألف مقاتل قال لا فتعجب المنصور ثم قال فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الابطال المعدودين قال لا فخنق المنصور ثم قال أفيهم مائة رجل من الابطال قال لا قال أفيهم خمسون رجلا من الابطال قال لا قال فسبه المنصور وأغلظ عليه وأمر به فأخرج على أسوء حال فلما توسطوا بلاد الروم اجتمعت الروم وتصاف الجمعان فبرز علج من الروم بين الصفين شاكي السلاح وجعل يكر ويفر ويقول هل من مبارز فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج ففرح المشركون وصاحوا واضطرب المسلمون لها ثم جعل العلج يموج بين الصفين وينادي هل من مبارز اثنين لواحد فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج وجعل يكر ويجمل وينادي ويقول هل من مبارز ثلاثة لواحد فبرز اليه رجل من المسلمين فقتله العلج فصاح المشركون وذل المسلمون وكادت أن تكون كسرة فقيل للمنصور مالها الا ابن المضجعي فبعث اليه فحضر فقال له المنصور ألا ترى مايصنع هذا العلج الكلب منذ اليوم فقال لقد رأيته فما الذي تريد قال أن تكفي المسلمين شره قال الآن يكفي المسلمون شره ان شاء الله تعالى ثم قصد الى رجال يعرفهم فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكها هزالا وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس والرجل في حليته ونفسه غير متصنع فقال له ابن المضجعي ألا ترى مايصنع هذا العلج منذ اليوم قال قد رأيته فما الذي تريد قال أريد أن تكفي المسلمين شره قال حبا وكرامة ثم انه وضع القربة بالارض وبرز اليه غير مكترث به فتجاولا ساعة فلم ير الناس الا المسلم خارجا اليهم يركض ولا يدرون ماهنالك واذا برأس العلج يلعب بها في يده ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور فقال له ابن المضجعي عن هؤلاء الرجال أخبرتك قال فرد ابن المضجعي الى منزلته وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين *(وحكي) أنه كان للعرب فارس يقال له ابن فتحون وكان أشجع العرب والعجم في زمانه وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار وكانت جيوش الكفار تهابه وتعرف منه الشجاعة وتخشى لقاءه فيحكى أن الرومي كان اذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له ويلك لم لا تشرب هل رأيت ابن فتحون في الماء فحسده نظرا وه على كثرة العطاء ومنزلته من السلطان فوشوا به عند المستعين فأبعده ومنعه من عطائه ثم ان المستعين أنشأ غزوة الى بلاد الروم فتقابل المسلمون والمشركون صفوفا ثم برز علج الى وسط الميدان ونادى وقال هل من مبارز فبرز اليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومي فصاح المشركون سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفين وينادي هل من اثنين لواحد فخرج اليه فارس من المسلمين فقتله الرومي فصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل الكلب يجول بين الصفين وينادي ويقول ثلاثة لواحد فلم يجترئ أحد من المسلمين أن يخرج اليه وبقي الناس في حيرة فقيل للسلطان مالها الا أبو الوليد بن فتحون فدعاه وتلطف به وقال له يا أبا الوليد أما ترى مايصنع هذا العلج فقال ها هو بعيني قال فما الحيلة فيه قال الساعة أكفي المسلمين شره فلبس قميص كان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح وأخذ بيده سوطا طويلا وفي طرفه عقدة معقودة ثم برز اليه فتعجب

منه

منه النصرانى ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فتحون واذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل الى الارض لاشئ منه فى السرج ثم انقلب فى سرجه وحمل على العلج وضربه بالسوط فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدى المستعين فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه مع أبى الوليد بن فتحون فاعتذر اليه وأكرمه وأحسن اليه وبالغ فى الانعام عليه وردّه الى أحسن أحواله وكان من أعز الناس اليه * وينبغى لقائد الجيش أن يخفى العلامة التى هو مشهور بها فان عدوه قد يستعلم حليته وألوان خيله ورايته ولا يلزم خيمته ليلا ولا نهارا وليبدل زيه ويغير خيمته كلا يلتمس عدوه غرته منه واذا سكن الحرب فلا يمشى فى النفر اليسير من قومه خارج عسكره فان عيون عدوه منجحسة عليه وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش افريقية عند فتحها وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار فجعل مقدم العدو يمشى خارج عسكره يتميز عساكر المسلمين فجاءه الخبر الى عبد الله بن أبى السرح وهو نائم فى قبته فخرج فيمن وثق به من رجاله وحمل على العدو فقتل الملك وكان الفتح وبمثل هذا قهر البارسلان ملك الترك ملك الروم وقعه وقتل رجاله وأباد جمعه وكانت الروم قد جمعت جيوشا يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل كتائب متواصلة وعساكر مترادفة وكراديس يتلو بعضها بعضا لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق والآلات المعدة للحروب وفتح الحصون بما لا يحصى وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق ومصر وخراسان وديار بكر ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم وأن نجوم السعود قد خدمتهم ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم الى بلاد المسلمين واضطربت لها ممالك أهل الاسلام فاحتشد للقائهم الملك البارسلان وهو الذى يسمى الملك العادل وجمع جموعه بمدينة اصبهان واستعد بما قدر عليه ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران يتدانيان الى أن عادت طلائع المسلمين الى المسلمين وقالوا للبارسلان غدا يترأى الجمعان فبات المسلمون ليلة الجمعة والروم فى عدد لا يحصيهم الا الله الذى خلقهم وما المسلمون فيهم الا أكلة جائع فبقى المسلمون وجلين لما دهمهم فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم الى بعض فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو فأمر البارسلان أن يعتد المسلمون فبلغوا اثنى عشر ألفا فكانوا كالشامة البيضاء فى النور الاسود فجمع ذوى الرأى من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين والنظر فى العواقب واستشارهم فى استخلاص أصوب الرأى فتشاوروا برهة ثم اجتمع رأيهم على اللقاء فتوادع القوم وتحالفوا وناصحوا الاسلام وأهله وتأهبوا أهبة اللقاء وقالوا للبارسلان بسم الله نحمل عليهم فقال البارسلان يا معشر أهل الاسلام أمهلوا فان هذا يوم الجمعة والمسلمون يخطبون على المنابر ويدعون لنا فى شرق البلاد وغربها فاذا زالت الشمس وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم اذ ذاك فكان البارسلان قد عرف خيمة ملك الروم وعلامته وزيه وزينته وفرسه ثم قال لرجاله لا يتخلف

أحد منكم أن يفعل كفعلي ويتبع أثري ويضرب بسيفه ويرمي بسهمه حيث أضرب بسيفي وأرمي بسهمي ثم حمل برجاله حملة رجل واحد الى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونهم او وصلوا الى الملك فقتلوا من كان دونه وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك قتل الملك فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل فتبددوا وتفرقوا كل ممزق وعمل السيف فيهم أياما وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم وأتوا بالملك أسيرا بين يدي البارسلان والحبل في عنقه فقال له البارسلان ماذا كنت تصنع بي لو أسرتني قال وهل تشك أني كنت أقتلك فقال له البارسلان أنت أقل في عيني من أن أقتلك اذهبوا به فبيعوه لمن يزيد فيه فكان يقاد والحبل في عنقه وينادى عليه من يشتري ملك الروم ومازالوا كذلك يطوفون به على الخيام ومنازل المسلمين وينادون عليه بالدراهم والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيأ حتى باعوه من انسان بكباب فأخذه الذي ينادي عليه وأخذ الكباب وأتى بهما الى البارسلان وقال قد طفت به جميع العسكر وناديت عليه فلم يبذل أحد فيه شيأ سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكباب فقال قد أنصفك ان الكباب خير منه ثم أمر البارسلان بعد ذلك باطلاقه وذهب الى القسطنطينية فعزلته الروم وكحلوه بالنار فانظر ماذا يأتي على الملوك اذا عرفوا في الحرب من الحيلة والمكيدة اللهم انصر جيوش المسلمين وعساكر الموحدين وأهلك الكفرة والمشركين وانصر المسلمين نصرا عزيزا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين

الباب الحادي والاربعون في ذكر أسماء الشجعان وذكر الابطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن

(الطبقة الاولى الذين أدركوا الجاهلية والاسلام) * حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسد الله وأسد رسوله قتل في غزاة أحد رماه وحشي مولى جبير ابن مطعم بحربة فقتله وكان فارس قريش غير مدافع وبطلها غير ممانع وعظم قتله على النبي صلى الله عليه وسلم ونذر أن يقتل به سبعين رجلا من قريش وكبر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة * أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه آية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يد بالتأييد الالهي كاشف الكروب ومجليها ومثبت قواعد الاسلام ومرسيها وهو المتقدم على ذوي الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف روي عنه رضي الله عنه أنه قال والذي نفس ابن أبي طالب بيده لالف ضربة بالسيف أهون علي من موتة على فراش وقال بعض العرب ما لقينا كتيبة فيها علي بن ابي طالب رضي الله عنه الا أوصى بعضنا على بعض وقال رضي الله عنه لمعاوية قد دعوت الناس الى الحرب فدع الناس جانبا واخرج الي لتعلم اينا المران على قلبه والمغطى على بصره وأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شد خانوم بدر وذلك السيف معي وبذلك القلب ألقى عدوي وقيل له كرم الله وجهه اذا جالت الخيل فأين نطلبك قال حيث ترى كتمونني وقيل له كيف كنت تقتل الابطال قال لاني كنت ألقى الرجل فاقدر أني أقتله وبقدر هو أني قتلته فأكون أنا ونفسه عونا عليه وقال مصعب بن الزبير كان علي رضي الله عنه حذرا في الحروب شديد الرويدان

لا يكاد أحد يتمكن منه وكانت درعه صدرا لا ظهر لها فقيل له أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك فقال اذا مكنت عدوى من ظهرى فلا أبقى الله عليه أن أبقى على قتله عبد الرحمن ابن ملجم المرادى لعنة الله تعالى عليه غدره وهو فى صلاة الصبح وسبب ذلك أن عبد الرحمن ابن ملجم لعنه الله تزوج بقطام بنت علقمة وكانت خارجية فقالت له لا أقنع الا بصداق أسميه وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة وأن تقتل على بن أبى طالب فقال لها لك ما سألت الا على ابن أبى طالب وكيف لى به قالت تقتاله فان سلمت أرحت الناس من شره وأقمت مع أهلك وان أصبت دخلت الجنة فقال

ثلاثة آلاف وعبد وقينة * وضرب على بالحسام المخذم

فلا مهر أغلى من على وان علا * ولا قتل الا دون قتل ابن ملجم

وقيل انه طعنه وهو داخل المسجد فى الغلس وذلك فى تاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين وكفن رضى الله عنه فى ثلاثة أثواب ودفن فى الرحبة مما يلى باب كندة من أبواب المسجد قالوا ولما ضربه ابن ملجم لعنه الله ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم فاحتضنوه وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب فأخذه فأومأ على رضى الله عنه الى المغيرة أن صل بالناس فصلى بهم الفجر وأقبلت همدان فدخلوا على على فقالوا يا أمير المؤمنين لا نقوم لهم قائمة ان شاء الله تعالى فقال لا تفعلوا انما النفس بالنفس قال ثم ان الحسن رضى الله عنه صلى الفجر وصعد المنبر فأراد الكلام فخنقته العبرة ثم نطق فقال الحمد لله على ما أحبينا وكرهنا وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وانى أحتسب عند الله عز وجل مصابى بأفضل الآباء رسول الله القائل صلى الله عليه وسلم من أصيب بمصيبة فليتعل بمصيبته فى فانها أعظم المصائب والله الذى لا اله الا هو الذى أنزل على عبده الفرقان لقد قبض فى هذه الليلة رجل ما سبقه الاولون بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدركه الآخرون فعند الله نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم فوالله لا أقول اليوم الا حقا لقد دخلت مصيبته اليوم على جميع العباد والبلاد والشجر والدواب ولقد قبض فى الليلة التى رفع فيها عيسى بن مريم عليهما السلام الى السماء وقبض فيها موسى بن عمران ويوشع بن نون عليهما السلام وأنزل فيها القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه فى السرية ويسير جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل على يديه وما نزل صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادما لاهله الا أن أمور الله تعالى تجرى على أحوالها فما أحسنها من الله وأسوأها من أنفسكم الا ان قريشا أعطت أزمتها شياطينها فقادتها باعنتها الى النار فمنهم من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أظهره الله تعالى عليه ومنهم من أسر الضغينة حتى وجد على النفاق أعوانا رفع الكتاب وجف القلم وأمور تقضى فى كتاب قد خلا ثم أطرق الحسن فبكى الناس بكاء شديدا ثم نزل فجر دسيفه ودعا بابن ملجم فأقبل يخطر واضعا شعره على أذنيه حتى قام بين يديه فقال يا حسن انى ما عاهدت الله تعالى على عهد قط الا وفيت به

عاهدت الله تعالى على أن أقتل ابالك وقد قتلته فان تخلني اقتل معاوية فان أنا قتلته أضع يدي على يدك وان أقتل فهو الذي تريد فقال الحسن رضي الله عنه أما والله لا سبيل الى بقائك ثم قام اليه فضربه بالسيف فاتقاه ابن ملجم بيده ثم أسرع السيف فيه فقتله * ومن الابطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي رضي الله عنه سيف الله وسيف رسوله صلى الله عليه وسلم بطل مذكور وفارس مشهور في الجاهلية والاسلام قتل مالك بن نويرة وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله وكان الفتح لخالد يوم اليمامة وهو الذي فتح دمشق وأكثر بلاد الشام وله وقائع عظيمة في الروم أيد الله بها الاسلام مات على فراشه وكان يقول لقد شهدت كذا وكذا زحفا وما في جسدي موضع شبر الا وفيه أثر من طعنة أو ضربة أو رمية وها أنا أموت على فراشي لا نامت عين الجبان وكان ينشد ويرتجز ويقول

لا ترعبونا بالسيوف المبرقه * ان السهام بالردى مفوقه
والحرب دونها العقال مطلقه * وخالد من دينه على ثقه

رضي الله عنه * الزبير بن العوام رضي الله عنه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته بطل شجاع لا يجاري وشهم لا يجاري قتله عمرو بن جرموز غدرا قتاله وهو في الصلاة * عمرو ابن معديكرب الزبيدي فارس من فرسان الجاهلية وله مواقف مذكورة ومواطن مشهورة وأسلم ثم ارتد ثم عاد الى الاسلام وشهد حروب الفرس وكان له فيها أفعال عظيمة وأحوال جسيمة وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا رآه قال الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمرا وروي عنه رضي الله عنه أنه سأله يوما فقال له يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب قال فعن أيها تسأل قال ما تقول في السهام قال منها ما يخطئ ويصيب قال فما تقول في الرمح قال أخوك وربما خانك قال فما تقول في الترس قال هو الدائر وعليه تدور الدوائر قال فما تقول في السيف قال ذلك العدة عند الشدة وقيل انه نزل يوم القادسية على النهر فقال لاصحابه اني عابر على هذا الجسر فان أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي وقد عرفني القوم وانا قائم بينهم وان أبطأتم وجدتموني قتيلا بينهم ثم اقتحم فحمل على القوم فقال بعضهم لبعض يا بني زبيد علام تدعون صاحبكم والله ما أظن انكم تدركونه حيا فحملوا فأتوه اليه وقد صرع عن فرسه وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم فأمسكها والفارس يضرب فرسه فلم تقدر أن تتحرك فلما رآنا أدرك ما دهى الرجل نفسه وخلى فرسه فركبه عمرو وقال أنا أبو ثور كدتم والله تفقدونني فقالوا أين فرسك فقال رمى بنشابة فغار وشب فصرعني ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذي كان قتله يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه اربعون الف دينار فقتل رستم وانهزمت العجم وقتل عمرو بنها وندفي وقعة الفرس بعد أن عمر حتى ضعف وكان من الشعراء المعدودين وفيه يقول العباس ابن مرداس

اذا

اذا مات عمرو قلت للخيل أوطئي * زيدا فقد أودى بنجدتها عمرو

طلحة الاسدى رضى الله عنه كان من أكبر الشجعان جاهلية واسلاما ثم ارتد وتنبأ وجمع جمعا عظيما فقتل خالد بن الوليد جمعه وكان يتكهن ثم عاد الى الاسلام وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح * المقداد بن الاسود رضى الله عنه كان من أشجع الفرسان شديد البأس قوى الجنان رابط الجأش وله فى الشجعان اسم مشهور ووصف مذكور يعجز الواصف عن وصف صفاته رضى الله عنه وأرضاه * سعد بن أبى وقاص الزهرى الانصارى رضى الله عنه كان فارسا بطلا راميا وهو أول من رمى فى سبيل الله بسهم ولما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه اعتزل ولم يشهد الحرب بعده ومات حتف انفه * أبو دجانة الانصارى رضى الله عنه الذى خرج يتبختر بين الصفين فقال عليه الصلاة والسلام انها لمشية يبغضها الله تعالى الا فى هذا الموضع * المثنى بن حارثة الشيبانى رضى الله عنه هو أول من فتح حرب الفرس * أبو عبيد بن مسعود الثقفى رضى الله عنه قاتل القوم يوم قس الناطف فى حرب القادسية * عمار بن ياسر رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق يدور مع عمار حيث دار وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية فقتل بصفين مع على رضى الله عنه * هاشم بن عتبة رضى الله عنه من أكابر الشجعان صاحب راية على رضى الله عنه بصفين * مالك بن الحرث النخعى الاشتر رضى الله عنه مات مسموما فى شربة من عسل فقال معاوية ان لله جنودا منها العسل * القعقاع بن عمرو طاعن الفيل فى عشية القادسية رضى الله عنه * الطبقة الثانية * عبد الله بن الزبير بن العوام رضى الله عنه قاتل جرجير ملك افريقية الذى كان يرى أنه أشجع أهل عصره قال عمر بن عبد العزيز لابن أبى مليكة صف لى عبد الله بن الزبير فقال والله ما رأيت جلدا قط ركب على لحم ولا لحما على عصب ولا عصبا على عظم مثل جلده ولحمه وعصبه ولا رايت نفسا بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه ولقد قام يوما الى الصلاة فرجرجر من حجارة المنجنيق بين يديه وصدره فوالله ما خشع له بصره ولا قطع له قراءته ولا ركع دون الركوع الذى كان يركع قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة وأسلمه أصحابه وعشيرته وصلبه الحجاج ألا الى الله تصير الامور * أبو هاشم محمد بن على بن أبى طالب ابن الحنفية رضى الله عنه كان أبوه يلقيه فى الوقائع ويتقى به العظائم وهو شديد البأس ثابت الجنان قيل له يوما مابال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه يقحمك الحروب دون الحسن والحسين رضى الله عنهما فقال لانهما كانا عينيه وكنت أنا يديه فكان يتقى عينيه بيديه وقيل ان أباه عليا رضى الله عنه اشترى درعا فاستطالها فأراد أن يقطع منها فقال له محمد يا أبت علم موضع القطع فعلم على موضع منها فقبض محمد يده اليمنى على ذيلها وبالاخرى على موضع العلامة ثم جذبها فقطعها من الموضع الذى حدده أبوه وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه فى الشجاعة يحسده على قوته واذا حدث بهذا الحديث غضب مات حتف انفه بشعب رضوى * عبد الله بن حازم السلمى رضى الله عنه والى خراسان شجيع مضروفارسها فى عصره قتله وكيع بن أبى سويد بخراسان فى الفتنة * وكيع بن أبى سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره شجاع فاتك أهوج والى خراسان قبل لما قتل عبد الله بن حازم ولم يتم أمره لهو وجه مات حتف انفه *

مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد جاد بماله وبنفسه قتله عبد الله بن زياد فى الحروب التى كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان * عمير بن الحباب السلمى فارس الاسلام قتله بنو تغلب فى الحرب التى كانت بينهم وبين قيس * مسلمة بن عبد الملك بن مروان فحل بنى أمية وفارسها ووالى حروبها قيل انه جلس يوما يقضى بين الناس بمصر فكلمته امرأة فلم يقبل عليها فقالت ما رأيت أقل حياء من هذا قط فكشف عن ساقه فاذا فيها اثر تسع طعنات فقال لها هل ترين أثر هذا الطعن والله لو أخرت رجلى قيد شبر ما أصابنى واحدة منهن وما منعنى من تأخيرها الا الحياء وانت تخلينى قتله * المعتصم بطل شجاع فارس صنديد لم يكن فى بنى العباس أشجع منه ولا أشد قلبا قال ابن أبى دواد كان المعتصم يقول لى يا أبا عبد الله عض على ساعدى باكثر قوتك فأقول والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسى بذلك فيقول انه لا يضرنى فأروم ذلك فاذا هو لا تعمل فيه الاسنة فكيف تعمل فيه الاسنان ويقال انه طعنه بعض الخوارج وعليه درع فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين وكان يشد يده على كابة الدينار فيعصرها ويأخذ عود الحديد فيلويه حتى يصيره طوقا فى العنق * ابراهيم بن الاشتر النخعى كان من الشجعان المعدودين حارب عبيد الله بن زياد وهو فى أربعة آلاف وعبيد الله فى سبعين ألفا فظفر به وقتله بيده وهزم جيشه * عبد الله بن الحر الجعفى شجاع شاعر فاتك له وقائع عظيمة هائلة وأخبار فى الشجاعة مشهورة * جحدر بن ربيعة العكلى كان بطلا شجاعا فاتكا مغيرا شاعرا قهر أهل اليمامة وأبادهم فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فكتب الى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه ويأمره بالتجرد له حتى يقتله أو يحمله اليه أسيرا فوجه العامل اليه فتية من بنى حنظلة وجعل لهم جعلا عظيما ان هم قتلوا جحدرا أو أتوا به أسيرا فتوجه الفتية فى طلبه حتى اذا كانوا قريبا منه أرسلوا يقولون له انهم يريدون الانقطاع اليه والارتفاق به فوثق بذلك منهم وسكن الى قولهم فبينما هو معهم يوما اذ وثبوا عليه فشدوه وثاقا وقدموا به على العامل فوجه به الى الحجاج معهم فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له أنت جحدر قال نعم أصلح الله الامير قال ما جرأك على ما بلغنى عنك قال اصلح الله الامير كاب الزمان وجفوة السلطان وجراءة الجبان قال وما بلغ من امرك قال لو بتلا فى الامير وجعانى مع الفرسان لرأى منى ما يعجبه قال فتعجب الحجاج من ثبات عقله ومنطقه ثم قال يا جحدر انى قاذف بك فى حاجر فيه أسد عظيم فان قتلك كفانا مؤنتك وان قتلته عقونا عنك قال أصلح الله الامير قرب الفرج ان شاء الله تعالى فامر به فصفدوه بالحديد ثم كتب الى عامله أن يرتاد له أسدا ويحمله اليه فتحيل العامل وارتاد له أسدا كان كاسرا خبيثا قد أفنى عامة المواشى فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه فى تابوت وحبسوه على عجل فلما قدموا به على الحجاج أمر به فألقى فى الحاجر ولم يطعم شيأ ثلاثة ايام حتى جاع واستكلب ثم أمر بجحدر أن ينزلوه اليه فاعطوه سيفا وأنزلوه اليه مقيدا وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون الى الاسد ما هو صانع بجحدر فلما نظر الاسد الى جحدر نهض ووثب وتمطى وزعق زعقة دويت منها الجبال وارتاعت أهل الارض فشد عليه جحدر وهو ينشد ويقول

ليث وليث فى مجال ضنك * كلاهما ذو قوة وفتك * وصولة وبطشة وفتك
ان يكشف الله قناع الشك * فأنت لى فى قبضتى وملكى

ثم دنا منه وضربه بسيفه فقلق هامته فكبر الناس وأعجب الحجاج ذلك وقال لله درك ما أنجبك ثم أمر به فأخرج من الحاجر وفك عنه قيوده وقال له اختر ما أن تقيم معنا فنكرمك ونقرب منزلتك وإما أن نأذن لك فتلحق ببلادك وأهلك على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثا ولا تؤذي بها أحدا قال بل اختار صحبتك أيها الامير فجعله من سماره وخواصه ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة وكان من أمره ما كان * المهلب بن أبي صفرة كان من الشجعان ومن الابطال المعدودة واولاده كلهم انجاد أبطال الا أن المغيرة من بينهم كان أشد تمكنا وكان المهلب يقول ما شهد معي حربا الا رأيت البشرى في وجهه وحمل عليه بعض الشجعان وفي يده شجرة فلما رآها نكس راسه على قربوس السرج وحمل من تحتها فبراها بسيفه وكان المهلب يقول أشجع الناس ثلاثة ابن الكلبية وأحمر قريش وراكب البغلة فابن الكلبية مصعب بن الزبير وأحمر قريش عمر بن عبيد الله بن معمر ما لقي خيلا قط الا فرقها وراكب البغلة عباد بن الحصين ما كان قط في كريهة الا فرجها وهو من فرسان الاسلام وكان للمهلب في الحروب مكايد مشهورة ووقائعه أبادت الخوارج بعد ان كانوا قد استولوا على المسلمين وكان سيدا كريما مات حتف انفه وكذلك ابنه المغيرة وفيه يقول زياد الاعجم

مات المغيرة بعد طول تعرض * للقتل بين أسنة وصفائح

وكان في الخوارج فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال وذكرهم يطول ويخرج عما أردناه فمنهم أبو بلال مرداس خرج في أربعين فهزم ألفين * وشبيب الخارجي الذي غرق في الفرات نذرت امرأته أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ في الاولى البقرة وفي الثانية آل عمران فعبر بها جسر الفرات وادخلها الجامع ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرتها والحجاج في الكوفة في خمسين ألفا * ومنهم قطري بن الفجاءة كان رأس الخوارج وخاطبوه بأمير المؤمنين وعظموه وبجلوه وأشعاره في الشجاعة تدل على مكانه منها قتل في بعض وقائع الخوارج

(الطبقة الثالثة) معن بن زائدة الشيباني قتله الخوارج بسجستان في أيام المهدي * الوليد بن طريف الشيباني قتله يزيد بن مزيد * عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة نقل عنه انه كان يتصيد فتتبع حمار وحش وما زال يركض الى أن حاذاه فجمع رجليه ووثب من على فرسه وصار على ظهر حمار الوحش وطار يحز عنقه بسيف أو سكين في يده حتى قتله * أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق في غيره طعن فارسين رديفين فأنفذ الرمح من ظهر يهما وحمل برمحه أربعة نفر وفيه يقول بكر بن النطاح

قالوا ينظم فارسين بطعنة * يوم اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو كان مذ قنا نه * ميلا اذا نظم الفوارس ميلا

وسأله يوما رجل شيأ فقال له أتسأل وجدك القائل

ومن ينتقر منا يعش بحسامه * ومن يفتقر من سائر الناس يسأل
وانا لنلهو بالسيوف كما لهت * فتاة بعقد أو بخاب فرنفل

فخرج الرجل فجرد سيفه فلم يصادفه فى طريقه الا وكيل لابى دلف ومعه مال جزيل فاستلبه منه وقتله فبلغ الخبر أبا دلف فقال دعوه فانى علمته على نفسى * بكر بن النطاح بطل شجاع فارس فاتك له أشعار مشهورة وأخبار مذكورة

(ومما جاء فى مدح السيف) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخير فى السيف والخير مع السيف والخير بالسيف وكان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب وممن تمثل به نهشل فقال

أخ ماجد ما خاننى يوم مشهد * كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن قال

* خليلى لم أخنه ولم يخنى * اذا ما صاب أوساط العظام *
* خليلى لم أهبه من قلاه * ولكن المواهب للكرام *
* حبوت به كريما من قريش * فسر به وصين عن اللئام *
وودعت الصفى صفى نفسى * على الصمصام أضعاف السلام

ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسرى بمال جزيل لهشام وكان قد كتب اليه فيه فلم يزل عند بنى مروان ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدى فلم يجدوه فجد الهادى فى طلبه حتى ظفر به وكان مكتوبا عليه هذا البيت

ذكر على ذكر يصول بصارم * ذكر يمان فى يمين يمانى

وقال ابن الرومى

* لم أر شيا حاضرا نفعه * للمرء كالدرهم والسيف *
يقضى له الدرهم حاجاته * والسيف يحميه من الحيف

وقال زيد بن على رضى الله عنهما

السيف يعرف عزمى عند هزته * والرمح بى خبر والله لى وزر
انا لنأمل ما كانت أوائلنا * من قبل تامله ان ساعد القدر

وقال عبد الله بن طاهر

يبيت ضجيعى السيف طورا وتارة * يعض بها مات الرجال مضاربه
أخو ثقة أرضاه فى الروع صاحبا * وفوق رضاه أننى أنا صاحبه
وليس أخو العلياء الا فتى له * بها كلف ما تستقر ركائبه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله فطلب منه سيف الزبير وقال له رده على فانه السيف الذى أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم له يوم حنين فقال له عبد الملك أو تعرفه قال نعم قال بماذا قال اعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك أعرفه بقول الشاعر

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

وقال الاجدع الهمدانى

لقد علمت نسوان همدان أننى * لهن غداة الروع غير خذول
وأبذل فى الهيجاء وجهى واننى * له فى سوى الهيجاء غير بذول

وقال

وقال آخر

عشرون ألف فتى ما منهم أحد * الا كألف فتى مقدامة بطل

راحت مزاودهم مملوأة أملا * ففرغوها وأوكوها من الاجل

(ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد) قال نزل علينا بنو نعلب في بعض السنين وكنت مشغوفا باخبار العرب أن اسمعها وأجمعها فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم اذا انا بامرأة واقفة في فناء خبائها وهي آخذة بيد غلام فما رأيت مثله في حسنه وجماله له ذؤابتان كالسبج المنظوم وهي تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن اليه الاسماع وترتاح له القلوب واكثر ما اسمع منها أي بني وهو يتبسم في وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل كأنه جارية بكر لا يرد جوابا فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت فدنوت منه وسلمت فرد علي السلام فوقفت أنظر اليهما فقالت يا حضري ما حاجتك فقلت الاستكثار مما أسمع والاستماع بما أرى من هذا الغلام فقالت يا حضري ان شئت سقت اليك من خبره ما هو أحسن من منظره فقلت قد شئت يرحمك الله فقالت حملته والرزق عسر والعيش نكد حملا خفيفا حتى مضت له تسعة أشهر وشاء الله عز وجل أن أضعه فوضعته خلقا سويا فوربك ما هو الا أن صار ثالث أبويه حتى افضل الله عز وجل واعطى وأتى من الرزق بما كفى وأغنى ثم أرضعته حولين كاملين فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد الى فراش أبيه فربي كأنه شبل أسد أقيه برد الشتاء وحر الهجير حتى اذا مضت له خمس سنين أسلمته الى المؤدب يحفظه القرآن فتلاه وعلمه الشعر فرواه ورغب في مفاخر قومه وآبائه واجداده فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس وابس السلاح ومشى بين بيوتات الحي الخيلاء فأخذ في قرى الضيف واطعام الطعام وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب فخرج فتيان الحي في طلب ثارلهم وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج حتى اذا أمن القوم ولم يبق في الحي غيره ونحن آمنون وادعون ما هو الا أن ادبر الليل واسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو فاهوالا هنيهة حتى احرزوا الاموال دون أهلها وهو يسألني عن الصوت وانا أستر عنه الخبر اشفاقا عليه وضنا به حتى اذا علت الاصوات وبرزت المخدرات رمى دثاره وثار كاثور الاسد وأمر بامراج فرسه ولبس لامة حربه وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم فطعن أدناهم منه فرمى به ولحق أبعدهم منه فقتله فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبيا صغيرا لا مدد وراءه فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة حتى اذا مدهم وراءه وامتدوا في اثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق ومرق كما يمرق السهم ونادا هم خلوا عن المال فوالله لارجعت الا به أولا هلكن دونه فانصرفت اليه الاقران وتمايلت نحوه الفرسان وتميزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا اليه الاسنة وعطفوا عليه بالاعنة فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الابل وجعل لا يحمل على ناحية الا حطمها ولا كتيبة الا مزقها حتى لم يبق من القوم الا من نجا به فرسه ثم ساق المال وأقبل به فكبر القوم عند رؤيته وفرح الناس بسلامته فوالله ما رأيت قط يوما كان أسمح صباحا وأحسن

رواحا من ذلك اليوم واقد سمعته يقول فى وجود فتيان الحى هذه الابيات

تأملن فعلى هل رأين مثله * اذا حشرجت نفس الجبان من الكرب
وضاقت عليه الارض حتى كأنه * من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعط كلا حقه ونصيبه * من السمهرى اللدن والمرهف العضب
* أنا ابن أبى هند بن قيس بن مالك * سليل المعالى والمكارم والسيب *
ابى لى أن أعطى الظلامة مرهف * وطرف قوى الظهر والجوف والجنب
* وعزم صحيح لو ضربت بحده الـ * ـجبال الرواسى لانحططن الى الترب *
* وعرض نقى أتقى أن أعيبه * وبيت شريف فى ذرى ثعلب الغلب *
* فان لم أقاتل دونكن وأحتمى * لكن وأحميكن بالطعن والضرب *
* فلا صدق اللاتى مشين الى أبى * يهنينه بالفارس البطل الندب *

وقال الشاعر

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم * فى الحادثات اذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح * تجلو الدجى والاخريات رجوم

وقال آخر

فوارس قوالون للخيل أقدمى * وليس على غير الرؤس مجال
بأيديهم سمر العوالى كأنما * تشب على أطرافهن ذبال

وقال آخر

قوم اذا اقتحموا الدجاج رأيتهم * شمسا وخلت وجوههم اقمارا
لا يعدلون برفدهم عن سائل * عدل الزمان عليهم أوجارا
واذا الصريخ دعاهم لملمة * بذلوا النفوس وفارقوا الاعمارا

(ذكر الجبن والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم) قد استعاذ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجبن فقال اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكفيك أن يقال فى وصف الجبان ان أحس بعصفور طار فؤاده وان ظنت بعوضة طال سهاده يفزع من صرير الباب ويقلق من طنين الذباب ان نظرت اليه شزرا أغمى عليه شهرا يحسب خفوق الرياح قعقعة الرماح قال الشاعر

اذا صوت العصفور طار فؤاده * وليث حديد الناب عند الثرائد

وكان حسان بن ثابت رضى الله عنه من الجبناء روى عن ابن الزبير أنه قال كان حسان فى قاع اطم مع النساء يوم الخندق فاتاهم فى ذلك اليوم يهودى يطوف بالحصن فقالت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها يا حسان ان هذا اليهودى كما ترى يطوف بالحصن وانى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من اليهود فانزل اليه فاقتله فقال يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا قال فاعتجرت صفية ثم أخذت عمودا ونزلت من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ورجعت الى الحصن فقالت يا حسان قم اليه فاسلبه

فانه

فانه مامنعنى من سلبه الا انه رجل فقال مالى بسلبه من حاجة * وقيل كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الادب وكان يحبها حبا شديدا فأصابته ضائقة وفاقة فاحتاج الى ثمنها فحملها الى العراق وكان ذلك فى زمن الحجاج بن يوسف فباعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة فقدم عليه فتى من ثقيف من اقاربه فأنزله قريبا منه وأحسن اليه فدخل على الحجاج والجارية تكتبه وكان الفتى جميلا فجعلت الجارية تسارقه النظر فظن الحجاج بها فوهبها له فأخذها وانصرف فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدرى أين هى وبلغ الحجاج ذلك فأمر منادیا أن ينادى برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا ولم يحضرها فلم يلبث أن أتى له بها فقال لها الحجاج ياعدوة الله كنت عندى من أحب الناس الىّ فاخترت لك ابن عمى شابا حسن الوجه ورأيتك تسارقينه النظر فعلمت انك شغفت به فوهبتك له فهربت من ليلتك فقالت ياسيدى اسمع قصتى ثم اصنع بى ماشئت قال هاتى ولا تخفى شيأ قالت كنت للفتى القرشى فاحتاج الى ثمنى فحملنى الى الكوفة فلما قربنا منها دنا منى فوقع على فسمع زئير الاسد فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتى برأسه ثم اقبل على ومابرد ما عنده ثم قضى حاجته وان ابن عمك هذا الذى اخترته لى لما أظلم الليل قام الى فلما علا بطنى وقعت فأرة من السقف فضرط ثم غشى عليه فمكث زمانا طويلا وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق فخفت أن يموت فتتهمنى به فهربت فزعا منك فعاملك الحجاج نفسه من شدة الضحك وقال ويحك اكتمى هذا ولا تعلمى به أحدا فالت على أن لا ترد نى اليه قال لك ذلك * وحدث جار لابى حنيفة النميرى قال كان لابى حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق وكان يسميه لعاب المنية فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه وهو واقف على باب بيته وقد سمع حسا فى داره وهو يقول أيها المغتر بنا المجترئ علينا بئس والله ما اخترت لنفسك خير قليل وسيف صقيل وهو لعاب المنية الذى سمعت به اخرج بالعفو عنك قبل أن ادخل بالعقوبة عليك ثم فتح الباب على وجل فاذا كلب قد خرج فقال الحمد لله الذى مسخك كلبا وكفانا حربا * وخرج المعتصم يوما الى بعض متصيداته فظهر له أسد فقال لرجل من أصحابه اعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه أفيك خير يارجل قال لا فضحك المعتصم وقال قبح الله الجبان * ورأى الاسكندر رسما له لا يزال ينهزم فقال له يارجل اما أن تغير فعلك واما أن تغير اسمك * ووقع فى بعض العساكر ضجة فوثب خراسانى الى دابته ليلجمها فصار اللجام فى الذنب من الدهش وقال يخاطب الفرس هب جبهتك عرضت فنا صيتك كيف طالت * وخرج أسلم بن زرعة الكلابى فى ألفين لمحاربة أبى بلال مرداس وكان مرداس فى أربعين رجلا فانهزم أسلم منه فلاموه على ذلك وذمه ابن أبى زياد فقال لان يذمنى ابن أبى زياد حيا أحب الى من أن يمدحنى ميتا وكان أسلم بعد ذلك اذا خرج الى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك فكبر ذلك عليه فشكاهم الى ابن أبى زياد فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه وفى ذلك يقول بعضهم (شعرا)

يقول جبان القوم فى حال سكره * وقد شرب الصهباء هل من مبارز
وأين الخيول الاعوجيات فى الوغى * أنازل منهم كل ليث مناهز

فى السكر قيس وابن معدى وعامر * وفى الصحو تلقاه كبعض العجائز

وهذا ما انتهى الينا من هذا الباب والحمد لله الكريم الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين والحمد لله رب العالمين

الباب الثانى والاربعون فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

(الفصل الاول فى المدح والثناء) المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها ويكون نعتا جميلا وهذا يصح من المولى فى حق عبده فقد قال الله تعالى فى حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم وقال تعالى قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون الى آخر الآية فعلى هذا يجوز مدح الانسان بما فيه من الاخلاق الحميدة وأما قوله صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب فقد قال العتبى هو المدح الباطل والكذب وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبلغنا انه حثا فى وجه مادح ترابا وقد مدح هو صلى الله عليه وسلم المهاجرين والانصار رضى الله عنهم وفى حثو التراب معنيان أحدهما التغليظ فى الرد عليه والثانى كأنه يقال له يكفيك التراب وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه اذا مدح قال اللهم أنت أعلم بى من نفسى وأنا أعلم بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون واغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون ومدح سارية الديلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سارية الذى أمّره عمر رضى الله عنه على السرية وناداه فى خطبته بقوله يا سارية الجبل فمن مدحه فى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله

فما حملت من ناقة فوق ظهرها * أبرّ وأوفى ذمّة من محمد

وهو اصدق بيت قالته العرب ومن أحسن ما مدحه به حسان رضى الله عنه قوله

واحسن منك لم ترقط عينى * وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرّأ من كل عيب * كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الانصارى رضى الله عنه قوله

لولم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تنبيك بالخبر

ولما حجبت وزرته صلى الله عليه وسلم تطفلت على جنابه المعظم وامتدحته بأبيات مطولة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الصندوق الشريف وأنا مكشوف الرأس وأبكى من جملتها

ياسيد السادات جئتك قاصدا * أرجو رضاك وأحتمى بحماكا
والله يا خير الخلائق ان لى * قلبا مشوقا لا يروم سواكا
ووحق جاهك انى بك مغرم * والله يعلم أننى أهواكا

أنت الذى لولاك ماخلق امرؤ * كلا ولاخلق الورى لولاكا
أنت الذى من نورك البدر اكتسى * والشمس مشرقة بنور بهاكا
أنت الذى لما رفعت الى السما * بك قد سمت وتزينت اسراكا
أنت الذى ناداك ربك مرحبا * ولقد دعاك لقربه وحباكا
أنت الذى فينا سألت شفاعة * ناداك ربك لم تكن لسواكا
أنت الذى لما توسل آدم * من ذنبه بك فاز وهو أباكا
وبك الخليل دعا فعادت ناره * بردا وقد خمدت بنور سناكا
ودعاك أيوب لضرّ مسه * فأزيل عنه الضرّ حين دعاكا
وبك المسيح أتى بشيرا مخبرا * بصفات حسنك ماد حا لعلاكا
وكذاك موسى لم يزل متوسلا * بك فى القيامة مرتجى لندا كا
والانبياء وكل خلق فى الورى * والرسل والأملاك تحت لواكا
لك معجزات أعجزت كل الورى * وفضائل جلت فليس تحاكى
نطق الذراع بسمه لك معلنا * والضب قد لباك حين أتاكا
والذئب جاءك والغزالة قد أتت * بك تستجير وتحتمى بحماكا
وكذا الوحوش أتت اليك وسلمت * وشكا البعير اليك حين رآكا
ودعوت أشجارا أتتك مطيعة * وسعت اليك مجيبة لندا كا
والماء فاض براحتيك وسبحت * صمّ الحصى بالفضل فى يمناكا
وعليك ظللت الغمامة فى الورى * والجذع حنّ الى كريم لقاكا
وكذاك لا أثر لمشيك فى الثرى * والصخر قد غاصت به قدماكا
وشفيت ذا العاهات من امراضه * وملأت كل الارض من جدواكا
ورددت عين قتادة بعد العمى * وابن الحصين شفيته بشفاكا
وكذا حبيب وابن عفرا عندما * جرحا شفيتهما بلمس يداكا
وعلىّ من رمدبه داويته * فى خيبر فشفى بطيب لماكا
وسألت ربك فى ابن جابر بعدما * قدمات احياه وقد أرضاكا
ومسست شاة لام معبد بعدما * نشفت فدرّت من شفار قياكا
ودعوت عام المحل ربك معلنا * فانهلّ قطر السحب عند دعاكا
ودعوت كل الخلق فانقادوا الى * دعواك طوعا سامعين ندا كا
وخفضت دين الكفر يا علم الهدى * ورفعت دينك فاستقام هناكا
اعداك عاندوا فى القليب بجهلهم * صرعى وقد حرموا الرضا بجفاكا
فى يوم بدر قد أتتك ملائك * من عند ربك قاتلت أعدا كا
والفتح جاءك يوم فتحك مكة * والنصر فى الاحزاب قد وافاكا
هود ويونس من بهاك تجملا * وجمال يوسف من ضياء سناكا

قد فقت ياطه جميع الانبيا * نورا فسبحان الذى سواكا
والله ياياسين مثلك لم يكن * فى العالمين وحق من نباكا
عن وصفك الشعراء يامتأثر * عجزوا وكلوا عن صفات علاكا
انجيل عيسى قد أتى بك مخبرا * وأتى الكتاب لنا بمدح حلاكا
ماذا يقول المادحون وماعسى * أن يجمع الكتاب من معناكا
والله لو أن البحار مداد هم * والعشب اقلام جعلن لذاكا
لم تقدر الثقلان تجمع ذرة * ابدا وما استطاعوا له ادراكا
لى فيك قلب مغرم ياسيدى * وحشاشة محشوة بهواكا
فاذا سكت فقيك صمتى كله * واذا نطقت فمادح علياكا
واذا سمعت فعنك قولا طيبا * واذا نظرت فلا أرى الاكا
يامالكى كن شافعى من فاقتى * انى فقير فى الورى لغناكا
ياأكرم الثقلين يا كنز الورى * جد لى بجودك وارضنى برضاكا
انا طامع فى الجود منك ولم يكن * لابن الخطيب من الانام سواكا
فعسائك تشفع فيه عند حسابه * فلقد غدا مستمسكا بعراكا
ولأنت أكرم شافع ومشفع * ومن التجا لجنابك نال وفاكا
فاجعل قراى شفاعة لى فى غد * فعسى أرى فى الحشر تحت لواكا
صلى عليك الله ياخير الورى * ماحن مشتاق الى مثواكا
وعلى صحابتك الكرام جميعهم * والتابعين وكل من والاكا

وماذا عسى أن يقول المادحون فى وصف من مدحه الله تعالى واثنى عليه وقد قال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر والله لو أن البحار مداد والاشجار أقلام وجميع الخلائق كتاب لما استطاعوا أن يجمعوا النزر اليسير من بعض صفاته ولكلوا عن الاتيان ببعض بعض وصف معجزاته صلى الله عليه وسلم * ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له ياهذا انه قد نهى عن مدح الرجل فى وجهه فقال ما مدحتك ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكرا فقال له هشام هذا أحسن من المدح ووصله وأكرمه * وكتب رجل الى عبد الله بن يحيى بن خاقان رأيت نفسى فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر والقمر الزاهر وأيقنت أنى حيث أنتهى من القول منسوب الى العجز مقصر عن الغاية فانصرفت عن الثناء عليك الى الدعاء لك ووكلت الاخبار عنك الى علم الناس بك * وقال الحرث بن ربيعة فى رجل من آل المهلب

فتى دهره شطران فيما ينوبه * ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فلا من بغاة الخير فى عينه قذى * ولا من زئير الحرب فى أذنه وقر

وقال أعرابى لرجل لا يذم بلدا أنت تأوبه ولا يشتكى زمانا أنت فيه * وكان الحجاج يستثقل زياد بن عمرو العكلى فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال يا أمير المؤمنين ان الحجاج سفك الذى لا ينبو وسهمك الذى لا يطيش وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم فلم يكن بعد ذلك

على قلب الحجاج أخف منه وقال رجل لآخر أنت بستان الدنيا فقال له وأنت النهر الذى يسقى منه ذلك البستان وقال رجل لابى عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة فى اللغة أنت والله عين الدنيا فقال له وأنت والله نور تلك العين وقال القاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى

قوم اذا نزل الغريب بدارهم * تركوه رب صواهل وقيان
واذا دعوتهم ليوم كريهة * سدوا شعاع الشمس بالفرسان

وقال أوس فى حاتم الطائى

فان تنكحى ماربة الخير حاتما * فما مثله فينا ولا فى الاعاجم
فتى لا يزال الدهر أكبر همه * فكاك أسير أو معونة غارم

وقال ابن حمدون فى آل المهلب

* آل المهلب معشر أمجاد * ورثوا المكارم والوفاء فسادوا
* شاد المهلب مابنى آباؤه * وأتى بنوه مابناه فشادوا
وكذا الثمن طابت مغارس نبته * وبنى له الآباء والاجداد

وكان الفرزدق هجاء لعمر بن هبيرة فلما سجن ونقب له السجن وسار هو وبنوه تحت الارض قال الفرزدق

ولما رأيت الارض قد ستظهرها * ولم يبق الا بطنها لك مخرجا
دعوت الذى ناداه يونس بعدما * ثوى فى ثلاث مظلمات ففرجا

فقال ابن هبيرة ما رأيت أشرف من الفرزدق هجانى أميرا ومدحنى أسيرا وقال سرى بن عبد الرحمن الرفاء فى خالد بن حاتم

يا واحد العرب الذى دانت له * قحطان قاطبة وساد نزارا
انى لأرجوان لقيتك سالما * أن لا أعالج بعدك الأسفارا

وقال كعب بن مالك الانصارى فى آل هاشم

يا آل هاشم الاله حباكم * مالم يبلغه اللسان المفصل
قوم لأصلهم السيادة كلها * قدما وفرعهم النبى المرسل

وقال الحسين بن دعبل الخزاعى

ملك الامور بجوده وحسامه * شرفا يقود عدوه بزمامه
فأطاع أمر الجود فى أمواله * وأطاع أمر الله فى أحكامه

وقال آخر

يلقى السيوف بصدره وبنحره * ويقيم هامته مقام المغفر
ويقول للطرف اصطبر لسنى القنا * فعقرت ركن المجد ان لم تعقر
واذا تراءى شخص ضيف مقبل * متسربل أثواب محل أقفر
أومى الى الكوماء هذا طارق * نحرتنى الاعداء ان لم تنحرى

وقال شاعر بنى تميم

اذا لبسوا عمائمهم طووها * على كرم وان سفروا أناروا
يبيع ويشترى لهم سواهم * ولكن بالطعان هم تجار
اذا ما كنت جار بنى تميم * فأنت لأكرم الثقلين جار

وقالت امرأة من بنى نمير وقد حضرتها الوفاة وأهلها مجتمعون من ذا الذى يقول

لعمرى ما رماح بنى نمير * بطائشة الصدور ولا قصار

قالوا زياد الاعجم قالت أشهدكم أن له الثلث من مالى وكان مالا كثيرا وأثنى رجل على رجل فقال هو أفصح أهل زمانه اذا حدث وأحسنهم استماعا اذا حدث وأمسكهم عن الملاحاة اذا خولف يعطى صديقه النافلة ولا يسأله الفريضة له نفس عن الفحشاء محصورة وعلى المعالى مقصورة كالذهب الابريز الذى يعز كل أوان والشمس المنيرة التى لا تخفى بكل مكان هو النجم المضىء للحيران والمنهل البارد العذب للعطشان وقال الحسن بن هانئ

اذا نحن أثنينا عليك بصالح * فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى
وان جرت الالفاظ يوما بمدحة * لغيرك انسانا فأنت الذى نعنى

وله فى الفضل بن الربيع

لقد نزلت أبا العباس منزلة * ما ان ترى خلفها الابصار مطرحا
وكلت بالدهر عينا غير غافلة * بجود كفك تاسو كل ما جرحا

وقال زياد الاعجم فى محمد بن القاسم الثقفى

ان المنابر أصبحت مختالة * بمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة * يا قرب سورة سودد من مولد

ومن بدائع مدائح المتنبى قوله

ليت المدائح تستوفى مناقبه * فما كليب وأهل الأعصر الأول
خذ ما تراه ودع شيأ سمعت به * فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
وقد وجدت مكان القول ذا سعة * فان وجدت لسانا قائلا فقل

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء فأعطاه سبعين ألفا وخلع عليه خلعا سنية حتى انه لم يستطع أن يقوم فغار الشعراء منه فجمعهم وقال يالله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض ان أحدكم يأتينا ليمدحنا فيتغزل فى قصيدته بخمسين بيتا فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره وقد تشبب أبو العتاهية بابيات يسيرة ثم قال

انى أمنت من الزمان وصرفه * لما علقت من الامير حبالا
لو يستطيع الناس من اجلاله * جعلوا له حر الوجوه نعالا
ان المطايا تشتكيك لانها * قطعت اليك سباسبا ورمالا
فاذا وردن بنا وردن خفائفا * واذا صدرن بنا صدرن ثقالا

ووفد أبو نواس على الخصيب بعصرة فأذن له وعنده الشعراء فانشد الشعراء أشعارهم فلما فرغوا قال أبو نواس أنشد أيها الامير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا قال أنشد فانشده قصيدته التي منها قوله

اذا ما تزر أرض الخصيب ركابنا * فاي قفى بعد الخصيب تزور
فتى يشترى حسن الثناء بماله * ويعلم أن الدائرات تدور
فما فاته جود ولا ضل دونه * ولكن يسير الجود حيث يسير

فاهتز الخصيب لها طربا وأمر له بالف دينار ووصيف ووصيفة (وحكى) أن أبا دلف سار يوما مع أخيه معقل فرأيا امرأتين يتماشيان فقالت احداهما للأخرى هذا ابو دلف قالت نعم الذى يقول فيه الشاعر

انما الدنيا أبو دلف * بين بادية ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه فقال له معقل مالك يا أخى تبكى فقال لانى لم أقض حق الذى قال هذا قال أولم تعطه مائة الف درهم قال والله ما فى نفسى حسرة الا لكونى لم أعطه مائة ألف دينار ويقال هذه المدحة فأين المنحة قال بعضهم

اذا ما المدح صار بلا نوال * من الممدوح كان هو الهجاء

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش محمد بن نصر صاحب حلب فاجازه بألف دينار ثم مات محمد بن نصر وقام ولده نصر مقامه فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها

تباعدت عنكم حرمة لازهادة * وسرت اليكم حين مسنى الضر
فجاد أبو نصر بألف تصرمت * وانى عليم ان سيخلفها نصر

فلما فرغ من انشادها قال نصر والله لو قال سيضعفها نصر لأضعفتها له وأعطاه الف دينار فى طبق فضة ومدح بعض الشعراء وقيل هو البديع الهمدانى انسانا فقال

يكاد يحكيه صوب الغيث منسكبا * لو كان طلق المحيا يطرد الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت * والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

وقال آخر

أخو كرم يفضى الورى من بساطه * الى روض مجد بالسماح مجود
وكم لجباه الراغبين لديه من * مجال سجود فى مجالس جود

ويقال فلان رفيق الجود ودخيله وزميل الكرم ونزيله وغرة الدهر وتحجيله مواهبه الانواء وصدره الدهناء عونه موقوف على اللهيف وغوثه مبذول للضعيف يطفو جوده على موجوده وهمته على قدرته ينابيع الجود تتفجر من أنامله وربيع السماح يضحك عن فواضله ان طلبت كريما فى جوده مت قبل وجوده أو ماجدا فى أخلاقه مت ولم تلاقه باسل تعود الاقدام حيث تزل الاقدام وشجاع يرى الاحجام عارا

لاتمحوه الايام له خلق لومازج البحر لنفى ملوحته رضى كدورته خلق كنسيم الاسحار على صفحات الانهار أطيب من زمن الورد فى الايام وأبهج من نور البدر فى الظلام خلق يجمع الاهواء المتفرقة على محبته ويؤلف الآراء المتشتتة فى مودته هو ملح الارض اذا فسدت وعمارة الدنيا اذا خربت يحل دقائق الاشكال ويزيل جلائل الاشكال البيان أصغر صفاته والبلاغة عنوان خطراته كأنما أوحى التوفيق الى صدره وحبس الصواب بين طبعه وفكره فهو يعبث بالكلام ويقوده بألين زمام حتى كأن الالفاظ تتحاسد فى التسابق الى خواطره والمعانى تتغاير فى الامتثال لاوامره يوجز فلا يخل ويطنب فلا يمل كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو أيبس ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس فهو اذا أنشا وشى واذا عبر حبر واذا أوجز أعجز تاهت به الايام وباهت فى يمينه الاقلام له أدب لو تصور شخصا لكان بالقلوب مختصا قال الشاعر

له خلق على الايام يصفو * كما تصفو على الزمن العقار

وقال آخر

لو كان يحوى الروض ناضر خلقه * ما كان يذبل نوره بشتاته
أو قابل الافلاك طالع سعده * ما سار نحس فى نجوم سماته

وقال آخر

ووجهك بدر فى الغياهب مشرق * وكفك فى شهب السنين غمام
عجيب لبدر لا يزال أمامه * سحاب ولا يغشاه منه ظلام
وأعجب من هذا غمام اذا سطا * تلظى مكان البرق منه حسام

وقال الحسين بن مطير الاسدى

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس * ويوم نعيم فيه للناس انعم
فيمطر يوم الجود من كفه الندى * ويمطر يوم البؤس من كفه الدم
فلو أن يوم البؤس خلى عقابه * على الناس لم يصبح على الارض مجرم
ولو أن يوم الجود خلى يمينه * على المال لم يصبح على الارض معدم

وللشيخ جمال الدين بن نباتة

والله ما عجبى لقدرك أنه * قدر على باغى مداه بعيد
الا لكونك لست تشكو وحشة * فى هذه الدنيا وأنت وحيد

ولصفى الدين الحلى

أثنى فتثنينى صفاتك معظما * عما وكم أعيت صفاتك خاطبا
لو انى والخلق جمعا ألسن * تثنى عليك لما قضينا الواجبا

وللشيخ برهان الدين القيراطى

أوصافكم تجرى أحاديثها * مجرى النجوم الزهر فى الافق
كأحاديث الندى عنكم * تسندها الركبان من طرق

وللشيخ جمال الدين بن نباتة

روت عنك أخبار المعالى محاسنا * كفت بلسان الحال عن ألسن الحمد
فوجهك عن بشر وكفك عن عطا * وخلقك عن سهل ورأيك عن سعد

وقال غيره

من زار بابك لم تبرح جوارحه * تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة * والقلب عن جابر والسمع عن حسن

ولابى فراس بن حمدان

لئن خلق الانام لحب كاس * ومزمار وطنبور وعود
فلم يخلق بنو حمدان الا * لمجد أو لبأس أو لجود

وقال آخر

ان الهبات التى جاد الكرام بها * مطروقة ويدى كفيك مبتكر
مازات تسبق حتى قال حاسدكم * له طريق الى العلياء مقتصر

ولمحمد بن مناذر فى آل برمك

أتانا بنو الاملاك من آل برمك * فياطيب أخبار وأحسن منظر
لهم رحلة فى كل عام الى العدا * وأخرى الى البيت العتيق المدور
اذا نزلوا بطعامه مكة أشرقت * بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت الاجواد كنههم * وأقدامهم الاالسعى مظفر
اذا رام يحيى الامر ذلت صعابه * وناهيك من راع له ومدبر

ولما عزل ابراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وانشد

ليت شعرى أى قوم أجدبوا * فاغيثوا بك من بعد الجيف
نظر الله لهم منا ومن * وحرمنا لذنب قد سلف
يا أبا اسحق سر فى دعة * وامض معصوبا فامنك خلف
انما انت ربيع باكر * حيثما صرفه الله انصرف

وقال آخر

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا فى شعاع الشمس وارتفعوا * الى السماء فانتم سادة الناس

وللحسين بن مطير الاسدى فى المهدى

لو يعبد الناس يا مهدى أفضلهم * ما كان فى الناس الا انت معبود
أضحت يمينك من جود مصورة * لا بل يمينك منها صور الجود
لو أن من نوره مثقال خردلة * فى السود طرا اذن لابيضت السود

وقال آخر

أوليتنى نعما وفضلا زائدا * وبررتنى حتى رأيتك والدا
أقسمت لو جاز السجود لمنعم * ما كنت الا راكعا لك ساجدا

وقال آخر

ثناؤك فى الدنيا من المسك أعطر * وحظك فى الدنيا جزيل موفر
وكفك بحر والانام أنهر * رعى الله كفا فيه بحر وأنهر
أعيذك بالرحمن من كل حاسد * فلا زالت الحساد تغبى وتصقر
لسانى قصير فى مديحك سيدى * لانى فقير والفقير مقصر

(الفصل الثانى من هذا الباب فى شكر النعمة) أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل وأن لا نعمة على الخلق من أهل السموات والارض الا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك وعن غيرك والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله أى أيقنوا أنها من الله وقيل الشكر معرفة العجز عن الشكر وقد روى أن داود عليه السلام قال الهى كيف أشكرك وشكرى لك نعمة من عندك فأوحى الله تعالى اليه الآن قد شكرتنى وفى هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر ولمحمود الوراق

اذا كان شكرى نعمة الله نعمة * على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله * وان طالت الايام واتصل العمر
اذا مس بالسراء عم سرورها * وان مس بالضراء أعقبها الاجر
فما منهما الا له فيه نعمة * تضيق بها الاوهام والسر والجهر

وفى مناجاة موسى عليه السلام الهى خلقت آدم بيدك ونفخت ونفعت فكيف شكرك فقال علم أن ذلك منى فكانت معرفته بذلك شكره لى * وأما شكر اللسان فقد قال الله تعالى فيه وأما بنعمة ربك فحدث وروى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعم شكر وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه تذكروا النعم فان ذكرها شكر * وأما الشكر الذى على الجوارح فقد قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا الآية فجعل العمل شكرا وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه فقيل له يا رسول الله أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال افلا اكون عبدا شكورا وقال أبو هرون دخلت على أبى حازم فقلت له يرحمك الله ما شكر العينين قال اذا رأيت بهما خيرا ذكرته واذا رأيت بهما شرا سترته قلت فما شكر الاذنين قال اذا سمعت بهما خيرا حفظته واذا سمعت بهما شرا نسيته وفى حكمة ادريس عليه الصلاة والسلام ان يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الانعام على خلقه ليكون صانعا الى الخلق مثل ما صنع الخالق اليه فاذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك فادم مواساة الفقراء وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر فقال

تعالى لئن شكرتم لازيدنكم وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا انه لم يشكر فاذا رأينا الغنى يشكر الله تعالى بلسانه وماله فى نقصان علمنا انه قد أخل بالشكر اما انه لا يزكى ماله أو يزكيه لغير أهله أو يؤخره عن وقته أو يمنع حقا واجبا عليه من كسوة عريان أو اطعام جائع أو شبه ذلك فيدخل فى قول النبى صلى الله عليه وسلم لوصدق السائل ما افلح من ردّه قال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الاحسان وقال بعض الحكماء من أعطى أربعا لم يمنع من أربع من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب وقال المغيرة بن شعبة اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا بقاء للنعم اذا كفرت ولا زوال لها اذا شكرت وكان الحسن يقول ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة الا الى ما هو أعظم منها وروى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه دعى الى أقوام ليأخذهم على ربيئة فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان فاعتق رقبة شكرا لله تعالى اذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم وروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام يا نبى الله أنا على قدرى أشكر لله منك وكان راكبا على فرس ذلول فخر عنه ساجدا لله تعالى ثم قال لولا أنى ابجلك لسألتك أن تنزع منى ما أعطيتنى وقال صدقة بن يسار بينما داود عليه السلام فى محرابه اذ مرت به دودة فتفكر فى خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه فأنطقها الله تعالى له فقالت يا داود تعجبك نفسك وأنا على قدر ما آتانى الله تعالى أذكر الله وأشكره لك على ما آتاك وقال على رضى الله عنه احذروا نفار النعم فما كل شارد مردود وعنه عليه السلام اذا وصلت اليكم أطراف النعم فلا تنفروا اقصاها بقلة الشكر وقيل اذا قصرت يداك عن المكافاة فليطل لسانك بالشكر وقال حكيم الشكر ثلاث منازل ضمير القلب ونشر اللسان ومكافاة اليد قال الشاعر

أفادتكم النعماء منى ثلاثة * يدى ولسانى والضمير المحجبا

وقال ابن عائشة كان يقال ما أنعم الله على عبد نعمة فظلم بها الا كان حقا على الله تعالى أن يزيلها عنه وأنشد أبو العباس بن عمارة فى المعنى

أعارك ما له لتقوم فيه * بواجبه وتقضى بعض حقه

فلم تقصد لطاعته ولكن * قويت على معاصيه برزقه

وقال آخر

ولو أن لى فى كل منبت شعرة * لسانا يطيل الشكر كنت مقصرا

وقال محمد بن حبيب الراوية اذا قل الشكر خسر المنّ وروى اذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان وسئل بعض الحكماء ما أضيع الاشياء قال مطر الجود فى أرض سبخة

لايجف ثراها ولا ينبت مرعاها وسراج يوقد في الشمس وجارية حسناء تزف الى أعمى وصنيعة تسدى الى من لا يشكرها وقال عبد الأعلى بن حماد دخلت على المتوكل فقال يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الامور فقلت يا أمير المؤمنين بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال من لم يشكر المهمة لم يشكر النعمة وأنشدته

لاشكرن لك معروفا هممت به * فان همك بالمعروف معروف
ولا ألومك ان لم يمضه قدر * فالشر بالقدر المحتوم مصروف

وقال ابو فراس بن حمدان

ومانعمة مكفورة قد صنعتها * الى غير ذي شكر تمانعني أخرى
سأتي جميلا ما حييت فانني * اذا لم أفد شكرا افدت به أجرا

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من اعطي الشكر بلغه المزيد وقيل من جعل الحمد خاتمة للنعمة جعل الله فاتحة للمزيد وقال ابن السماك النعمة من الله على عبده مجهولة فاذا فقدت عرفت وقيل من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها وكان يقال اذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة وقال حكيم لا تصطنعوا ثلاثة اللئيم فانه بمنزلة الارض السبخة والفاحش فانه يرى ان الذي صنعت اليه انما هو لمخافة فحشه والاحمق فانه لا يعرف قدر ما أسديت اليه واذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده فقال ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة

أمسلم يا فخر كل خليفة * ويا فارس الدنيا ويا جبل الارض
شكرتك ان الشاكرين على الغنى * وما كل من أوليته نعمة يقضي
وأحييت لي ذكرى وما كان خاملا * ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

وسمعه الرشيد فقال هكذا يكون شعر الاشراف مدح صاحبه ولم يضع نفسه وعن نصر بن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من أنعم على رجل نعمة فلم يشكره فدعا عليه استجيب له ثم قال نصر اللهم اني أنعمت على بني سام فلم يشكروا اللهم اقتلهم فقتلوا كلهم وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المؤمن ليشبع من الطعام فيحمد الله تعالى فيعطيه من الاجر ما يعطى الصائم القائم ان الله شاكر يحب الشاكرين وعن محمد بن علي ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم انها من الله الا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها ولا أذنب عبد ذنبا فعلم أن الله قد اطلع عليه ان شاء غفر له وان شاء آخذه قبل أن يستغفره الا غفر الله له قبل أن يستغفره وأولى رجل رجلا اعرابيا خيرا فقال لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك وأنشد بعضهم وأجاد

سأشكرك لا أني أجازيك منعما * بشكري ولكن كي يزاد لك الشكر

واذكر

وأذكر أياما لذى اصطنعتها * وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر

وقال آخر

أولينني نعما أبوح بشكرها * وكفيتني كل الامور بأسرها
فلأشكرنك ما حييت وان امت * فلتشكرنك اعظمى فى قبرها

وقال آخر

أيارب قد أحسنت عودا وبدأة * الى فلم ينهض باحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة * فعذرى اقرارى بأن ليس لى عذر

وقال محمود الوراق

الهى لك الحمد الذى أنت أهله * على نعم ما كنت قط لها أهلا
ان ازددت تقصيرا تزدنى تفضلا * كانى بالتقصير أستوجب الفضلا

وقد أحسن نصيب فى وصف الثناء والشكر بقوله

فعاجوا واثنوا بالذى أنت أهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وقال رجل من غطفان

الشكر أفضل ما حاولت ملتمسا * به الزيادة عند الله والناس

وقيل اشكر المنعم عليك وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن اخيك المناصحة

(الفصل الثالث من هذا الباب فى المكافأة) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسدى اليكم معروفا فكافئوه فان لم تقدروا فادعوا له والمقدم وفد النجاشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يخدمهم بنفسه فقيل له يارسول الله لو تركتنا كفيناك فقال كانوا لأصحابى مكرمين وقيل أتى رجل من الانصار الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال

اذكر صنيعى اذ فاجاك ذو سفه * يوم السقيفة والصديق مشغول

فقال عمر يا على صوته ادن منى فدنا منه فاخذ بذراعه حتى استشرفه الناس وقال ألا ان هذا رد على سفيها من قومه يوم السقيفة ثم حمله على نجيب وزاد فى عطائه وولاه صدقة قومه وقرأ هل جزاء الاحسان الا الاحسان وقال رجل لسعيد بن العاص وهو أمير الكوفة يدى عندك بيضاء قال وما هى قال كبت بك فرسك فتقدمت اليك قبل غلمانك فاخذت بعضدك وأركبتك وأسقيتك ماء قال فاين كنت الى الآن قال حجبت عن الوصول اليك قال قد أمرنا لك بمائتى ألف درهم وبما يعلكه الحاجب اذ حجبك عنا وقال قطرى بن الفجاءة لخارجى أسره الحجاج ثم من عليه فأطلقه عاود قتال عدوالله فقال هيهات شديدا مطلقها وأرق رقبة معتقها ثم قال

أأقاتل الحجاج عن سلطانه * بيد تقر بانها مولاته

ماذا أقول اذا وقفت ازاءه * في الصف واحتجت له فعلانه
أأقول جار علي لانى اذا * لأحق من جارت عليه ولانه
وتحدث الاقوام ان صنائعا * غرست لدى فحنظلت نخلانه

واجتاز الشافعي رحمه الله تعالى بمصر في سوق الحدادين فسقط سوطه فقام انسان فأخذه ومسحه وناوله اياه فقال للغلامه كم معك قال عشرة دنانير قال ادفعها اليه واعتذر له واستنشد عبد الملك عامر الشعبي فأنشده لغير ماشاعر حتى أنشد لحسان

من سره شرف الحياة فلا يزل * في عصبة من صالحي الانصار
البائعين نفوسهم لنبيهم * بالمشرفي وبالقنا الخطار
الناظرين بأعين محمرة * كالجمر غير كليلة الابصار

فقام أنصاري فقال يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة على الله ستون من الابل كما أعطيناحسان يوم قالها فقال عبد الملك وله عندي ستون ألفا وستون من الابل وعن علي كرم الله وجهه أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم وقال المدائني رأيت رجلا يطوف بين الصفا والمروة على بغلة ثم رأيته ماشيا في سفر فسألته عن ذلك فقال ركبت حيث يمشي الناس فكان حقا على الله أن يرحلني حيث يركب الناس

ومما جاء في المكافاة ما حكي عن الحسن بن سهل قال كنت يوما عند يحيى بن خالد البرمكي وقد خلا في مجلسه لاحكام أمر من امور الرشيد فبينما نحن جلوس اذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياما أحمد بن أبي خالد الاحول فنظر يحيى اليه والتفت الى الفضل ابنه وقال يا بني ان لا يبك مع ابي هذا الفتى حديثا فاذا فرغت من شغلي هذا فذكرني أحدثك به فلما فرغ من شغله وطعم قال له ابنه الفضل أعزك الله يا أبتي أمرتني أن أذكرك حديث أبي خالد الاحول قال نعم يا بني لما قدم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيرا لا يملك شيأ فاشتد بي الامر الى أن قال لي من في منزلي انا قد كتمنا حالنا وزاد مررنا واننا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شيء نقتات به قال فبكيت يا بني لذلك بكاء شديدا وبقيت ولهان حيران مطرقا مفكرا ثم تذكرت منديلا كان عندي فقلت لهم ما حال المنديل فقالوا هو باق عندنا فقلت ادفعوه الي فأخذته ودفعته الى بعض أصحابي وقلت له بعه بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهما فدفعتها الى أهلي وقلت أنفقوها الى أن يرزق الله غيرها ثم بكرت من الغد الى باب أبي خالد وهو يومئذ وزير المهدي فاذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه فخرج عليهم راكبا فلما رآني سلم علي وقال كيف حالك فقلت يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالامس منديلا بسبعة عشر درهما فنظر الي نظرا شديدا وما أجابني جوابا فرجعت الى أهلي كسير القلب وأخبرتهم بما اتفق لي مع ابي خالد فقالوا بئس والله ما فعلت توجهت الى رجل كان يرتضيك لامر جليل فكشفت له سرك وأطلعته على مكنون أمرك فأزريت عنده بنفسك وصغرت

عنده منزلتك بعد أن كنت عنده جليلا فما زال بعد اليوم الا بهذه العين فقلت قد قضى الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه فلما كان من الغد بكرت الى باب الخليفة فلما بلغت الباب استقبلني رجل فقال لي قد ذكرت الساعة بباب امير المؤمنين فلم ألتفت لقوله فاستقبلني آخر فقال لي كمقالة الاول ثم استقبلني حاجب ابي خالد فقال لي أين تكون قد امرني أبو خالد باجلاسك الى أن يخرج من عند أمير المؤمنين فجلست حتى خرج فلما رآني دعاني وأمر لي بمركوب فركبت وسرت معه الى منزله فلما نزل قال علي بفلان وفلان الخياطين فأحضرا فقال لهما ألم تشتريا مني غلات السواد بثمانية عشر الف ألف درهم قالا نعم قال ألم اشترط عليكما شركة رجل معكما قالا بلى قال هو هذا الرجل الذي اشترطت شركته لكما ثم قال لي قم معهما فلما خرجنا قالا لي ادخل معنا بعض المساجد حتى نكاملك في أمر يكون لك فيه الربح الهني فدخلنا مسجدا فقالا لي انك تحتاج في هذا الأمر الى وكلاء وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شيء فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله لك فتنتفع به ويسقط عنك التعب والكلف فقلت لهما وكم تبذلان لي فقالا مائة ألف درهم فقلت لا أفعل فما زالا يزيداني وأنا لا أرضى الى أن قالا لي ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا فقلت حتى أشاور أبا خالد فقالا ذلك لك فرجعت اليه واخبرته فدعا بهما وقال لهما هل وافقتماه على ما ذكر قالا نعم قال اذهبا فأقيضاه المال الساعة ثم قال لي أصلح أمرك وتهيأ فقد قلدتك العمل فأصلحت شأني وقلدني ما وعدني به فما زلت في زيادة حتى صار أمري الى ما صار ثم قال لولده الفضل يا بني فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل وما جزاؤه قال حق لعمري وجب عليك له فقال والله يا ولدي ما أجد له مكافأة غير اني اعزل نفسي وأوليه ففعل ذلك رضي الله عنه وهكذا تكون المكافأة (ومن ذلك ما حكي) عن العباس صاحب شرطة المأمون قال دخلت يوما الى مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رآني قال لي يا عباس قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال خذ هذا اليك فاستوثق منه واحتفظ به وبكر به الي في غد واحترز عليه كل الاحتراز قال العباس فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب الا أن يكون معي في بيتي فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري، ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو فقال أنا من دمشق فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيرا فمن أنت من أهلها قال وعن تسأل قلت أتعرف فلانا قال ومن أين تعرف ذلك الرجل فقلت وقع لي معه قضية فقال ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه فقال ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه وهربت في جملة القوم فبينما أنا هارب في بعض الدروب واذا بجماعة يعدون خلفي فمازلت أعدو أمامهم حتى فتهم فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره فقلت أغثني أغاثك الله قال لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت فقالت زوجته ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما

شعرت والا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك فقال دونكم الدار فتشوها فتشوها حتى لم يبق سوى تلك المتصورة وامرأته فيها فقالوا هو ههنا فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف فقالت المرأة اجلس لا بأس عليك فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال لا تخف قد صرف الله عنك شرهم وصرت الى الامن والدعة ان شاء الله تعالى فقلت له جزاك الله خيرا فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجلها وأفرد لي مكانا في داره ولم يحوجني الى شئ ولم يقترعن تفقد أحوالي فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه الى ان سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها فقلت له أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني فلعلي أقف منهم على خبر فأخذ علي المواثيق بالرجوع اليه فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثرا فرجعت اليه واعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفني ولا يسألني ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني الا بالكنية فقال لي غلام تعزم فقلت قد عزمت على التوجه الى بغداد فقال ان القافلة بعد ثلاثة ايام تخرج وها انا قد اعلمتك فقلت له انك قد تفضلت علي هذه المدة ولك علي عهد الله اني لا أنسى لك هذا الفضل ولا وفينك مهما استطعت قال فدعا غلاما له أسود وقال له أسرج الفرس الفلاني ثم جهز آلة السفر فقلت في نفسي أظن انه يريد أن يخرج الى ضيعة له أو ناحية من النواحي فاقاموا يومهم ذلك في كد وتعب فلما كان يوم خروج القافلة جاءني في السحر وقال لي يا فلان قم فان القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها فقلت في نفسي كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكري به مركوبا ثم قمت فاذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي ثم قدم بغلا فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ودفع الى نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدم الي الفرس الذي كان جهزه وقال أركب وهذا الغلام الاسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران الي من التقصير في أمري وركب معي يشيعني وانصرفت الى بغداد وأنا أتوقع خبره لاني بعهدي له في مجازاته ومكافأته واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ أن أرسل اليه من يكشف خبره فلهذا أنا أسأل عنه فلما سمع الرجل الحديث قال لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك فقلت وكيف ذلك قال أنا ذلك الرجل وانما الضر الذي أنا فيه غير عليك حالي وما كنت تعرفه مني ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الاسباب حتى اثبت معرفته فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ثم قلت له فما الذي اصارك الى ما أرى فقال هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت الي وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت الى أن أشرفت على الموت وقيدت وبعث بي الى أمير المؤمنين وأمرى عنده عظيم وخطبي لديه جسيم وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية وقد تعين من غلماني من ينصرف الى اهلي بخبري وهو نازل عند فلان فان رأيت أن تجعل من مكافأتك لي ان ترسل من يحضره لي

حتى أوصيه بما أريد فان أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقد لى بوفاء عهدك
قال العباس قلت يصنع الله خيرا ثم أحضر حدادا فى الليل فك قيوده وأزال ما كان فيه من
الانكال وأدخله حماما داره وألبسه من الثياب ما احتاج اليه ثم سير من أحضر اليه غلامه
فلما رآه جعل يبكى ويوصيه فاستدعى العباس نائبه وقال على بالفرس الفلانى والفرس
الفلانى والبغل الفلانى والبغلة الفلانية حتى عدد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن
الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا قال ذلك الرجل وأحضر لى بدرة عشرة آلاف
درهم وكيسا فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه فى الشرطة خذ هذا الرجل وشيعه الى
حد الانبار فقلت له ان ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم وخطبى جسيم وان أنت احتجبت بأنى
هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابه فارتد وأقتل فقال لى انج بنفسك ودعنى
أدبر أمرى فقلت والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك فان احتجبت الى
حضورى حضرت فقال لصاحب الشرطة ان كان الامر على ما يقول فليكن فى موضع كذا
فان أنا سلمت فى غداة غد أعلمته وان أنا قتلت فقد وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه وأنشدك
الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجتهد فى اخراجه من بغداد قال الرجل فاخذنى صاحب
الشرطة وصيرنى فى مكان أثق به وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهزله كفنا قال
العباس فلم أفرغ من صلاة الصبح الا ورسل المأمون فى طلبى يقولون يقول لك أمير المؤمنين
هات الرجل معك وقم قال فتوجهت الى دار أمير المؤمنين فاذا هو جالس وعليه ثيابه وهو
ينتظرنا فقال أين الرجل فسكت فقال ويحك أين الرجل فقلت يا أمير المؤمنين اسمع منى
فقال لله على عهد لئن ذكرت انه هرب لأضربن عنقك فقلت لا والله يا أمير المؤمنين
ما هرب ولكن اسمع حديثى وحديثه ثم شأنك وما تريد أن تفعله فى أمرى قال قل فقلت
يا أمير المؤمنين كان من حديثى معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته انى
أريد أن أفى له وأكافئه على ما فعله معى وقلت أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين
اما أن يصفح عنى فأكون قد وفيت وكافأت واما أن يقتلنى فأقيه بنفسى وقد تحنطت وها
كفنى يا أمير المؤمنين فلما سمع المأمون الحديث قال ويلك لأجزالك الله عن نفسك خيرا
انه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير هلا عرفتنى خبره
فكان مكافئته عندى ولا تقصر فى وفائك له فقلت يا أمير المؤمنين انه هو نا قد حلف أن لا يبرح
حتى يعرف سلامتى فان احتجبت الى حضوره حضر فقال المأمون وهذه منة أعظم من
الاولى اذهب الآن اليه فطيب نفسه وسكن روعه وائتنى به حتى أتولى مكافأته قال
العباس فاتيت اليه وقلت له لتزل خوفك ان أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال الحمد لله
الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا فلما مثل بين
يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه
وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى فأمر له المأمون بعشرة أفراس
بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشر بدر وعشرة آلاف دينار وعشرة مماليك
يدوابهم وكتب الى عامله بدمشق بالوصية به واطلاق خراجه وأمره بمكاتبته باحوال

دمشق فصارت كتبه تصل الى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي ياعباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم * ومن عجائب هذا الاسلوب وغرائبه ما أورده محمد بن القاسم الانباري رحمه الله تعالى أن سوارا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال انصرفت يوما من دار الخليفة المهدي فلما دخلت منزلي دعوت بالطعام فلم تقبله نفسي فأمرت به فرفع ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسي فدخل وقت القائلة فلم يأخذني النوم فنهضت وأمرت ببغلة لي فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت من المنزل استقبلني كيل لي ومعه مال فقلت ماهذا فقال ألفا درهم جبيتها من مستغلاتك الجديد قلت أمسكها معك واتبعني فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت في شارع دار الرقيق حتى انتهيت الى الصحراء ثم رجعت الى باب الانبار وانتهيت الى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فعطشت فقلت للخادم أعندك ماء تسقينيه قال نعم ثم دخل وأحضر قلة قطيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولني فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على الباب فصليت فيه فلما قضيت صلاتي اذا أنا بأعمى يلتمس فقلت ماتريد باهذا قال اياك أريد قلت فما حاجتك فجاء حتى جلس الى جانبي وقال شممت منك رائحة طيبة فظننت انك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشيء فقلت قل قال ألا ترى الى باب هذا القصر قلت نعم قال هذا قصر كان لابي فباعه وخرج الى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التي كنا فيها وعميت فقدمت هذه المدينة فاتيت صاحب هذه الدار لاسأله شيأ يصلني به وأتوصل الى سوار فانه كان صديقا لابي فقلت ومن أبوك قال فلان ابن فلان فعرفته فاذا هو كان من أصدق الناس الي فقلت له ياهذا ان الله تعالى قد أتاك بسوار منعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها اليه وقلت له اذا كان الغد فسر الى منزلي ثم مضيت وقلت ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أطرف من هذا فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لي فاعجبه ذلك وامر لي بالفي دينار فأحضرت فقال ادفعها الى الاعمى فنهضت لاقوم فقال اجلس فجلست فقال أعليك دين قلت نعم قال كم دينك قلت خمسون ألفا فحادثني ساعة وقال امض الى منزلك فمضيت الى منزلي فاذا بخادم معه خمسون الفا وقال يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك قال فقبضت منه ذلك فلما كان من الغد أبطأ على الاعمى وأتاني رسول المهدي يدعوني فجئته فقال قد فكرت البارحة في أمرك فقلت يقضي دينه ثم يحتاج الى القرض أيضا وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى قال فقبضتها وانصرفت فجاءني الاعمى فدفعت اليه الالفي دينار وقلت له قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على احسان أبيك وكافاني على اسداء المعروف اليك ثم أعطيته شيأ آخر من مالي فاخذه وانصرف والله سبحانه وتعالى أعلم

(ومما هو أوضح حسنا وأرجح معنى) ماحكاه القاضي يحيى بن أكثم رحمة الله عليه قال

دخلت يوما على الخليفة هرون الرشيد ولد المهدى وهو مطرق مفكر فقال لى أتعرف قائل هذا البيت

الخير أبقى وان طال الزمان به * والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت يا أمير المؤمنين ان لهذا البيت شأنا مع عبيد بن الابرص فقال على بعبيد فلما حضر بين يديه قال له أخبرنى عن قصة هذا البيت فقال يا أمير المؤمنين كنت فى بعض السنين حاجا فلما توسطت البادية فى يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة فى القافلة ألحقت أولها بآخرها فسألت عن القصة فقال لى رجل من القوم تقدم ترما بالناس فتقدمت الى أول القافلة فاذا أنا بشجاع أسود قد اغرفاه كالجذع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرغاء البعير فهالنى أمره وبقيت لا أهتدى الى ما أصنع فى أمره فعدلنا عن طريقه الى ناحية أخرى فعارضنا ثانيا فعلمت انه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه فقلت أفدى هذا العالم بنفسى وأتقرب الى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللت سيفى وتقدمت فلما رآنى قربت منه سكن وبقيت متوقعا منه وثبة يثبنى فيها فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة فى فيه وصببت الماء كما يصب فى الاناء فلما فرغت القربة تسبب فى الرسل ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه ومضينا لحالنا ثم عدنا فى طريقنا ذلك وحططنا فى منزلتنا تلك فى ليلة مظلمة مدلهمة فأخذت شيأ من الماء وعدلت الى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتى ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتنى عينى فنمت مكانى فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسا وقد ارتحلوا وبقيت منفردا لم أر أحدا ولم أهتد الى ما أفعله وأخذتنى حيرة وجعلت أضطرب واذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول

يا أيها الشخص المضل مركبه * ما عنده من ذى رشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبه * وبكرك الميمون حقا تجنبه
حتى اذا ما الليل زال غيهبه * عند الصباح فى الفلا تسيبه

فنظرت فاذا أنا ببكر قائم عندى وبكرى الى جانبى فأنخته وركبته وجئت ببكرى فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة وانفجر الفجر ووقف البكر فعلمت انه قد حان نزولى فتحولت الى بكرى وقلت

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب * ومن هموم تضل المدلج الهادى
الا تخبرنى بالله خالقنا * من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى
وارجع حميدا فقد أبلغتنا منا * بوركت من ذى سنام رائح غادى

فالتفت البكر الى وهو يقول

أنا الشجاع الذى ألفيتنى رمضا * والله يكشف ضر الحائر الصادى
جئت بالماء لما ضن حامله * تكرما منك لم تمنن بأنكاد
فالخير أبقى وان طال الزمان به * والشر أخبث ما أوعيت من زاد

هذا جزاؤك مني لا أمن به * فاذهب حميدا رعاك الخالق الهادي

فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والابيات فكتبت عنه وقال لا يضيع المعروف أين وضع * والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب

تم الجزء الاول ويليه الثاني اوله الباب الثالث والاربعون